لجنة التأليف والترجمة والنشر



ضحى الإسلام

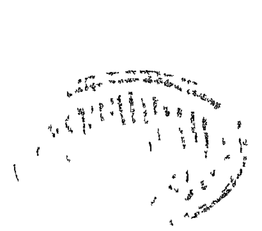
كتاب على طراز « فجر الإسلام » يبحث جزؤه هذا فى الحياة الاجتماعية
والثقافات المختلفة فى العصر العباسى الأول



تأليف

أحمد أمين

بكلية الآداب بالجامعة المصرية



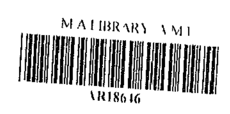


الجزء الأول

« الطبعة الثانية »

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الخضرى

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م


M A LIBRARY AMU
AR18646







الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلى . أما الفكرة فاذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل فى ايجادها ، وما العناصر التى غذتها ، وما الطوارئ التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، وبلغ منك فى استخراجه الجهد . لأن الفكرة أول أمرها لامظهر لها نستدل به عليها ، وقد تتكون من عناصر قد لاتخطر ببال ، ويعمل فى تغييرها وتعديلها عوامل فى منتهى الغموض . والمذاهب الدينية قد يكون الباعث عليها غير ماظهر من تعاليمها ؛ قد يكون الباعث عليها سياسياً ، وهى فى مظهرها الخارجى مجردة من كل سياسة ، وقد يكون الباعث لها افساد الدين فتتشكل بشكل المتحمس للدين ، وقد يكون المذهب صالحاً كل الصلاح ولكن يحكيه أعداؤه فيشوهونه ويلغون فيه فيفسدونه ، فيقف الباحث حائراً ضالا ، يتطلب بصيصاً من نور يهديه ، أو أثراً فى الطريق سلكه من قبله فيحتذيه .

وفوق هذا ، فالأفكار متنوعة ، والآراء متعددة ، وقضايا كل عصر تخالف ما قبلها ، ويراها الباحث فيظنها أول وهلة جديدة لم ترتبط بما قبلها برباط ، ولم تتصل به أية صلة ، فيُعمِل فكره فيما عسى أن يكون بينهما من قرابة أو نسب ، وما قد يصل بينهما من سبب .

فني سبيل الله مايلاقى مؤرخ الفكر من عناء لا يتناسب وما يحصله من نتاج !

***

سرت فى « ضحى الاسلام » سيرى فى « فجر الاسلام » رائدى الصدق والاخلاص للحق ، فان أصبت فحمداً لله على توفيقه ، وان أخطأت فالحق أردت ، ولكل امرىء مانوى .

عنيت بضحى الاسلام المائة السنة الأولى للعصر العباسى (١٣٢—٢٣٢) ه أعنى الى خلافة الواثق بالله ، فهو عصر له لون علمى خاص ، كما أن له لونا فى السياسة والأدب خاصاً ، امتاز بغلبة العنصر الفارسى ، وبحرية الفكر الى حد ما ، وبدولة المعتزلة وسلطانهم ، وبتلوين الأدب من شعر ونثر لوناً احتذى على كر الدهور ، واختلاف العصور . كما امتاز بتحويل ما باللسان العربى الى قيد فى الدفاتر وتسجيل فى الكتب ، وما باللسان الأجنبى الى لغة العرب . وهو فى كل هذا يخالف العصور قبله والعصور بعده . مخالفة تجعله حلقة قائمة بنفسها ، يصح أن تسمى ، وأن تدرس ، وأن تميز . على أنى أحياناً يدعونى ايضاح الفكرة الى أن أربطها بما كان منها فى العصر الذى قبله ، كما قد يدعونى تسلسلها الى أن أتجاوزه الى العصر الذى بعده .

وقد رتبته أبواباً أربعة :

الباب الأول فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ، واجتزأت منها بما له أثر قوى فى العلم والفن .

والباب الثانى فى الثقافات المختلفة دينية وغير دينية .

والباب الثالث فى الحركات العلمية ، ومعاهد العلم ، وحرية الفكر ، ومزايا البلدان فى تلك الحركات .

والباب الرابع فى المذاهب الدينيـــة ، وتاريخ حياتها ، وأشهر رجالها ، وأهم أحداثها .

وكنت أحزر أن يكون حجمه حجم « فجر الاسلام » . فلما شرعت فى تأليفه اتسع عليَّ موضوعه ، وغمرتنى مناحيه ، وواجهتُ مسائلَ لم تكن خطرت لى ، فتركت البحث على سجيته ، والقول على طبيعته ، فاذا هو ضعف فجر الاسلام أو يزيد ، فاضطررت أن أجعله جزءين ، فى كل قسم بابان .

وأتقدم الى القراء اليوم بقسمه الأول ، راجياً ألا يفرغوا من قراءته حتى أقدم اليهم قسمه الثانى .

على أنى لم أقل فى كل موضوع الا كلمته الأولى ، ولم أنظر اليه الا نظرة الطائر ، ولو حاولت أن أستوفى الكلام فى كل فصل لكان من كل فصل كتاب . فان نجحت فى اثارة الباحثين لنقده ، وتصحيح خطئه ، وتوسيع مباحثه ، فذلك حسبى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟ .

احمد أمين

٢٣ رمضان سنة ١٣٥١
١٩ ينـاير سنة ١٩٣٣

مقدمة الكتاب

للدكتور طه حسين

أراد ناقد من نقاد المشتغلين أن يثنى على قصة راقته، وملكت عليه إعجابه، وكان صاحب القصة له صديقاً حميماً، فتوقع أن يلام فى الثناء عليه، ولكنه لم يتحرج من إهداء هذا الثناء إلى صديقه فى غير تردد ولا تحفظ وأعلن فى صراحة - أعجبنى - أن من خيانة الأصدقاء أن تتخذ صداقتهم وسيلة إلى جحود ما لهم من حق، وإخفاء ما لهم من فضل، وتحاملهم هذه المجاملة السلبية التى تدفعك إلى أن تتردد وتتحفظ، وتقدم إليهم ثناء متقعاً ساحباً، حتى لا تتهم بالإغراق، ولا توصف بالمحاباة وحتى لا تسوء ظن قرائك بنصيبك من الإنصاف، وحظك من الاستقلال

رأى ذلك الناقد « وأنا أرى معه » أن هذا النحو من معاملة الأصدقاء خيانة منكرة، وظلم قبيح وأنه فى الوقت نفسه نوع من اتهام النفس، والإسراف فى سوء الظن بها فليس ينبغى للناقد أن يُصْدِرَ - فيما يرى من رأى - عما يقول الناس فيه أو ما يمكن أن يقولوا فيه، وإنما هو مدين لنفسه ولقرائه بما يعتقد أنه الحق الخالص، سواء أرضى الناس أم سخطوا، وسواء أوافق رأيه هوى القراء، أم انحرف عنه

وعلى هذا النحو من الاستعداد عمدت دائماً إلى النقد، واجتهدت ما استطعت ألا أظلم الصديق لصداقته، ولا الخصم لخصومته، وليس الظلم مقصوراً على أن تغض من العمل الأدبى أو العلمى، أو تنقص من قيمته لأن

صاحبه صديق لك، أو حرب عليك. بل هناك ظلم أقبح من هذا وأشنع، وهو أن تثني على من لا يستحق الثناء، أو تغلو في حمد من لا يستحق الحمد إلا بمقدار، وأن تحمد الخصم لأنه خصم، ولأنك تكره أن يقول الناس فيك خاصمه فعجز عن إنصافه وتحامل عليه

ولست أريد أن أخون صديقي «أحمد أمين» بالإسراف في الثناء عليه، ولا أن أخونه بالغض منه والتقصير في ذاته، وإنما أريد أن أنسى صداقته، وأهمل — ولو لحظة قصيرة — ما بيني وبينه من مودة كلها صفو وإخاء استطعنا أن نجعله فوق ما يتنافس الناس فيه من المنافع وأعراض الحياة، إنما أريد أن أنصفه. وأشهد لقد فكرت وقدرت، وجهدت نفسي في أن أجد شيئاً من العيب ذي الخطر أصف به هذا الكتاب الذي أقدمه إلى القراء فلم أجد، ولم أوفق من ذلك إلى قليل ولا كثير

وليس ذنبي أن «أحمد أمين» قد قصد إلى عمله في جد وأناة وصدق، وقدرة غريبة على احتمال المشقة والعناء، والتجرد من العواطف الخاصة. والأهواء التي تعبث بالنفوس، فوفق من ذلك إلى أعظم حظ يستطيع العالم أن يظفر به في هذه الحياة

نعم، وليس من ذنبي أن «أحمد أمين» قد استقصى فأحسن الاستقصاء، وقرأ فأجاد القراءة، وفهم فأتقن الفهم، واستنبط فوفق إلى الصواب. ليس من ذنبي هذا ولا ذاك، وليس من ذنبي أن «أحمد أمين» بعد هذا كله، وبفضل هذا كله، قد فتح في درس الأدب العربي باباً وقف العلماء والأدباء أمامه — طوال هذا العصر الحديث — يدنون منه ثم يرتدُّون عنه، أو يطرقونه فلا يُفتَح لهم، ووفق هو إلى أن يفتحه على مصراعيه، ويظهر الناس على ما وراءه من حقائق ناصعة. يبتهج لها عمل الباحث والعالم والأديب، ليس شيء من هذا ذنبي أنا! وإذا لم يكن بد من أن ألام أحد لأن عالماً مصرياً قد

وفق الى هذا الفوز المبين ، وأهدى الى اللغة العربية كتابا لم يُسبق الى مثله ؛ فليَنْعَمْ هذا العالم المصرى نفسه ، ولنغتبط «أحمد أمين» لأنه قد ظفر بهذا الفوز

لقد اختار «أحمد أمين» لكتابه عنوانه هذا «ضحى الاسلام» وهو لا يقدر إلا أن الضحى يأتى بعد الفجر ، وأنه وقد أظهر «فجر الاسلام» يجب أن يغمس فى ضحاه . أما أنا . فكنت أفهم معه هذا الفهم ، وأذهب معه هذا المذهب ، ولكنى لم أكد أبدأ معه قراءة الكتاب حتى أخذت أحس شيئاً لم أرد أن أتحدث به اليه ، مخافة أن يكذب ظنى مضينا فى قراءة الكتاب ، ولكنا مضينا ، ومضينا حتى أتممنا هذا الجزء الذى نقدمه الى القراء فاذا هذا الشىء الذى كنت أحسه يزداد وضوحاً وجمالا وقوة واذا ظنى يصدق شيئاً فشيئاً حتى يصبح يقينا ، واذا أنا مؤمن إيمانا لا تشوبه الشك بأن هذا الكتاب الذى أنا سعيد بتقديمه الى القراء يُلقى على تاريخ الاسلام فى العصر العباسى الاول نورا رائعاً وضاءاً هو أشبه شىء بنور الضحى

فالكتاب «ضحى الاسلام» لأنه يدرس تاريخ الحياة العقلية للمسلمين فى القرن الثانى للهجرة ، وهو «ضحى الاسلام» لأنه قد جلى هذه الحياة وأظهرها للناس كأوضح ما يمكن أن تكون ، وكأجمل وأبهى ما يمكن أن تكون ، ولست أدرى أيهما أهنىء بهذا الفوز «أحمد أمين» لأنه قد جد وألح ومضى فى الجد والالحاح ، حتى انتهى الى هذا التوفيق ، أم الجامعة المصرية لأنها قد انتدبت الى «أحمد امين» ووكلت اليه ما وكلت من أنواع الدرس وفنون البحث ، ولعل الخير كل الخير فى أن أصرف هذه التهنئة عن «أحمد أمين» وعن الجامعة الى الذين يقرءون اللغة العربية ، ويعنيهم أن يؤرخوا آدابها ، ويستكشفوا ما استتبت عليه من الكنوز التى كانت مجهولة الى الآن ، هؤلاء أحق بالتهنئة لانهم سيستثمرون منذ اليوم الى أغراضهم فى

طريق واضحة سهلة معبدة ، يغمرها نور الضحى

لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل ، غامضة مضطربة يتحدث عنها مؤرخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق ، ويقولون فيها بالظن لا باليقين . ذلك عصر قد انقضى وألقى بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب ستار صفيق ، ألقاه « احمد أمين » وأصبح الذين يقصدون الى تاريخ الأدب قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا ، ويسيروا في بحثهم على بصيرة وهدى .

ما أكثر ما كنا نضيق صدراً بهذه الرموز الغامضة التي كان يلجأ اليها مؤرخو الآداب حين كانوا يذكرون تطور الحياة الاسلامية أيام بني العباس - بفضل الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم ، وبفضل اتصال العقل العربي بالعقول الأجنبية ، وبفضل الترجمة والمترجمين ، والتأليف والمؤلفين كانت هذه الألفاظ كلها رموزاً الى الآن تدل على أشياء كثيرة ، ولكنها لا تدل على شيء تُصَوِّرُ أمام الباحثين صوراً مختلطة مضطربة لا تحصى ولا تستقر ، فهي دائمة أبداً ، حائرة أبداً ، غامضة أبداً نسعى اليها ، ولا نظفر بها أو يصرفنا عنها الكسل العقلي الذي هو آفة حياتنا الأدبية في هذا العصر

أما الآن فقد ضبطت هذه الصور أحسن ضبط ، وجليت أحسن تجلية ، وأصبحنا اذا ذكرنا تطور الأمة العربية أو الأمم الاسلامية في القرن الثاني للهجرة نعرف بل نحس حقيقة هذا التطور ومصدره ، والآماد التي انتهى اليها ، وأصبحنا اذا ذكرنا الحياة الاجتماعية للمسلمين في هذا العصر لا نقول كلاماً مبهماً وإنما نقول كلاماً يدل على ما يراد به أحسن دلالة وأجلاها ، يدل على طبيعة هذه الحياة وما تقوم عليه من اتصال بين الافراد والجماعات ، على اختلاف الأجناس والبيئات والأمزجة ، يدل على طبيعة الزواج الذي كان يكون بين هؤلاء الناس فيخلط دماءهم خلطاً ، أو قل يمزجها مزجاً ،

يدل على طبيعة الرق الذي محا الشخصيات الفردية والاجتماعية لكثير من الأفراد والأمم ، وصهرها كلها في مرجل واحد هو الدولة الاسلامية ، فكوّن منها شخصية جديدة كل الجدة ، طريفة كل الطرافة ، هي شخصية الأمة الاسلامية

نعم ، ويدل على هذه الطبقات التي كان يتألف منها الجسم الاجتماعي للأمة الاسلامية ، والتي كانت تقسم فيما بينها الأعمال الكثيرة المختلفة ، التي يحتاج اليها هذا الجسم لا ليحيا فحسب بل ليرقه هذه الحياة ويرفها ، ويأخذ منها بأعظم حظ ممكن من الترف المادي والعقلي والشعوري جميعاً

وإذا ذكرنا الثقافة اليونانية ، فإن نفهم منها منذ اليوم هذا المعنى المبهم الذي يرمز اليه بالفلسفة أحياناً ولكنا سنعرف بالضبط مقدار ما أخذ العرب عن اليونان ، وكيف أخذوه ومن أين أخذوه ، وكيف أساغوه أولا ، ثم تمثلوه بعد ذلك ؟ وقل مثل هذا في الثقافة الهندية والفارسية . أستغفر الله بل خيراً من هذا ، قل أكثر جداً من هذا ، فما أعلم أن باحثاً عن تاريخ الأدب العربي وفق إلى تحقيق الصلة بين العرب والهند ، أو بين العرب والفرس إلى مثل ما وُفق اليه « أحمد أمين »

وهو — بعد هذا كله — أول من بسط هذا في اللغة العربية بسطاً يطمئن اليه الباحث الذي يسلك إلى بحثه طريق الجد والصدق ، لا طريق العبث والتضليل

وإذا ذكرنا الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية ، فإن نفهم منهما منذ اليوم ما كنا نفهمه من قبل ، من أن اتصال المسلمين باليهود والنصارى قد أحدث بين أولئك وهؤلاء ضروباً من التأثير العقلي العام

ولكنا سنعرف طبيعة هذا التأثير ومقداره ومصدره ، ثم سنضع أيدينا على مظاهر هذه الحياة الجديدة ، فيما أنتج المسلمون من أدب وعلم وفن

أستطيع أن أقول إن « أحمد أمين » حين انتدب لتأليف هذا

الكتاب قد اتخذ لأمة المحارب، ووضع أمام عينيه غرضاً أقسم ليبلغنه، أو ليعجزن عن إظهار الكتاب. وهذا الغرض هو تخليص الحياة العقلية الإسلامية في القرن الثاني من الغموض والإبهام، وما زال بهذا الغموض والإبهام حتى أجلاهما عن موقفهما، وانتزع منهما حياة المسلمين العقلية إلى منتصف القرن الثالث للهجرة. وكان يزورني كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائعة من الغنائم التي كان يكسبها في هذه الحرب الشاقة المتصلة، وآية سعادته بالظفر، واغتباطه بالفوز.

ولست أحب أن يضطرني أحمد في هذا الكلام إلى ضروب المجاز وألوان التمثيل لأزين القول وأنمقه، ولكني أحب أن تستيقن أني إنما أقول الحق خالصاً من كل زينة، بريئاً من كل تنميق. فقد كان تأليف هذا الكتاب حرباً متصلة طويلة مملة بين المؤلف وبين الغموض والإبهام. وكان المؤلف كلما تقدم خطوة وقف ينظم انتصاره، ويصوغ ثمراته هذه الصيغة الجميلة التي ستراها في فصول هذا الكتاب، ويتأهب في الوقت نفسه لهجمة أخرى يكسب بها موقعة أخرى، وينتصر بها انتصاراً جديداً.

ومع أن المؤلف قد أنفق جهداً وأبى أن يحمّلك مشاركته فيما كان يحمل من عناء، ويلقى من مشقة، ويذوق من مرارة الصبر والمصابرة، ومطاولة المسائل المعضلة التي كانت تعرض له؛ فأنت واجد أثر هذا كله في فصول الكتاب، حين ترى المؤلف يسير في أناة تشبه البطء، ويعرض عليك جزئيات ضئيلة، تشبه أن تكون إغراقاً في التفصيل، وميلاً للجاحظ في حب الاستطراد، ولكن اثبت لهذا البطء، واصبر لهذا التفصيل، وامض مع الكاتب في رفق وأناة، فسترى أن نتيجة هذا الثبات والصبر والرفق أقوم جداً مما كنت تظن، وأنفس جداً مما كنت تنتظر، وأن الكاتب لم يتورط فيها تورطاً، وإنما قصد إليها قصداً، وتعمدها تعمداً؛ لأنه لم يكن

يستطيع أن يعدل عنها حتى يضحى بالأمانة العلمية والتحقيق الذى يفرضه البحث الحديث فرضاً على العلماء.

ولا تخَفْ من هذا البطء، ولا تشفق من هذه المطاولة، فلن يعترضك ملل، ولن يملّ من جدك سأم، ولن تضيق بالكتاب لحظة، فقد عرف الكاتب كيف يهوّن عليك طول الطريق إلى غايتك، وكيف يبث أمامك فى هذه الطريق من الزهر ما يستهوى عينك، وكيف ينشر حولك فى هذه الطريق من الأصداء الحلوة ما يخلب أذنك. وأنا زعيم بأنك ستحتاج إلى أن تعيد قراءة بعض الصحف وبعض الفصول، وسترى أن الكاتب على إبطائه وأناته مسرع مسرف فى السرعة بعض الأحيان.

أشهد لقد وفق «أحمد أمين» فى هذا الكتاب إلى الإجادة العلمية والفنية معاً: استكشف الحياة العقلية الإسلامية استكشافاً لم يُسبَق إليه، ثم عرضها عرضاً هو أبعد شىء عن جفاء العلم وجفوته، وأدنى شىء إلى جمال الفن وعذوبته.

فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب، ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر حين ينتهى إلى فوز لا تشوبه شائبة. ولكن هذه الحياة الجادة الخصبة المنتجة — فى تواضع ولين جانب — التى يحياها «أحمد أمين» درساً نافعاً، ومثلاً صالحاً للذين يريدون أن يحيوا فى مصر حياة العلماء.

طه حسين

فهرس الكتاب

الباب الأول — الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الأول

الباب الأول

الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الاول

مقدمة

يصوّر بعض المؤرخين الحالة — وقد سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية — تصويراً يخيل إليك معه: أن هناك حدوداً فاصلة بين الدولتين، وأن صفحة للتاريخ قد ختمت بانتهاء الدولة الأموية، وأن صفحة أخرى بدئت بقيام الدولة العباسية وأن ليس هناك كبير علاقة بين الأمة الإسلامية فى عهدها الأول، والأمة فى عهدها الثانى. وهذا التصوير أبعد ما يكون عن الصحة! وعلى الأخص من الناحيتين الاجتماعية، والعقلية

وقد حدث حوادث فى صدر الإسلام وفى عهد الدولة الأموية — أخذت تعمل عملها بعد وجودها، واستمر تأثيرها مع سقوط الأمويين، وقيام العباسيين. خذ لذلك مثلاً تعاليم الإسلام فقد ظلت تعمل وتنتشر، مؤثرة فى البلاد المفتوحة ومتأثرة بها وكذلك الشأن فى انتشار لغة العرب فلم

يكن قيام الدولة العباسية ، صفحة جديدة لهذين العاملين ، وإنما كانت مَهْداً لامتدادهما — ومن أوضح المثل على ذلك عملية الامتزاج بين الأمم الفاتحة والمفتوحة فقد بدأت من عهد عمر بن الخطاب ، ووقفت وقفة صغيرة لِمَا أصاب الأمم المغلوبة من الدهش ، ثم بدأت تخضع للنظم الاجتماعية ، من تزاوج ، ودخول في الإسلام ، وتعلم للعربية ثم ظهور جيل جديد يحمل الدم العربي والأجنبي معاً ، بل يحمل مع ذلك خصائص الأمم المختلفة التي يتكون منها دمه سواء كانت خصائص جسمية ، أو عقلية ، أو خُلقية ، أو روحية . وأخذ هذا الجيل في الظهور في عهد الدولة الأموية ، وظل ينمو ويتضاعف في الدولة العباسية — وكان من نتائج هذا الامتزاج أن كل جنس بدأ يتعلم من الأجناس الأخرى ما يشعر بأنها آخذة منه بحظ أوفر . فالعربي يأخذ من الفرس والرومان حضارتهم ، والفرس تأخذ من العرب الدين ، واللغة ، وهكذا وهذه العمليات ظلت سائرة في العهد العباسي ، كما كانت سائرة في العهد الأموي

بل أستطيع أن أقول : إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر في الحكم الزمن الذي حكمته الدولة العباسية لظهر على يدها من الحركات العلمية والإصلاحات الاجتماعية ، قريب مما ظهر على يد العباسيين ودليلنا على ما نقول

(١) أن الدولة الأموية نفسها وهي هي كانت الحركة العلمية ، والمذاهب الدينية ، والنظم الاجتماعية ، في آخرها أرقى منها في أولها فانتظمت تعاليم الخوارج ، ونشأ الاعتزال ، واعتنقه بعض الخلفاء الأمويين ، ونظمت حلقات الدروس في المساجد ، وأخذ العلماء يبحثون مسائل في القدر ، وغير القدر وناقشوا مع اليهود والنصارى وبدأت نواة التأليف ، والترجمة ، وظهرت الكتابة الفنية — إلى كثير من أمثال ذلك — ولو كان اتساع الحركة

العلمية من عمل العباسيين وحدهم لكان آخر الدولة الأموية يشبه أولها .

(٢) أن الأمويين أنفسهم لمّا انتقلوا إلى الأندلس ، وكوّنوا فيها مملكة عاصرت العصر العباسيّ الأولَ ، لم يكن تشجيعُهم للعلم وحركة الترجمة والتأليف أقلّ كثيراً من عمل العباسيين وكذلك مدنيّتُهم وحضارتُهم وأكبر فرق بينهما : نشأ مما أحاط بالعباسيين من مدنيات العراق القديمة ، والفرس ، واليونان ، وما أحاط بالأمويين بالاندلس ، من مدنية لاتينية فأما الميل إلى التوسع في الحضارة ، ومنها العلم ، والأخذ بأوفر حظ من النظم الاجتماعية التي تليق بهم ، فكان حظّ الدولتين معاً

ذلك بأن المملكة الاسلامية ، كانت من أول عهدها تسير متنقلة في أدوارها الطبيعية ، ويُسلمها طَوْرٌ إلى طور ، فتنتقل من طور تغلب فيه البداوة ، إلى طور من الحضارة ، ثم إلى طور آخر ، وهكذا . . . وجاءت الدولة العباسية ، والأمة سائرة إلى الحضارة بطبيعة ما يحيط بها من ظروف فسارت في هذا الاتجاه . والخطأ كل الخطأ أن يُفهم أنها أوجدته من عدم !

نعم ! إن هناك عوامل ظهرت مع العباسيين — وبعضها من عملهم ، كغلبة النفوذ الفارسي ، ونقل العاصمة من الشام إلى العراق وكان لهذه العوامل أثر غير قليل في نمو الحركة العلمية والاجتماعية ، ولكن هذه الحركات كانت حركات مساعدة فقط ولو لم توجد لاستمرت الأمة في سيرها الى الحضارة وان كان يكون سيرها أبطأ فسلطة العنصر الفارسي كانت تنمو في الحكم الأموي ، وعلى الأخص في آخره ، ولو لم تتح لها فرصة الدولة العباسية لأتيحت لها فرص أخرى مختلفة الأشكال والعراقيون كان يصح أن يُستجدوا في الحركة العلمية - والعاصمة في الشام - بل نحن نرى بالفعل ، حركة الحسن البصري وتلاميذه الدينية بالبصرة تنمو وتقوى والحركة اللغوية تنمو وتقوى ، بمثل أبي عَمْرو بن العلاء ، وقرينِه عيسى بن عُمَر الثقفي - بالبصرة

أيضاً — فى عهد الدولة الأموية ولم يكن اتساع هاتين الحركتين فى العهد العباسى إلاّ أثراً لهؤلاء وأمثالهم ، وتقدماً طبيعياً نتج من نشاط تلاميذهم
ولكن مما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية ـ التى كانت تحياها الدولة العباسية ـ لونت العلوم والآداب بلون خاص . وجعلت لها صفات خاصة ما كانت تكون، لو استمرت الدولة الأموية فى حكمها .
وهذا ما سنحاول وصفه فى الباب الآتى وسنقتصر من وصف الحياة الاجتماعية ، على ما له أثر كبير فى العلم والفن

الفصل الأول

سكان المملكة الإسلامية فى هذا العصر

واضح أن الأمم تختلف فى ميزاتها اختلافاً كالذى بين أفرادها فهى تختلف فى عاداتها، وتجاربها، وفى منهج تفكيرها، وكمالياتها، ودرجة عقلها، ومقدار ثقافتها، وحدّة عواطفها، أو هدوئها.

وفوق ذلك، نرى أن لكل أمة «أدباً» يختلف عن أدب الأمم الأخرى. وأدب كل أمة منتزع من طبيعة إقليمها، وتاريخها، وجبالها، وملوكها وسوقتها، وعلمائها وسخفائها، وصالحاتها ومحرمها، ومن نظامها السياسى، وعلى الجملة من كل شىء يتصل بحياتها.

نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن المملكة الإسلامية فى هذا العصر كانت مكونة من أمم مختلفة فقد كان من أجزائها المغربُ - جميعاً - ومصرُ والشامُ وجزيرة العرب، والعراقُ، وفارسُ، وما وراء النهر وكانت هذه الأمم تختلف فيما بينها كلّ الاختلافات التى أبنّاها وكلها خضعت للحكم الإسلامى، وتكوّن منها جميعاً مملكة واحدة، وكان لكل أمة من هذه الأمم مزايا وصفات عرفت بها، فشهر العرب مثلا بالقدرة على الشعر، حتى قال أحمد ابن أبى دُؤاد «ليسَ أحَدٌ منَ العرَبِ إلاّ وَهُوَ يَقْدِر عَلَى قَوْل الشّعر، طبْعاً رُكّبَ فيهمْ، قلّ أوْ كثُرَ»[١] واشتهر أهل السند بالصيرفة، والعلم بالعقاقير، يقول الجاحظ: «إن السند لهم طبيعة فى الصّرْف، لا نرى بالبَصْرة صيرفياً إلاّ وصاحِبُ كِيسه سِنْدِىّ» واشترى محمد بنُ السَّكن أبَا رَوْحٍ السندى فكسب له المال العظيمَ، وقلّ صيدلانى عندنا، إلاّ وله

---

١ الأغانى جزء ٢ ، ٥١ .

علاَم سيدِى ، فبَلَغُوا أيضاً فى الخبرة ، والمعرفة بالعقاقير ، وفى صحة المعاملة ، واجتلاب الخُرفاء مبلغا حسنا [١] ، واشتهر أهل مرو ، وخراسان بالبخل حتى قال فى العقد الفريد : « أجمع الناس على بخل أهل مروَ ، ثم أهل خراسانَ قال ثُمَامة بن أشرسَ « ما رأيتُ الدِّيك قط فى بلدة إلا وهو يدعو الدَّجاجَ ، وينثرُ الحَبَّ اليها ، ويَلْطُفُ بها ، إلا فى مَرْوَ فإنى رأيته يأكل وحده ! فعلمت أن لؤمهم فى المأكل ورأيت فى مرْوَ طفلا صغيراً فى يده بيضة ، فقلت له أعطنى هذه البيضة ! فقال : ليس تَسعُ يدك فعلمت أن اللؤم ، والمنع فيهم بالطَّبْع المُركَّب ، والجِبلَّةِ المفْطُورة » [٢]

واشتهر اليمانيون بالعشق . والحجازيون ، بالدَّل [٣] كما اشتهر العراقيون . بالظَّرْف قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

إنَّ قَلْبى بِالتَّلِّ تَلِّ عَرَارِ [٤] مَعَ ظَبْىٍ مِنَ الظِّبَاء الجوَارِى
شَادِنٍ ، لمْ يَرَ العِرَاقَ ، وفيهِ مَعَ ظَرْف العِرَاقِ،دَلُّ الحِجَارِ

وعدَّد الجاحظ مزايا كل أمة فى عصره فقال « فيهم سكان الصين ، الصِّنَاعةُ فهم أصحاب السَّبْك ، والصياغةِ ، والإفراغ ، والإذابةِ ، والأصبَاغ العَجيبة ، وأصحاب الخرْطِ ، والنَّحْتِ ، والتَّصاوير ، والنسج . واليونانيون يعرفون العللَ ، ولا يباشرونَ العَمل ومزيتهم الحكم والآداب . والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطبَّاء ، ولا حُسَّاباً ، ولا أصحاب فلاحة ، فيكونوا مَهَنَة ولا أصحاب زرع لخوفهم من صَغارِ الجزية . ولا طلبوا المعـاش من ألسنة المكاييل ، ورءوس الموازين ، ولا عرفوا الدَّوانقَ ، والقراريطَ حين حملوا حدَّهم ، ووجهوا قواهم إلى قول الشعر ،

---

١ الحيوان جزء ٣ ١٣٤ ٢ العقد الفريد جزء ٣ ٣٦١
٣ زهر الآداب جزء ١ ٢٢٣. ٤ تل عرار بفتح العين قال أبو الفرج الاصفهانى إنه الربوة وأنشد البيتين اهـ وهناك تل آخر بهذا الاسم شمالى حلب ذكره ياقوت

وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة، وتصاريف الكلام وقيافة البشر، بعد قيافة الأثر، وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالآثار، وتعرف الأنواء، والبَصَر بالخيل، والسلاح، وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس، وإحكام شأن المناقب، والمثالب. بلغوا فى ذلك الغاية وميزة آل ساسان فى الملك والسياسة، والأتراك فى الحروب وليس فى الأرض كل تركى كما وصفنا كما أنه ليس كل يونانى حكيما ولا كل صينى فى غاية من الحذق. ولا كل أعرابى شاعرا، قائفاً ولكن هذه الأمور فى هؤلاء أعمُّ وأتمُّ. وإليهم أظهر وأكثر»[١] وقال فى موضع آخر فى الكلام على الزنج: «وهم أطبع الخلق على الرَّقص، والضرب بالطبل، على الإيقاع الموزون، من غير تأديب، ولا تعلم. وليس فى الأرض أحسَنُ حلوقاً منهم»[٢] «واشتهر الهند بالحساب، وعلم النجوم، وأسرار الطب، والخرط، والنحت، والتصاوير، والصناعات الكثيرة العجيبة»[٣].

كذلك كانوا يختلفون فى الأهواء، والميول السياسية، يوضح ذلك: مارواه ابن قتيبة: «قال محمد بن على بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة - حين اختارهم للدعوة، وأراد توجيههم - أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة على ابن أبى طالب. وأما البصرة: فعثمانية تدين بالكف، وتقول: كن عبدَ الله المقتولَ، ولا تكن عبد الله القاتلَ. وأما الجزيرة فحرورية مارقة، وأعرابٌ، كأعلاج، ومسلمون، فى أخلاق النصارى. وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان، وطاعة بنى مروان، عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما. وأما أهل مكة والمدينة. فقد غلب عليهما أبو بكر، وعمر ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العددَ الكثير والجلدَ الظاهرَ، وصدوراً سليمة، وقلوباً فارغة،

---

١ أنظر رسائل الجاحظ ٤١ وما بعدها ٢ رسائل ٦٣ ٣ رسائل ٧٣

لم تتقسمها الأهواء، ولم تتورعها النحل، ولم تشغلها ديانة، ولم يعدم فيها فساد، ولست لهم اليوم همم العرب، ولا فيهم كتحارب الاتباع بالسادات وكتحالف القبائل، وعصبية العشائر ولم يزالوا يدالون، ويمهون، ويطلبون ويكظمون؛ ويؤملون الدول وهم جند لهم أجسام وأبدان، ومناكب وكواهل، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة »[١].

كذلك كان في كل أمة من هذه الأمم طوائف مختلفة لها شعائر، وعادات خاصة، فمنهم يهود حافظوا على تقاليدهم، وحرموا التزاوج الا منهم، ونصارى؛ تمسكوا بشعائرهم وعاداتهم، ومجوس؛ يقيمون هياكلهم، ويوقدون نيرانهم.

كما نجد خلافات في الآداب ففرس لهم أدب هو نتيجة تاريخهم، وحياتهم الاجتماعية. وعراقيون لهم آداب قديمة ورثوها مما اعتورهم من الدول. ومصريون لهم أدب كذلك، وأدب هندي، وأدب شامي، وأدب يوناني وروماني

دع عنك الاختلافات الاقليمية فأمة تعيش في جبل، وأخرى في سهل، وجو بارد شديد البرودة، وحار شديد الحرارة، وأمة ساحلية، وأمة صحراوية وما يستتبع ذلك من خلاف بين الأمم في العادات، والطبيعة، والمزاج

كل هذه الاختلافات التي لم نذكر منها الا أمثلة قليلة، كانت تكون المملكة الاسلامية في العصر العباسي الأول، وكانت ساحتها وعاء تصهر فيه هذه المواد المختلفة، وتتفاعل فيه كما تتفاعل الأجسام المختلفة كيماوياً وقد كانت هناك عوامل قوية ساعدت على هذا الامتزاج ألممنا بها في الجزء

---

١ عيون الأخبار جزء ١ : ٤ : ٢

الأول من كتابنا[1] ولكن لا بد أن نزيد هنا كلمة عن شيء كان ظاهرَ الأثر في هذا العصر . وهو « عملية التوليد » :

ونعني بالتوليد ، أن يتزوج رجل من أمّة وامرأة من أمة أخرى ، فينشأ بينهما نسل يجري في عروقه دم الأمتين وقد امتاز العصر العباسي الأول بكثرة هذا الجيل من الناس . وكان هذا التوليد ظاهرةً قويةً ، نتجت عن اختلاط الأجناس ، ومن نظام الرقّ والولاء الذي طُبّق عقب الفتح الاسلامي فقد أصبح البيت الاسلامي ـ وخصوصاً بيوت الخلفاء ، والأمراء ، والأغنياء ـ « عصبةَ أمم » ينتج من النسل ما يحمل خصائص الأمم المختلفة خذ لذلك مثلا بيت أبي جعفر المنصور فقد كان في بيته أرْوَى بنتُ منصور الحمْيَري أولدها المهديّ ، وجعفراً الأكبر ، وأَمَةٌ كردية كان المنصور اشتراها فتسراها ، فولدت له جعفراً الأصغر وأمة رومية يقال لها « قالي » أولدها « صالحاً المسكينَ » وامرأة من بني أمية أولدها بنتاً تسمى « العالية »[2] هذا مع أن أبا جعفر المنصور لم يسرف في التسري اسراف من أتى بعده « وكان للرشيد زُهَاء ألفي جارية من المغنيات والخدَمة في الشراب ، في أحسن زيّ من كل نوع من أنواع الثياب ، والجوهر »[3] « ويقال : إنهُ كان للمتوكل أربعة آلاف سُرِّيّة »[4] وسنأتي من ذلك الشيء الكثير ، عند الكلام في الجواري

كانت هذه الجواري المختلفة الأنواع ، تُوزّعُ على الفاتحين ، وتباع في أسواق النخاسين ويُهْدَى كما تهدى الطُرَف اللطيفة وتمنح كما تمنح المال . وكانت الحرائر من الأمم المختلفة ، يتزوج من غير جنسها وكان هؤلاء وهؤلاء ينسلن نسلاً عديداً ، وكان نسلهن أكبرَ من نسل العربيات

---

[1] أنظر كتاب فجر الاسلام الجزء الاول ص ١ وما بعدها

[2] الطبري ٣ ٢٩٨ [3] أغاني ٩ ٨٨ [4] مسعودي جزء ٢ ٨ ٣

الخالصات ؛ لقلة عدد العربيات اذا نسبن لغيرهن بل كان ولوع الناس بالاختلاط بغير العرب أقوى وأشد ، وميلهم الى الاماء أكبر منه الى الحرائر ولذلك سببان (الأول) أن الجمال في كثير من نساء هذه الامم المفتوحة أوفرُ ، والحسن أتمُّ ، قد صقلتهنَّ الحضارةُ ، وجلاهن النعيم هذا إلى ما خصّتهنّ به طبيعة الاقاليم ، من بياض البشرة ، وصفرة الشعر ، وزرقة العيون ، ونحو ذلك . (الثاني) ما أشار إليه الجاحظ ، من أن عادة التزوج بالحرائر ، كانت في عهده كعادتنا الآن ! لا ينظر الرجل الى من يريد أن يتزوج ، ولكن يوسط « الخاطبة » فتروي له من محاسنها ما تشاء . وقد لا يتفق ذوقها وذوقه . هذا ان صدقتْ ! . وليس ذلك هو الشأن في الأمة ، فهو يراها قبل أن يقدم على تملكها قال الجاحظ « قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات[1] ان الرجل قبل أن يملكَ الأَمَةَ قد تأمل كل شيء منها ، وعرف ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة . والحرة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال ، وموافقتهن ، قليلا ولا كثيراً ! والرجال بالنساء أبصرُ وقدْ تحسن المرأة أن تقول : كأن أنفها السيف ! وكأن عينيها عينا غزال ! وكأن عنقها إبريقُ فضةٍ ! وكأن شعرَها العناقيدُ . ! وهناك أسبابٌ أُخرُ ، بها يكون الحب والبغضُ »[2]

ومن أقوال العرب المشهورة « الأَمة تُشترَى بالعين ، وتُرَدُّ بالعَيْب والحرة غلٌّ في عنق من صارت إليه ! » وقالوا : « عجبتُ لمن لبس القصير ، كيف يلبس الطويل ! ولمن أحفى شعره ، كيف أعفاه ! وعجباً لمن عرف

---

١ المهيرة الحرة الغالية المهر ٢ رسائل الجاحظ ١٦٨ .

الإماء، كيف يُقدِم على الحرائر؟!» [1]

وقد اشتهرت الأصقاع المختلفة، بميلهم إلى أجناس مختلفة من النساء بحكم الجوار، وبحكم ما كانوا يأسرون ويشترون «من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم: الهنديات وبنات الهنديات، والأعوار[2]. واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات وأهل الشام أشهى النساء عندهم: الروميات وبنات الروميات وكل قوم فإنما يشتهون جلبتهم وسبيهم إلا الشاذ، وليس على الشاذ قياس» [3]

من هذا الاختلاط الذي أتينا طرَفاً منه، نشأ جيل جديد يحمل ميزات خاصة، حتى بعض الخلفاء أنفسهم كانوا من هذا الصنف «فالخيزُران سندِيَّة هي من خَرْشَنَة[4] ولدت موسى الهادي، وهرون الرشيد، ابني محمد المهدي، وشاهفرند[5] بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى ابرويز، ولدت للوليد بن عبد الملك، يزيد بن الوليد الناقص، وإبراهيم بن الوليد المخلوع»[6]. ومروان بن محمد، ابن أمة كردية[7] وأبو جعفر المنصور؛ أمه بربرية اسمها سلامة. والمأمون، أمه أمَة تسمى مراجل والمعتصم، أمه أمة تسمى ماردة والواثق، أمه أمة تسمى قراطيس. والمتوكل، أمه أمة تسمى شجاع[8] ومثل ذلك في العلماء، والشعراء قال الأصمعي كان أكثر أهل المدينة

---

١ العقد الفريد جزء ٣ ٢٩٦

٢ في القاموس، الغورة بالضم بلدة بين هراة، وبلا هاء ناحية العجم.

٣ رسائل الجاحظ ٧٥

٤ خرشنة بلدة قرب ملطية قال أبو فراس

إن زرت خرشنة أسيرا　　فلكم حللت بها مغيرا

٥ في كتاب البلدان لابن الفقيه جاء هذا الاسم شاهفريد ولعله أصح

٦ زهر الآداب ـ هامش العقد ـ جزء ١ ٢٢٢

٧ الطبري جزء ٣١٨٩

٨ أنظر كتاب المعارف لابن قتيبة ١٢٨ وما بعدها.

يكرهون الإماء، حتى نشأ منهم عليّ بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله ففاقوا أهل المدينة فقهاً، وعلماً، وورعاً فرغب الناس في السراري»[1]

خضع هذا الصنف من المولَّدين لقوانين «الوراثة» وكسب من آبائه وأمهاته صفات خاصة وكان صنفاً ممتازاً والعرب من قديم آمنوا بأن الزواج بالأباعد، خير من الزواج بالأقارب وروى في الخبر «اغتَرِبوا لا تَضْوُوا»[2] وقال الشاعر

فتىً لم تَلِدْهُ بنتُ عمٍّ قريبةٌ ، فيَضْوَى وقد يَضْوَى رَديدُ الغرائبِ

وقال آخر

أُنذِرُ مَنْ كانَ بعيدَ الهمِّ ، تزويجَ أولادِ بناتِ العمِّ

فليسَ ناجٍ ، مِنْ ضَوًى وسَقَمٍ !

ورووا «أن عمر نظر إلى قوم من قريش، صغار الأجسام، فقال مالكم صغرتم؟ قالوا قرفتْ أمهاتنا من آبائنا قال صدقتم، اغتربوا وتزوَّجوا في الغرباء فأنجبوا!»

والواقع أن هذه النظرة فالمولدون في العصر العباسي، كانوا من أظهر العناصر، ولهم ميزات مختلفة، في أجسامهم، وعقولهم، وصناعاتهم، وذلك باختلاف أمهاتهم يقول أحد القواد «ما في الدنيا أحد أشجع من أبناء خراسان المولدين، ولا أفتك منهم!»[3] ويقول الأصمعي «بنات العم أصبر، والغرائب أنجب، وما ضرب رءوسَ الأبطال كابن الأعجمية!» «وسئل بعضهم عن ولد الرومية فقال صلفٌ مُعجَب، بخيل ذليل ولد

---

١ العقد جزء ٣ ٢٩٦

٢ معناه تزوجوا في البعاد الأنساب، لا في الأقارب فإن في الإنسان [illegible] وذلك أن العرب تزعم أن ولد الرجل من قرابته يجيء ضاوياً، نحيفاً ٣ طيفور ١٤٣

الصقلبية قال طَمِسٌ، رسمٌ قيل · فولد السوداء قال شجاع ، سخى قيل :
فولد الصفراء . قال هم أنجبُ أولاداً ، وألين أجساداً ، وأطيب أفواها
قيل فولد العربية قال أبعدُ، حسود[1] الخ ويقول الجاحظ « رأينا الخلاسيّ
من الناس ـ وهو الذي يخلق بين الحبشي، والبيضاء ـ والعادة من هذا التركيب ؛
أنه يخرج أعظم من أبويه ، وأقوى من أصليه ومُقْرِنيه ورأينا البَسَريّ
من الناس ـ وهو الذي يخلقُ من بين البيض ، والهند ـ لا يخرج ذلك الخارجُ
على مقدار ضخم الأبوين ، وقوتهما ؛ ولكنه يجيء أحسن ، وأملح »[2]
ويقول في العلة ، في مبرة النصارى على اليهود في الشكل، والعقل «إن
الاسرائيلي لا يروج الا الاسرائيلية فكانت العرائب لا تشوبهم ، فحوله
الاجناس لا تضرب فيهم »[3]

ان شئت ، فانظر في كتاب الاغاني ، تجد أن أكثر من نبغ من المغنيات
في الحجاز ، ثم في العراق ، في العصر الأول العباسي من « مُولّدات المدينة »
أو من تلامذتهن ـ ومولداتُ المدينة نساء ينحدرن من آباء عرب ، وأمهات
من غير العرب ـ أو شئت ، فانظر الى كثير من العلماء ، والادباء ، وتخيرّ
أجناسَ آبائهم ، وأمهاتهم ، تجدهم من المولدين وقد رأيتَ شهرة مولدي
خراسان ، ومولدي الأعجام عامة ، بالشجاعة وقديماً ظهر باليمن عنصر ممتاز
سماهم العرب « الأبناء » « وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن
لمّا جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه ، وملكوا اليمن وتديّروها
وتزوجوا في العرب ، فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن
أمهاتهم من غير جنس آبائهم[4] » ومن مشهوري العلماء من الأبناء طاووس

---

١ محاضرات الادباء جزء ١ ٢٠٧ ٢ كتاب الحيوان جزء ١ ٧١
٣ رسائل الجاحظ ـ على هامش الكامل ـ جزء ٢ ١٦٩و ١٧ والعبارة هناك أطول ،
٤ لسان العرب في مادة « ابن » .

ابن كيسان ، ووهب بن منبّه التابعيان — غير أن هؤلاء الأبناء ، كانوا من أب فارسي ، وأم عربية غالبا . والمولدون في عصرنا العباسي كان أكثرهم من أب عربي ، وأم أعجمية

***

وكما كان هناك « توليد » بين الأجسام ، كان هناك توليد عقلي فعقول الناس من الأمم المختلفة ، كان يتناولها اللقاح . فالفارسي ، يحمل عقلا فارسياً ، ثم يعتنق الإسلامَ ، و يتعلم اللغةَ العربيةَ ، فينشأ مزيج من العقلين ، تتولد منه أفكار جديدة ، ومعان جديدة والنبطي النصراني ، أو الرومي النصراني ، أو العراقي اليهودي ؛ يخالط العربي المسلم ، ويتبادلان الرأي والقَصص ، والفكرةَ ، فينشأ من ذلك فكر جديد ، وهكذا — ومن ثمّ كان « الأدب العربي » بمعناه الواسع الذي يشمل كل ثقافة ، ليس في الحقيقة أدباً عربياً ، وإنما هو « مزيج » طبع بالطابع العربي الإسلامي فسمي أدباً عربياً ، ولنذكر مثلا يوضح هذا ذلك أننا نرى العرب في جاهليتها أدبها . أدب عربي بالمعنى الصحيح وهو إن اقتبس شيئاً مما حوله ، فقد كان اقتباسه قليلا جداً أما الروح الغالبة القوية فهي الروح العربية فهو يمثل الحياة العربية أحسن تمثيل ، ويصور حياتهم الاجتماعية أتم تصوير ، فيه حياتهم ، وفيه طريقة صيدهم ، وفيه وصفُ حروبهم ، ولهوهم ، وجدّهم ، وتداويهم فإذا نحن طفرنا إلى العصر العباسي . وجدنا الناس ، وخاصة الفرس الذين دخلوا الإسلام ، وكانت لهم غلبة على مرافق الدولة ، لم يعودوا يتذوقون تذوقهم الفارسي الشعرَ العربي الجاهلي ، وإنما يتذوقون ما ألفوا ، من التغني في شعرهم بالحب ، والخمر فظهر العباس بن الأحنف الخراساني النشأة ، وأبو نواس الفارسي الأم ، يتغنيان دونهما الأول في عشقه والثاني في خمرياته قد كان للعربي الجاهلي شعر في الحب ، وشعر في الخمر .

ولكن شتان بين خمريات طرفة، وخمريات أبي نواس، وشتان بين شوق امرىء القيس، وشوق العباس بن الأحنف؟ ويعجبني في ذلك قول الجاحظ: «كم بين قول امرىء القيس — تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً — وبين قول علي بن الجهم

سقى الله ليلاً ضمّنا بعد هجعةٍ ، وأدنى فؤاداً من فؤادٍ معذّبِ

وبتنا جميعاً ، لو تُراق زجاجةٌ من الراحِ ، فيما بيننا لم تسرّبِ !»[1]

لم تكن الحضارة وحدها، هي التي أنتجت هذا الفرق. ولكن كان من أكبر العوامل فيه تزاوج الأجناس، وتزاوج الأفكار، كالذي كان في الشعر. فقد أخذ الفرس الوزن العربي، والقافية العربية، والأسلوب العربي. ولكن أخذوا بجانب ذلك، الخيال الفارسي والذوق الفارسي. انظر إلى القصيدة التي يقولها الخُرَيْمي يذكر بغداد ويصف ما أصابها من الفتن أيام الخلاف بين الأمين والمأمون — والتي مطلعها

قالوا ولم يلعبُ الزمانُ ببغداد، وتعثرْ بها عواثرُها ؟؟[2]

تجد نفس قصصي ممتع طويل، لا عهد للعرب به من قبل. وانظر أنواع الحكم الهندية الفارسية العربية — التي تجدها في أقوال ابن المقفع — وانظر القصص الذي في ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة. وانظر أنواع المقامات التي تجلت في عمل البديع، والحريري. كل هذا وأمثاله: أنواع لا يعرفها العرب الخلص، وإنما كانت — من غير شك — نتيجة عملية التوليد التي أشرنا إليها. وما كانت تكون لو عاش العرب وحدهم أو الفرس وحدهم. ومثل ذلك يقال فيما ظهر من أنواع العلوم المختلفة، التي سنوضحها في فصول تالية

---

١ محاضرات الأدباء جزء ٢ ص ٦٨ .

٢ القصيدة في تاريخ الطبري جزء ١٠ ص ١٧٦ و لم ١٤٥ ١٨

والخلاصة أن امتزاج العقول أنتج مخلوقات جديدة . لها ميزاتها الخاصة ، كما كان الشأن في توالد الاجسام

* * *

وبعد فمع هذه الاختلافات المتنوعة — التي أبنّا — كانت هناك روح واحدة ترفرف على العالم الاسلامي . هي روح شرقية ، توحّد بين أفرادها — مهما اختلفت أجناسهم وأنواعهم — هذه الروح هي التي أخضعت الفلسفة اليونانية ، لما دخلت في بلادها فأسبغت عليها ثوباً من روحانيتها ، وإلهاماتها وهي التي جعلت علماء التاريخ والاجتماع يدركون خصائص مشتركة بين الشرق تخالف تلك التي للغرب روح ورثها الشرقي من أجيال ، وساعد على تكوينها بيئاتهم الطبيعية ، والاجتماعية ، وجعلتهم يتذوقون غير ما يتذوقه الغربي ، ويدركون الأشياء على غير النمط الغربي ، كما جعلت لهم مدنيات تخالف — من وجوه كثيرة — المدنيات الغربية . جاءت الأديان المختلفة من : بوذية ، ويهودية ، ونصرانية فصبغت هذه الروح صبغة خاصة صبغة لامادية ، تؤمن بإله فوق هذا العالم ، وترجو جنة ، وتخاف ناراً ، وترى أن وراء هذه السعادة الدنيوية ، والشهوات الجسمية ، سعادة أخرى روحية ؛ فلما جاء الاسلام ، ونشر سلطانه على الممالك الشرقية زاد هذه الروح وقواها ، وعمل في توحيدها فقد كانت هذه الأمم المختلفة تخضع لقانون واحد ولنظام في الحكم واحد ، وتتكلم بلغة واحدة ، ويدين أغلبها بدين واحد ورحلات العلماء في منتهى القوة ، على صعوبة المواصلات والرحالون يتبادلون الآراء ، والمعتقدات ، ويدعون دعوات دينية وسياسية والحكام يُرسَلون من مركز الخلافة مزوَّدين بتعاليم واحدة في جوهرها

كل هذا وحّد بين الأمم المختلفة وكوّن منها ما يصح أن نسمي أمة واحدة لها : أدب واحد ، وثقافة واحدة ، وعلم مشترك

الفصل الثانى

الصراع بين العرب والموالى

يظهر أن العرب فى الجاهلية لم يكن لهم شعور قوى بأنهم أمة ؛ إنما كان الشعور القوى عندهم : شعور الفرد بقبيلته ذلك . أما إذا رجعنا إلى ما يرجح صحته من الشعر الجاهلى وجدناه مملوءاً بالشعور القبلى ، فالعربى يمدح قبيلته ، ويتغنى بانتصارها ، ويعدد محاسنها ، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيلته ولكن قلّ أن نجد شعراً يتغنّى فيه العربى بأنه عربى ، ويفتخر فيه على غيره من الأمم . والسبب فى ذلك واضح وهو أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا أمة بالمعنى الصحيح . فلم يتحدوا لغة ولا ديناً ، وليس لهم آمال وطنية واحدة ، ولا ما هو شرط أولىّ للأمة ، وهو وجود شخص ، أو هيئة مكونة من عدة أشخاص ، لها قوة تنفذ أوامرها على كافة أفرادها ، وحملهم على طاعتها ، وطبيعة المعيشة القبلية التى كانت تعيشها أدت إلى ذلك

أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك ما يستحث العرب على هذه الفكرة . لأنهم إذا نظروا هذا النظر لم يشعرهم ذلك بعظمة . ولا جرم فحولهم الفرس من ناحية ، والروم من ناحية أخرى ، وعلاقة العرب بهم ليست علاقة تشعر بالقوة . فهم يتعاملون معهم تجاريا ، ولكن ليست علاقة الند بالند بل علاقة المفتقر بالغنى ، والضعيف بالقوى ومن اتجر منهم ، وارتحل إلى فارس والروم ورأى عظمتهم استصغر نفسه أمامهم ؛ وورد بعض قصص قد تنقض ما نقول كالذى رواه القُطامى عن الكلبى من وفود العرب على كسرى[1] ، وافتخار النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم

---

١ تجدها فى العقد الفريد جزء ١ ص ١١٤

لا يستثني فارس، ولا غيرها وأن أمة لو قرنت بالعرب لفضّلتها (العرب) بعزها، ومَنَعتها، وحسن وجوهها، وبأسها، وسخائها، وحكمة ألسنتها وشدة عقولها، وأنفتها، ووفائها، الخ ». ولكنا نشك في هذا الخبر شكا كبيراً فإنا لم نجد هذا الخبر الا عن الكلبي، وهو مشهور بالوضع ولأن هذا الحديث لم نجد أحداً رواه في العصر الأموي مع أهميته، انما رُوي عن الكلبي وحده، في العصر العباسي، هذا الى أن ما فيه من الصنعة الفنية، دليل على وضعه — بل عندنا من الأخبار الصحيحة ما ينقضه، ذلك ما يقوله قَتادة وهو من مشهوري التابعين، وهو كذلك عربي صميم، من سَدُوس قال عند تفسير قوله تعالى « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا! » « كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشاً، وأبينه ضلالة، وأعراه جلوداً، وأجوعه بطوناً، مَعْكُومين على رأس حَجَر بين الأسدين فارس، والروم لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحسدون عليه من عاش منهم عاش شقياً! ومن مات رُدّي في النار! يؤكلون، ولا يأكلون! والله ما نعلم قبيلا يومئذ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظاً، وأدق فيها شأناً منهم حتى جاء الله عز وجل بالاسلام فورثكم به الكتاب وأحل لكم به دار الجهاد، ووسع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس!! » [1]

والعرب لما انتصرت قبيلة منهم على فرقة من الجيش الفارسي يوم ذي قار عدّت ذلك فخراً عظيما مع أنه ليس بشيء ذي خطر، فإنه فرقة لا أمة، عرضة للانهزام، ولكن العرب أحسوا بالفخر العظيم لانتصارهم كأنهم ما كانوا يتوقعون أن يهزم جحفله فارسية؟، بل في نفس هذه القصة مستند قوي لما نقول وهو أن العرب لما انتصروا يوم ذي قار، لم يعدوا نصره العرب على

١ تفسير الطبرى جزء ٤ ٢٥

الفرس، إنما نعموا بنصرة القبائل التي اشتركت في الحرب وهم الشيبانيون، والعِجليُّون، واليَشْكُرِيون، ولم تحلّ في الفناء روح عربية عامة

ويخبرنا الطبري: أنه عندما أراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس، وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم! يقول «وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم (إلى المسلمين) وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم، وشوكتهم، وعزهم، وقهرهم الأمم» ورَوَى أن المثنّى بن حارثة تكلم فقال «يأيها الناس، لا يَعْظُمَنّ عليكم هذا الوجه فإنا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقّي السواد، وشاطرناهم، ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها!!»[1]

فالذي يظهر لنا من هذا كله أن العربي في الجاهلية كان يعتز بقبيلته والمحمدة التي يفتخر بها هي التي يأتي بها أحد أفراد قبيلته، فلما رهن حاجب ابن زُرارة قوسه عند كسرى وَوَفّى ابنه بالرهن كان الذي افتخر بذلك قبيلة تميم[2]، والذي يفتخر بالشاعر أو الشجاع قبيلته وقلّ أن يتجاوزوا ذلك إلى عدّ المكرُمة، مكرمةَ أمة!

فلما جاء الإسلام، تكوّن العرب أمةً، وكانت فيها خصائص الأمة التي أشرنا إليها، من اتحاد لغة، ودين، وميول، ومن وجود حكومة على رأسها وأعقب ذلك الانتصارُ على أضخم أمتين كانتا في عصرها وهما فارس، والروم ولكن مع هذا لم تمح الروح القبلية فوجدت النزعتان معاً: (نزعة العربي لقبيلته، ثم بطنه ثم فخذه) و(نزعة للدم العربي، والأمة العربية، والجنس العربي) وسارت النزعتان جنباً إلى جنب في صدر الإسلام،

---

١ ارجع الطبري جزء ٤ ص ٦١.

٢ يقول أبو تمام، يمدح أبا دلف العجلي:

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب!

وصرنا نسمع العربي يفتخر بقبيلته في الاسلام، كما كان في الجاهلية، وزاد في الاسلام الافتخارُ بالجنس العربي، كالذي يقول:

إنّا منَ النَّفَرِ الذينَ جيادُهُمْ
طلَعَتْ على عادٍ بريحٍ صَرْصَرِ
وسلَبْنَ تاجَيْ مُلكِ قيصرَ بالقَنا،
واحْتَزْنَ بابَ الدَّرْبِ لابنِ الأصفرِ[1]

وأما النوع الأول، وهو العصبية القبلية، فالحوادث التاريخية في العصر الأموي، والقصائد الأموية كلها تفسر هذه النزعة، ولا تفهم إلا بها. ولنسُقْ لك أمثلة للدلالة عليها: يقول رجل من بني أسد بن خزيمة يمدح يحيى بن حيّان

ألا جعَلَ اللهُ اليمانينَ كلَّهمْ،
فدًى لِفتَى الفِتيانِ، يحيَى بنِ حيّانِ
ولولا عُرَيْقٌ فيّ، من عصبيّةٍ
لقُلْتُ، وأُلْفا من مَعَدِّ بنِ عدنانِ
ولكنّ نفسي لم تطبْ بعشيرتي،
وطابتْ له نفسي بأبناءِ قحطانِ

وروى المبرّد عن شيخ من الأزد ثقة، عن رجل منهم أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه فقيل له ألا تدعو لأمك؟ فقال إنها تميمية![2]

وقد عُني بعضهم بالفخر باليمن، وتعداد مفاخرهم وتَرُدُّ على الكميت افتخاره بنزار في قصيدة تبلغ ستمائة بيت أولها

---

١ بنو الأصفر الروم. قال ابن سيده لا أدري لم سموا بذلك!
٢ الكامل جزء ١ ص ١٩٨.

أفيقي مِنْ مَلاَمِكِ يَاظَعِينَا كَفَانِي اللَّوْمَ مَرُّ الأرْبَعِينَا [1]

وقد ذكر المسعودي : طرفاً من القصيدتين [2]، وعقب ذلك بقوله «وتَمَنّى قول الكميت في النزارية، واليمانية، وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كل فريق بما له من المناقب، وتحزب الناس، وثارت العصبية في البدو والحضر، ونتج ذلك أمرُ مرْوان بن محمد الجعدي، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية»

وكان عند كثير من ولاة العرب، هذه النزعة السيئة في الحكم، وقبيلته حوله ترى أنه إذا ولي الرجل فقد وليت قبيلتُه. فلما ولي ابن هبيرة العراق اعتقدت فَزَارَة أنها وليت الحكم فلما عزل وولى خالد بن عبد الله القَسْري اشرأبت أعناق قسْر، وذلت فزارة وقال الفرزدق

لعمري لئنْ نَامَتْ فزَارةَ نَوْمةً لَمِنْ حَدَثِ الأيّامِ تحسبُها قَسْرُ

وفي العصر العباسي، لما تولى معن بن زائدة الشيباني اليمن قتل من أهلها تعصباً لقومه من ربيعة، وغيرها من نزار، وكان عقبة بن سالم ـ والي عمان، والبحرين ـ يقتل من القحطانيين تعصباً لقومه من قحطان، وكيداً لمعن لما عمله في اليمن [3]

والأمثلة على ذلك كثيرة ـ لا حصر لها ـ والذي يهمنا في موضوعنا هنا هو النزعة الثانية وهي نزعة العرب ضد الموالي

اعتنق العرب الإسلام، وسمعوا قوله تعالى «إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلامُ» «ومَنْ يَبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبَلَ منه، وهو في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ» وآمنوا ـ بأن الإسلام خير الأديان وأن الناس

١ زهر المحاضرة جزء ١ ١٧٧.
٢ جزء ٢ ١٥٥   ٣ أنظر المسعودي جزء ٢ ١٥٥

حولهم فى ضلال وأنهم حماة الاسلام ، وحملة الدين القويم وأن عليهم دعوة الناس كافة ، ليتحللوا عن دياناتهم السابقة ويدخلوا فيه وكان من بعد ذلك الجهادُ ، فطرقوا فارس ودكوا عرشها ، وانتصروا على الروم ، وهزموا جيشها ، واستولوا على كثير مما فى أيديها وعلى الجملة ، فقد رأوا أن سيادة العالم كانت للفرس والروم فانتقلت فجأة اليهم ! . وأن هؤلاء الفرس الذين كان العرب بالأمس يخشون بأسهم أصبحوا تحت حكمهم ! وهؤلاء الروم الذين كان العرب يتمنون أن يفتحوا لهم باب الشام ، ومصر ، ليتاجروا فيها قد هزموا ، وفروا أمامهم الى عقر دارهم ! كل هذا رفع من نفسية العرب ، وعلا كثير منهم فى ذلك فشعروا بأن الدم الذى يجرى فى عروقهم دم ممتـــاز ، ليس من جنسه دم الفرس ، والروم وأشباههم ! وتملكهم هـذا الشعور بالسيادة ، والعظمة ، فنظروا الى غيرهم من الأمم نظرة السيد الى المسود وكان الحكم الأموى مؤسساً على هذا النظر ! والحق أن العرب فى هذا لم يطيعوا الاسلام فى تعاليمه ! فالله تعالى يقول « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ! » ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا فَضلَ لِعَرَبِىٍّ عَلَى عَجَمِىٍّ إلا بالتقْوَى ! » ويقول عمر « لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته !! » واذا قلتُ العرب فلست أعنى جميعهم فقد كان هناك طائفة كبيرة ، من خيارهم ، تدين بتعاليم الاسلام ، وتجعل مقياس الفضل الدين لا الدم « فقد كان على بن أبى طالب لا يفضل شريفاً على مشروف ، ولا عربياً على عجمى ، ولا يصانع الرؤساء ، وأمراء القبائل وكان هذا من آكد الأسباب فى تقاعد العرب عنه ! »[1] وروى المدائنى أن طائفة من أصحاب علىّ مشوا اليه ، فقـــالوا يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال ، وفضّل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم واستمل من تخاف خلافه من

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد عن المدائنى جزء ١ ١٨

الناس — وانما قالوا له ذلك، لما كان معاوية يصنع فى المال. فقال لهم أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور؟![1] ولكن سواد العرب، وحكام بنى أمية، وولاتهم كانت عندهم هذه العصبية العربية قوية، يحقرون معها من لم يكن منهم. وكتب الأدب، وحوادث التاريخ، مملوءة بالشواهد على ذلك نزل جرير بقوم من بنى العنبر فلم يُضيّفوه حتى اشترى منهم القِرَى! فانصرف وهو يقول

يَامَالِكَ بنَ طَرِيفٍ إنَّ بَيْعَكُمُ
رِفْدَ القِرَى مفسدٌ لِلدِّينِ، والحَسَبِ
قَالُوا نَبيعُكَهُ بيعاً فقُلتُ لهُمْ
بيعُوا المَوَالِيَ واستحيُوا مِنَ العرَبِ!

قال المبرد إن جِلّةَ الموالى أنفت من هذا البيت لأنه حطهم، ووضعهم، ورأى أن الإساءة اليهم غير محسوبة عيباً[2]

وقال المختار لابراهيم بن الاشتر يوم خازر وهو اليوم الذى قُتل فيه عبيد الله بن زياد «ان عامة جندك هؤلاء الحَمْراء (يريد الموالى) وان الحرب ان ضَرَّستهُمْ هربوا، فاحمل العرب على متون الخيل، وأرْجل الحمراء أمامهم»[3]

وروى الأغانى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب بنى سليم، وتزوجها فركب محمد بن بشير الخارجى الى المدينة، ووالبها يومئذ ابراهيم ابن هشام بن اسماعيل، فشكا إليه، فارسل الوالى الى المولى، ففرق بين المولى وزوجته، وضربه مائتى سوط، وحلق رأسه، ولحيته، وحاجبيه!

---

١ شرح النهج جزء ١ ١٨٢ ٢ الكامل ١ ٢٧٣
٣ كامل ١ ٢٧٤ .

فقال محمد بن بشير :

فَصَنْتَ السنّةَ وحَكَمْتَ عَدْلاً ، ولم ترثِ الحكومةَ من بعيدِ

وفيها يقول :

وفي المائتين للمولى نكالٌ وفي سلبِ الحواجبِ والخدودِ ١

اذا كافأتهم ببنات كسرى فهل يجد الموالى من مزيدِ ؟

فأيُّ الحقِّ أنصفُ للموالي من اصهارِ العبيدِ الى العبيدِ ؟ [١]

وكان الحجاج - أحد أركان الدولة الأموية - ممن نفذ هذه السياسة في شدة ، ودقة ، فقد وصم أيدي النبط بالمشراط . وفي ذلك يقول الشاعر في مولى :

لو كان حيًّا له الحجاجُ ما سلمتْ

صحيحةً يدُهُ من وسمِ حجّاجِ

ولما نزل الحجاج واسطا نفى النبط منه ، وكتب الى عامله بالبصرة وهو الحكم بن أيوب يقول : اذا أتاك كتابي ، فانف من قبلك من النبط ، فانهم مفسدة للدين ، والدنيا وكتب اليه قد نفيت النبط ، الا من قرأ منهم القرآن ، وتفقه في الدين وكتب اليه الحجاج اذا قرأت كتابي فادع من قبلك من الأطباء ، وانظر في أيديهم ، ليمسوا عروقك فان وجدوا فيك عرقا نبطيا فاقطعه ! والسلام [٢]

وأمر الحجاج أن لا يؤم بالكوفة الا عربي [٤] ولما قبض على سعيد بن جبير وكان قد خرج مع ابن الاشعث على الحجاج قال له الحجاج اما قدمتَ الكوفة وليس يؤم بها الا عربي فجعلتك اماما ؟! قال : بلى . قال اما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح للقضاء الا لعربي !

---

١ الأغاني جزء ١٤ ص ١٥ ٢ شرح النهج جزء ٤ ص ١٣٣ .
٣ محاضرات الأدباء ١ ص ١١٨ ٤ العقد جزء ١ ص ٢٠٧ .

فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري ، وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك ! قال : بلى قال أو ما جعلتك في سُمَّاري وكلهم من رءوس العرب ؟ قال بلى قال فما أخرجك عليّ ؟! الخ [١]

ويقول الاصفهاني كانت العرب الى أن جاءت الدولة العباسية اذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى ، دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه ! وكان اذا لقيه راكباً ، وأراد أن ينزل فعل ، واذا رغب أحد في تزوج مولاة خطبها الى مولاها دون أبيها وجدّها [٢]

وطرب الموالى طرباً شديداً لمّا مدحهم جرير بن الخطفى حين قال فيه

فَيَجْمَعُنَا والغُرُّ أولادَ سَارَةٍ   أبٌ لا نُبَالِي بَعْدَهُ مَنْ تَعَذَّرَا

فاجتمعوا حوله يسلمون عليه ، ويسألونه كيف أنت يا أبا حزرة ؟ وأهدوا له مائة حلة ! [٣]

بل احتقر العربُ طائفةَ المولدين — الذين ذكرنا طرفاً من نوعهم ، وخصائصهم في الفصل السابق — وسموا ابن العربي من الأمة « الهجين » قال في لسان العرب « الهُجْنة من الكلام ما يعيبك . والهجين العربي ابن الأمة لأنه معيب »

قال ابن عبد ربه « وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء ، وقالوا لا تصلح لهم العرب . ويقول الأصمعي في علة ذلك إن الناس يرون أن انقضاء (بني أمية) كان لا بد أن يكون منهم وإن هذا غير صحيح وإنما كانوا يعرفون أن زوال ملكهم لأن في أيامهم كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد » ويبدو أن أهل الدولة الناس من عامل الأصمعي لأن فوقهم

---

١ الكامل ج ١ ص ١٩٧   ٢ إعجاب الأدباء ١ ص ٢٢

٣ أنظر دعاى ١ ص ٦٥   ٤ العقد ج ٣ ص ٢٩٧

هو الذى يمشى مع الواقع ، والمنطق الصحيح وسياسة بنى أمية كلها تؤيد ذلك فهم اذا اختاروا والياً راعوا عربيته . واذا اختاروا قاضياً ، أو اماماً يصلى بالناس راعوا ذلك . وليسوا فى هذا يرجعون إلى ضرب من الدجيم كما يزعم الأصمعى وقد لاقى بنو أمية كثيراً من العنت لتعيين خالد بن عبد الله القسرى والياً على العراق . ولاقى هو كثيراً من هجو الشعراء لأن أمه أمة رومية وأكبر دليل على نقص قول الأصمعى : أنهم ولّوا فعلا يزيد بن الوليد ، وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد ، وأمهاتهم اماء ! ولو كانوا يعتقدون بالتهجين ما ولوهم — انما الحكمة فى توليتهم أن الموالى بدءوا يقوون فى آخر العهد الأموى ، فاضطر الناس لضرب من الخضوع أمام قوتهم

وذهب أعرابى الى سَوَّار القاضى ، فقال ان أبى مات ، وتركنى وأخاً لى ـ وخط خطين ناحية ـ ثم قال وهجيناً لنا ـ ثم خط خطاً آخر ناحية ـ ثم قال كيف يقسم المال بيننا ؟ فقال المال بينكم اثلاثاً ان لم يكن وارث غيركم فقال له لا أحسبك فهمت ! إنه تركنى ، وأخى ، وهجيناً لنا فقال سوار المال بينكم سواء . فقال الأعرابى أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخى ؟ قال أجل ! فغضب الأعرابى . وقال تعلّم والله إنك قليل الخالات بالدّهناء ![1] وحكى الجاحظ قال « قلت لعبيد الكلابى وكان فصيحاً فقيراً أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف جريب ؟ قال لا أحب اللؤم بشىء ! قلت فان أمير المؤمنين ابن أمة قال أخزى الله من أطاعه ! ويقول الرياشى

إنَّ أولادَ السَّرارى كثُرُوا يا ربّ فينا
ربّ أدخِلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

---

[1] عيون الأخبار ٢ — ٦١ قيل انه ليس بالدهناء أمة ، وانما كان بها الحرائر الكامل للمبرد

وكتب محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يُعيّر أبا جعفر المنصور . « واعلم أني لست من أولاد الطُّلَقَاء ، ولا أولاد اللعناء ، ولا أعْرَقَت فيَّ الاماء ولا حضنني أمهات الأولاد الخ » .

والحق أن الحكم الأموي لم يكن حكما اسلامياً ؛ يسوّى فيه بين الناس ، ويكافأ فيه من أحسن ، عربيا كان أو مولى ، ويعاقب فيه من أجرم ، عربيا كان أو مولى ، ولم يكن الحكام فيه خدمه للرعية على السواء انما كان الحكم حُكْما عربيا والحكام فيه خدمه للعرب على حساب غيرهم . كانت تسود العربَ فيه النزعه الجاهلية لا النزعه الاسلامية فكان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل فالعمل حق اذا صدر عن عربي من قبيله ! وهو هو باطل اذا صـــدر عن مولّى أو عربي من قبيله أخرى ! – ولسنا الآن بصدد أن نبحث اذا كان الموالي أسعد حظا تحت حكم العرب منهم تحت حكم الفرس أو الروم أو أشقى ؟ فذلك ما يهم الباحث السياسي

ولا بد أن نكرر هنا ما سبقت الاشاره اليه من أن هذا النظر القاسي الذي وصفناه ليس نظراً عاما كان عند العرب جميعهم . انما كان هو النظر السائد بين البدو والولاه أما نظر المساواه فقد كان سائداً في الأوساط العلمية والدينيه فالعـالم يَشْرُف بعلمه سواء كان مولى ، أو عربياً ومن سادة التابعين من كانوا موالى ، والناس ينحونهم من الاجلال ما ينحوا العرب ، لا يفاضل بينهم الا بالدين ، والعلم فنجد الزهري ، ومسروق بن الأجدع ، وشريحا ، وسعيد بن المسيب ، وقتاده ، من سادات التابعين . وهم من العرب كما نجد الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن يسار وربيعة الرَّأي ، وابن جريج ، من ساده التابعين وهم من الموالي والناس – من عرب وموال – ياخذون عنهم على السواء ،

ويتنقلون من حَلْقة أحدهم الى حلقة الآخر ، حتى لنرى الحسن البصرى ، ينقد خلفاء بنى أمية ، وينقد يزيد بن المهلب ! ونرى أن يزيد وصحبه وبنى أمية وأصحابهم ضلاّل مارقون ! ويقول : والله لودِدت أن الأرض أخذتهما خسفاً جميعاً ! ثم نرى أن يزيد بن المهلب فى رهط من قومه الى الحسن ، ويهم أحدهم بقتله فيقول يزيدُ : « أغمد سيفك ! » فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا ! »[١] ولما مات تبع الناس كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر ، ولم يستنكر الناس عمل الحجاج فى قتله الآلاف من العرب والموالى كما استنكروا قتل سعيد بن جبير وهو مولى لعلمه ودينه !

هذا الذى ذكرنا : هو الذى يفسر لنا ما يُروى فى كتب التاريخ والسير من قصص مختلفة تدل على احتقار الموالى حيناً واحترامهم حيناً ، ويظن الظان لأول وهلة أن بينها تضارباً ، والحق أن لا تضارب وأن الأوساط السياسية ، وأوساط أشراف القبائل ، وأوساط البدو كانت تحتقر الموالى وأن الأوساط الدينية والعلمية ما كانت تتعصب لجنس ولا دم وإنما كانت تتعصب للدين والعلم وتقومهما حيث كانا

* * *

كان يقابل هذه العصبية العربيـــة عصبية أخرى من الموالى وخاصة الفرس فقد تملكهم العجَبُ كيف غلبهم العرب ! وعبَّر بعضهم عن هذا المعنى . بأن حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر ! وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم القديم ، وعزهم التالد ، وأنهم أهل الحضارة العظيمة ، ومن عرفوا كيف يسوسون الملك ، ويديرون الحكم وأنهم لما حكموا لم تكن لهم الى العرب حاجة ، ولما حكم العرب لم يستطيعوا أن يحكموا الا بعونهم .

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٤٨

لم يكن عند الفرس نزعة قبلية، ولم يكونوا يُعْنَوْن بالأنساب عناية العرب بها[1]، إنما كانوا يتعصبون أحيانا للبلدان فقد كان أهل خراسان مثلا من أشد الناس عصبية بعضهم لبعض وكانت العصبية القوية عندهم العصبية للأمة وذلك طبعي لأنهم قطعوا — من عهد بعيد — طور البداوة وتحضّروا وكانوا أمة بكل معناها الصحيح وبدءوا يفخرون على العرب في العهد الأموي — كالذي رأيت من شعر إسماعيل بن يسار[2] — فقد كان يتغنى دائما بمجد الفرس ودخل على هشام بن عبد الملك في خلافته فاستنشده فأنشده قصيدة يقول فيها:

إني وجدِّك ما عُودي بذي خَوَرٍ   عند الحفاظِ ولا حَوْضي بمهدومِ!

أصْلِي كريم ومجدي لا يُقاس به   ولي لسان كحد السيف مسموم!

أحمي به مجدَ أقوامٍ ذوي حسب   من كل قرْمٍ بتاج المُلْك معمومِ[3]

جَحاجحٍ سادة بُلْجٍ مرازبةٍ   جُرْدٍ عتاقٍ مساميحٍ مطاعيمِ[4]

مَن مثلُ كسرى وسابورَ الجنود معا   والهُرْمُزانِ لفخرٍ أو لتعظيمِ؟!

أُسْدِ الكتائب يوم الروع إن زحفوا   وهم أذلوا ملوك الترك، والروم!

يمشون في حَلَق الماذي سابغةً   مَشْيَ الضراغمة الأسد اللهاميمِ[5]

هناك إنْ تسألِي تُنْبَيْ بأنّ لنا   جُرْثُومةً قهرتْ عِزّ الجراثيمِ

فغضب هشام وقال أعلىّ تفخر وإيّاي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك

---

١ انظر مقدمة ابن خلدون   ٢ انظر الجزء الأول من فجر الإسلام ١١١

٣ معموم من عُمّم رأسه إذا ألبس عمامة الملك

٤ جحاجح جمع جحجح وهو السيد المسارع في المكارم، والمرازبة جمع مرزبان وهو رئيس الفرس، والعتاق من الخيل [illegible]

٥ الماذي كل سلاح من الحديد، والماذي الدرع اللينة، واللهاميم جمع لهموم وهو السابق الجواد من الخيل والناس

وأعلاج قومك؟ غُطّوه في الماء فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ثم أمر بإخراجه وهو يشر ونفاه من وقته الى الحجاز [١]

ولكن هذه النزعة صدها الأمويون صداً عنيفاً وعاقبوا عليها في قوة وجبروت فتحولت من جهر ظاهر الى دعوة سرية، وكانت الدعوة العباسية

غير أننا نقرر هنا كالذى قررناه من قبل — وهو أن هذه النزعة لم تكن نزعة الفرس عامة. فمنهم من دخل الاسلام الى أعماق نفوسهم. كمن سميناهم من التابعين ولم ينسوا أن للعرب عليهم نعمة لا تقدر وهى أنهم هدوهم الى الاسلام، واستنقذوهم من ضلال المجوسية الى هداية الوحدانية في الأوساط العلمية والدينية كان الفرس لا يؤمنون بعربية، وفارسية انما يؤمنون باسلام سوّى بين الناس أجمعين ولكن كثيراً من سواد الناس ومن أشراف الفرس كانوا يكرهون العرب، وخاصة الحكام، والبيت الأموى. روى صاحب الاغانى «أن اسماعيل بن يسار استأذن على الغَمر ابن يزيد بن عبد الملك يوما فحجبه ساعة ثم أذن له، فدخل يبكى فقال الغَمرُ يا أبا فائد تبكى؟ قال وكيف لا أبكى وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أُحجَبُ عنك فجعل الغمرُ يعتذر اليه وهو يبكى فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر، وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له اخبرنى ويلك يا اسماعيل أى مروانية كانت لك أو لأبيك؟ قال بغضنا اياهم امرأته طالق ان لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وان لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له قل لا اله الا الله فقال: لعن الله مروان، تقربا بذلك الى الله تعالى وإبدالاً لهُ من التوحيد، واقامة لهُ مُقامه!» [٢]

كره الموالى الحكم الاموى كراهة عميقة فسعوا فى اسقاطه وقد

---

[١] أغانى ٤ ١٢ [٢] أغانى ٤ ١٢٥

كانت وجهة نظرهم أن الأمويين لم يعدلوا فى حكمهم لنا ، وتوقعنا انتقال الأمر من خليفة الى خليفة فكان أمر الظلم على السواء اللهم الا اذا استثنينا عمر بن عبد العزيز وهو فذ ، وليس فى الامكان أن يحول الأمر من العرب الى الفرس ، فيكونوا هم الحاكمين لأن السلطة الكبرى لاتزال فى يد العرب ولأنه اذا أثيرت هذه الدعوة جمّع العرب وغير الفرس من الموالى علينا فليدعُ اذاً الى نقل الخلافة من يد الأمويين الى يد الهاشميين فتجد القلوب مستعدة لقبول الدعوة لأن الهاشميين عرب ولأنهم أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمويين ، وهذا يُسرع فى قبول الدعوة ، ويصبغها صبغة دينية وأخيرا فنحن اذا عضدنا الهاشميين ، رأوا أنهم وصلوا الى الحكم بعوننا ، وبحثوا بتدبيرنا فيكون ظاهر الحكم لهم وباطنه لنا ، نولى المناصب العالية ، وندير شئون الدولة ، ونترك لهم أبهة الخلافة ، ومظهرها الخارجى فلهم الشكل ولنا الجوهر لعل هذا كان أهم ما يدور فى خَلَد المؤسسين من الفرس للدعوة العباسية « قال نصر بن سيار يخاطب النزارية واليمانية ويحذرهم هذا العدوّ الداخل عليهم بقوله

أبلغ ربيعة فى مَرْوٍ وإخوتهم — فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب

ولينصبوا الحربَ إنّ القوم قد نصبوا — حرباً ، يُحرّقُ فى حافاتها الحطب

ما بالُكم تلقحونَ الحربَ بينكم — كأنّ أهلَ الحجا عن رأيكم غُيُبُ

وتتركون عدواً قد أظلّكمو — مما تأشّبَ ، لا دينٌ ولا حسب

قوماً يدينون ديناً ما سمعتُ به — عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب

فمن يكن سائلاً عن أصلِ دينهمُو — فانّ دينهمُو أن تُقتل العرب [1]

---

١ عقد ٢ ٣٥٣

وأعلاج قومك ؟ غُطّوه فى الماء . فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج . ثم أمر بأخراجه وهو يشر ونفاه من وقته الى الحجاز [1]

ولكن هذه النزعة صدها الأمويون صداً عنيفاً . وعاقبوا عليها فى قوة وجبروت . فتحولت من فخر ظاهر الى دعوة سرية . وكانت الدعوة العباسية.

غير أننا نقرر هنا كالذى قررناه من قبل — وهو أن هذه النزعة لم تكن نزعة الفرس عامة . فمنهم من دخل الاسلام الى أعماق نفوسهم . كمن سميناهم من التابعين ولم ينسوا أن للعرب عليهم نعمة لا تقدر . وهى : أنهم هدَوهم الى الاسلام ، واستنقذوهم من ضلال المجوسية الى هداية الوحدانية . فى الأوساط العلمية . والدينية كان الفرس لا يؤمنون بعربية . وفارسية انما يؤمنون باسلام سوّى بين الناس أجمعين . ولكن كثيراً من سواد الناس ومن أشراف الفرس كانوا يكرهون العرب . وخاصة الحكام ، والبيت الأموى . روى صاحب الاغانى: «أن اسماعيل بن يسار استأذن على الغمر ابن يزيد بن عبد الملك يوما فحجبه ساعة . ثم أذن له . فدخل يبكى . فقال الغَمرُ : يا أبا فائد تبكى ؟ قال : وكيف لا أبكى . وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أُحجَبُ عنك . فجعل الغمرُ يعتذر اليه وهو يبكى . فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر . وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له اخبرنى : ويلك يا اسماعيل أى مروانية كانت لك أو لأبيك ؟ قال : بغضنا اياهم . امرأته طالق ان لم تكن أمه تعلن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح . وان لم يكن أبوه حضره الموت . فقيل له : قل لا اله الا الله فقال : لعن الله مروان . تقربا بذلك الى الله تعالى . وإبدالاً له من التوحيد . واقامة له مُقامه ! » [2]

كره الموالى الحكم الاموى كراهة عنيفة فسعوا فى اسقاطه وقد

---

[1] أغانى ٤ : ١٢٠ . [2] أغانى ٤ : ١٢٥

كانت وجهة نظرهم أن الأمويين لم يعدلوا فى حكمهم لنا ، ورفضنا انتقال الأمر من خليفة الى خليفة فكان أمر الظلم على السواء اللهم الا اذا استثنينا عمر بن عبد العزيز وهو فذ ، وليس فى الامكان أن يحول الأمر من العرب الى الفرس ، فيكونوا هم الحاكمين لأن السلطة الكبرى لاتزال فى يد العرب ولأنه اذا أثيرت هذه الدعوة تجمع العرب وغير الفرس من الموالى علينا فلندعُ اذاً الى نقل الخلافة من يد الأمويين الى يد الهاشميين فنجد القلوب مستعدة لقبول الدعوة لأن الهاشميين عرب ولأنهم أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمويين ، وهذا يُسرع فى قبول الدعوة ، ويصبغها صبغة دينية وأخيرا فنحن اذا عضدنا الهاشميين ، رأوا أنهم وصلوا الى الحكم بمعونتنا ، ونجحوا بتدبيرنا فيكون ظاهر الحكم لهم وباطنه لنا ، نتولى المناصب العالية ، وندير شئون الدولة ، ونترك لهم أبهة الخلافة ، ومظهرها الخارجى فلهم الشكل ولنا الجوهر . لعل هذا كان أهم ما يدور فى خَلَد المؤسسين من الفرس للدعوة العباسية « قال نصر بن سيار يخاطب النزارية واليمانية ويحذرهم هذا العدوّ الداخل عليهم بقوله

أبلغ ربيعة فى مَرْوٍ وإخوتهم ... فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب

وليَنصبوا الحربَ إنّ القوم قد نصبوا ... حرباً ، تُحرَّقُ فى حافاتها الحطب

ما بالُكم تلقحونَ الحربَ بينكم ... كأنّ أهلَ الحِجا عن رأيكم غُيُبُ

وتتركون عدواً قد أظلّكمو ... مما تأشّبَ ، لا دينٌ ، ولا حسب

قِدْماً يدينون ديناً ما سمعتُ به ... عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب

فمن يكن سائلاً عن أصلِ دينِهمُو ... فانّ دينهمُو أن تُقتل العرب [١]

---

١ عقد ٢ ٣٥٣

وكتب ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى : « ان استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم بالعربية الا قتلته فافعل ؛ وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، وعليك بمضر فإنهم العـــدو القريب الدار ، فأبِدْ خَضْراءهم ، ولا تدع على الأرض منهم ديّاراً [1] »

كانت خراسان مهد الدعوة العباسية ، وكانت قطراً عظيماً ، يبلغ نحو ضعف ما يطلق الاسم عليه الآن وقد تولاها أمراء من العرب بين مضرى ويمانى فكانوا يحكمون حكماً عربياً بل قبلياً . فأجج ذلك نار الحقد بين العرب والفرس أولا وبين اليمانين والمضريين ثانيـــا والأزديون يمثلون اليمانيين ، وتميم وقيس يمثلون المضريين وكل يعمل للزعامة ، والغلبة فإذا تولاها يمانى واسى اليمانين وخذلهم ، وحقر من شأن غيرهم ، والعكس والفرس بين هؤلاء وهؤلاء ضائعون تولى خراسان المهلب ابن أبى صفرة وآله عهداً طويلا ، وهم أزديون ـ أى يمانيون ـ فكانت السلطة بيدهم وحكموا حكماً عربياً ، قبلياً ، وكانوا فى منتهى الثروة ، والغنى فكانوا يمدون اليمانين أولا بمالهم وبجاههم قال المدائنى : « باع وكيل يزيد بن المهلب بطيخاً جاءه من مغلّ بعض أملاكه بأربعين ألف درهم فبلغ ذلك يزيد . فقال له يزيد تركتنا بقالين أما كان فى عشائر الأزد من تقسمه فيهم ؟ » [2] وكان عمر (بن عبد العزيز) يبغض يزيد (ابن المهلب) وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم [3] وتولى قتيبة ابن مسلم وكان باهلياً اى (مضريا) « فنكبت له أمراء القبائل لإذلاله إياهم واستهانته بهم واستطالته عليهم » [4] وأخيراً تولى خراسان نصر بن سيار وكان مضريا كذلك فمكث أربع سنين لا يستعمل فى خراسان إلا مضرياً [5] هذا وأمثاله سبب العداء بين اليمانين والمضريين

١ شرح النهج ١ ص ٣٠٥ ٢ ابن خلكان ٢ ص ٣٥٥ ٣ ابن [illegible] ٢ ٤ ٤ .
٤ شرح النهج ١ ص ٣٠٩ ٥ ابن خلدون ٣ ص ٩٧

فلما شعروا باجتماع الفرس عليهم فكروا ان يجمعوا كلمتهم ، ويوحدوا صفوفهم ، فقد رأينا نصر بن سيار ينبه العرب الى أن الفرس تريد أن تهلك العرب ، فأولى أن يتحد العرب ؛ كما اتحد الفرس . بل نرى ان الأمر قد وصل الى أكثر من ذلك . « فقد تواد عت قبائل العرب من ربيعة ، ومضر واليمن على وضع الحرب ، والاجتماع على قتال أبى مسلم الخراسانى »[١]. ولكن أبا مسلم وقومه بدهائهم ؛ أججوا نار الفتنة بين قبائل العرب من جديد . « فجعل أبو مسلم يكتب الى شيبان الخارجى يذم اليمانيــة تارة ، ومضر أخرى ويوصى الرسول بكتاب مُضَر ؛ أن يتعرض لليمانية ليقرءوا ذم مضر . والرسولَ بكتاب اليمانية ؛ أن يتعرض لمضر ليقرءوا ذم اليمانية »[٢] ويرسل أبو مسلم لعلىّ بن الكرمانى ـ أحد زعماء اليمانين ـ من يقول له : أما تأنف من مُصالحة نصر بن سيار ، وقد قتل بالأمس أباك وصلبه ؟ ما كنتُ أحسبك تجامع نصر بن سيار فى مسجد تصليان فيه ! »[٣] — وأخيراً بعد حوادث ودسائس نجح أبو مسلم « وتقدم نصر بن سيار الى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر . وبعثت ربيعة وقحطان الى أبى مسلم بمثل ذلك . فتراسلوا بذلك أياماً ، فأمرهم أبو مسلم أن يقدّم عليه وفد الفريقين ، حتى يختار أحدهما ففعلوا . وقدم الوفدان ، وسمع أبو مسلم وشيعته الخطب فى ذلك » ثم أعلن أبو مسلم اختياره . فقال : « قد اخترنا علىّ بن الكرْمانى ، وأصحابه من قحطان ، وربيعة . . . فنهض وفد مضر ، عليهم الذلة والكآبة »[٤].

اجتمع على الدولة الأموية اليمنية ، والربعية ، والعجم . وكان فى

---

١ ابن خلدون ٣ : ١٢١ .   ٢ ابن خلدون ٢ : ١١٩

٣ الطبرى ٩ : ٩٧ .   ٤ تجد القصة بطولها فى تاريخ الطبرى ٩ : ٩٧ .

النقباء [1] ـ وهم القادة، والزعماء الذين حاربوا الدولة الأموية ـ كثير من العرب. منهم قحطبة الطائى. وكان من أعظم العرب نفوذا فى قومه وقد خطب فى أهل خراسان يحقّر العرب، ويعظم الفرس فى لهجة عربية. وكان فارسيا أكثر من الفرس أنفسهم إذ يقول. يا أهل خراسان هذه البـــلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا يُنصرون على عدوهم لعدلهم، وحسن سيرتهم؛ حتى بدّلوا، وظلموا. فسخط الله عز وجل عليهم؛ فانتزع سلطانهم، وسلط عليهم أذل أمة كانت فى الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم واسترقّوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل، ويوفون بالعهد، وينصرون المظلوم، ثم بدلوا وغيروا، وجاروا فى الحكم وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم، لتكونوا أشد عقوبة؛ لأنكم طلبتموهم بالثأر» [2] وبعد أن أدى العرب عملهم نكل أبو مسلم بهم وقتل زعماءهم

* * *

سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية، ونال الفرس بعض أمنيتهم لا أمنيتهم كاملة. فأمنيتهم الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكها، وعمالها ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر؛ فالخلفاء العباسيون مقتنعون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس وكذلك العلماء والمؤرخون. فداود بن على [4] يخطب فيقول «يا أهل الكوفة؛ إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل

---

[1] انظر أسماء النقباء وقبائلهم فى الطبرى ٩ : ٩٨

[2] طبرى ٩ : ١٠٦   [3] داود بن على هو عم أبى جعفر المنصور

الشام الخ »[١] وأبو جعفر المنصور يقول . « يا أهل خراسان ! أنتم شيعتنا ، وأنصارنا ، وأهل دعوتنا »[٢] . ويقول الجاحظ : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية أعرابية »[٣] . « وكانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة ، لاقبال الدولة العباسية من خراسان »[٤] . وأوصى المنصور ابنه قبل وفاته فقال « وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك ، وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ؛ أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده »[٥]

استتبع هذا غلبة الفرس ، ونفوذهم . حتى عد المؤرخون من أهم خصائص هذا العصر قوة النفوذ الفارسي ، وضعف النفوذ العربي

ولكن إلى أي حد غُلب العرب ؟ وهل كان نفوذ الفرس في الدولة العباسية كنفوذ العرب في الدولة الأموية ؟ وهل انتهى بذلك الصراع بين العرب والموالي ؟ الحق أنه لم يكن كل ذلك ، فالخلفاء العباسيون عرب هاشميون — ولو من قبل الأب — وهم يفخرون بذلك ، ويعدونه من أكبر مناقبهم . وهم ان حفظوا للفرس معونتهم ، فلن ينسوا عربيتهم ، ويوم يشعرون بأن الفرس زاحموهم في سلطانهم ؛ نكلوا بهم كما نكل المنصور بأبي مسلم . والرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل . فالفرس في العصر العباسي الأول كان لهم نفوذ كبير . ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب . كانت أعظم المناصب كالوزارة في يد الفرس ، ولكن كان الخليفة عربياً هاشمياً ، وكان له قواد من العرب كما له قواد من الفرس ، وكان له ولاة من العرب ، وولاة من الفرس . حتى المنصور كانوا أقساماً أربعة

---

١ طبري ٩ ١٢٧ . ٢ مسعودي ٢ ١٩ .
٣ البيان والتبيين ٣ ٢٠٦ . ٤ مسعودي ٢ ١٨٣ ٥ طبري ٩ ٣١٩

يمنية ، ومصرية ، وربعية ، وخراسانية [1] . — وفى اليوم الذى ولى فيه المأمون طاهرا الشرطة ولى جماعة من الهاشميين كُوَرَ الشام [2] وقد ولى المنصور محمد ابن خالد بن عبد الله القسرى الحرمين [3] وولاة الرشيد للأمصار كان كثير منهم عرباً [4] واشتهر فى هذا العصر من أمراء العرب وقوادهم سعيد بن سلم الباهلى ، ومعن بن زائدة الشيبانى ، وأبو دُلَف العجلى ، وروح بن حاتم بن قبيصة والمهلب بن أبى صفره ، وثمامة بن اشرس ، إلى كثير من أمثال هؤلاء .

كل هذا ، يجعلنا نقول : ان الانقلاب العباسى جعل كفة الفرس راجحة ولكنه لم يعدم الكفة الأخرى العربية . وهذا ما جعل الصراع يستمر فى هذا العصر . فلننظر فى آثاره

نرى فى هذا العصر أن الناس لا يزالون ينزعون الى الفخر بالنسب العربى ، والولاء العربى . حتى نرى أبا مسلم الخراسانى يصطنع لنفسه نسباً عربياً فيزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس [5] وكتاب الأغانى يحدثنا ان اسحق الموصلى وهو ما هو من القرب من الرشيد ، تناظر مع ابن جامع بحضرة الرشيد فغالطا فسبه ابن جامع فمضى اسحق إلى خازم بن خزيمة (وهو عربى) فتولاه [6] ، وانتمى إليه . فعل ذلك منه فقال اسحق

إذا كانت الأحرارُ أصلى ، ومنصبى ،

ودافع ضيمى خازم وابن خازم

عطستُ بأنف شامخ وتناولت

يداى الثريا قاعدا غير قائم [7]

---

[1] طبرى ٩ ٢٨٢ [2] طيفور ٦٤

[3] الجهشيارى ١٣٨ [4] انظر الطبرى ١ ١١٢

[5] طبرى ٩ ١٠٧ [6] اى جعل أن يكون اسحق مولى له

[7] أنظر الحكاية فى الأغانى ٥ ٥٦ وانظر المعجم ١ ٨١

فهذه القصة : تدلنا دلالة واضحة على حاجة الأعاجم فى هذا العصر - حتى الأشراف منهم - إلى الانتماء إلى العرب بالولاء ، ليحتمى به ويدافع عنه ويحكى الأغانى أيضا أنه كان لعلى بن الخليل صديق فارسى ، فغاب مدة وقد أصاب مالا ، ورفعة ، ثم عاد إلى الكوفة ، وادعى أنه من تميم فقال يهجوه :

يروح بنسبة المولى ، ويصبح يدّعى العربا !
فلا هذا ، ولا هذا لك يدركه اذا طلبا !

إلى أن يقول يشمّ الشيح والقيصو م كى يستوجب النسبا !
فصار نشيها بالقو م جلفا ، جافيا خشبا !
اذا ذكر البرير[1] بكى وأبدى الشوق ، والطربا !
وليس ضميره فى القو م إلا التيس والعنبا[2] !

ويحكى فى موضع آخر أن والبة بن الحباب كان يدّعى النسب إلى العرب فقال فيه أبو العتاهية

أوالب أنت فى العرب كمثل الشيص فى الرطب !
هلمّ إلى الموالى الصيـ ـد فى سعة وفى رحب !
فأنت بنـا لعمر الله ، أشبه منك بالعرب[3] الخ

وادّعى رجل النسبة إلى العرب فقال بشار

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربى من قوارير !
ويقول فيه إن عمرا فاعرفوه عربى من زجاج !
مظلم النسبة لا يعـرف إلا بالسراج

---

١ فى القاموس ، البرير الاول من ثمر الاراك

٢ القصيدة بتمامها فى الأغانى وقصيدة أخرى مثلها فى هذا المعنى ١٣ : ١٨

٣ القصيدة فى الاغانى ١٦ : ١٤٩

وقال مخلد الموصلي :

أنتَ عندي عربيٌّ ، ليس في ذاك كلام !
عربي ، عربي عربي ، والسلام !!!
شعَر أجفانك قيصو م ، وشيح ، وثمام [١]

أفلو كان العرب قد ذلوا في هذا العصر ، وحقر شأنهم على الوصف الذي يصفه بعض المؤرخين كانت هذه الحركة ـ أعني حركة الانتساب الى العرب والاعتزاز بهم ـ تبلغ هذا المبلغ ؟

انما الذي نشاهده كذلك ان الحركة العربية دفعت بحركة أخرى فارسية ، وان الصوت الخافت الذي كنا نسمعه من مثل اسماعيل بن يسار ، في العهد الأموي فيعاقب عليه . اصبح الآن شديداً ، قوياً حراً . ونرى بشاراً رغم هذه الحركة يفخر مرة بخراسان ويقول

وهجاني معشر كلهمو حمق دام لهم ذاك الحمق
ليس من جُرمٍ ، ولكن غاظهم شرف العارض قد سد الأفق
من خراسانَ ، وبيتي في الذُّرى ، ولدى المسعاةِ فرعي قد سَمَق [٢]

ويفخر مرة بالعجم فيقول

ونبئت قوماً بهم جِنّة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم !
الا أيها السائلي جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرمْ !
نمت في الكرام بني عامر ؛ فروعي وأصلي قريش العجم !

ويقول ذلك أمامَ المهدي ، فلا يعاقبه كما فعل هشام بابن يسار بل

---

[١] محاضرات الادباء ١ ٢٢٢ وما بعدها   [٢] سمق سموقا علا وطال

يسأله من أى العجم أنت ؟ فيقول من أكثرها فى الفرسان ، وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان

بل كان يبرأ من الولاء . ويقول

أصبحتُ مَولى ذِى الجلال ، وبعضُهم

مَولى العُريب ! فخذ بفضلك وافخرِ

مَولاكَ أكرَم من تميمٍ كلِّها .

أهلِ الفَعال ، ومن قريشِ المشعَرِ !

فارجع الى مولاكَ غيرَ مدافعٍ .

سبحانَ مَولاكَ الأجل الأكبرِ !

بل كان يدعو الموالى إلى نبذ ولائهم للعرب فيروى الأغانى ان رجلا من بنى زيد شريف قال لبشار « يا بشار ! قد افسدت علينا موالينا تدعوهم الى الانتفاء منا وترغبهم فى الرجوع الى اصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل ! فقال له بشار والله لأصلى اكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود ان نسبك له بنسبه ! »[1]

وقال له عربى ما للموالى والشعر ؟ فقال يهجو العرب

أحينَ كُسيتَ ـ بعد العُرْىِ ـ خزا ونادمتَ الكرامَ على العُقار ؟

تفاخرُ يا ابن راعيه وراعٍ بنى الأحرار ، حسبكَ من خسارِ !

تريع[2] بخطبةٍ كسرَ الموالى ، وينسيكَ المكارمَ صيدُ فار

وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قراحٍ شركتَ الكلب فى ولغِ الإطار[3]

---

١ أغانى ٣ : ٥١ . ٢ تريع ترتد ٣ الاطار ما حول البئر

وتعدو للقناقد تدريها ، ولم تعقل بدرّاح الدّيار [1]
وتتشح الشمال للابسيها ، وترعى الضأن بالبلد القفار [2]

ولبشار كثير من هذا الضرب ، يدلنا على ما نقول انه كان زعيم الحركة العدائية للعرب كما يرينا ما كان له ولأمثاله من حرية — في هجاء العرب — لم يكونوا يعهدونها في العصر الأموي .

وكثر ادعاء الناس للانتساب الى كسرى كذلك حتى قال جحظة .
وأهل القرى كلهم يدعون لكسرى ادّعاء ! فأين النّبيط ؟ [3]

* * *

مما لا شك فيه ان نفوذ الفرس قد قوي في عهد العباسيين الأولين ، وكان هذا النفوذ يزداد يوما فيوما

قد كان استخدام الموالي في العهد الأموي نادراً ، وكان يقابل بامتعاض . فقد استخدموا — مثلا — رجاء بن حيوة ، وكان مولى كندة واستخدم عمر بن عبد العزيز مولى ، وجعله والياً على وادي القرى فعوتب على ذلك . ولكن ما كان شاذاً في العصر الأموي صار هو المألوف في العصر العباسي . ابتدأ المنصور يكثر من استخدام الموالي يقول السيوطي : « ان المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب وكثر ذلك بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها » [4] وليس معنى هذه العبارة أن أحدا قبله من خلفاء بني أمية لم يستعمل مولى قط وانما المعنى أن المنصور اتخذ استعمال الموالي مبدأ له وقاعدة ، ورأسهم على العرب وهو بهذا المعنى أول من فعل ذلك ، والجهشياري في كتابه تاريخ الوزراء يروى لنا ما يفهم منه

---

١ بدرها [illegible] والدراح [illegible] ٢ أسس ٣ ٣٣
٣ محاضرات الادباء ٢ . ٢٢٣ . ٤ تاريخ الخلفاء ١٠٥

ان أكثر من تولى الأعمال للمنصور موالى [1] ويقول المسعودي في المنصور إنه أول خليفة استعمل مواليه، وغلمانه، وصرّفهم في مهماته، وقدمهم على العرب واتخذت ذلك الخلفاء من بعده - من ولده - سنّة؛ فسقطت، وبادت العرب وزال بأسها، وذهبت مراتبها [2] ويروى الطبرى «أنه كان للمنصور خادم أصفرُ الى الأدمة، ماهر لا بأس به فقال المنصور يوماً ما جنسك؟ قال عربي يا أمير المؤمنين قال ومن أي العرب أنت؟ قال من خولان، سُبيتُ من اليمن، فأخذني عدوٌ لنا فجبّني فاسترقّني، فصرت الى بعض بني أمية، ثم صرت اليك قال أما انك نعم الغلام ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي. اخرج عافاك الله فاذهب حيث شئت!» [3] ويروى الأغاني أن أبا نخيلة وقف على باب أبي جعفر، واستأذن فلم يصل، وجعلت الخراسانية تدخل، وتخرج فتهزأ به، فيرون شيخاً أعرابياً جلفاً فيعبثون به فقال له رجل عرفه كيف أنت يا أبا نخيلة؟ فأنشأ يقول

أصبحت لا تملك بعضى بعضا   تشكو العروقُ الآبضاتُ [4] أبضا

كما تشكّى الأرحبي الغرضا   كأنما كان شبابي قرضا

فقال له الرجل وكيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة؟ فقال

أكثرُ خلق الله من لا يُدرى   من أيّ خلق الله حين يُلقى!؟

وحلّةٌ تُنشر ثم تُطوى،   وطيلسانٌ يشترى فيُغلى

لعبد عبد أو لمولى مولى   يا ويح بيت المال! ماذا يلقى؟ [5]

---

١ انظر الجهشيارى ١٣٩ و١٥٣ و١٥٥ و١٥٧

٢ المسعودى ٢ ٤٠١   ٣ طبرى ٩ ٣١٦

٤ الآبضات المنقبضات

٥ الأغانى ١٨ ١٤٨

ولكن مع هذا كله استخدم المنصور بعض العرب . فقد ولّى سَلْم بن قتيبة الباهلي البصرة كما ولّى مولًى كُوَرَ البصرة ، والأُبُلّة[1] . ورأيتَ قبل أن جند أبي جعفر كانوا عربا وعجما .

فلما جاء الرشيد : زاد نفوذ الفرس بفضل البرامكة ، وقد كانوا المصرِّفين للدولة وشؤونها . فاستتبع نفوذهم نفوذَ جنسهم ، واتخذوا لذلك سياسة محكمة . منها : ما يرويه لنا الطبري : أن الفضل بن يحيي (البرمكي) اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم « العباسية » وجعل ولاءهم لهم (للعباسيين) وأن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل ، وأنه قدم منهم بغدادَ عشرون ألف رجل . فسموا ببغداد : « الكرنبيَّة » ، وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم »[2] .

وزاد نفوذهم كذلك في عهد المأمون فقد انتصر الفرس نصرة ثانية

---

١ عيون الأخبار ١ : ٢٩٠ . ٢ طبرى ١٠ : ٦٢ . وقد ساعد على هذا النفوذ نوع من الولاء جديد ، ظهر في هذا العصر ، ولم نكن نعرفه من قبل . وهو غير أنواع الولاء التي شرحناها في « فجر الاسلام » ذلك هو ما يسميه ابن خلدون : « ولاء الاصطناع »[1] وذلك أن الخليفة يجد قوماً من الفرس ، أو الترك مثلا فيمنحهم شرف الانتساب اليه ، والى دولته . ويستخدمهم في القيام بشؤونه والحرب ... ، ويجرى عليهم الأرزاق ؛ فيسمون مواليه ، وموالي دولته . كما استخدم العباسيون الأولون بني برمك ، وبني نوبخت من الفرس ، فأطلق عليهم : موالي الدولة العباسية وكما فعل المعتصم بالأتراك . وهو معنى لم نلحظه في دولة بني أمية فلم يكن لدولتهم موال بهذا المعنى — على ما أعلم — وهذا النوع من الولاء زاد نفوذ الفرس أولا ، والترك ثانياً ؛ لأنه كان يزيد عددهم ، وقوتهم ، وكان يشعرهم بأن الدولة دولتهم ، وأن لهم سلطاناً على الرعية مستمداً من سلطان خليفتهم . وقد رأينا فيما نقلنا عن الطبرى أنه في مرة واحدة كان خمسمائة ألف فارسي موالي للعباسيين — وهذا غير الموالي الذين كانوا يؤسرون فيسترقون . فترى من هذا كيف غمر العرب بالموالي .

---

١ انظر ابن خلدون ١ : ١١٤ .

كالتي كانت بين العباسيين والأمويين لأن أغلب الفرس تعصب للمأمون ، وأكثر العرب تعصبوا للأمين فعُدّت غلبة المأمون نصرةً فارسية فطيفور يذكر لنا في تاريخه « ان العجم كانوا يركبون ومعهم القِسيّ ، والنشاب ، بين يدى المأمون »[١] ويروى الطبرى « أن رجلا تعرض للمأمون بالشام مراراً فقال له يا أمير المؤمنين ! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال « المأمون » أكثرت علىّ يا أخا أهل الشام ! والله ما أنزلتُ قيساً عن ظهور الخيل ؛ الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ! وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبّتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانىّ وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة ، فساخطة على الله منذ بعث الله نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شارياً . اعزب فعل الله بك »[٢]

فلمـــا جاء المعتصم احل الترك محل الفرس فنكّل الترك بالفرس والعرب جميعاً ، كما سنوضح ذلك عند الكلام على العصر الثانى ان شاء الله

* * *

كان لنفوذ الموالى ، وخاصة الفرس مظاهر عدة

(١) ان قصور الخلفاء ملئت بالموالى يستخدمون فى أعمال شتى ، وبيوتَ الحريم ملئت بالخصيان وقد أخذ المسلمون ذلك عن البيزنطيين ، ولم تكن هذه العادة معروفة عند العرب

(٢) قصْر المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس تقريباً

(٣) نفوذ العادات ، والتقاليد الفارسية كاحياء يوم النيروز ، ولبس القلنسُوَة

(٤) انتشار الثقافة الفارسية وسنفرد له باباً خاصاً .

* * *

١ طيفور تاريخ بغداد ١٥ ٢ طبرى ١ ٢٩٦

لم يستسلم العرب لقوة الموالي ونفوذهم بل قاوموا. وكان بين الجانبين صراع عنيف حيناً، وهادئ حيناً، واتخذ هذا الصراع أشكالا مختلفة. فمثلا يعتمد الصراع على الدس عند الخليفة فيكيد العرب للموالي، ويكيد الموالي للعرب. ومن أجل هذا كان تنكيل الخلفاء بالوزراء من حين إلى حين حتى قال قائلهم:

إن الوزير وزير آل محمد ... أودى فمن يشناك كان وزيرا

وكان تاريخ الوزراء سلسلة نكبات، ولسنا نستبعد أن كثيراً منها كان سببه ما شعر به الخلفاء - تحت تأثير الدسائس - من نفوذ الفرس، وقوة سلطانهم واستبدادهم بالأمور دونهم. يقول ابن خلدون: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة، وقيادة وحجابة، وسيف وقلم». ويقول: «إن البرامكة مُدحوا بما لم يُمدح به خليفتهم، وأسنَوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع. حتى آسفوا البطانة، وأحقدوا الخاصة. فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة - أخوال جعفر - من أعظم الساعين عليهم[1]».

ويناقش نعيم بن حازم العربي مع الفضل بن سهل الفارسي بين يدي

---

(١) مقدمة ص ١٣

المأمون فيحسّن الفضل نقل الخلافة إلى العلويين . فيقول نعيم للفضل « انك انما تريد أن تزيل الملكّ عن بنى العباس إلى ولد علىّ ثم تحتال عليهم ثم تصيّر الملك كسروياً »[١]

وكثير ممن تولى المناصب الكبيرة من الفرس، كان ينكل بمن استطاع من العرب كالذى كان من الأفشين وأبى دلف العجلى فقد كان الأفشين أعجمياً من « أشروسنه » بآسيا الصغرى ، وكان قائد جيوش المعتصم ، وكان يكره العرب من أعماق نفسه ، وكان يقول إذا ظفرت بالعرب شدّخت رءوس عظمائهم بالدّبّوس »[٢] وسيأتى له ذكر عند الكلام فى الزندقة . وأبو دلف العجلى عربى من نزار وكان يعيش عيشة عربية . كريماً شجاعاً ممدّحاً ، وبابه مفتوح للشعراء والأدباء والسؤّال ، وماله مقسم عليهم ، وكان أحد قواد المعتصم أيضاً ، وكان سيد أهله ، ورئيس عشيرته من عجل وغيرها من ربيعة . وكان شاعراً مجيداً شجاعاً بطلا مغنياً[٣] .

فيحدثنا التنوخى فى كتابه « الفرج بعد الشده » أن الأفشين همّ بقتل أبى دلف وصفّده بالحديد ، وأجلسه على نطع بين يديه تقرّعه ويخاطبه بأشد غضب ، ويهم بقتله ! فيعلم احمد بن أبى دواد (وهو عربى وقاضى المأمون والمعتصم) فيسرع الى الأفشين ويدخل عليه من غير استئذان خيفة أن يعجل عليه ويقول له « إن أبا دلف فارس العرب وشريفها؛ فاستبقه وأنعم عليه فان لم تره لهذا أهلا فهبه للعرب كلها ، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب ! ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملّكه وأنت اليوم نفيه العجم فأنعم على شريف من العرب بالعفو عنه ! » فيأبى ذلك الأفشين ثم يشعر ابن أبى دواد بمكانته عند المعتصم حتى ليستطيع

---

١ الجهشيارى ص ٣٩٧

٢ الدبوس شبه بالعصا التى فى رأسها عجره ، البيان والتبيين ٣ ٣٣

٣ مسعودى ٢ ٢٧٧

أن يتكلم على لسانه فيقول للأفشين إنى رسول أمير المؤمنين إليك وهو يقول لا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثاً فانك إن قتلته قتلت به ! » وذهب إلى المعتصم فأخبره الخبر فأقره عليه وبذلك نجا أبو دلف سيد العرب من سيد العجم ![1] وكان احمد بن أبى دواد من ناحيه أخرى يستخدم منصبه فى قضاء حوائج العرب « فيقول (للمعتصم) فلان الهاشمى ، وفلان القرشى ، وفلان الأنصارى ، وفلان العربى » ، ولا يزال يلاطف حتى تقضى مطالبه[2]

وشكل آخر من شكل الصراع ـ وهو الصراع الأدبى الذى كان معروفا فى العصر الأموى ـ وهو الافتخار بالانساب من طريق الأدب . كالذى كان بين عبد الله بن طاهر (الفارسى) يفتخر بنسبه فى الفرس ، فيرد عليه محمد بن يزيد (العربى الأموى) يفتخر بالعرب فقد قال عبد الله بن طاهر قصيدة يفخر بها بمآثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم الأمين يقول فيها

أقصرى عما لهجت به ومراعى عنك مشغول

أنا من قد تعرفين نسبى سلفى الغرُّ البهاليل

ومنها وأبى من لا كفاء له من يُساوى مجده ؟ قولوا

ومنها انظر المخلوع كلكله وحواليه المقاويل

فثوى والترب مضجعه غال عنه ملكَهُ غولُ

فاذ جشنا نحو بائلة ضاق عنه العرض والطول

من خراسانٍ مصَمْصَمَهم كليوث ضمها غِيلُ

---

[1] انظر القصه بأكملها فى كتاب الفرج بعد الشدة ٢ ٢٨

[2] انظر القصه فى المسعودى ٢ ٢٩٤

وهبوا لله أنفسهم لا لمعازيل ، ولا ميل [١]

ويقول محمد بن يزيد : « لما بلغتنى هذه القصيدة امتعضت للعرب ، وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم لأنه قتل ملكا من ملوكهم بسيف أخيه لا بسيفه . فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الوضع . فرددت عليه قصيدته » ومطلعها :

لا يرعك القال والقيل كل ما بلغت تضليل

يا ابن بيت النار موقدها ما لحاذيه سراويل

من حسين من أبوك ومن مصعب غالتكمو غول

نسب فى الفخر مؤتشب ، وأبوّات أراذيل

قاتل المخلوع مقتول ، ودم المقتول مطلول

ومنها ما جرى فى عود أثلتكم ماء مجد فهو مدخول

قدحت فيه أسافله فأعاليه مهازيل

ويقول قائل من الفرس :

بهاليل غرٌ من من ذؤابة فارس إذا انتسبوا لا من عرينة أو عكل !

همو راضة الدنيا ، وسادة أهلها اذا افتخروا لا راضة الشاء والابل

فيقول آخر عربى

لا تغترر أنك من فارس فى معدن الملك ودبوانه

لو حدثت كسرى بذا نفسه صفعته فى جوف ايوانه !

---

١ القصيدة موجودة بعضها فى الفرج بعد الشدة ١ : ٧٤ وهى مملوءة بالتحريف، والقصة مختصرة فى الأغانى ١١ : ١٣ .

وهناك شكل ثالث من أشكال الصراع ؛ هو الصراع العلمى وسنعرض له بعد .

كانت نتيجة هذا الصراع هزيمة العرب ، وغلبة الموالى . ولكن يجب أن نقرر أن هزيمتهم التامة كانت فى الناحية السياسية والادارية . فأما دينياً ولغوياً فقد انتصر العرب فلم تستطع المجوسية أن تساير الاسلام . ولم تستطع لغات الموالى أن تضع من شأن لغة العرب بل خدمتها وعملت على ترقيتها من نواح مختلفة . وظل الموالى الذين يخدمون أغراضهم السياسية ، وينجحون فيها يخدمون فى الوقت نفسه الدين واللغة ـ يضعون قواعدهما ، ويضبطون شواردهما ـ وحركات الزندقة التى كانوا ينفثونها من حين لآخر أخمدت فى قوة وان كانت قد تركت أثراً ضئيلا ـ كما أن سعى بعضهم لاحلال اللغة الفارسية محل العربية . لم يصادف فى عصرنا الذى نؤرخه آذاناً سميعة ، وظلت اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وهى لغة الدين ، ولغة العلم ، وأقبل الموالى على تعلمها ، واجادتها اجادة تقرب من اجادة أهلها . وحسبك دليلا : أنّ أبا مسلم الخراسانى كان يجيد العربيـــة ، ويفهم أراجيز رؤبة [١] . وأنّ أكثر الكتاب المجيدين فى العربية فى هذا العصر كانوا فرساً . وأن الأصمعى يحكى عن عصره : أن مما يخل بالمروءة التكلم فى مصرٍ عربى بالفارسية ! [٢] .

---

١ الأغانى ١٨ : ١٢٣ .   ٢ عيون الأخبار ١ : ٢٩٦ .

الفصل الثالث

الشعوبيّة

نستطيع بعد الذى ذكرنا فى الفصل السابق، أن نقول إن عصرنا الذى نؤرخه، كانت تسود فيه ثلاث نزعات

(النزعة الأولى) تذهب الى أن العرب خيرُ الأمم، ولهم فى ذلك حجج، نجملها فيما يأتى

(١) أنهم عاشوا حياتهم متمتعين باستقلالهم؛ فهم فى جاهليتهم جاوروا دولتى الفرس والروم، وكلتاهما دوخ البلاد وأسس ملكا عظيما، وكلتاهما كان له من الجند والعدد والعدة ما لا يحصى كثرة. ومع هذا فلم تجرؤ كلتاهما أن تمس استقلال العرب، وأن تطأ ديارهم، بل تملَّقوهم، واستعانوا باللخميين فى الحيرة، والغساسنة فى الشام ومنحوهم المال، وقدموا لهم الديار ليحموهم من غارات عرب الجزيرة عليهم فهم كانوا أحوج الى العرب من حاجة العرب اليهم!

ولم يشأ أصحاب هذه النزعة أن يعتقدوا أن زهد الفرس والروم فى أرضهم، وعدم إقدامهم على إخضاعهم؛ منشؤه أن أرض الجزيرة ليس فيها من الخيرات والثروة ما يُطمِع! بل اعتقدوا أن انصراف الفرس والروم عنهم إنما كان لشجاعة العرب وإقدامهم وصبرهم، وأن لهم من أرضهم منَعة تجعل حربهم حرب عصابات، لا يستطيع الجيش المنظم أن يحاربهم فى أشكال حروبهم، ولا أن يقف أمامهم

وأما فى إسلامهم؛ فقد حافظوا على استقلالهم، بل وأضاعوا استقلال

الفرس، وأخضعوهم لحكمهم، كسروا جيوش الروم، وطردوهم من أملاكهم!

(٢) أن لهم صفات خلقية امتازوا بها، فهم أكرم الناس للضيف، وأنجدهم لمستصرخ، يعقر أحدهم ناقته التي لا يملك سواها للطارق ينزل به، وهو ممسك بعنان فرسه؛ كلما سمع هَيْعَةً[1] طار إليها؛ وهم أوفى الأمم، تتكلم أحدهم الكلمة فيكون نَصًّا، ويلجأ إليه اللاجيء فيحمي جواره، حتى ليحتكم فيه جارُه حكمَ الصبي في أهله، وهم على ذلك فادة الأمم في البيان، وحسن التعبير، وهم معدن الشعر، ولهم حسن البديهة، وقول الأمثال السائرة وابتداع الكلام ما ليس لغيرهم. وهم أحفظ الناس لأنسابهم فليس أحد منهم إلا يعرف نسبه، ويُسمِّي آباءه، وإذا انتسب أحدهم إلى غير آبائه عرفوا أنه دَعِيٌّ، حفظوا أنسابهم، وبنوا على ذلك أحسابهم!

(٣) منهم نشأ الإسلام، ورسول الله من أنفسهم، وهم الناشرون له بين الأمم، والداعون إليه، والحامون لدعوته، فكل من أسلم من العجم ففي عنقه مِنَّة من العرب لا تقدَّر، هم الذين أنقذوه من دينه القديم، وهم الذين أخرجوه من الشرك إلى التوحيد وهم الذين اصطلوا نار الحروب لهدايته، وهم الذين فدوا أنفسهم لحمايته!!

هذه هي أهم حجج الذاهب إلى هذا الرأي.

ويروون أن جماعة اجتمعوا بالمربد ومعهم ابن المقفع فسألهم أي الأمم أعقل؟ فظن بعضهم إلى بعض، فقالوا لعله أراد أصله من فارس! فقالوا فارس فقال ابن المقفع ليسوا بذلك إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الخلق فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم قالوا فالروم

---

(١) الهيعة صوت الصارخ للفزع

قال . أصحاب صنعة قالوا فالصين . قال : أصحاب طرفة قالوا الهند قال أصحاب فلسفة . قالوا السودان قال شر خلق الله الخ قالوا فقل قال العرب فضحكوا ! قال ابن المقفع انى ما أردت موافقتكم ، ولكن اذ فاتنى حظى من النسب فلا يفوتنى حظى من المعرفة ان العرب حكمت على غير مثال مثّل لها ولا آثار أُثِرَت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شَعَر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ويُحَسِّن ما يشاء فيَحْسُن ، ويقبّحُ ما يشاء فيقبُح ، أدّبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم وافتتح الله دينه وخلافته بهم الى الحشر فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصِم ! [1]

ويروى لابن المقفع أيضا أنه قال ، وقد جرى ذكر الشعر وفضيلته « أى حكمة تكون أبلغ أو أغرب أو أعجب : من غلام بدوى لم ير ريفاً ، ولم يشبع من طعام ، يستوحش من الكلام ، ويفرح الى الشر ، ويأوى الى القفر واليرابيع والظباء ، وقد خالط الغيلان وأنِسَ بالجان ، فاذا قال الشعر وصف ما لم يره ، ولم يَعْهَده ، ولم يعرفه ثم يذكر محاسن الاخلاق ومساويها ، ويمدح ويهجو ويذم ، ويعاتب ويشبّب ، ويقول ما يُكتَب عنه ، ويروى له ويبقى عليه ! ؟ » [2] ونحن مع شكنا فى هذه الرواية عن ابن المقفع لأسباب ليس هذا موضعها ، فاننا نذكرها لأنها تمثل هذه النزعة [3]

ويقول الجاحظ « ليس فى الأرض كلام هو أمتع ، ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذ فى الاسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول سماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء » [4].

١ العقد الفريد ٢ ٥ ٢ زهر الآداب — على هامش العقد — جزء ٢ ٢

٣ من أدلة الوضع ، أن العبارة الآتية وردت فى مجموعة الرسائل طبع الجوائب من كلام لأبى هلال العسكرى ٤ زهر الآداب ٢ ٢

وهذه النزعة كان يمثلها أشراف العرب وَبَدْوُهم، كما كان يمثلها قوم من العجم أسلموا اسلاما عميقا، وأحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعماق نفوسهم، وأحبوا العرب لأن النبي منهم، ولأنهم أسلموا على أيديهم.

(النزعة الثانية) تذهب الى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم، ولا أية أمة أفضل من أية أمة «والناس كلهم من طينة واحدة، وسُلالةُ رجل واحد» وانما التفاضل بين الأفراد لا بين الأمم «وليس تفاضل الناس فيما بينهم بآبائهم واجسامهم، ولكن بأفعالهم وأخلاقهم، وشرف أنفسهم وبُعد هممهم ألا ترى أن من كان دنيء الهمة، ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بني هاشم في ذؤابتها، ومن أمية في أرومتها، ومن قيس في أشرف بطن منها! انما الكريم من كرمت أفعاله، والشريف من شرفت همته»[1]

يقف هؤلاء موقفا - على السواء - بين الأمم فلا عربي أفضل من أعجمي لأنه عربي، ولا أعجمي أفضل من عربي لأنه أعجمي. وليست العربية ولا الأعجمية عاملا من عوامل التفاضل. انما عاملُ التفاضل الدين وحده عند قوم، والشرف وسمو الخلق عند آخرين! وفي هذا المعنى جاء القرآن الكريم «يأيُّها النَّاسُ إنَّا خلقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وجعلْناكُمْ شعُوباً وقبائلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكرمَكُم عِندَ الله أتقاكُم» وفي الحديث «ليس لعربيٍّ على عجميٍّ فضلٌ إلا بالتقوى» و«المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يَدٌ على من سواهم» ويقول المأمون «الشرف نسب. فشريف العرب أولى بشريف العجم من وضيع العجم بشريفهم، وشريف العجم أولى بشريف العرب من وضيع العرب بشريفهم»[2] وابن قتيبة بعد أن دافع عن العرب وأبان فضلهم على غيرهم من الأمم، عاد فمهد

---

(١) العقد ٢: ٨٩ (٢) محاضرات الأدباء ١: ٢١٩

أكل ذلك وقرر المساواة فقال فى آخر كتابه « تفضيل العرب » « وأعدل القول عندى ، أن الناس كلهم لأب وأم خُلقوا من تراب ، وأعيدوا إلى التراب ، وجرَوا فى مجرى البول ، وطوا علیهم الأقذار فهذا نسبهم الأعلى الذى يُردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء ، ثم الى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب ، وتبطل الأحساب الا من كان حسبه التقوى أو كانت مادته طاعة الله [1] »

وحجة هؤلاء أن فى كل أمة الطيب والخبيث ، ولكل أمة محاسنها ومساويها ، وخير ميزان توزن به الأعمال الدين أو الخلق ولسنا نستطيع ذلك فى الأمم انما نستطيعه فى الأفراد فنرد خير من فرد بدينه أو بخلقه ، ولا شيء غير ذلك . وهذا الصنف من الناس يسمَّون « أهل التسوية » أى الذين يسوّون بين الأمم ، ولا يجعلون فضلا لأمة على أخرى ، ويمثلهم أكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم ، لأن روح الاسلام وقواعده تؤيد هذا المذهب

(الفرقة الثالثة) تميل إلى الحطّ من شأن العرب ، وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم وحجتهم فى ذلك

(١) أن العرب ليست لها أية ميزة ، على حين أن كل أمة لها ميزة تفخر بها فالرومان تفتخر بعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، وعظم مدنيتها والهند تفخر بحكمتها وطبها ، وكثرة عددها ، وأنهارها وثمارها . والصين تُزهى بصناعاتها ، وفنونها الجميلة ، وما إلى ذلك . ولا تجد العرب تمتاز بشيء يضارع ما ذكرنا حدث فى أرض ! وبداوة فى عيش ! كانوا فى جاهليتهم يقتلون أولادهم من الفقر ، ولا يسفر لهم حال من الغزو والسلب ، ويفعلون

---

[1] العقد ٢ ٩

المكرُمة الصغيرة كاطعام جائع ، وإغاثة ملهوف فيملئون الدنيا بها شعراً ونثراً ، ويتيهون بذلك فخراً !

(٤) قالوا فيم يكون الفخر ؟ أبالملك ؟ فأين ملك العرب من ملك الفراعنة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة ؟ ! أو من سليمان الذي أوتى من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ؟ ! أو من ملك الاسكندر وقد بلغ مطلع الشمس ومغربها ! أم بالنبوة ؟ فجميع الأنبياء من غير العرب ما خلا أربعة : هودا وصالحا واسماعيل ومحمدا ! أم بالصناعة والعلم ؟ فالعرب أضعف الأمم فى ذلك شأنا ، وأعقمهم يداً ، وأخملهم عقلا ! أم بالشعر ؟ فلم ينفرد العرب به فلليونان شعر موزون مقفى وللرومان شعر كذلك أم الخُطَب والبيان ؟ فللفرس واليونان والرومان خطب محبرة ، وبيان ساحر فما الذى يفخرون به بعد ذلك ؟ ! يفخرون بالكرم والوفاء ؟ وقولهم فى ذلك أطول وأعرض من فعلهم ! ويفتخرون بالأنساب وقد كانوا فى جاهليتهم لا يتقيدون بنوع الزواج المعروف فى الاسلام بل كان من أنواع زواجهم شيوع المرأة بين عدة رجال ! وكانوا فى حروبهم يَسْبى بعضهم نساء بعض ، ويستمتع بها من غير زواج ، فكيف يدرى أحدهم أباه !

(٣) وإن فخرتم بالاسلام فليس الاسلام دين العرب وحدهم بل هو دين الناس . والاسلام نفسه حارب نزعتكم ، فهدم العصبية الجاهلية ، وجعل مقياس الشرف التقوى والدين بيننا وبينكم ، والدنيا نحن أحظى بها وأعرف بمزاياها وأكثر نفعاً فى شئونها

و تُمثل هذا الصنف — من يحقرون العرب ، و يضعون من شأنهم و يسوّدون كل أمة عليهم — مَن ظلوا على دينهم القديم ، أو أسلموا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبهم ، أو غلبت عليهم النزعة الوطنية فكرهوا من العرب أنهم أزالوا ملكهم ، وأضاعوا استقلالهم

هذه هي النزعات الثلاث التي كانت في ذلك العصر. وعلى هذا النحو كانوا يتجادلون. وقد أطلق على أصحاب النزعتين الأخيرتين اسم «الشعوبية» وكان أحق الناس بهذا الاسم الطائفة الثانية لأنهم يقولون «بالشعوب» أي يقولون بأنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم في الشرف والحسبة وكان أمامهم أن يتسموا باسم مشتق من «المساواة» أو باسم مأخوذ من الشعوب يدل على أن الشعوب سواء، فاختاروا الثاني وسمّوا «الشعوبية». ولذلك يقول في العقد الفريد «الشعوبيـة وهم أهل التسوية» ويقول في الصحاح «الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم» ولكن لا نلبث أن نراهم أطلقوا هذا الاسم على الصنف الثالث أيضاً. فلو قرأنا ما كتب الجاحظ، وصاحبُ العقد وغيرُهما وجدنا أنهم انساقوا في تسمية المعادين للعرب «بالشعوبية». والظاهر أن تسميتهم بهذا الاسم تأخرت عن تسمية أهل التسوية به، كما تأخرت الفرقة الثالثة عن الفرقة الثانية تاريخياً، فطبعي — وقد كان العرب متغلبين في العصر الأموي، وكانت النزعة الأولى على أشدها وقوتها وسلطانها — أن يبدأ الموالي فيقولون بالمساواة فقط. وكل أمنيتهم أن يظفروا بذلك، حتى إذا اشتد الجدل، وأحس الموالي قوتهم وسلطانهم — أيام الرشيد والمأمون، ظهرت النزعة الثالثـة تضع من شأن العرب، وترفع من غيرهم. وانسحب اسم «الشعوبية» عليهم وصار يطلق على أصحاب النزعتين معاً. بل وحتى صار أكثر ما يطلق على الصنف الثالث قال في اللسان «والشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم».

يستنتج مما ذكرنا أن لفظ الشعوبية مأخوذة من الشعوب جمع شَعْب وهو جيل الناس، وهو أوسع من القبيلة، وأشمل. قال الزبير بن بكار «الشَّعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة» وعلى

هذا فالعرب شعب ، والفرس شعب ، والروم شعب وهكذا ـ وقد ذهب قوم الى أنها مأخوذة من الشعوب في قوله تعالى « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » وقالوا إن المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل قبائل العرب ـ وهو تفسير في نظرنا غير صحيح ، وأوضح دليل على ذلك أن العرب لم تكن تفهمه حين نزول الآية فقد نقل لنا الطبري آراء كثيرة من الصحابة والتابعين في تفسيرها وكلها تدور حول أن المراد بالشعوب النسب البعيد ، أو البطون ، والقبائل دون ذلك ـ والذي يظهر أن تفسير الشعوب بالعجم ، والقبائل بالعرب تفسير شعوبي وضعه أعجمي ، واستطرد منه الى القول بأن العجم أفضل من العرب ، لأن الله قدمهم في الذكر قال ابن قتيبة « ولقي أن رجلا من العجم . احتج بقول الله عز وجل يأيها الناس الآية وقال الشعوب من العرب ، والقبائل من العرب ، والمُقدَّم أفضل من المؤخر وقد كنت أرى أهل التسوية يحتجون بهذه الآية ، وقد غلطوا من وجهين أحدهما ، أن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل قال الله عز وجل يا معشر الجن والانس ، فقدم الجن على الانس ، والانس أفضل منها والوجه الآخر ، أن العجم ليست بالشعب أولى من العرب . وكل قوم كثروا وانشعبوا فقد صاروا شعوبا

من الجائز أن يكون اسم الشعوبية أُخذ من الشعوب بعد أن فسرت الآية بهذا التفسير ـ ولكنه يكون مرتكزا على أساس خطأ ـ وأرجح أن اسم الشعوبية لم يستعمل الا في العصر العباسي الاول ، لدليلين ظنيين (الأول) ما أسلفنا وهو أن هذه النزعة التي تحاول مساواة العرب أو تحقيرهم لم تجد شكلا قويا واضحا يصح أن يطلق على معتنقيه اسم الا في هذا العصر ، أما قبل ذلك فقد كانت نزعة خفية لا تستطيع الظهور ، واذا ظهرت أحدثت والحاجة الى

الاسم انما تكون بعد أن يتخذ المبدأ شكل عقيدة عامة أو حزب (الثانى) أنا لم نر من أطلق هذا الاسم على هذه النزعة فى العصر الأموى ، نعم إن الأصفهانى فى الأغانى قال : ان اسماعيل بن يسار كان شعوبيا ، ولكن من الواضح أن الأصفهانى وهو عباسى سمى اسماعيل بالاسم الذى يستحقه لمّا رَفَع شأن العجم ـ وتغنّى فى ذلك بشعره أمام هشام بن عبد الملك ، وليس المعنى أن اسماعيل بن يسار عُرف بذلك الاسم فى عصره . وذلك كما عَدُّوا سَلْمان الفارسىّ متصوفا ، مع أن قائلا لم يقل بأن اسم الصوفية عُرف فى عهد سلمان . كذلك روى عن مسروق : « أن رجلا من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية ، فأمر عمر ألاّ تؤخذ منه » ومسروق تابعى كان فى العصر الأموى . وقد فسر ابن الأثير الشعوب فى هذا القول بالعجم ، وقال فى اللسان : « ويجوز أن يكون جمعَ الشعوبى ـ وهو الذى يصغر شأن العرب ـ كقولهم اليهود والمجوس فى جمع اليهودى والمجوسى » ونحن نستبعد التفسير الثانى ، لأنه صادر من متأخرين ، وقد فسروه بما عرفوه بعد عصر مسروق ، والذى نراه : أن مسروقا أراد أن رجلا من الشعوب الأخرى غير العرب اسلم وإذن لا يكون فيه دليل .

وقد يستأنس ـ على ما نقول ـ بأن أكثر أسماء المذاهب التى وضعت فى صدر الدولة الأموية ؛ لم تكن فيها ياء النسبه كالخوارج ، والشيعة ، والمُرجئة ، والمعتزلة ، ولم تُؤلَف هذه النسبة الا فى آخر العهد الأموى ، أو صدر العصر العباسى ، كالجَهْمية ، والقَدَرية ، ثم الراوندية ، والخُرَّمية ، والشعوبية ـ وأقدمُ ما وصل الينا من الكتب التى استعملت لفظَ الشعوبية ؛ كتاب البيان والتبيين للجاحظ .

يمكننا أن نستنتج من دراستنا للشعوبية النتائج الآتية :

(١) ان دعاة الشعوبية بدءوا دعوتهم مستندين على تعاليم الاسلام نفسه ؛

فهو لا يفضل شعباً على شعب ، والعقوبة أو المثوبة عنده انما وضعت على الأعمال لا على الأجناس ، وقد يكون العبد الرقيق ، والنبطى الدليل ، عند الله فى أعلى عِلِّيين ، وسيدُه المُكاثر بأهله وولده وماله أسفلَ سافلين ، ثم تدرجوا من ذلك الى تحقير العرب وشؤونهم ، وبيان ميزة الأمم الأخرى عليهم . وساعدهم على ذلك ما كان للفرس من نفوذ ظاهر فى الدولة العباسية

(٢) أن الشعوبية لم تكن عقيدة محدودة التعاليم ، لها شعائر ظاهرة مُعَيَّنة كما نقول فى المذاهب الدينية ، فانا نستطيع أن نقول إن هذا شافعى ، وهذا حنفى فيمكننا أن نحدد وجوه الخلاف ، ونبين الفروق فى الشعائر وغيرها كما نستطيع أن نقول إن هذا من أهل السنة والجماعة ، وهذا معتزلى فندرك ذلك ولكننا لا نستطيع أن نفعل هذا فى الشعوبية لأنها نزعة أكثر منها عقيدة ، فهى أشبه بالأرستقراطية ، والديمقراطية بل هى فى الحقيقة نوع من الديمقراطية يحارب ارستقراطية العرب ، لذلك لا نستطيع أن نَحْصر معتنقيها ، فهم فى كل بلد ، وفى كل قطر ، ومن كل جنس كما لا نستطيع اليوم أن نحصى من يدعون الى الديمقراطية ، أو الاشتراكية

(٣) مما ساعد على هذه النزعة الشعوبية ، أنها تساند النزعة الوطنية ، والعصبية الدينية فالعرب أزالوا استقلال فارس وحكموا مصر والشام والمغرب ، وأهلها ليسوا عربا فاستتبع ذلك أن كثيراً من الفرس كانوا يحنون الى مُلكهم واستقلالهم ، وكثيراً من نصارى الشام ومصر كانوا يكرهون العربَ المسلمينَ الذين أجلوا الروم النصارى عن بلادهم ، ويتمنون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وإن كان لا بد أن يُحكَموا فمن أهل دينهم

نعم ان من دخل فى الاسلام من الفرس وأهل مصر والشام والأندلس كانوا أقل حدة فى هذه النزعة الوطنية ولكن لم يكن كل من دخل الاسلامُ

الى أعماق نفوسهم ، وتملّك مشاعرهم الى حد أن تغلب النزعةُ الدينية النزعةَ الوطنية

(٤) يمكن أن نستنتج مما تقدم . أن الشعوبيين كانوا أصنافا مختلفة ، منهم فرس ، ومنهم نبط ، ومنهم قبط ، ومنهم أندلسيون وقد صُبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء صبغة خاصة ؛ فالفرس صُبغت صبغة وطنية تدعو الى الاستقلال ، واتخذت فى بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد ، والنبط ظهرت فى شكل عصبية للأرض وزراعتها ، وتفضيل معيشة الحرث والزرع على الصحراء ومعيشتها والقبط ثاروا ثَورات مختلفة على العرب ، وأرادوا طردهم من بلادهم ، وكان آخر ثورة كبيرة فى عهد المأمون ، فلما هزموا لجأوا الى الكَيْد « باعمال الحيلة ، واستعمال المكر ، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخَراج » [١] وفى الأندلس ظهر ابن غَرْسيَّة ، ووضع رسالته فى الشعوبية ، ورد عليه كثير من العلماء .

(٥) هذه الشعوبية كانت درجات مختلفة تبتدىء معتدلة هادئة ، وتنتهى متطرفة عنيفة فنرى قوما معتدلين مالوا الى تسوية العرب بغيرهم كما رأيت ، وآخرين حقروا من شأنهم ، وسلبوهم كل مزية ، كما نرى قوما فرقوا بين العرب والاسلام فهاجموا العرب من حيث هم أمة ، ولم يتعرضوا للاسلام بمكروه بل صرحوا بأن الاسلام دين الناس جميعا لا العرب وحدهم — وكثير ممن حكينا قولهم فى ذم العرب كانوا من هذا الصنف ، بل يصح لنا أن نعد ابن خلدون شعوبياً بهذا المعنى ؛ فقد حكينا ملخص رأيه فى العرب فى الجزء الأول من « فجر الاسلام » [٢] وهو رأى فى أشد العنف والقسوة على العرب وخصائصهم ، قلّ أن نرى شعوبيا متطرّفا وصل الى ما وصل إليه فى صراحته وشدته ولكنه فى رأينا كان مسلماً خالصاً حر التفكير فى حدود الدين،

---

[١] انظر المقريزى ١ : ٧٩ و ٨٠ [٢] ص ٣٦

على حين أنا نرى قوما آخرين لم يفرقوا بين العرب والاسلام، وأدتهم كراهيتهم للعرب الى كراهيتهم لكل ما جاء عنهم ، ومن ذلك الدين . وقد حكى الجاحظ عن قوم من هؤلاء . فقال « وربما كانت العداوة من جهة العصبية . فان عامة من ارتاب بالاسلام إنما جاءه ذلك من الشعوبية ، فاذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب هي التى جاءت به وكانوا السلف »[1] وقد دعت هذه النزعة قوما الى أن يتبرءوا من الشعوبية إذ هي باب الى الالحاد .

(٦) نلحظ شيئاً من الوفاق بين بعض تعاليم الخوارج والشيعة والمعتزلة فالخوارج ـ كما علمت يرون أن الخليفة لا نشترط فيه أن يكون قرشياً بل ولا عربياً والذى أرى أن هذه النزعة منهم لا يقصد منها تحقير العرب ، واعلاء شأن غيرهم وكيف يكون ذلك وأكثر الخوارج كانوا عربا خلّصا ! وهذا الرأى صدر عنهم حين الخلاف بين علىّ ومعاوية ؛ والشعوبية لم تتكون بعد . فالظاهر أن رأيهم هذا صدر عن اجتهاد بحت ، دعا اليه محض الرغبة فى اصلاح أمور المسلمين . وأما المعتزلة فيرى المسعودى يقول : « وقد زعم جماعة من المتكلمين منهم ضرار بن عمرو ، وثُمامة بن أشرس، وعمرو بن عثمان الجاحظ : أن النبط خير من العرب ! » وهؤلاء الثلاثة من رءوس المعتزلة وأرى أن رأى المسعودى . وتبعه فى ذلك « جولد زيهر » [2] ـ خطأ ، ويظهر لى أن خطأهما جاء من أن ضراراً وأصحابه ذهبوا إلى أبعد مما ذهب اليه الخوارج فلم يقصروا على أن يقولوا ان الخلافة لا يلزم أن تكون فى قريش ولا فى العرب بل قالوا . ان غير العربى ولو

---

١ الحيوان جزء ٧ ص ٦٨ واعاره فى الأصل [illegible]

٢ أنظر فى ذلك كتاب جولد زيهر Muhammedanische Studien وقد عقد فيه فصلا ممتعاً فى الشعوبية [illegible]

نبطياً أولى من القرشي لأنه يسهل خلعه إذا جار وظلم ودليلنا على ذلك ما جاء في شرح النووي على مسلم: «ولا اعتداد بسخافة ضرار بن عمرو في قوله ان غير القرشي من النبط وغيرهم يقدَّم على القرشي لِهَوَان خلعه ان عرَض منه أمر»[١] وقد فهم الفاهمون من هذا أن ضراراً وصحبه يفضلون النبطي على العربي وهو فهم غير صحيح بل هو على العكس، يرمي في وضوح إلى القول بأن العربي أشرف وأن من المصلحة أن يولى غير المعتز بعصبيته ليسهل خلعه، وذكر النبطي على أنه مثل في الخسة! والجاحظ – بوجه خاص – من الصعب عده شعوبياً، فقد انبرى في كتابه «البيان والتبيين» للرد على مطاعن الشعوبية، وسفَّه رأيهم. بما يدل على اخلاص فيما يقول — نعم! إنه ألف رسالة في فضل الموالي وعدد مناقبهم. ولكنه ذكر ذلك على لسانهم، وقد صرح بأنه ألف هذه الرسالة أيام المعتصم خالب الأتراك، وذكر أنه انما ألفها لا لِيُفضل بها بعضَ الجنود على بعض «وقد كانت جند الخلافة اذ ذاك على خمسة أقسام خراساني، وتركي، ومولى، وعربي، وبنوي[٢]» وانما ألفها ليؤلف بين قلوبهم ان كانت مختلفة، وليزيد في الألفة ان كانت مؤتلفة[٣]، وليُحَذِّر من المنافقين يدسون الدسائس ليوغروا الصدور، ويفرقوا القلوب ويقول «إن كان لا يمكن ذكر مناقب الاتراك الا بذكر مثالب سائر الأجناد فترك ذكر الجميع أصوب، والاضراب عن هذا الكتاب أحزم!»[٤] وعلى الجملة فقد صرح فيه «أنه يرمي الى تعديد مناقب الترك من غير أن يتعرض لذم غيرهم» ولكنه لم يضبط قلمه فجمح به أحياناً إلى تفضيل الترك على غيرهم في بعض الأمور، ولكن من العسير عد هذا القدر شعوبية

على أن الجاحظ في نظرنا لم يكن يعبر عن رأيه في مدح الشيء وذمه بل

---

١ جزء ٤ ٢٦٥ ٢ ر بد بنوي ما كان من ابناء الدعاة الى الدولة العباسية
٣ رسائل الجاحظ ١٧ ٤ المصدر ع ٩ ٢٢ .

كان يذم الشيء ويمدحه اجابة لدعوة كبير، أو رغبة في اظهار مقدرته البيانية على تصوير الشيء بصورتين متباينتين، فان نحن اعتمدنا على القرائن فما في كتاب البيان والتبيين أدلّ على نفسه ولذلك نرجح أنه ليس شعوبياً

وأما التشيّع فقد كان عشّ الشعوبية الذي يأوون اليه، وستارهم الذي يستترون به. وسيأتي طرف من ذلك عند الكلام في الشيعة

(٧) يذهب ابن قتيبة الى أن الذين اعتنقوا الشعوبية هم سفلة الناس وغوغاؤهم فيقول «ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة، ولا أشد نصباً للعرب من السفلة، والحشوة، وأوباش النبط، وأبناء أكرة القرى. فأما أشراف العجم، وذوو الأخطار منهم، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم، وما عليهم، ويرون الشرف نسباً ثابتاً» ولكن يظهر أنه اقتصر على من تظاهر بالشعوبية، وهؤلاء كانوا كما ذكر ابن قتيبة. أما الأشراف فكانت حركتهم سرّية خفية لا يجرءون أن يظهروا بها لكبر مراكزهم، وخشية من الفتك بهم عند الخلفاء فهم يؤيدون - من وراء حجاب - هذه الحركة ولا يراها ابن قتيبة والله أعلم. وقد ذكر ابن قتيبة أن ممن ذهب مذهب الشعوبية «قوما تحلوا بحلية الأدب فجالسوا الأشراف، وقوما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الأنفة لآدابهم، والغضاضة لأقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم، واعتزى الى ملوكهم وأساورتهم، ودخل في باب فسيح لا حجاب عليه، ونسب واسع لا مُدافع عنه، ومنهم من أقام على خساسته ينافح عن لؤمه، ويدّعي الشرف للعجم كلها ليكون من ذوي الشرف، ويظهر بغض العرب وتنقصها، ويستفرغ مجهوده في مشاتمها واظهار مثالبها، وتحريف الكلم في مناقبها، وبلسانها نطق، وبهمتها أنف، وبآدابها تسلح عليها، فان هو عرف خبر أسرته،

وان ظهر حقره ، وان احتمل التأويلات صرفه الى أفحها ، وان سمع سوءا نشره وان لم يجده تحرّصه [1] » .

فالحق ان الشعوبية لم تكن فى السفلة وحدهم ، وهؤلاء السفلة لم يكونوا الآخذين بزمامها ؛ وانما كان معهم كثير من الطبقة المتعلمة الراقية ، وان لم يرق نسبها الى الملوك والأشراف ، وهؤلاء هم الذين كان لهم الأثر الشعوبى فى الأدب والعلم — كما سترى — ومن وراء هؤلاء وهؤلاء طبقة تلعب أعلى المناصب فى الدولة فكانوا يمدونهم سرا بجاههم وبمالهم ، فقد ألف علان الشعوبى كتابا فى مثالب العرب ، فأجازه طاهر بن الحسين عليه ثلاثين ألفا .

واذ كان هؤلاء العقلاء الماكرون ، هم رؤساء هذه الدعوة ، كانت حربهم عليه أدبية دينية ، أكثر منها ثورات ظاهرة

* * *

بلغت هذه الحركة أوجها فى القرن الثالث الهجرى ، وساعد على ذلك أن الخلفاء العباسيين تعصبوا للاسلام، ولم يتعصبوا كثيراً للعربية، فحاربوا الزندقة، ولم يحاربوا — فى شدة — النزعة العجمية وذلك طبعى لأن أكثرهم — كما أسلفنا — مولدون ولقى العرب من العجم عنتاً شديداً ، فالوزراء أكثرهم عجم ، والدسائس تدس فى القصور لاضعاف شأن العرب ، وإذا ثار العرب فى جزيرتهم أو فى الأطراف نكل بهم قواد العجم وجنودهم أشد تنكيل ، وفى أعماق نفوسهم شعور بأنهم ينتقمون منهم من يوم القادسية ، ولم يكن شعور الترك الذين حلبهم المعتصم أحسن حالا من شعور الفرس، وكثر الشعر فى هذا القرن والذى بعده من الأعاجم الذين تعلموا العربية يفخرون بنسبهم ، ويعيرون بقومهم ، فافتتح ذلك بشار بن برد كما رأيت وتبعه ديك الجن الشاعر المشهور قال فى الأغانى « وكان شديد التعصب والعصبية على العرب

---

[1] كتاب العرب من رسائل البلغاء ص ٢٧

يقول : ما للعرب علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم عليه السلام ، وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلا منا قُتل به ، ولم نجد الله عز وجل فضّلهم علينا إذ جمعنا الدين ! »

ويقول قائلهم

فلست بتـــارك إيوان كسرى   لتوضِحَ أو لحَوْمَلَ فالدَّخُول

وضبّ فى الفلا ساع ، وذئب   بها يعوى ، وليثٍ وسط غيل

وكان « الخُرَّمىّ » الشاعر المشهور يكثر فى شعره من الاعتزاز بالنسب الفارسى والتحقير من شأن العرب فيقول :

إنى امرؤ من سَرَاة الصُّغْد ألبسنى   عِرْقُ الأعاجم، جلدًا طيّبَ الخبر

ويقول :

أبالصُّغْد بأس إذ تعيّرُنى جُمْلُ [1]   سفاها ومن أخلاق جارتى الجهلُ

فإن تفخرى يا جملُ ، أو تتجمّلى   فلا فخرَ إلا فوقه الدينُ والعقلُ

أرى الناس شرعًا فى الحياة، ولا أرى   لقبر على قبر علاءً ولا فضل

وما ضرّنى أن لم تلدنى يحابرٌ   ولم تشتمل جَرْمٌ علىّ ولا عُكل [2]

إذا أنا لم أحمِ القديمَ بحادث   من المجد لم ينفعك ما كان من قبلُ

ويقول

وبادت من مرو وبلخ فوارسًا   لهم حَسَبٌ فى الأكرمين حسيبُ

فما حسرنا لا دارٌ قومى قريبة   فكثر منهم ناصرى وطبيب

وإن أبى ساسانُ كسرى بن هرمزٍ   وخاقانُ لى لو تعلمين نسيب

---

١ كى تحمل عن العرب   ٢ يحابر ، وجرم ، وعكل أسماء قبائل عربية

ملكنا رقاب الناس في الشرك، كلهم لنا تابعٌ طوع القياد جنيب

نسومُهمُ خسفاً، ونقضي عليهمُ بما شاء منا مخطئ ومصيبُ

فلما أتى الاسلام وانشرحت له صدور به نحو الأنام تُنيبُ

تبعنا رسولَ الله حتى كأنما سماء علينا بالرجال تَصُوبُ

ويقول المتوكلي وكان من ندماء المتوكل

أنا ابن الأكارم من نسلِ جَمّ[1] وحائز إرث ملوك العجم

ومحيي الذي بادَ من عزّهم، وعفّى عليه طِوال القِدَمْ

وطالبُ أوتارهم جهرةً، فمن نام عن حقهم لم أنم

معي عَلَمُ الكابيان[2] الذي به أرتجي أن أسود الأمم

فقل لبني هاشم أجمعين، هلموا إلى الخلع قبل الندم

ملكناكمُ عنوةً بالرما ح طعنا وضرباً، بسيف خذِم

وأولاكمُ المُلكَ آباؤنا، فما إن وفيتم بشكر النعم

فعودوا إلى أرضكم بالحجار لأكل الضِّباب، ورعي الغنم

فإني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام، وحرف القلم[3]

* * *

وقد شعر العرب بخطورة موقفهم، ولكن لم يستطيعوا دفعَ الشر عنهم، ونجد في كثير من الشعر في ذلك العصر والذي بعده طللا من الحسرة والألم، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في الفصل السابق. ونرى هذا المعنى واضحاً بعدُ في شعر المتنبي فيألم — وقد زار شعب بَوّان بفارس من صعف — اللغة العربية بها فيقول

---

١ نسل جم: جمشيد ملك الفرس

٢ الكابيان: الى كاوه (كاوه) حداد فارسي رفع علم الثورة وقد ورد في الأصل الكابان وهو خطأ

٣ معجم الأدباء ١ : ٣٢٣

مَلاعب جِنَّةٍ لو سار فيها سليمانُ لسار بِتَرْجمان ؟
ويقول: ولكن الفتىَّ العربىَّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان

ويقول فى قصيدة أخرى :

وانما الناس بالملوك، وما تُفلحُ عُرْبٌ ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسبٌ ولا عهود لهم ولا ذمَمُ
بكل أرضٍ وطئتُها أُمَمٌ تُرعَى بعبدٍ كأنها غَنَمُ !
يستخشِنُ الخزَّ حين يلبسهُ وكان يُبْرَى بظُفره القلم !

* * *

والآن نعرض للأشكال المختلفة التى حاربت بها الشعوبيةُ العرب

فقد عمدوا الى مزية العرب الظاهرة التى يعتزّون بها، وهى البلاغة، وقوة الخطابة وحضور البديهة، فأخذوا ينتقصونهم فى ذلك من نواح مختلفة

كان العرب اذا خطبوا أكثروا من الاشارة بأيديهم، يمثلون بها أغراضهم ويستعينون على ذلك بايضاح المعنى، وقوة التأثير فى السامعين، وكثيراً ما يستعملون فى اشارتهم المِخْصَرة [وهى ما يمسكه الانسان بيده من عصا، أو مقرعة أو عُكازه أو قضيب] وكثيرا ما كانوا يشيرون فى خطب السّلم بالمخصرة، وفى خطب الحرب بالقسى وأحيانا كانوا يتكئون أثناء خطبهم على القسىّ، وكثيرا ما يلبسون للخطابة ربما خاصا، ويضعون العمامة وضعاً يدل على تأهبهم للخطابة فجاءت الشعوبية تهزأ بهم فى ذلك وتقول أى ارتباط بين الكلام والعصا، وبين الخطبة والقوس وهما الى أن يَشْغَلا العقل، ويَصرفا الخواطر، ويعترضا الذهن أشبه ولبس فى حملهما ما تَشْحَذ الذهن، ولا فى الاشارة بهما ما يجلب اللفظ، وقد زعم أصحاب العصا أن المعنى اذا ضرب على عاتقه قصّر عن المعنى الذى لا يضرب على عاتقه، وحملُ العصا بأخلاق القدّادين أشبه، وهو بجفاة الاعراب

وعُنْجُهِيّة أهل البدو ، ومُراولة إقامة الابل على الطرُق أشكل ، وبه أشبه»[1]
وقد رد عليهم الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وأفرد لذلك باباً خاصاً سماه
«كتاب العصا» من أجل ذلك ، كما عابوهم فى جوهر الموضوع فقالوا : ليست
الخطابة ميزة امتزتم بها وحدكم فهى شىء فى جميع الأمم حتى إن الزنج مع
غباوتها ، وفساد مراجها لتطيل الخطب وأخطب الناس الفرس لا العرب ، ولهم
فوق خطبهم التأليف فى صناعة البلاغة ، ومعرفة الغريب ككتاب «كاروند»
ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والألفاظ
الكريمة والمعانى الشريفة ، فلينظر الى سير الملوك (ملوك الفرس)[2] بل
أين معانيكم ، وحكمكم وخطبكم وطريقة تفكيركم مما للفرس واليونان والهند؟
وأين كلامكم الجافى ، وأصواتكم الغليظة من طول اعتيادكم مخاطبة الابل ، مما
لهؤلاء من معنى دقيق ، ولفظ رشيق ، وصوت رقيق ؟! وقد قارن الجاحظ
بين بلاغة الفرس والروم ، وبلاغة العرب . فقال ان الأولى صادرة عن
تفكير وروية ، والثانية صادرة عن بديهة وسرعة خاطر .

كذلك عابوا العرب فى آلاتهم الحربية فسخروا من رماحهم ، ومن عُرْى
خيولهم ومن قناتهم الصماء مع أن الجوفاء أخف محملا ، وأشد طعنة ، ومن قلة
الخبرة فى تنظيم جيوشهم ، فلم يكونوا يعرفون الميمنة ولا الميسرة ، ولا القلب
ولا الجناح ، ولا يعرفون من آلات الحرب العرّادة ولا المجانيق وقارنوا بين
حالة الجيش العربى والجيش الفارسى فى تنظيمه وفى آلاته ، وأبانوا ما للأول
من حقارة ، وما للثانى من عظم ، وفات الشعوبية أن هذه المقارنة أحقر
لشأنهم ، وأوضع لمكانتهم ، فهؤلاء العرب بآلاتهم الساذجة الحقيرة سحقوا
الفرس بآلاتهم الضخمة العظيمة ، وجيوشهم المنظمة الكبيرة ![3] .

---

١ البيان والتبيين ٣ ٦ ٢ المصدر نفسه
٣ انظر فى ذلك الجزء الثالث من البيان والتبيين

ونوع آخر من مسالك الشعوبية ، وهو أهم فى هذا العصر أكثروا من التأليف فى مناقب العجم فسعيد بن حُميد البَختَكان ، كان كاتبا شاعراً مترسّلا عذب الألفاظ ، وكان يدّعى أنه من أولاد ملوك الفرس ، وكان شديد العصبية على العرب ، وألف كتاب « انتصاف العجم من العرب » ، وكتاب « فضل العجم على العرب وافتخارها »[1] ونرى ابن النديم ينقل عن كتاب اسمه « مفاخر العجم »[2] وفى مقابل ذلك نضعون الكتب فى مثالب العرب ، كالهيثم بن عَدِىّ — وهو من أشهر العلماء بالأخبار والرواية ، جالس المنصور والمهدى والهادى والرشيد ، وقد وضع عدة كتب فى المثالب منها « كتاب المثالب الصغير » و « كتاب المثالب الكبير » و « كتاب مثالب ربيعة » و « أسماء بغايا قريش فى الجاهلية ، وأسماء من وَلدْنَ » ويتصل بهذا كتاب له ، اسمه « كتاب من تزوج من الموالى فى العرب »[3] وكذلك سهل بن هارون صاحب « بيت الحكمة » قال فيه ابن النديم « كان حكيما فصيحاً شاعراً ، فارسى الأصل ، شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب وله فى ذلك كتب كثيرة[4] » وقد وضع رسالته المشهورة فى البخل . ولعل ذلك منه نزعة شعوبية . لأن العرب كانوا يتمدّحون كثيرا بالكرم ، ويعدّونه من أكبر مناقبهم ، كما اشتهر الفرس بالبخل فوضع سهل هذه الرسالة يقلب فيها قيمة الكرم والبخل ، ويعد الكرم رذيلة والبخل فضيلة وروى له صاحب زهر الآداب أبياتا تدل على شعوبيته ، يفتخر فيها بفارسيته ويذم العربية ، ويقارن بين بيته فى خراسان وبيت آخر عربى فيقول

أحملُ يدا فوق رأسه فَرَعَ النجوم كأنه نجم
كتبتْ ستعشر وسط محفل بعمائه الجُعلانُ والنِّيمُ؟[5]

---

[1] فهرست ابن النديم ١٢٣ [2] الفهرست ٤١
[3] فهرست ٩٩ و ١ [4] فهرست ١٢
[5] هامش العقد ٢ ١٥

وألف عِلاّن الشعوبى — وأصله من الفرس — كتاب « المَيْدان فى المثالب » قال ابن النديم إنه هتك فيه العرب ، وأظهر مثالبها ، ويحتوى على مثالب قريش ، ومثالب تَيْم بن مُرَّة ، ومثالب بنى أسد بن عبد العُزَّى ومثالب بنى مخزوم ، وعدّد القبائل كلها وذكر مثالبها [١]

وألف أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى ، وهو من أشهر العلماء فى النحو والأخبار ، وكان أصله من يهود فارس — كتباً كثيرة تعرض فيها للعرب منها « كتاب لصوص العرب » وكتاب « أدعياء العرب » كما ألف كتاب « فضائل الفرس » [٢] وقال فيه ابن خلكان « وكان يكره العرب وألف فى مثالبها كتبا » [٣] وقد صور لنا ابن قتيبة نوعا من الطعن الذى كان يستعمله أبو عبيدة فقد عمد الى مفاخر العرب فتهكم بها كانوا يفخرون بقوس حاجب ويفتخرون بوفائه فضاحك عليه واستضحك الناسَ منه ، واستسخف فعلَ حاجب ، وخساسه عوده ، وقلة ثمنه ، ويذكر قول الشاعر

أيا ابنةَ عبد الله ، وابنةَ مالك ، ويا ابنه ذى البردين والفَرَسِ الوَرْدِ!

فيهزأ بالشعر ، ويعجب فى سخرية من التمدح بأن أباها ذو بردين وفرس ورد . ويقارن فى ذلك بملوك فارس وتيجانها ، وأن أبرويز كان يرتبط تسعمائة وخمسين فيلا على مرابطه ، وتخدمه ألف جاريه ، وفى حجرته التى يشرف منها على الداخل عليه ألف اناء من ذهب ! [٤]

وكتب المثالب هذه — على ما ظهر — عمدت الى ما صدر عن كل قبيلة من بيت يعيّر به ، أو عمل يؤاخذ عليه ، أو جريمة ارتكبها أحد أفرادها فقيدتها وأذاعتها للتشهير بالعرب جميعاً كما أن كتب مناقب العجم ومفاخرها عمدت

---

١ الفهرست ١٠٥ و ١٠٦

٢ الفهرست ٥٤ ٣ ٢ ١٥٥

٤ انظر رسائل البلغاء ٢٧١ وما بعدها

الى ما استحسن من عادات الفرس ، وعظمة ملوكها ، ونظام جيوشها ، وسياسة ملكها فتشادت به ولم يصلنا شيء من هذه الكتب ـ على ما أعلم ـ كما لم يصلنا أي كتاب ألف في بيان دعوى الشعوبية ، وإنما وصل الينا نتف من أقوالهم وآرائهم ، أهمها ما ورد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وما ورد في العقد الفريد لابن عبد ربه ، وما نقله ابن قتيبة في كتابه (العرب)

والظاهر أن أكبر سبب في ضياع هذه الكتب أن المسلمين عدّوا هذه النزعة الشعوبية نزعة ضد الاسلام وتحرّجوا من نقل الكتب المؤلفة فيها ، وتقربوا الى الله بإعدامها وبرئ المخلصون من الميل اليها كما فعل الزمخشري في أول كتابه المفصّل . فقد حمد الله « اذ جبَلَه على الغضب للعرب ، والعصبية لهم ، وبرأه من الانضواء الى لفيف الشعوبية »

ولم يقتصر هؤلاء الذين ذكرنا من علماء الشعوبية على وضع كتب المثالب بل يظهر أنهم وضعوا في الأدب قصصاً كثيرة تؤيد جانبهم وقد اختلقوها اختلاقا ، وكانت هذه أخطرَ على العرب من الحرب الظاهرة . لأن نقضها أصعب ، والوقوف على بطلانها أعسر ويمكننا أن ندرك أنهم لجأوا في ذلك إلى نوعين (النوع الأول) الوضع وهو أن يضعوا القصص الشنيعة في شرح الأبيات أو الأمثال ، ويختلقوا القصة اختلاقا كما فعل أبو عبيدة في شرح المثل « جاني ما يلوى على الصفر[1] ، فقد نقل البكري في كتابه « التنبيه على أوهام أبي على القالي في أماليه » حكاية في ذلك عن أبي عبيدة لا نستطيع ذكرها لشناعتها[2] وروى الهيثم بن عدي قصة طويلة تتلخص في أن رجلا من تنوخ نزل بحيّ من بني عامر فرحب به جاريه ، فقالت ممن أنت؟ قال : من تميم فذكرت له أبياتاً في ذم تميم ، فقال لها لست من تميم بل أنا

---

١ ما يلوى أي ما يعرج انما يحبه على من صفر به

٢ التنبيه ٧٧

من قبيلة عجل ، ففعلت ذلك ، وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة ، وهي تروى الأبيات في ذمها حتى استنفد القبائل ولما انتسب إلى بنى هاشم قالت أتعرف الذى يقول :

بنى هاشم عودوا إلى نخلاتكم فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم !
فإن قلتمو : رهط النبى محمد فإن النصارى رهط عيسى بن مريم ! [١]

والحكاية كلها على ما يظهر من وضع الشعوبية . أو من وضع الهيثم بن عدى نفسه ، يرمى واضعها إلى ذكر مثالب القبائل العربية .

(والنوع الثانى) نسبة الشيء إلى غير قائله ، وهو طريق سلكوه لإفساد الأدب العربى ، وإضاعة معالمه حتى لا يكون للعرب أدب موثوق به . وتلك أكبر بغيته لهم ومن الأمثلة على ذلك أن يقول أبو عبيدة في البيتين الآتيين

هينون لينون أيسار ذوو كرم سوّاس مكرمة أبناء أيسار
إن يُسألوا الخير يعطوه وإن خُبروا فى الجهد أُدرك منهم طيب أخبار

إنهما للعرندس الكلابى يمدح بنى عمرو الغنويين فينكر الأصمعى عليه ذلك ، ويقول محال أن يمدح كلابى غنوياً لما بينهما من العداوة ! [٢]
ولو فحصنا الأدب فى ضوء هذه النظرية ، لوجدنا الشيء الكثير الموضوع للحط من العرب ، وإفساد الأدب ، مما لا نستطيع أن نستقصيه هنا

« كان فى هذا العصر ثلاثة ، هم أئمة الناس فى اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم عنهم أُخذ جل ما فى أيدى الناس من هذا العلم بل كله وهم : أبو زيد الأنصارى ، وأبو عبيدة ، والأصمعى ! » [٣] وقد

---

١ تجد الحكاية بطولها فى مروج الذهب لله سعودى من ١٧٥ — ١٨٠ فى الجزء الثانى
٢ أنظر السابقة ٧٢ و ٧٣ ٣ المزهر ٢ ٢ ٢ .

اشتهر أبو زيد بحفظ الغريب من اللغة ، وبالنحو ، وتنازع الرياسة الاثنان الآخران ، ويظهر أن الأصمعي بحكم عربيته كان يتعصب للعرب ، وكان يتشدّد فيما يَروى فلا يجيز إلا أصحّ اللغات ، وكان لا يجيب في القرآن ، ولا في الحديث خشية الخطأ [1] ، وكان لا يقول في شيء برأيه وكان لا يفسر شعراً فيه هجاء [2] ، كأنه كان يرى أن ذلك يمسّ دينه ! وكأنه يرى أن في الهجاء حطاً من المهجو أو قبيلته ، وفي ذلك مَساس بالعربية ، وكان يمتاز عن أبي عبيدة بحسن إلقائه ، ولطف نغمته — أما أبو عبيدة فيظهر أنه كان أوسع علماً ، وأكثر ثقافة ، يعرف تاريخ الفرس لفارسيته ، والثقافة اليهودية ليهودية آبائه ، والثقافة الاسلامية لأنه نشأ فيها ولكنه لم يكن يحسن التعبير كالأصمعي وكان حرّ الرأي يفسّر القرآن برأيه ، فيؤاخذه الأصمعي على ذلك [3] ، وليس للعرب حرمة في نفسه ، إذ ليس بعربي بل في نفسه الكراهة لهم ، فهو يطلق لسانه في هجوهم ، وذكر مثالبهم وقد استغوى الناس بسعة اطلاعه ، كما استغوى الناسَ الأصمعيُّ بفصاحته وحسن بيانه قال الجاحظ لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة [4] وقالوا « ان طلبة العلم كانوا إذا أتوا مجالس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر ، وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر ! لأن الأصمعي كان حسنَ الانشاد والزخرفة لرديء الأخبار والأشعار حتى يحسن عنده القبيح ، وان الفائدة مع ذلك عنده قليلة وإن أبا عبيدة كان معه سوء عبارة مع فوائد كثيرة ، وعلوم جمة » [5] — ويظهر أن كلا من الأصمعي وأبي عبيدة كان في عصره يمثل فكرة والأصمعي يمثل العربية ، والتعصب لها وحب العرب وإجلالهم والاشادة بذكرهم وأبو عبيدة يمثل فكرة

١ المزهر للسيوطي
٢ المصدر نفسه ٢ ٤ ٢
٣ ابن خلكان ٢ ١٥٥
٤ ابن خلكان ٢ ١٥٤
٥ ابن خلكان ٢ ١٥٦ .

الشعوبية ، والبحث عن معايب العرب والتشهير بهم . وكان كلٌّ زعيماً يلتف حوله من يؤيدون فكرته ، ويناصرونه ويتعصبون له ؛ العرب حول الأصمعي ، والفرس حول أبي عبيدة ، فنرى إسحق بن إبراهيم الموصلي ، وهو فارسي يقول للفضل بن الربيع

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن العلم عند أبي عبيده
وقدمه ، وآثره عليه ، ودع عنك القُرَيْدَ بن القرَيْدَه [1]

ويقول أبو الفرج الأصفهاني إن إسحق الموصلي « كشف للرشيد معايب الأصمعي ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه ، وأن الصنيعة لا تزكو عنده ، ووصف له أبا عبيدة بالثقة والصدق والسماحة والعلم ، وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع ، واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي ، وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبي عبيدة من أقْدَمَهُ » [2] ونجد أبا نواس ، ونزعته الفارسية لا تنكر . يقدّم أبا عبيدةَ على الأصمعي ، ويقول أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فَبُلْبُلٌ يُطربهم بنغماته ، ونجد الأصمعي من ناحية أخرى يذم البرامكة ، ويقول

إذا ذُكر الشركُ في مجلس أضاءت وجوه بني بَرْمَكِ
وإن تليت عندهم آيه أتوا بالأحاديث عن مَزْدَكِ

وأبو عبيدة يَشيد بذكر الفرس ، ويؤلف كتاب « فضائل الفرس » ويؤلف كتاباً في أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم من سلف وخلف ، وأخبارهم وخطبهم وتسعب أنسابهم ، وما بنوه من المدن وكَوَّروه من الكُوَر ، واحتفروه من الأنهار ، وأهلَ البيوتات منهم ، وما وُسم به كلّ فريق من الشهارجة وغيرهم » [3] .

---

[1] نحن الاصمعي [2] الأغاني ٥ ١٠٧ . [3] المسعودي ١ ١١٣ .

ومن آثار الشعوبية أنهم لوّنوا مارووا من تاريخ الفرس لوناً زاهياً جميلا ، ونسبوا الى ملوكهم الحكم الرائعة ، والسياسة الحكيمة ، وكسوْه أبهة وعظمة بالغوا فيهما ، وزعموا أن الفرس من ولد اسحق بن ابراهيم عليه السلام ، والعرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، واسحاق بن سارة الحرّة واسماعيل ابن هاجر الأمَة ، فهم أفضل من العرب لأنهم بنو الأحرار ، وأما العرب فبنو اللخناء[1] . وهى دعوى غير صحيحة علمياً ، وانما وضعت ليرفع الفرس من شأنهم وليفخروا بها على العرب كما ، زعموا أن سابور سمى ذا الأكتاف لأنه أوقع بالعرب فى العراق وخلع أكتافهم[2] .

وأغرب من ذلك ما اخترعه شعوبية النبط من حديث نسبوه الى علىّ ابن أبى طالب ، فقد رووا أن رجلا سأله فقال : أخبرنى يا أمير المؤمنين عن أصلكم معاشرَ قريش . فقال : نحن قوم من نَبَط كُوثَى ، ورووا عن ابن عباس أنه قال : نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثى ! وفى رواية أخرى عن علىّ أنه قال : من كان سائلا عن نسبتنا فانّا نبط من كوثى[3] ، وقد أتعب العلماء أنفسهم فى تفسير هذه الأحاديث فقال بعضهم إنهما أرادا أن أباهما ابراهيم عليه السلام كان من نبط كوثى ، وقال قوم إنهما أرادا التبرؤ من الفخر بالأنساب ، وقال قوم ان كوثى اسم من اسماء مكة ، ولو أنصفوا لأراحوا أنفسهم من تأويل هذا الهذيان .

واستغل الفرس سلمانَ الفارسى استغلالا عظيما ، فرَوَوْا له من الزهد والحكمة والعلم ما لم يرو لأى صحابى آخر حتى جعلوا عُمرَه فوق أعمار الناس فقيل انه أدرك عيسى عليه السلام ، وروى أبو الشيخ فى طبقات

---

[1] انظر رسائل البلغاء ص ٢٦٥ . [2] مسعودى ١ : ١٢٣ .
[3] انظر الأحاديث فى لسان العرب ٢ : ٤٨٧ ومعجم ياقوت فى مادة «كوثى» ، وكوثى بلدة بسواد العراق .

الاصفهانيين أن أهل العلم يقولون عاش سلمان ثلثمائة وخمسين سنة ، وأما مائتان وخمسون فلا يشكون فيها [1] ورووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ » فقالوا من يستبدل بنا ؟ فضرب صلى الله عليه وسلم على مَنكب سلمان . ثم قال هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لناله رجالٌ من فارس وهو الذي قيل فيه سلمان منا أهل البيت ، وهو الذي أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ومن ذلك الحين عرف العرب كيف يستعملون الخنادق في الحروب ، فهم في ذلك مدينون للفرس وعلى الجملة فقد اتخذه الفرس وسيلة لبيان عظمتهم ، وأن لهم فضلا كبيراً على المسلمين *

وكان للشعوبية مجال فسيح في الحديث فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة في فضل الفرس وأسندوها الى الثقات من الصحابة والتابعين ، مثل ما روى أن الأعاجم ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لَأَنَا بهم أوْثقُ مني بِكُم » وفي رواية « لأنا ببعضهم أوثق مني ببعضكم » [2] وفي حديث آخر « سيأتي مَلِك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها الا دمشق » [3]

وفي حديث « لا تسبُّوا فارساً فما سبَّه أحد الا انتُقِمَ منه عاجلا أو آجلا » ، « ورأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم كأنَّه ردِفَهُ غنم سُود ، وردِفَتْه غنم بيض ، ما يُرَى السودَ فيها لكثرتها فأخبر النبيُّ بذلك أبا بكر فقال السود العربُ وسيُسْلِمون ، والبيض العجم يُسلِمون بعدهم حتى ما يُرَى فيهم العربُ لكثرتهم فقال صلى الله عليه وسلم بذلك أخبرني

---

١ الاصابة لابن حجر ٣ ١١٣ ، وقد رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم أملى كتاباً على علي فيه انه صلى الله عليه وسلم فك سلمان وجعل ولاءه له ، وأرخ الكتاب في جمادي في السنة الأولى للهجرة وقد وقد الخطيب البغدادي هذا الكتاب ، فدفعاً فا طره في الجزء الأول صفحة ١٧ ٢ تيسير الوصول ٣ ١١١
٣ المرجع نفسه ٣ ١٢٧

المَلَك سَحَرا »[1] ومن هذا القبيل ما وضعوه من الأحاديث الكثيرة حول الامام أبى حنيفة الفارسى الأصل ، يزعمون : أن النبى صلى الله عليه وسلم أشار بها اليه أو نصَّ عليه كالذى روى : لوكان العلمُ مُعلّقاً عند الثُريّا لتناوله رجل من فارس ، وكالذى رووا . أن آدم افتخر بى وأنا أفتخر برجل من أمتى اسمه نعمان ، وكنيته . أبو حنيفة هو سراج أمتى ورووا . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان سائر الأنبياء يفتخرون بى ، وأنا أفتخر بأبى حنيفة ، من أحبَّه فقد أحبنى ، ومن أبغضه فقد أبغضنى[2]

والحق أن العرب ومن تعصب لهم قابلوا عملهم بمثله ، فوضعوا الأحاديث الكثيرة فى تفضيل العرب ، ووجوب حبهم ، مثل « من غشَّ العرب لم يَدْخل فى شفاعتى ولم تنله مَوَدّتى » ومثل « إذا اختلف الناس فالحق فى مضَر » ، ومثل أحِبّوا العربَ لثلاث لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى » . ومن ألطف ذلك أنهم رووا حديثاً للنبى صلى الله عليه وسلم مع سلمان الفارسى نفسه ، ذلك أن رسول الله قال يا سلمان لا تَبْغَضْنى فتفارقَ دينك قال . قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هدانى الله ! قال لا تبغض العربَ فتبغضنى الخ[3] وتعالم الاسلام التى تدعو الى المساواة ، وتعلّم أن الفضل ليس الاّ بالتقوى تأبى مدح الفرس أو العرب أو أية أمة لجنسها

ونكاد نجد أصبع الشعوبية فى كل علم حتى فى الفقه ، فلو قرأت مثلا باب الكفاءة فى الزواج لرأيت أن الأئمة أنفسهم لم تؤثر فيهم العصبية أى أثر ، فالامام مالك العربى لم يعتبر الكفاءة ، وعنده أن العجمى تزوج العربية من غير أن يكون للولى حق الاعتراض ، ومذهب أبى حنيفة الفارسى تعتبر

---

[1] محاضرات الأدباء للراغب ١ ٢١٩

[2] انظر ابن عابدين وهامشه ١ ٥٤ و ٥٥

[3] ابن قتيبة فى رسائل البلغاء ٢٩٣

الكفاءة ، فالقرشيون * أكفاء لبعض ؛ وليس غير القرشي كفؤاً لهم ، والعجمي ليس كفؤاً للعربية ولكن سرعان ما نجد نظرية توضع على بساط البحث يهدم بها الجزء الأكبر من العصبية العربية وهي « شرف العلم فوق شرف النسب » قال قاضيخان « الحسيب يكون كفؤاً للنسيب فالعالم العجمي يكون كفؤاً للجاهل العربي ، والعلوية لأن شرف العلم فوق شرف النسب »[1] وقالوا « وكيف يصح لأحد أن يقول ان مثل ابي حنيفة أو الحسن البصري وغيرهما ممن ليس بعربي لا يكون كفؤاً لبنت قرشي جاهل أو لبنت عربي بوّال على عقبه ؟ ! »[2] ويطول بنا القول لو عددنا أثر الشعوبية في كل علم

ومما نأسف له أن الشعوبية أزهرت في عصر تدوين العلوم . وكلّ حركة علمية كانت بعدُ إنما أُسّست على ما دُوّن في هذا العصر العباسي الشعوبي ، ولم يكن لنا علم مُدَوَّن قبل ذلك ، وهذا يجعل استكشاف الآثار الشعوبية صعباً غامضاً فلو كان لدينا تاريخ مدون في العصر الأموي لفهمنا كيف تلاعب به الشعوبيون في العصر العباسي ، ولو كان لدينا تاريخ للفرس موثوق به دُوّن أثناء حكم الفرس لأدركنا في وضوح كيف حرّفه الشعوبيون ، ولو كان العرب في العصر الاسلامي الأول وضعوا كتبا في الأنساب ومناقبها ومثالبها ووصلت الينا لعرفنا ما اختلقه الشعوبيون عليهم لافساد أنسابهم ، والحط من شأنهم ، وهكذا في كل العلوم ولكن قُدّر أن يقترن تدوين العلم بسطوة الشعوبية ، فكان ذلك من سوء حظ العلم ولذلك أجهد العلماء أنفسهم في تعرّف أسرار الشعوبية وخباياها وآثارها في العلم ، ولا يزال المدى أمامهم فسيحاً ، والبحث في مهده

* في المبسوط للسرخسي « أن سفيان الثوري كان من العرب فواضع ورأى الموالي أكفاء له ، وان أبا حنيفة كان من الموالي فواضع ولم ير نفسه كفؤاً للعرب » ٥ ٢٢

(١) ابن عابدين ٢ ٤٩٨ (٢) المصدر نفسه ٤٩٩

ومع هذا فقد كان للشعوبية جانب حسن ، فقد أتت الشعوبية وكل شيء للعرب يُمَجَّد ، من نسب عربى ، ولغة عربية ، ورأى عربى ، وعادات عربيـــة . فأخذ الشعوبيون - يَعْرِضون هذا للنقد ، والتحليل ؛ عرضوا أنساب العرب للنقد كالذى فعل أبو عبيدة مع غلوه ، فكان يرد على قوم ينتسبون للعرب فيُبيِّن أن النسبة كاذبة مختلَقة ، وفى كتاب الأغانى عن أبى عبيدة من هذا الشيء الكثير ، وعرضوا اللغة العربية للنقد ، فسيبويه فى كتابه فى النحو يُخَطِّئ العرب فى بعض أقوالهم ، ويدّعى العرب أن البلاغة ليست إلا فيهم ، فيرد الشعوبية بأن هناك أمماً أخرى لها بلاغة ولها خطب ، ولها حكم لا تقل عما للعرب ، وينبهون على أن عادات العرب ليست المثل الأعلى للعادات ، ففيها الحقير المرذول والجيد المحمود — كل هذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه . وهى : عرض ما للأمم الأخرى من كل ذلك لتكون المقارنة أتم ؛ فتُعرض الكلمات الفارسية بجانب الكلمات العربية ، والحكم الأجنبية والبلاغة الأجنبية بجانب البلاغة والحكم العربية ، والنظام الفارسى والأدب الأجنبى بجانب النظام والأدب العربيين ، ونحو ذلك وهذا - من غير شك - مفيد للعلم والعقل -

نعم ! لو وقفت الشعوبية عند هذا الحد ، فلم يتهجَّموا على العرب بقلب محاسنهم مساوى ، والتشهير بهم بالحق حيناً ، وبالباطل أحياناً ، ولم يحاولوا إفساد الدين بالزندقة ، وافساد العلم بالأكاذيب - لو وقفوا عند ذلك لأحسنوا - ولكنهم أفرطوا فخسروا كثيرا وكرهوا ومقتوا كثيرا .

الفصل الرابع

الرقيق وأثره فى الثقافة

قبل أن نتكلم فى الرقيق وأثره ، يجب أن نبين فى كلمة موجزة موقفه القانونى فى المملكة الاسلامية ، وبعبارة أخرى ماكان يطبق من الأحكام الاسلامية عليه .

تقضى تعاليم الاسلام — أو على الأقل — المبادىء التى استنبطها الأئمة من أصول الأحكام ، وجرى عليها العمل حتى عصرنا الذى نؤرخه بأن « سبب الرق وقوع الكافر أسيراً فى يد المسلمين عند الحرب » فاذا حارب المسلمون الكافرين فمن أسر من المحاربين منهم جاز للامام أن يسترقه ، كما يجوز له أن يسترق أهل البلد الذى فُتح فى الحرب ، رجالا كانوا أو نساء[1] وهذا الكفر والوقوع فى الأسر هما سببا الرق . ولا يشترط لأجل بقاء الرق بقاء سببه ، فلو وقع كافر فى الأسر فاسْتُرِقّ ثم أسلم لا يزول عنه الرق[2] — وهذا الرقيق يُعَدُّ مالاً ، شأنه فى ذلك شأن المتاع فمن استرق فى الحرب عد جزءاً من الغنيمة كالآلات الحربية ، وكالنقود وكالخيل وعلى الجملة مَثَله كمثل كل شيء مقوّم وقع فى يد الفاتحين ، وشأن هذه الأشياء — أن الامام ينقلها إلى دار الاسلام ، ثم يأخذ خمسها يصرفه فى الصالح العام من اعطاء للفقراء والمساكين ، وصرف فى وجوه البر المختلفة . وأما أربعة الأخماس فتوزع على من اشترك فى القتال ، والرقيق يفعل به ذلك ، خمسه للصالح العام والباقى يقسم على الغانمين وقد مثّروا عند القسمة على المحاربين

---

[1] انظر ما كتبناه فى ذلك فى الجزء الاول من فجر الاسلام ١٠٢

[2] التحرير ٢ ١٨

بين الفارس والراجل ، وبعبارة أخرى بين الخيالة والرجالة فجعل للفارس سهمان في قول بعض الفقهاء ، وثلاثة في قول بعضهم ، وللراجل سهم واحد . على هذا النمط الذى أيضاً كان يوزّع الرقيق .

وإذ كانت الحروب في صدر الإسلام تكاد تكون دائمة ، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون متلاحقاً مطرداً ، والبلاد المفتوحة والأمم المغلوبة لا تكاد تعدّ ، أمكننا أن نتصور كيف كان الرقيق لا يحصى كثرة ، وكيف كان مختلفاً متنوعاً تنوع الأمم التي اشتبك معها المسلمون في قتال . وإذ كنا أيضاً كيف يوزع الرقيق فهمنا كيف انتشر بين المحاربين ، ودخل في بيت كل منهم . وإذ كان الرقيق يعد مالا ، ويجري عليه كل العقود المالية من بيع وشراء ، وإجارة ورهن ، أمكننا أن نفهم أنه لم يقتصر على المحاربين بل كان في متناول أيدي الناس جميعاً ، وكان له سوق يشتري منه من شاء ويستخدمه كما شاء .

* *

هذا من الناحية المالية ، وأما علاقة الرجال بالإماء من الناحية الجنسية ونجملها فيما يأتي

هناك سببان تحلان المرأة للرجل : عقد الزواج ، وملك اليمين ، فأما عقد الزواج فلا يحل للرجل الحر أن يتزوج أكثر من أربع ، أعني أنه لا يحل له أن يكون على ذمته في وقت واحد أكثر من أربع زوجات ، ولكن يحل له أن يطلق منهن ، ويتزوج غيرهن بعد انقضاء عدتهن . هذا هو قول أكثر الفقهاء وإن كان لغيرهم أقوال أخرى لا محل لها هنا . وهذا الحكم عامّ سواء كانت الزوجات الأربع حرائر أو إماء . وكل الذي ذكره الفقهاء في هذا الموضوع أنه لا يحل أن يعقد الرجل عقد زواج على أمة إذا كان متزوجاً حرة ، ولكن العكس يصح ، فيجوز له أن يتزوج حرة على أمة وقد

لوحظ فى ذلك أن زواج الأمة بعد زواج الحرة امتهان للحرة، وجرح لشرفها وعزّتها.

والأمر الثانى مما يُحل المرأة للرجل «مِلْكُ اليَمين» أعنى ملكية الرجل للأَمَة، قال تعالى «فَإنْ خِفْتُمْ ألاّ تَعْدِلوا فَوَاحِدَةً أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ» «والّذين هم لِفُروجِهِمْ حَافِظُونَ إلاّ عَلَى أزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فَإنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» فمن ملك جارية جاز أن يتسرّاها، وهى حلّ له سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، وسواء كان متزوجاً واحدة أو أربعا ولا يتقيد الرجل فى ذلك بعدد فيحل له أن يتزوج الى أربع، وأن يملك من الجوارى ويتسرى منهن ما شاء من العدد وان كثر[1]

من أجل ذلك كان البيت الاسلامى فيه ـ غالباً ـ زوجة أو زوجات، وكان بجانبهن عدد من الجوارى قد تسراهن رب البيت

وكثيراً ما كان يقع الخلاف بين الحرائر والجوارى السرارى، وذلك طبيعى، ـ حتى ذهب بعض اللغويين الى أن تسميتهن بالسرارى كان سببه الغيرة، نقل اللسان عن بعضهم أن السُّرِّية الأَمة التى يتسراها صاحبها ـ منسوبة على غير قياس الى السّر، وهو الاخفاء، لأن الانسان كثيراً ما يسرها ويسترها عن حرته» وكثيراً ما يَنْسل الرجل الواحد الحرائر والجوارى فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجوارى، ويفتخرون بأنه لم يجر فى عروقهم دمُ رقيق، كالذى كان بين الأمين والمأمون، فكلاهما ولد الرشيد، ولكن أم الأمين زوجه حرة، وأم المأمون جارية سُرِّية، وقد ضربنا قبل أمثالا من هذا النسل بيوت الخلفاء ونسلهم المتنوع، وكانت بيوت غيرهم من الرعية مثل بيوتهم فى هذا الباب

---

[1] انظر البدائع ٢ ٢٦٦

وهذا الرقيق الذي أسلفنا ـ من رجال ونساء لا يَسْتَرِدُّ حرّيَّتَهُ إلا بأن تَعْتِقَهُ مالكه . وقد عقد الفقهاء باباً طويلاً للعتق ، أبانوا فيه الألفاظ التي تكون بها العتق ، وما يعرض له من أشكال ، والذي يهمنا منه الآن . كلمة في « أم الولد » ذلك أن الأمة اذا ولدت من سيدها سميت « أمّ ولَد » وقد رفعوها فوق منزلة الجارية التي لم تلد منه ، ومنحوها حقوقاً لم تنلها غيرها ، أهمها : أنه لا يصح لمالكها (وهو مسئولها) أن يبيعها ، ولا يهبها ـ وعلى ذلك جرى جمهور الفقهاء ـ ولكنها تبقى حلالاً لمالكها حتى يموت فاذا مات صارت حرة ، تجرى عليها كل أحكام الحرائر . أما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار .

هذا هو الوضع القانوني لمسألة الرقيق ، والنظام الذي كان يسود في عصرنا الذي نؤرخه ، وهو قدر لا بد منه لفهم النتائج الأدبية والعلمية والاجتماعية .

وقد كان المسلمون والنصارى واليهود على السواء في تملك الرقيق ، ولكن التسري لم يكن نظاماً مشروعاً عند اليهود والنصارى ، وان ارتكبه بعضهم خروجاً على القانون فقد رووا أن أبا جعفر المنصور أهدى طبيبه جورجيس بن بختيشوع النصراني ثلاث جوار حسان روميات مع ثلاثة آلاف دينار ، فردّ الجوارى فسأله المنصور لم رددتهن ؟ قال لأنا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة ما دامت المرأة ، ولا نأخذ غيرها[1]

ولكن من ناحية أخرى روى الجاحظ أن « طيماثوس » رئيس الجاثليق ببغداد حرّم كلام عَوْن العبّادى (وكان نصرانياً) عند ما بلغه أنه اتخذ السرارى ، فتوعد عون الجاثليقَ وحلف لئن فعل ليُسْلمن[1]

[1] أخبار الحكماء ص ١٥٩

وروى القفطى : أن النصارى عابوا يُوحَنّا بن ماسَوَيْه على اتخاذ الجوارى . وقالوا خالفت ديننا ، وأنت شمَّاس ! فاما كنت على سننا ، واقتصرتَ على امرأة واحدة ، وكنت شماساً لنا ، وإما أخرجت نفسك عن الشماسين ، واتخذت ما بدا لك من الجوارى . فقال لهم : إنما أُمِرْنا فى موضع واحد ألا نتخذ امرأتين ولا ثوبين . فمَن جعل الجاثليق . أولى أن يتخذ عشرين ثوباً من بوخنا الشقى فى اتخاذ أربع جوار ؟ فقولوا لجاثليقكم : أن يلزم قوانين دينه حتى نلزم معه فإن خالفه خالفناه ! [٢]

وقد كانت المملكة البيزنطية تحرّم على من ليس نصرانياً أن يملك رقيقاً نصرانياً ، ولكن المسلمين أباحوا لليهود والنصارى أن يتملكوا الأرقاء ولو كانوا مسلمين .

* * *

انتشرت تجارة الرقيق فى المملكة الاسلامية فى ذلك العهد ، كما انتشرت فى غيرها من الممالك ، وكان فى بغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » [٣] أنشئ فى الفتنة بين الأمين والمأمون ، وبكاه شاعر فى قصيدة طويلة آخرها :

ومهما أنسَ من شيءٍ تَوَلّى فإنى ذاكرٌ دارَ الرَّقيقِ

وقد سُمّىَ تاجرُ الرقيق « نَخّاساً » وكان فى الأصل يطلق على بائع الدواب ، واشتهر فى ذلك العصر كثير من النخاسين فى بغداد ، وسبب شهرتهم ما لهم من جَوار حسان تأوى إليهن الشعراء والأدباء ، منهم بالكَرْخ نخاس يكنى «أبا عُمَيْرٍ » كان له جوارٍ قيان لهن ظَرْف ، وكان من جواريه جارية تسمى « عَنّادة » هويَها عبد الله محمد بن البواب فقال

---

١ الحيوان للجاحظ ٤ ٩ ٢ أخبار الحكماء ٣٨٧ ٣ « مروج » ٢ ٢٤١

لو تَسكّتى « أبو عُمَيْرٍ » قليلا لأتيناه من طريق العياده
فقضينا من العيادة حقاً ونظرنا فى مقلَتَىْ « عَبّاده » [١]

ومنهم أبو الخطاب النخاس ، كان له جارية مغنية تعرف بذات الخال ، كان يهواها ابراهيم الموصلى [٢] ، ومنهم « حرب بن عمرو الثقفى » كان نخاساً ، وكان له جارية مغنية وكان الشعراء والكتاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون اليها يسمعونها ، وينفقون فى منزله النفقات الواسعة ، ويتزوره ويهدون اليه وفيها وفيه يقول أشجع

أشـكُو الذى لاقيتُ من حُبِّها وبُغض مَوْلاَهَا الى الرَّبِّ
مِنْ بغض مَوْلاَهَا ومن حُبِّها سقمت بين البُغض والحُبِّ
فاحتلها فى الصدْرِ حتى استوى أمْرُهُـمَا فاقتسَمَا قـلبى
تعجلَّ الله شفَائى بهـا وعَجّلَ السقْم الى حَرْب [٣]

ومر « أبو دلامة » بنخاس يبيع الرقيق ، فرأى عنده منهن من كل شيء حسن فانصرف مهموما ، فدخل الى المهدى ، فانشده قصيده يفضل فيها النخاسة على الشعر مطلعها

إن كُنْتَ تبغى العَيْشَ حُلْوًا صافيًا فالشعرَ أغْزِبْهُ وكُنْ نَخّاسا

ولئن كان المستهترون من الأدباء يغبطون النخاسين على نخاستهم ، فكثير من العقلاء كان يكره هذه الحرفه ويمقتها دخل ناس على معاوية ، فسألهم عن صنائعهم فقالوا : بيع الرقيق ، فقال بئس التجارة ضَمَانُ نفس ومؤونه ضرس [٤]

وكان على تجار الرقيق عامل من عمال الحكومة يشرف على أعمالهم ، ويراقب تجارتهم يسمّى « قيّم الرقيق »

---

١ أغانى ٢ ٤٤ ٢ أغانى ١٧ ٥ ٣ أغانى ٩ ١٢٨
٤ عيون الأخبار ١ ٢٥ ٥ اغانى ٢ ٢٧

كان هؤلاء الأرقاء أنواعاً مختلفة فمنهم السود . وكان أهم أسواق ذلك الصنف مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقيا ، وكانت القوافل تأتى بهم وبالذهب من الجنوب ، وكان الثمن العادىّ للعبد فى منتصف القرن الثانى حول مائتى درهم وقد رووا أن كافوراً الاخشيدى الحبشى الذى ملك مصر قد بيع فى أول أمره سنة ٣١٢ هـ بثمانية عشر ديناراً لأنه كان خصياً [١] ، وفيه يقول المتنبى لما غضب عليه

مَن علّم الأسود المخصىّ مكرُمَة ؟ أقَوْمُه البيضُ أم آباؤه الصِّيدُ ؟
أم أذْنُه فى يدِ النخاس دامية ؟ أم قَدْره وهو بالفَلْسَيْن مردود ؟
وذاك أن الفحولَ البيضَ عاجزة عن الجميلِ فكيفَ الخِصْيَةُ السُّود !

ومنهم البيض ، ومن أشهرهم الأتراك والصقالبة وقد كان الناس يفضلون الصقالبة على الأتراك ، كما يدل على ذلك حمله للخوارزمى وردت فى كتاب يتيمة الدهر « ويُستخدم التركى عند غيبة الصقلبى » [٢] وقد كان أهم مركز لتجارة الرقيق الأبيض مدينة سمرقند ، فقد اشتهرت باصدار أحسن الرقيق من هذا النوع ، وعظمت تجارته فى المملكة الاسلامية ، وفى أوربا ، وكان تجّارهُ فى أنحاء أوروبا من اليهود [٣] .

وقد كان لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة يعرف بها ، فالهنديات عرفن بالوداعة ، ولين الجانب والهدوء ، وحسن رعاية الطفل ولكن سرعان ما يعرض لهن الذبول وامتاز الرقيق من رجال الهنود بتدبير المنزل ، والمهارة فى الصناعات اليدوية ولكنه عرضة للموت الفجائى فى ريعان شبابه ،

---

١ Mez فى كتابه Die Renaissance Des Islams

٢ يتيمة ٤ ١١٦ ويطلق الصقالبة على الأجناس التى تسكن من بلغاريا إلى حدود القسطنطينية

٣ Mez

وأغلب ما يجلب الرقيق الهندي من «قندهار» واشتهرت السنديات بالخصر النحيل والشعر الطويل. واشتهرت مولدات المدينة (يعني الإماء اللاتي نشأن بالمدينة وتربين فيها) بالدلال والميل الى السرور والفكاهة والمجون وبحسن الاستعداد للتنوع في الغناء، وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والمفصل والعيون الناعسة. والأمة البربرية (المغربية) لا تبارى في حسن الانتاج، وهي لدماثة خلقها ولين عريكتها صالحة لأن تعوّد بمهمّات القيام بأي نوع من العمل. والمثل الأعلى للجارية — كما قال أبو عثمان الدلال — «أن تكون من أصل بربري فارقت بلادها وهي في التاسعة من عمرها، ومكثت ثلاث سنين في المدينة، ومثلها في مكة، ثم رحلت الى العراق في السادسة عشرة من عمرها لتثقف ثقافته فإذا بيعت في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة الأصل ودلال المدنيات، ورقة المكيات، وثقافة العراقيات».

«والسودانيون كانوا يعمرون الأسواق وقد عرفوا بقلة الثبات والإهمال، كما عرفوا بالميل الى الضرب على الدف والرقص، وهم أحسن خلق الله بياض أسنان لكثرة لعابهم، ويعانون عادة من نتن الإبط وخشونة الملمس».

«والحبشيات عرفن بالضعف والترهل والاستعداد لأمراض الصدر، وهن على العكس من السودانيات لا يحسنّ الغناء ولا الرقص، ولكنهن وفيات الخُلُق، موضع للثقة أهل للاعتماد عليهن».

«والتركية بيضاء البشرة، على حظ عظيم من جمال وحلاوة، ولها عينان صغيرتان جذابتان، وهي في الغالب بدينة أميل الى القصر ولود، كريمة بطبعها تجيد الطهي، ولكن لا يوثق بها ولا يعتمد عليها».

«والأمة الرومية بيضاء البشرة في حمرة، ناعمة الشعر زرقاء العينين، طيّعة مستعدة للتشكل بما يحيط بها من ظروف، مخلصة ثقة، والعبد الرومي مفيد [illegible]

المنزل، ويحب الطعام، ويميل إلى القصد في الإنفاق ويجيد الصون الجملة»

«والأرمن شر الجنس الأبيض، سليمة أجسادهم ولكن أقدامهم فسيحة، لا يعرفون بالعفة وتفشو فيهم السرقة، خشونة في طباعهم وخشونة في كلامهم إذا أنت تركت الأرمني ساعة بلا عمل عمد إلى الأذى يرتكبه، وهو إنما يعمل للخوف، فيجب أن تحمل له العصا دائما، وتعنفه ليعمل ما تريد[1]».

إذن كان الرقيق وعلى الأخص الجواري مختلفات الأنواع، هنديات وسنديات، ومكيات ومدنيات، وسودانيات وحبشيات، وتركيات وروميات وأرمنيات — وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين بألوان الحمام فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض، وشبه الزنج بالحمام الأسود الخ[2].

وهذا ما جعل قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء مأوى لرقيق من أمم متعددة، تختلف في الطباع والعادات والألعاب. فالطبري يحدثنا: أن المأمون لما غضب على الفضل قتله أربعة من غلمانه غالب المسعودي الأسود، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق الصقلبي[3] وحدثنا أن المتوكل كان له أربعة آلاف سُرِّية[4] من مختلف الأجناس طبعاً؛ ودخل أحمد بن صدقة على المأمون في يوم الشعانين[5] وبين يديه عشرون وصيفة جلباً روميات مزنرات قد تزيّن بالديباج الرومي، وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون فقال له المأمون ويلك يا أحمد قد قلتُ في هؤلاء أبياتا فغنّني فيها ثم أنشدني:

---

١ ترجمنا هذه القطعة ولخصناها من كتاب Mez الثاني وهو نقلا عن رسالة ألفها ابن بطلان «في شراء الرقيق» وهي محفوظة في مكتبة برلين ولم نعثر لها على أصل عربي في مصر

٢ الحيوان ٣ . ٧٥ ٣ ابن جرير ١٠ ٢٥٠ ٤ مسعودي ٢ ٨ ٣

٥ يوم الشعانين عيد للنصارى

ظِبَاءٍ كَالدَّنَانِيرِ مِلَاحٍ فى المَقَاصِيرِ
جَلَاهُنَّ السَّعَانِينُ عَلَيْنَا فى الزَّنَانِيرِ
وَقَدْ زَرَّفْنَ أَصْدَاغاً كَأَذْنَابِ الزَّرَازِيرِ
وَأَقْبَلْنَ بِأَوْسَاطٍ كَأَوْسَاطِ الزَّنَابِيرِ

فغناه بها فلم يزل يشرب ، وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص[1].

والرشيد يمدحه مروان بن أبى حفصة بقصيدة ، فيعطيه مالا ويعطيه عشرة من رقيق الروم[2] ، وكان لمحمد بن شفوف الهاشمى ثلاثة غلمان مغنين ، اثنان صقلبيان ؛ خاقان وحسين ! وكان خاقان أحسن الناس غناء ! وكان حسين يغنى غناء متوسطاً وهو مع ذلك أضرب الناس ! وكان الغلام الثالث يقال له حجاج حسن الوجه رومى الغناء ! [3].

وكان لبشار جارية سوداء يقول فيها :

وَغادة سوداء براقة كالماء فى طيب وَفى لين
كأنَّما صيغت لمنْ نالها مِنْ عنبرٍ بالمسك معجونِ [4]

وكان لأبى الشيص الشاعر جارية سوداء وكان يتعشقها وفيها يقول:

يا ابنة عم المسك الذكى وَمَنْ لولاك لم يُتَّخذْ ولم يطب
ناسبك المسك فى السواد وفى الـ ـريح فأكرم بذاك من نسبْ

وكان لابراهيم بن المهدى جارية رومية تكنس البيت . ولا تحسن العربية [6].

وكان للمهدى جارية نصرانية ، تعلق فى صدرها صليباً من ذهب [7] الى

---

١ أغانى ١٩ : ١٣٨ ٢ طبرى ١٠ : ١١٤ ٣ الأغانى ١٥ : ٥٣
٤ أغانى ٣ : ٤٦ ٥ أغانى ١٥ : ١١١ ٦ أغانى ٩ : ٧١ ٧ الطبرى ١٠ : ٢٠

كثير من أمثال ذلك — فانت ترى أن البيوت ما كانت تخلو غالباً من رقيق
جارية أو غلام، وأنهم من أجناس مختلفة، وديانات مختلفة، وثقافات مختلفة،
وقد رأيت فيما قصصنا أن الخلفاء والأغنياء تركوا لمماليكهم حرية الديانة،
فقد تكون الجارية نصرانية تلبس الصليب والزنار، وتلبس لبسها القومى
وتتكلم بلغتها ولا تحسن العربية، ولهذا من السائغ ما سنبنيه عليه

* * *

اتجه العباسيون الى تعليم الجوارى — على اختلاف أنواعهن — اتجاهاً
قوياً، وأكثر عنايتهم كانت بتعليمهن الغناء، فقد انتشر الغناء فى هذا العصر
انتشاراً عظيماً، وعُدّ حاجة من حاجات الانسان الضرورية، فترى المغنين
والمغنيات فى المحال العامة وفى الشوارع وفى قصور الخلفاء، وفى بيوت
الأغنياء والفقراء، ونمـا ذوق الناس فى الغناء نمواً غريباً وملئت الكتب
بالحكايات عنه، شغف الناس به حتى ليغنى مغنٍ على الجسر فيجتمع السامعون
حوله ويخاف من سقوط الجسر بهم[1]، وحتى كان بعضهم يكاد ينطح العمود
برأسه من حسن الغناء[2] ولم يتحرج الخلفاء ولا أولادهم من اختراع
الأصوات والغنى بها. فصاحب الأغانى يحدثنا أن الواثق والمنتصر كان لهما
أصوات يغنى بها، وكانا يجيدان ذلك[3] وعقد فصلا طويلا ممتعاً لأولاد الخلفاء
وصنعتهم فى الغناء[4] وكان لعُلَيّة بنت الخليفة المهدى ثلاثة وسبعون صوتاً (دوراً)
ويحدث احمد بن أبى دواد القاضى فيقول كنت أعيب الغناء وأطعن على
أهله فخرج المعتصم يوماً الى الشمّاسية فى حرّاقة يشرب، ووجّه فى طلبى
فصرت اليه فلما قربت منه سمعت غناء حيّرنى، وشغلنى عن كل شىء فسقط
سوطى من يدى، فالتفتُّ الى غلامى أطلب منه سوطه فقال لى: قد والله سقط

---

١ أغانى ١٨ ١٢٧   ٢ أغانى ١٥ ١٥٦   ٣ أغانى ٨/١٦٢
٤ ٧ — ٣٥ وكذلك فى الجزء التاسع

سوطي ، فقلت له فأي شيء كان سبب سقوطه ؟ قال صوت سمعته شغلني عن كل شيء فسقط سوطي من يدي ، فإذا قصته قصتي ! قال وكنت أنكر أمر الطرب على الغناء ، وما يستفز الناس منه ، ويغلب على عقولهم ، وأناظر المعتصم فيه ؛ فلما دخلت عليه يومئذ أخبرته بالخبر فضحك وقال هذا عمي كان يغنيني ·

ان هذا الطويل من آل حفص نشر المجد بعد ما كان ماتا

قال فتبت مما كنت أناظر عليه في ذم الغناء فسألته أن يهبه ففعل ، وفعل ، وبلغ بي الطرب أكثر مما بلغني عن غيري فأنكرته ، ورجعت عن رأيي منذ ذلك اليوم [1].

دعاهم الشغف بالغناء الى تعليم الجواري للتمتع بغنائهن وسماعهن معاً ، وتعلم الغناء اشد صلة بتعلم الأدب ، لأن الناس في ذلك العصر كانوا يتغنون بالشعر العربي الفصيح مثل شعر عمر بن أبي ربيعة ، وبشار ، ومسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية ، والمغنية لاتحسن أن تغني هذه الأشعار إلا اذا حفظت كثيرا من الشعر ، وأجادت مخارج الحروف واطلعت على كثير من الأدب .

بل رأينا أحاديث كثيرة عن مغنيات كن يغنين مما يخترعن من شعر وصوت يقول أبو دلامة من شعر له ·

هذي رسالة شيخ من بني أسد يهدي السلام الى العباس في الصحف
خطتها من جواري المصر كاتبة قد طالما ضربت في اللام والألف
وطالما اختلفت صبحاً وشاتية الى معلمها باللوح والكتف [2]
حتى اذا نهد الثديان وامتلأ منها وخافت على الإسراف والقرقف [3]

---

١ أغاني ٩ : ٥٥ ٢ الكتف [illegible] كانوا [illegible]
٣ القرقف من [illegible]

صِيغَتْ ثلاث سنين ما ترى أحداً   كما يَصُونُ تِجَارٌ دُرَّةَ الصَّدَفِ [١]

وكانت عُرَيْب المغنية تروّي الجاريات الأشعار لتغنين بها [٢] ويقول المبرد: « حدثني الجاحظ عن ابراهيم بن السندي قال كانت تصير الىّ « هاشمية » جارية « حمدونة » في حاجات صاحبتها ، فأجمع نفسي لها وأطرد الخواطر من فكري ، وأحضر ذهني جهدي ، خوفاً من أن تورد عليّ ما لا أفهمه ، لبعد غَوْرها واقتدارها على أن تجريَ على لسانها ما في قلبها . وكذلك ما يؤثر عن خالصة ، وعتبة جاريتَيْ رَيْطَة بنت أبي العباس [٣] .

ويقول المسعودي : « لما أفضت الخلافة الى المتوكل أهدى اليه ابن طاهر هدية فيها مائة وصيف ووصيفة وفي الهدية جارية يقال لها « محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها ، وعلّمها من صنوف العلم ، وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس ، فحسن موقعها من المتوكل » .

إذن كانت الجارية كثيراً ما تعلم أدباً ، وتعلم فناً ، وخاصة الغناء وكان هذا التعلم يعلي قيمتها أضعاف ثمنها ، فقد عُرضت جارية بثلثمائة دينار فلما علّمها ابراهيم بن المهدي الغناء عرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار [٤] وقد بيعت عُرَيب المغنية الشهيرة بخمسة آلاف دينار [٥]

وخمار يشتري جارية بمائتي دينار ، فيعلمها ويبيعها بعشرة آلاف دينار [٦] . واشترى الرشيد جارية من الموصلي بستة وثلاثين ألف دينار لأنه يحسبها من تأثيثه [٧] إلى كثير من أمثال ذلك .

---

١ أغاني ٩ ١٣٦   ٢ سوار المحاضرة ١ ١٣٢   ٣ الكامل ٢ ٢٧٩
٤ مروج الذهب ٢ ٣٩   ٥ أغاني ١٤ ١٠٩   ٦ أغاني ٥ ١٤٣
٧ أغاني ٥ ٧ وقال هذا من اه أي سلح له والأثم طبعه

وقد كان ابراهيم الموصلي مغنى الرشيد على ما يظهر من أكثر الناس نشاطاً فى تعليم الجوارى وتثقيفهن، ومن أسبقهم فى التوجه الى ذلك. يحدث ابنه فيقول «لم يكن يعلّمون الجارية الحسناء الغناء وإنما كانوا يعلمونه الصفر والسود وأول من علم الجوارى المثمّنات أبى، فانه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن» وفى ذلك يقول أبو عُيَيْنة الشاعر وكان يهوى جارية يقال لها «أمان»، طلب مولاها فيها ثمنا كبيراً.

قلتُ لما رأيتُ مَوْلى أمانٍ ... قدْ طغَى سومُهُ بها طغيانا

لا جزى الله الموصلي أبا إسحاق عنا خيراً ولا إحسانا

جاءنا مرسَلاً بوحي من الشيطان أعْلَى به علَيْنا القيانا

من غناءٍ كأنه سكرات الحب يصبي القلوبَ والآذانا [1]

والقف هو (ابراهيم الموصلي) ويريد حوراء شركة لشراء الجوارى، وتعليمهن الغناء، والمشاركة فى ربحهن [2]

* *

نشر هؤلاء الجوارى نوعا من الثقافة كان لا بد منه فى مثل مدنية العباسيين وهو لا بد منه فى كل مدنية وأعنى بذلك الفنون الجميلة، وما يتبعها من رقى فى الذوق الفنى. فقد كان بجانب الحركة العلمية فى ذلك العصر حركة أخرى لا تقل عنها شأنا وهى الحركة الفنية من غناء وصور ورقص. والحق أن الناس شعروا إذ ذاك شعورا قويا بالجمال، وتفنن شعراؤهم - وخاصة مسلم ابن الوليد، وأبا نواس - فى وصف الجمال والولوع به وفرارهم من غير ملل كما قال أبو نواس

---

١ أغانى ٥ ٩ ٢ أغانى ٣ ٧٣

للحسن فى وجناته بدعٌ ما إن يَمَلُّ الدرسَ قاريها

ويحكى الجاحظ أن من رأى الديك والدجاجة يشربان الماء ، وكان عطشان ذهب عطشه من قبح حسو الديك والدجاجة ، ومن رأى الحمام يشرب الماء وكان ريان يشتهى أن يكون فيه فى الماء لجمال شربه[1] وهذا ـ من غير شك ـ يدل على شعور بالجمال قوى ، وكان العتّابى يعد جمال كل مجلس أن يكون سقفه أحمر وبساطه أحمر ، ويقول بشّار :

هجان عليها حُمْـرة فى بياضها تروق بها العينين والحسن أحمر[2]

وشعروا بجمال المعنى كما شعروا بجمال الصورة فأكثروا من القول فى جمال الروح وجمال الحديث فيقول بشار

وكأنّ رَجْعَ حـديثها قِطعُ الرياض كُسِينَ زهْرا
وكأن تحت لسانهـا هاروتَ ينْفُثُ فيه سحرا

ويقول :

وَبِكْرٍ كنُوّار الرياض حديثها تروق بوجه واضح وقَوام

والحق أن الجوارى كُنّ أكبرَ عامل ، فى نشر الشعور بالجمال ، وما يتبعه من فنون جميلة ، وأن الناس فى العصر الذى نؤرخه لم يكتفوا بالجوارى من ناحية جمالهن الجسْمى ، بل شغفوا بهن من ناحية الجمال الفنىّ أيضاً ليجمعوا بين الجمالين ، كانوا يميلون الى الغنـاء والى الرقص ، والى التفنن فى الملبس ، والى غير ذلك من ضروب الفن ، فأخذوا يعلّمون الجوارى هذه الفنون ، وسرعان ما تحوّل النوع فيها من الرجال الى الجوارى ، وأخذ

---

[1] الحيوان ٥ ٣٣ [2] أغانى ١٧ ١١

نوابغ المغنّين يلقنون جواريهم ألحانهم وأصواتهم وطر
فابراهيم الموصلى يعلّم جواريه فنّه حتى يحسنّه ، وعبد الله بر
الغناء علماً تاماً ؛ فيصنع الأصوات يلقنها لجواريه ، والمغنون
حزبين : حزب القديم ، وحزب الجديد ؛ فينقسم الجوارى إلى
لمن أخذن الفنّ عنهم ، وامتلأ كتاب الأغانى بتراجم الجوارى
عُرَيب ومُتيم وبَذْل وذات الخال وفريدة وأمثالهن ، وعقد الف
فى نوادرهن وميزة كل منهن ونوع تفوقهن —

والآن نذكر طرفاً من أنواع الفنون التى نشرْتها :

فأول ذلك : الغناء وقد غمرن العراق بالغناء الجيد ، وما
ومجون . وقد كان هؤلاء الجوارى فى هذا على نوعين ، جوار
للخاصة فالخليفة له جوار يغنينه ، والأمراء والأغنياء كذلك —
هذه الجوارى حباً فى التجدد ، وفراراً من الاقتصار على صوت

وهناك نوع آخر وهو : قيان عامة وأكثر ما يكون أن نخ
فيعرضهن للغناء فى محال يأوى اليها الفتيان لسماعهن ، والاتفاق
نماذج ذلك ما حكاه لنا صاحب الأغانى عن ابن رامين : فقد
بالكوفة ، وله جوار مغنيات أشهرهن اسمها ، سلامة الزرقاء ،
مُقيِّن بالكوفة ، يجتمع فى بيته الفتيان للسماع والشراب . ويقو
قينانه الشعر . وممن كان يختلف اليه روح بن حاتم المهلى
الأشعث ، ومعن بن زائدة ، وابن المقفع وأمثالهم يسمعون و
سَعَة ، وينشدون أشعار الغزل . ولما خرج ابن رامين حاجا
الشعراء لخروجه ، ووصفوا لوْعتهم من فرقة مجلسه كما وصفوا
الذين كانوا يغشون بيته ، من ذلك قول أحدهم :

أيّةُ حالٍ يا ابنَ رامينِ   حالُ المحبِّينَ المساكـ

تَرَكْتَهم موتى ولم يَتْلَفوا ⠀⠀ قد جُرِّعوا مِنْك الأمرّينِ

وسِرْتَ في رَكْبٍ على طِيّةٍ ⠀⠀ ركبِ تِهامٍ ويمانينِ

يا راعِيَ الذَّوْدِ لقد رُعْتَهم ⠀⠀ ويلك من رَوْع المحبينِ

فَرَّقتَ جَمْعاً لا يُرى مثلهم ⠀⠀ بين دروب الروم والصين [1]

وفي الحق أن هذا النوع من الجواري أثر أثراً سيئاً في نشر الخلاعة والمجون. ومن قرأ رسالة القيان المنسوبة للجاحظ، أو قرأ وصف «الوشّاء» في باب ذم القيان في كتابه «المُوَشَّى» أدرك ما كان لهن من أثر ترى ظله في شعر الشعراء الخليعين في ذلك العصر، وما كان أكثرهم [2] — ويعلل الجاحظ فساد هؤلاء الفتيات بقوله «وكيف تسلم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة؟ وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لَدُن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصُدّ عن ذكر الله من لهو الحديث . . ، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يُسمع منه كلمة جد، ولا يُرجع منه إلى ثقة ولا دين، ولا صيانة مروءة، وتروي الحاذقةُ منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدا ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض كان من ذلك عشرةُ آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب عن عقاب، ولا ترغيب في ثواب وإنما بنيت كلها على ذكر العشق والصبوة والشوق، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها، منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش ا وهي مضطرة إلى ذلك لأنها إن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها ذهبت، وكل واقف فإلى نقصان أقرب [3]»

---

١ الأغاني ١٣ : ١٢٧ وما بعدها. ⠀ ٢ الموشى ص ٩٥ وما بعدها

٣ رسالة القيان ص ٧٢

وغير هذا نشر الجوارى أنواعاً من الظرافة . قلدهن فيها الناس ، وجروا على أثرهن ، كحب الأزهار وتعشقها ، فيحدثنا « الأغانى » أن « متيا » جارية على بن هشام « كان يعجبها البنفسج جداً ، وكان عندها آثر من كل ريحان وطيب ، حتى أنها من شدة اعجابها لا يكاد يخلو من كمها الريحان ، ولا تراه الا كما قطف من البستان »[١] ، وفطن الناس اذ ذاك الى دلالة الأزهار على المعانى فيقول شاعرهم :

أهدت اليه بَنَفْسَجاً يُسليه تُنْبيــــه أن بنفسها تَفْديه
فارتاح بعد صبابة وكآبة ورجا لحسن الظن أن تُدْنيه

ويقول آخر

سُرَّ بالآس الذى أهدت له ثم لما أهدت الورد جَزِع
ذاك أن الآس باق ، دائم ولأن الورد حيناً ينقطع

ونوع آخر ظريف انتشر بينهم ، وهو كتابة الأشعار الرقيقة والجمل الظريفة تطريزاً على الأقمصة والأردية والأكمام ونحوها . « قال الماوردى : رأيت جارية ونحن عند محمد بن عمرو بن مَسْعَدَة . . . عليها قميص مكتوب فى وشاحه :

أغيب عنك بِوُدٍّ لا يُغَيِّره نَأيُ المحل ، ولا صَرْفٌ من الزمن

وعلى طراز الرداء :

أقلّ الناس فى الدنيا سرورا محبٌّ قد نأى عنه الحبيب

وقال : ورأيت جارية لبعض الهاشميين . يقال لها عُرَيب ، عليها قميص موشح بالذهب ، مكتوب فى وشاحه :

وأنى لأهواه مُسيئاً ومحسناً وأقضى على قلبى له بالذى يَقْضى

---

١ أغانى ٧ : ٣٦ .

فحتَّى مَتى روحُ الرصا لا ينالى   وحتى متى أيامُ سُخْطك لا تمصى

وكس على العصائب ، ومشادّ الطرر والدوائب ، والرنابير والمساديل والوسائد والبسُط والأسرّه والـكِلل والنعال والخفاف ، وبالحناء على الأقدام والراح ١

ونجح هؤلاء الحوارى فى إشْعار الناس بالظَّرف ، والترام حدوده ، حتى أصبح للطرفاء عرف خاص فى الرى والمطر ، والطعام والشراب ، وما الى دلك ، وحتى أحد «الوَشّاء» هدا العرف ودوّنه قانونا للطرفاء فى كتابه «الموشّى»

ولسنا نرجع الفصل فى دلك كله للحوارى فان لمواليهم أيصاً أثراً لا ينكر فابراهيم الموصلى وأمثاله من المعنين هم الدين علّموا الحوارى عناءهم ، ولقنوهن أصواتهم ، والطبقة الراقية هى التى أوحت الى الحوارى صروبَ الطرافة ، ولـكن مما لا شك فيه أنه قد كان للحوارى الفصل فى نشر هده الفنون الجميلة بين طبقات الشعب المختلفة ، لأنهم كانوا أكثرَ ولوعا بهن ، وأشدّ تقليدا لهن ، وأميل للتحلق بما يستحسن

وكان للحوارى فصل آخر وهو أنهن من أمم مختلفة كما رأيت . فهنديات وتركيات وروميات وغير دلك ، وقد كان كل صنف تُحِلّبُ وقد تكون عادا به أو كادت . فالروميات يحملن عادات قومهن فى العناء وصروب الطرافه وهكدا بقية الامم ثم أنهن الممالك الاسلاميه فنشرن عاداتهن ، ووقفن أنصارهن على عادات غيرهن ، فخصع دلك كله لقانون الاسحاب ، ومن أجل دلك كان العناء عناءين حداً . وهدا ما يفسر النزاع الشديد الدى حكاه الأغانى من طائفة تتعصب للقديم ، وأخرى تتعصب للجديد ، وما القديم الا ما أُلِف من عناء مُعْبَد وأمثاله من معنى الدولة الأمويه ، وما الجديد الا ما أدخل عليه من نغمات فارسيه وروميه ، وكدلك سائر الفنون

---

١ تجد كثيرا من دلك فى كتاب الموشى

وفن آخر كان للجوارى أثر كبير فيه، كأثرهن فى سائر الفنون الجميلة ـ ذلك هو « الأدب » ونرى أن للمرأة فى كل أمة، وفى كل عصر فضلا على الأدب من ناحيتين « الأولى » ما تثيره فى نفوس الرجال من عاطفة قوية تجيش فى صدورهم، فتخرج على ألسنتهم شعراً رقيقاً وأدباً ممتعاً « الثانية » مشاركة المرأة الرجلَ فى اخراج القِطع الفنية والأدبية فى المواضيع التى تمس شعورهن. وهن عليها أقدر!

كان هذا هو الشأن فى العصر العباسى، ويظهر لنا أن « الجوارى » كن أنشط من « الحرائر » فى النوعين معاً، أعنى فى ناحيـة الانشاء الأدبى، وفى ناحية الايحاء الى الشعراء ويرجع السبب فى ذلك إلى النظام الاجتماعى اذ ذاك، فقـد كان الناس ـ كما نقلنا قبل عن الجاحظ ـ يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجوارى، ويحجبون الحرة ويشددون فى تحجيبها، واذا أراد أحد أن يتزوجها بعث « بخاطبة » تنظر اليها، وتصف للرجل محاسنها وعيوبها، أما هو فلا يراها الا بعد الزواج ولكن الجارية شأنها غير ذلك فهو لا يعثر بها كما يعثر بقريبته الحرة، ثم هى سافرة الى حد بعيد بحكم أنها فى كل وقت عرضة لأن تباع وتشرى، وهى تقضى للرجل حوائجه، واذا أراد أحد من عامة الناس أن يستمع لغناء، أو يلهو بالقيان فى بيوت المقينين فهن اللائى يغذين ميله إلى السماع، ورغبته فى اللهو، وهن ـ بحكم شعورهن ـ اللائى تقع عليهن نظر الناس، أما الحرائر فلا تقع عليهن الا نظر أقاربهن، لذلك كان طبيعيـاً أن الأدباء والشعراء يغذون أدبهم وشعرهم بالجوارى أكثر مما يغذونه بالحرائر — ومن ناحيـة أخرى فقد عُنى الرجال بتعليم الجوارى ـ كما نظهر ـ أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر، ودعاهم إلى ذلك الناحية التجارية، فقد رأيت أن عِلم الجارية وأدبها كان يقوّم فى سوق الرقيق بأكثر مما يقوّم بدنها، وأن الجارية اذا قُومت بمائتى دينار جاهلة قُومت

بأصناف ذلك مغنّية أو أديـــــة ، والمال في كل عصر هو قوام الحركات الاجتماعية ، أما الحرائر فلم يكن يُعنى بتعليمهن وترشيحهن الا طبقة قليلة ، وهى طبقة الاشراف ومن فى حكمهم وقليل ماهم وسبب آخر : وهو أن الناس كانوا يرون أن الجوارى هن ملهى الرجال فحاول القائمون بأمورهن أن يرقوا هذه الملاهى بكل ما يتطلبه اللاهون ، ورأوا أن الجارية اذا كانت مغنّية أديبة موسيقية شاعرة كان ذلك أفعل فى قلوب الرجال ، فلم يألوا جهداً فى تحقيق مطالبهم .

نعم نجد كثيراً من الحرائر اشتغلن ببعض العلوم ، ولكن أكثر ما اشتغلن به كان الباعث عليه دينياً ككثير من المحدثات والمتصوّفات . ولكن هذا ليس موضوعنا هنا ، انما موضوعنا الاشتغال بالفنون ، والجوارى - من غير شك - فى هذا الباب كن أكثر وأظهر .

مصداق ذلك أنا نجد - من الناحية الانشائية - كثيرا من الجوارى أديبات متفنّنات ، لا يدانيهن فى ذلك الحرائر فيقول الأغانى فى عُـرَيب « كانت مغنية محسنة . وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخط والمذهب فى الكلام ، ونهاية فى الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة ، وجودة الضرب واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار ، والرواية للشعر والأدب »[١] ويقول فى « مُتَيّم » « كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت وتأدبت وغنت ، وأخذت عن « اسحاق الموصلى » وعن أبيه من قبله . وكانت من أحسن الناس وجها وغناء وأدبا ، وكانت تقول الشعر ليس مما يستجاد ولكنه يستحسن من مثلها »[٢] ويقول فى « دنانير » - جارية يحيى بن خالد البرمكى - : « كانت من أحسن الناس وجها ، وأظرفهم وأكملهم ، وأحسنهم أدبا وأكثرهم رواية للغناء والشعر » .

---

١ أغانى ١٨ ١٧٥ ٢ أغانى ٧ ٣١

ومن الناحية الأخرى ـ كان الجوارى أكثر ايحاء للشعراء بمعانى الشعر للسبب الذى بيّنا ، فبشار يعشق جارية يقال لها « فاطمة » سمعها تغنى فهويتها ، وقال فيها الشعر ، كما قال الشعر فى جارية له سوداء . وحياة دعبل الخزاعى ، ومسلم بن الوليد ـ صريع الغوانى ـ مملوءة بما حدث لهم مع الجوارى والشعر فيهن ، وأبونواس كان يهوى جارية اسمها « جنان » وهى جارية لآل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ، وكانت جميلة أديبة تعرف الأخبار وتروى الأشعار ، فقال : ان أبا نواس لم يصدق فى حبه امرأة غيرها وقد أكثر فيها من بدائع شعره وشغف العباس بن الأحنف بفوز ، وكانت جارية لمحمد بن منصور فأتى فى شعره فيها بالممتع

هذا قليل من كثير مما ملئت به كتب الأدب من شعر وقصص ، ومما كان بين الفتيان والشعراء والأدباء وبين الجوارى فى ذلك العصر

ولئن اغتبط الأدباء بما أنتجته هذه الحالة الاجتماعية من شعر رقيق ، ومن بديع ، فان رجال الدين والخلق ساءهم ما نتج عن ذلك من لهو خليع ، واستهتار شنيع وأخذ الاولون يحثون الناس على الاستمتاع بهذه الحياة وجنى ثمارها ، واخذ الآخرون ينعون على الناس لهوهم وفجورهم ، ثم يفرّون من هذا كله إلى الزهد فى الحياة ، والهرب من لذائذها ، كما سنعرض ذلك فى الفصل التالى

الفصل الخامس

حياة اللهو وحياة الجد

هل كان الناس يعيشون فى ذلك العصر عيشة ترف ونعيم، ولهو ومجون، أو عيشة جد وعفة ؟ وهل كان الخلفاء العباسيون الأوّلون يتحرّون أوامر الدين ويتقيدون بها، ولا يتمتعون إلا بمــا أحلّ الله كما يصورهم بعض المؤرخين، أو هم تحللوا من كثير من القيود وأسرفوا فى اللهو كما يصوره آخرون ؟ وهل كانت حالة الشعب رخيّة سعيدة أو بائسة شقية ؟ وما أثر ذلك كله فى العلم والفن والأدب ؟

ذلك ما نحاول الإجابة عنه فى هذا الفصل.

***

إذا نحن نظرنا نظرة عامة لنقارن بين الحياة الأموية، والحياة العباسية وجدنا الأولى أقل تكلفاً، وأكثر سذاجة، وأدلّ على الذوق العربى البدوى البسيط. وأكبر ظاهرة نراها أن سيطرة العنصر العربى فى العهد الأموى صبغته بهذه الصبغة، وجعلته إذا أراد الترف والنعيم تخيّر من ترف الأمم الأخرى ونعيمها، ولم يأخذه كما هو بحذافيره. ثم هو بعدّل فيه حسب ذوقه وميوله ويجعله شيئاً آخر عربياً لا فارسياً صرفاً، ولا رومياً صرفاً. رأوا الموائد الفارسية، وأدخل الخلفاء والأمراء على موائدهم نوعاً من التحسين ولكن لم يكن العربى البدوى إذا دخل على معاوية أو عبد الملك يشعر بأنه فى جوّ آخر بعيد كل البعد عما يعرفه.

روى ابن خلدون أن الحجاج أولَمَ فى اختتان بعض ولده، فاستحضر بعضَ الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس، وقال أخبرنى بأعظم صنيع

شهدته فقال له : نعم أيها الأمير ، شهدتُ بعض مرازبة كسرى ، وقد صنع لأهل فارس صنيعاً ، أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة ـ أربعاً على كل واحد ـ وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ، فإذا طعموا أُتبعوا أربعتهم المائدة بصحائفها ، ووصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس «[١] كأنه كره ذلك واستعظمه ، ونبا عن ذوقه العربى ، وعده فخفخة كاذبة وأبهة لا يستسيغها ، ففر من ذلك الى عادات قومه !
وكذلك شأنهم فى الدواوين ، وضروب الحضارة الأخرى . وعلى الجملة ، فالذوق العربى واضح كل الوضوح فى العهد الأموى والعلاقة بين دمشق ومكة والمدينة ـ أعنى من الناحية الاجتماعية لا السياسية ـ علاقة متينة . يتفاهمون كل التفاهم ، ويتذاوقون كل الذوق ، والاسلام مفهوم لديهم فى بساطته وتقاليده على نحو أحسن مما فهم به فى العصر العباسى

أمّا العباسيون فلم تكن شأنهم كذلك ، لئن كان الأمويون نقلوا إليهم بعض العادات مع صبغها بصبغتهم ، فالعباسيون كانوا هم الذين ينقلون بحذافيرهم الى العادات الجديدة والتقاليد الجديدة ، خذ لذلك مثلاً « النيروز » كان عيداً للفرس قديماً ، ولم نسمع فى العصر الأموى أن كان له شأن ذو بال ولكن العباسيين اتخذوه عيداً قومياً يحتفلون به حفلتهم بعد الفطر ويتبادرون فيه بالهدايا والقصائد ، ويجلس فيه الخلفاء للتهنئة . وقل مثل ذلك فى الأزياء فانتشرت القلنسوة الطويلة ، وضروب الأزياء الفارسية اتخذ القضاة القلانس العظام ، واتخذ الخلفاء العمائم على القلانس وتفننوا فى العمامة ونوّعوها تبعاً للطبقات كما كان يفعل الفرس ؛ فللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللعتّابين عمة ، وللأعراب عمة . ولكل قوم زى ، فللقضاة زى ، ولأصحاب القضاة زى ، وللشرط زى ، وأصحاب السلطان على مراتب ولكل مرتبة زى ؛ فمنهم من

---

(١) ابن خلدون ١ : ١٤٥

يلبس المُبَطَّنة ، ومنهم من يلبس الدُّرّاعة ، ومنهم من يلبس « الباريكند » ـ وكانت الشعراء تلبس الوشي والمقَطَّعات ، والأردية السود ـ وقد كان شاعر فى هذا العصر يتزيا بزى الماجن فهجاه بعض الشعراء[1]

والخلفاء الأمويون اذا وهبوا فانما كانت أكثر جوائزهم الابل ، أخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم. أما فى دولة بنى العباس فجوائزهم كانت أحمال المال وتخوت الثياب ، والخيل بمراكبها[2] وعلى الجملة فقد انتقل الناس فى العهد العباسى الى عادات الأمم الأخرى وتقاليدهم ، وأفرطوا فى ذلك كل الافراط ـ على العكس من العهـــد الأموى ـ ومن ثَم انقطعت الصلات الاجتماعية والمشاكلات بين المسلمين فى العراق والمسلمين فى جزيرة العرب أو كادت. ويحدثنا الأغانى حديثاً طريفاً عن ناهض بن ثومة ، وهو شاعر بدوى جاف ، من الشعراء فى العهد العباسى. شهد حفلة عرس فى حلب فدار عقله واختبل وكره ما رأى مما لا عهد له به فى البادية ، فعجب وأفرط فى العجب من الاحتفاء بالعروس ، ومن ألوان الملابس ، ومن ألوان الأطعمة والشراب ، ومن آلات الغناء الفارسية ، حتى أمعن الناس فى الضحك من إمعانه فى الغفلة !! [3] ولقد كان يُجَنّ حقاً لو شهد حفلة العرس هذه فى بغداد .

* * *

أفرط قوم من الناس فى هذا العصر فى اللذائذ يتحرّونها ، ويتفننون فى الاستمتاع بها ، وكلما مَلّوا نوعا ابتكروا نوعا . واذا أخذوا يهيئون بسط الدعاة يستحثونهم على الاغراق فيهـا ، والأخذ بأكبر حظ منها. ونحن اذا تتبعنا تاريخ الدولة العباسية فى هـــذا الباب وجدنا أن الدولة كانت تسير

١ انظر الكلام على الزى وأنواعه فى البيان والتبيين ٣ : ٦٥ وما بعدها .

٢ ابن خلدون ١ : ١٤٥ . ٣ اقرأ القصة تامة فى الاغانى ١٢ : ٣٦

خطوات متدرجة إلى هذه الغاية ، وأن كل خليفة كان يعلو – غالبا – درجة فى سلم الترف والنعيم عمن قبله وأننا لو خططنا رسما بيانيا لاتجه صاعداً باستمرار فى عصر كل خليفة تقريباً والناس فى كل عصر – وخاصة فى هذه العصور – تبع لإمامهم

بدأت الدولة العباسية ، وحولها أعداء كثيرون من أمويين وصنائعهم ، ولما اختير للخلافة السفاح ثم المنصور غضب كثيرون من البيت العباسى نفسه ، وغضب شيعة على ، فكان لابد لقيام الدولة من خلفاء جادين غير لاهين ، يصرفون كل وقتهم فى تأسيس الدولة ، واصطناع الموالين ، وكبح جماح الثائرين ، وسفك دم الخارجين حتى إذا انتهى هذا الدور ، ومهدت الأمور ، وقتل الخارجون ، واستكان أمثالهم ، هدأت الدولة فكان أمام الخليفة الذى يأتى بعدُ وقتٌ من الصراع والهدوء يجد فيه متسعاً لشىء من اللهو والترف والنعيم ، ولكن ليس يجد كل وقته ، فعليه تنظيم داخل المملكة بعد أن كان أكبر همّ من قبله موجها إلى تنظيم الأمور الخارجية ، حتى إذا استتب الخارج والداخل جاء خلفاء ، وقد جرت الأمور فى نصابها وساروا على الأسس التى شيدها الأولون بناءها ، ورأى هؤلاء الخلفاء المال الكثير يجبى إليهم فى يسر ، من جراء ما وضع الأولون من حماية للخارج وتنظيم للداخل فنعموا وأسرفوا فى النعيم ، وكان من وقتهم متسع لذلك كله !

كان يمثل هذه الأدوار تماما الخلفاء العباسيون ، وإن تحتم بناها على ما نقول ؛ فأبو العباس السفاح – أولهم – كان يؤثر الجد والعلم ، على ضروب اللهو يقول « إنما العجب ممن يترك أن يزداد علما ، ويختار أن يزداد جهلا ! فقال له أبو بكر الهذلى ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفا ، ويروى نقصا ! ولما تزوج أم سلمة حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يتسرى ،

وحاول بعض المقربين اليه فى خلافته أن يوسوس اليه ، ويثير ملاذّه وشهواته بذكر الجوارى وأنواعهن فلم يفلح [١] وكانت حياته حياة سفك للدماء [٢] وقضاء على المعارضين

ووليه المنصور وهو رجل الدولة العباسية ومؤسس بنيانها ، والذى قضى على أعدائه وأعدائها من أهل بيته ، ومن غيرهم ، فلم تكن له فى اللهو مجال روى الطبرى عن يحيى بن سليم قال : « لم يُرَ فى دار المنصور لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث الا يوماً واحداً . فانّا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز (تُوفى وهو حدَث) قد خرج على الناس متنكباً قوساً متعمما بعمامة ، مترديا برداء ، فى هيئة غلام أعرابى ، راكبا على قعُود ، بين جُوالقين فيهما مقل ونعال ، ومساويك وما يهديه الأعراب ، فعجب الناس من ذلك وأنكروه فعبر الغلام الجسرَ ، وأتى المهدىّ بالرُّصافة فأهدى اليه ذلك ، فقبل المهدى ما فى الجوالقين ، وملأهما دراهم ، وانصرف الغلام ، فعُلم أنه ضرب من عبث الملوك ! » [٣] وترى من هذا أن الناس أنكروا العمل ، على بساطته ولطافته لأنهم لم يألفوا شيئا من اللهو — وسمع المنصور جلبة فى داره . فقال : ما هذا ؟ قالوا خادم جالس بين الجوارى ، وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن فقام حتى أشرف عليهم فرآهم فلما بصُروا به تفرقوا ، فأمر فضرب رأس الخادم بالطنبور حتى تكسر الطنبور ، ثم أمر بالخادم فبيع ! [٤] . وكان حازما لا لهو له ، يشعر بالتبعة ويضطلع بها ولما سمع شعر طريف بن تميم العنبرى .

إنّ قنـاتى لنبْعٌ لاَ يؤَيِّسها عمزُ الثِّقَاف ولا دُهْنٌ ولا نَارُ
متى أُجِرْ خائفا أمنْ مَسَارحُهُ وإن أُخِيفُ آمناً تَقْلقْ به الدَّار

---

١ انظر المسعودى ٢ ١٧ وما بعدها ٢ مسعودى ٢ ٤٠
٣ طبرى ٩ ٢٩٤ ٤ طبرى ٩ ٢٩٤

إن الأمورَ إذا أوردْتَها صَدَرَتْ إنّ الأمورَ لها وِرْدٌ وَإصْدَارُ

قال : أنا أحق بيتيه منه ، وأنا الذى وصف لا هو وكانت لاتزال به بقية من بداوة ، وميل الى البساطة — بلغه أن عبد الله بن مصعب بن الزبير قد اصطبح مع جارية تغنيه بشعر له فيه غزل ، وفيه استهتار فقال المنصور . لكنّ الذى يعجبنى أن يحدو بى الحادى الليلة بشعر طريف العنبرى فهو آلف وأحرى أن يجاريه أهل العقل ، فدعا حاديا يحدو له ، وألقى عليه شعراً فى الفخر بمكارم الأخلاق فحداه به فقال المنصور هذا والله أحث على المروءة ، وأشبه بأهل الأدب ، ثم دعا الربيع وقال أعطه درهما ؛ فقال : يا أمير المؤمنين حدوتُ بهشام بن عبد الملك فأمر لى بعشرين ألف درهم ، وتأمر لى أنت بدرهم ! فقال إنا لله ، ذكرتَ ما لم يجب أن يذكره ، ووصفت رجلا ظالما أخذ مال الله من غير حله ، وأنفقه فى غير حقه ، يا ربيع اشدد يديك به حتى يردّ المال ، فما زال الحادى يبكى ويتشفع حتى كف عنه [1]

وهو كذلك لا يحب الشراب ، ولا يُشرَبُ على مائدته شراب ، ولمّا قدم بختيشوع الطبيب عليه أمر المنصور بطعام يغدى به فلما وضعت المائدة بين يديه طلب شراباً فقيل له : لا يُشرَب على مائدة أمير المؤمنين فقال لا آكل طعاما ليس معه شراب ، فأخبر المنصور بذلك فقال دعوه [2]

ثم هو لا يسرف فى عطاء لحادٍ ولا لشاعر ولا لمادح ، ويؤنب أولاده إذا أسرفوا فى العطاء ، ولا يتغالى فى ثوب يلبسه ولا مائدة يمد الها ، انما هو مقتصد فى كل ضروب الحياة ، مقتصد حتى فيما أحل الله ، وربما غلا فى الاقتصاد غلوّ من يعده فى الاسراف — لقد زعموا أن أمة المغربية لما حملت به رأت أنها وضعت أسدا سجدت له الأسْد ؛ والحق ، أنه لو لا أن له همة أسد يعاف الصغائر ، ولا يشغله لهو عن تدبير ما استطاع أن يؤسس هذه المملكة

---

١ الحكاية بطولها فى الأغانى ١٣ : ١١٦ ٢ ضحى ٩ : ٢٠٩

ويخلفها لمن أتى بعده مضبوطة محكمة ، لا تحتاج منه الا أن يحفظ ما ورث .

أسلم المنصور البلاد ، وهى وحده لم يشذ عنها إلا الأندلس ، وهى هادئة مطمئنة لا تؤذن بفتن ذات بال ، والخزائن مملوءة بالمال والعرب من سكان المملكة آخذون فى الانكماش ، قد ضعف سلطانهم ونفوذهم ، والموالى يطاردونهم ليحصروهم فى جزيرة العرب بدواً كما كانوا فى الجاهلية ، ويحلون محل العادات العربية عادات فارسية ، ويحل البساطة فى العيش العربى المعقد فى العيش الحضرى وعلى الجملة فقد طرأ دور آخر يجد فيه الخليفة والناس على أثره وقتاً للفراغ والجدة ، ومصدراً خصيباً للترف والنعيم

أخذ الناس يشعرون بعد موت المنصور بشيء من الراحة ، وقد أجهدوا أنفسهم فى عهده بما يتطلبه تأسيس دولة من مشقة ، وتذليل صعوبات جمة ، وملوا الافراط فى الجد والاقتصاد اللذين اتصف بهما المنصور ، وتطلعوا لحياة فيها سعة فى المـــال ، وطرف من النعيم ، فوجدوا ذلك فى الخليفة « المهدى » وفى الحق ؛ أن السنوات العشر التى حكمها كانت جسراً بين حياة الجد والجفاف والعـمل فى عصر المنصور ، وحياة الترف والنعيم فى عصر الرشيد ومن بعده

كان المهدى سخياً كريماً فتنفس الناس من شح المنصور لقد خلف المنصور أربعة عشر مليونا من الدنانير وستمائة مليون درهما [١] ففرقها المهدى فى الناس سوى ما جُبى فى أيامه ، وكثرة المال ـ فى كل جيل وفى كل عصر ـ داعية الترف والنعم ، واللهو واللعب ، ومن ثَمّ أخذ الناس يقدرون فضله الكرم تقديراً أعلى مما كانوا يقدرونه فى عصر المنصور ، وأخذوا يذمون البخل ذماً شنيعاً ، ويقصّون على البخلاء قصصاً مضحكة لاذعة ربما كان من آثارها وضع الجاحظ لكتاب « البخلاء » .

١ المسعودى ٢ ١٩٦

اجتمع فى المهدى حب للفنون الجميلة ، وميل شديد إلى الكرم فجرى الناس على أثره ، وأنفقوا الأموال على الفنانين فرقى الفن ، وبدأ ينتشر بين طبقات الشعب ، أخذ المهدى يجلس للمغنين ، ويسمع غناءهم بعد أن كان أبوه المنصور يستلذ الحُداء . فيحدثنا « الأغانى » أن المهدى كان يسمع المغنين جميعاً ، ويحضرون مجالسه فيغنونه من وراء الستارة لا يرون له وجهاً « الا فليح بن أبى العوراء » فقد سأله فى بيتين أن ينادمه فأحضره مجلسه بين أهله ومواليه ، فكان فليح أولّ من عاين وجهه فى مجلسهم»[1] ويقول صاحب كتاب أخلاق الملوك « كان المهدى فى أول أمره يحتجب عن الندماء متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم فأشار عليه « أبو عون » بأن يحتجب عنهم فقال « المهدى » : إليك عنى يا جاهل إنما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرّنى ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ »[2] وأثاب على ذلك الأموال الكثيرة ، على عكس أبيه « فقد كان المنصور لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهما ، فيكون له رسماً فى ديوان ، ولم يُقْطِعْ أحداً ممن كان يضاف إلى مُلْهِيَة أو ضحك أو هزل ، موضع قدم من الأرض - أما المهدى فكان كثير العطايا ، يواترها . فلّ من حضره إلا أغناه »[3] وحسبك بالمهدى أنه تخرج فى قصره ولداه زينة الدنيا ، وبهجة عصرهما فى الظرف والغناء . ابراهيم بن المهدى وعُلَيَّــة بنت المهدى .

وكان كذلك يحب القيان ، ويحب الحديث عن النساء فى غير دعارة ، ذكر الجاحظ : « أن المهدى كان يحب القيان وسماع الغناء وكان معجباً بجارية ، يقال لها « جوهر » كان اشتراها من مروان الشامى وله فيها شعر »[4]

وقد اتفق صاحب الأغانى والطبرى على أنه لم يكن يشرب النبيذ ، ولكنه

---

١ أغانى ٤ : ٩٩ ٢ أخلاق الملوك ص ٣٤ ٣ المصدر نفسه ٣٤ ، ٣٥

٤ البيان والتبيين ٣ : ٢٠٨

فى هذا أيضا خطا خطوة أخرى وراء أبى جعفر، فقد رأينا المنصور لا يشرب ولا يسمح لأحد أن يشربه على مائدته، أما المهدى فيذكر الطبرى أنه ما كان يشربه ولكن لا تحرجا بل كان لا يشتهيه، وكان أصحابه يشربون عنده بحيث يراهم، وكان وزيره يعقوب بن داود يعظه فى ذلك، ويلحّ عليه فى حسمه عن السماع، واسقائه النبيذ، ويهدده بالتخلى عن منصبه. والمهدى يحتج أن عبدالله ابن جعفر كان يسمع [١]

كذلك كان المهدى مترفا فى ملبسه ومأكله. تُحمل اليه الثلج الى مكة وهو يحج ا وكان أول خليفة فعل ذلك.

والحق أن المهدى ـ على ما ظهر ـ كان معتدلا فى لهوه وترفه. ولكن ما كاد يرُخِى للناس العنان فى هذا السبيل حتى استطابوه، وأفرط فيه المستهترون ولم يقفوا عند حد، لم يجرؤا فى عهد المنصور أن يستهتروا لأنه ضرب لهم مثلا من نفسه بالجد والحزم، فلما رأوا المهدى يخطو خطوه جروا هم وقفزوا. وتسلى الناس فى عهده ببشار يبث فيهم غزله المكشوف وينفث بهم شعره الداعر، ويملأ البلاد بالحث على المغازلة، حتى ضج الأشراف الى المهدى من شعره مثل يزيد بن منصور خال المهدى، وطلبوا إليه أن يقف هذا التيار لما خافوا على نسائهم وبناتهم، فتدخل المهدى حينئذ، ونهى بشارا عن الغزل فيقول:

وقد عشتُ بين الريحان والراح والـمِزْ هر فى ظلِّ مجلس حسن
وقد ملأتُ البلاد ما بين فَغْفُور الى القيروان فاليمن [٢]
شعراً تصلى له العوَاتِقُ والثِّيـبُ صلاة الغُواه لِلْوَثَن

---

[١] اغانى ٥ و الطبرى ١ ٦   [٢] فغفور ملك الصين

ثم نهانى المهدى فانصرفت نفسى صنيع الموفق اللبق

فالحمد لله لا شريك له ليس باق شىء على الزمن

ومع هذا ظل فى حبه يعزل من طريق خفى ويحتمى بنى المهدى

فيقول يا منظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته

بعثت الى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته

والله رب محمد ما إن غدرت ولا نويته

أمسكت عنه وربما عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفة قد أبى واذا أبى شيئاً أبيته

ونهانى الملك الهما م عن النساء فما عصيته

بل قد وفيت ، ولم أضع عهدا ، ولا وأيا وأيته[1]

وأنا المطل على العدى واذا علا الحمد اشتريته

وأميل فى أنس النديـم من الحياء وما اشتهيته

ويشوقنى بيت الحبيب اذا غدوت وأين بيته

حال الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته

ويقول

دفعت الهوى حتى فلست بزائر سليمى ولا صفراء ماقرقر القمرى

ترك لمهدى الأنام وصالها وراعيت عهداً بدا ليس بالختر[2]

ولولا أمير المؤمنين محمد لقبلت فاها أو لكان بنا فطرى

لعمرى لقد أوقرت نفسى خطيئة فما أنا بالمزداد وقرا على وقر

ثم بلغ المهدى حسن صوت ابراهيم الموصلى فضمه اليه ، ويكون هو

---

١ الوأى الوعد والعهد ٢ الختر الغدر والخديعة

أولَّ من يعلى شأنه ، ثم يعلم أن الموصلى يشرب ويستهتر فيريده على ملازمته ، وترك الاستهتار ، فلا يستطيع الموصلى ذلك فيضربه ويحبسه — يقول ابراهيم الموصلى إن المهدى دعانى يوما فعاتبنى على شربى فى منازل الناس ، والتبذُّل معهم فقلت يا أمير المؤمنين انما تعلمت هذه الصناعة للذتى وعشرتى لاخوانى ، ولو أمكننى تركها لتركتها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل فغضب المهدى غضبا شديدا ، وقال لا تدخل على موسى وهرون ألْبَتَّـةَ فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن ولأصنعن ! فقلت : نعم ثم بلغه أنى دخلت عليهما ، وشربت معهما وكانا مستهترَين بالنبيذ فضربنى ثلثمائة سوط ثم قيدنى وحبسنى ![1]

فى الحقيقة إن المهدى فتح للناس باب اللهو ، ورسم لهم حداً يقفون عنده فتخطوه ، وحاول أن يقفهم عند الحد الذى رسمه بايقاع العقوبة على من تجاوزه فلم ينجح

* * *

انتقل الناس نقُلة أخرى من حيث السرفُ فى الترف فى عهد الرشيد ، ويرجع ذلك الى أسباب منها ما كان من النشوء الطبيعى للامة فكان من انضباط أمورها ما زاد ثروتها ، ومكنها من أن تعيش عيشة ناعمة فقد حكى ابن خلدون أن دخل المملكة فى عهد الرشيد كان فى كل سنة ٧٠١٥ قنطارا[2] والقنطار فى حسابه عشرة آلاف دينار ، فيكون مجموع ذلك سبعين مليونا ومائة وخمسين ألف دينار وهى ميزانية ضخمة ، تدلنا مهما بولغ فيها على غنى الدولة وتمكنها من حياة النعيم .

والسبب الثانى عظم سلطان الفرس فى عصره وعلى رأسهم البرامكة ، والفرس من قديم يعرفون بالميل الى اللهو والسرور ، والافراط فى حب

---

[1] اغانى ٥ ٥ [2] المقدمه ص ١٥١

النبيذ، وقد كانت الديانة الزرادشتية تبيح شرب النبيذ بل تجعله من شعائرها، ولا يزال النبيذ كما يقول الاستاذ « براون » الى اليوم ظاهرة قوية فى الحياة اليومية للفرس الزرادشتية ـ كان الفرس قديما يفرطون فى شرب النبيذ ، وكانوا يفرطون فى سماع الغناء ، وكانوا يفرطون فى فنون كثيرة من اللهو الطيب ، واللهو الخبيث . فلما عاد سلطانهم فى الدولة العباسية ، وخاصة فى عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة ، وما كان فيها من حضارة ولهو وعبث — نقلوا جدهم من نظم سياسية ونحوها، ونقلوا لهوهم من نبيذ ومجالس غناء وغزل ، وما إلى ذلك .

وسبب ثالث : يرجع الى طبيعة « الرشيد » نفسه وتربيته ، فيظهر لى أنه كان شاباً حادّ العاطفة؛ ولكن ليس من هذا النوع الذى يستسلم كل الاستسلام لشهواته ، بل هو مع ذلك قوى النفس ، جندى بالغريزة وبالتربية ، طالما قاد الجيوش وشرّق وغرّب — هذه الحدّة فى العاطفة ، وقوة النفس ونضارة الشباب أظهرته بمظاهرَ مختلفة ، يُوعَظ فيتأثر بالموعظة الى أن يجهش بالبكاء ، ويسمع الغناء فيطرب له كل الطرب ، يسمع ابراهيم الموصلى يغنى ، وبَرْصُوماً يزمرُ ، وزَلْزَلاً يضرب بالدف ، فيدعوه الطرب أن يتكلم بكلمة فيها شىء من عدم التورع الدينى ، يقول : يا آدمُ لو رأيت من يحضرنى من ولدك اليوم لسرّك ثم يندم على قولته فيستغفر الله[1] — نمت عنده العاطفة الدينية ، ونمت بجانبها أيضاً عاطفة الفنون ؛ فهو يصلى ، ويكثر من الصلاة ، وهو يسمع الغناء فيستجيده ، والشعر فيطرب له ، تتجه عواطفه الى جهات مختلفة فيصل فيها الى نهايتها ، يسمع قول أبى العتاهية :

خانكَ الطرفُ الطموحُ   أيها القلب الجَمُوحُ
لدَوَاعى الخير والشرِّ   دُنُوٌّ ونزوحُ

---

[1] [illegible]

هل لمطلوبٍ بذنبٍ توبةٌ منهُ نَصُوحُ ؟
كيف اصلاحُ قلوبٍ انما هنّ قُروحُ !
أحسنَ اللهُ بنا أنَّ الخطايا لا تفوحُ
سيصير المرء يوما جسدًا ما فيه رُوحُ
بين عينَيْ كلِّ حيٍّ عَلَمُ الموتِ يلوحُ
كلّنا فى غفلة والـ موتُ يغدو ويروحُ
لبنى الدنيا من الدنـ يا غَبُوقٌ وصَبُوحُ
رُحنَ فى الوَشْيِ وأصْ بَحْنَ عليهنّ المُسُوحُ
كلُّ نَطّاح - من الدهـ ر - له يومٌ نَطُوحُ
نُحْ على نفسك يا مِسْ كينُ إن كنتَ تنوحُ
لتموتَنَّ وان عُمِّ رْتَ ما عُمِّرَ نوحُ !

فبكى وانتحب [١]. ويرضى عن البرامكة ، فيعجب بهم كل الاعجاب ، ويقربهم كل القرب ، ثم يغضب عليهم ويسمر الحسادُ عواطفه عليهم ، فينكل بهم كل التنكيل ، ويعجبه الغناء فيقرّب ابراهيم الموصلى تقريبه للعلماء والقصاة ، ولا تسأل عن مال ينفقه متى استطاع المغنّ أو الشاعر أن يصل الى موضع التأثير منه اعجابه ، فنحن حمله لصاحب الاغانى يصف بها الرشيد ، تمثل خير تمثيل قوة عاطفته إذ يقول «كان الرشيد من أغزر الناس دموعا فى وقت الموعظة ، وأشدهم عسفا فى وقت الغضب والغلظة» [٢] من أجل ذلك لا عجب أن تراه متدينا شديد التدين يصلى فى اليوم مائة ركعة ، وأن تراه حينا غضوبا يسفك الدم لشيء لا يستحق سفك دم ، وطروبا يملك الطربُ عليه نفسه ومشاعره ، وهذه صفات من السهل أن تصور اجتماعها فى شخص واحد

---

١ اغانى ٣ ١٧٨ ٢ المصدر نفسه

تقرأ كتاب الأغاني فتخرج منه في كثير من الأحيان على صورة للرشيد يخيل إليك معها أنه عاكف على اللهو والطرب، لا عمل له إلا أن يسمع الغناء، ويخالط الندماء، ويثيب الشعراء، وله العذر في ذلك، لأنه لم يؤلف كتابه تاريخاً يصف فيه أعمال الخلفاء المختلفة، ويقوّمهم بما أتوْا من حسنات وسيئات؛ إنما ألف كتابه في الغناء، فمن الطبيعي أن يقصر قوله على هذا الضرب وما إليه؛ كما يقصر كتب طبقات النحاة واللغويين كلامها على العلماء من الناحية النحوية واللغوية، وإذا كان هناك خطأ فمن ناحية من يفهم أن الغناء وحده يمثل حياة الرجل المختلفة النزعات

وتقرأ ابن خلدون فيقصر تصويره على الناحية الخلقية والدينية ويذهب إلى أن الرشيد لم يكن يعاقر الخمر لأنه كان يصحب العلماء والأولياء، ويحافظ على الصلوات والعبادات، ويصلي الصبح في وقته، ويغزو عاماً ويحج عاماً، ويستدل أيضاً بأنه كان من العلم والسذاجة بمكان، لقرب عهده من سلفه، ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيدُ زمن؛ وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصّرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها، فلم يكن الرجل بحيث يُواقعُ محرّماً من أكبر الكبائر عند أهل الملة، ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم، وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد[١]

ونحن مع اتفاقنا في الرأي مع ابن خلدون في أن الرشيد لم يشرب الخمر، إلا أننا نوافقه على أنه شرب النبيذ، فإننا لا نتفق معه على ما يستخلص من قوله من أنه كان بمنجاة من السرف والترف وأنه كان يعيش عيشة ساذجة، وأنه لم يواقع محرماً فهذا أيضاً إفراط في التقديس لا تدل عليه سيرة الرشيد،

---

(١) انظر هذا البحث في الجزء الأول من [illegible] ص [illegible] ١٤

خصوصاً وأن أدلته في هذا النوع أدلة خطابية ، فقرب عهده من المنصور لا يستوجب أن يعش عيشته ، وقد صرح هو مراراً بأن الترف والنعيم في عصر الرشيد كان أكثر منه في عصر المنصور ، ولو كان قربُ العهد يكفي في الاستدلال ؛ لما رأينا الأمين ـ وهو قريب العهد من الرشيد ـ يسير سيرته

والعجب أنه عقد فصولاً طويلة يتعرض فيها لوصف الحضارة والنعيم والترف في أيام الرشيد والأمين والمأمون وتفننهم في المطعم والمشرب والملبس ، وهو هو الذي وافق « المسعودي » و « الطبري » على ما حكياه في إعراس المأمون ببوران بنت الحسن ، وأن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة مَنّ [1] وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ، مكللاً بالدُّرّ والياقوت الخ الخ [2]

هل هذا ليس سرفاً في الترف؟ وهل قرب عهد المأمون من الرشيد كقرب عهد الرشيد من المنصور جعلت الناس يعيشون عيشة السذاجة كما يقول ؟

الحق أن ابن خلدون مخطئ في وصفه عصر الرشيد بالسذاجة ، وأنه وقومه كانوا بمنجاة من السرف والترف ، والحق أيضاً أن ابن خلدون صور جانباً صحيحاً من جوانب الرشيد في صلاته وتقواه ، ولكن لم يكن هذا كلَّ جوانبه ، فله جانب هو الذي وصفه الأغاني ، وإن عذرنا الأغاني لما بدا فلسنا نعذر ابن خلدون ، وهو مؤرخ عليه أن يذكر نواحي الرجل المختلفة !

وكأن ابن خلدون فهم أن الذي يصلي مائة ركعة ، ويجالس الفُضيل بن عياض لا يأبى منه أن يجلس مجالس لهو يسمع فيها الغناء ، وتظهر فيها مظاهر الترف على أتم وجوهها إن كان فهم ذلك كان خطأ ، والطبيعة الإنسانية لا تأباه

وفي رأينا أن الرشيد كان يجدّ فيُمعن في الجد ، ثم يلهو فيمعن في اللهو خضوعاً لحدّة العاطفة مع الميول المختلفة

---

١ المن زنة رطلين ٢ انظر ابن خلدون ١ ١٤٥

قال أبو البَخْتَرِي وهب بن وهب القاضي : كنت عند الرشيد يوما واستدعى ماء مبرداً بالثلج . فلم يوجد فى الخزانة ثلج ، فاعتذر اليه بذلك ، وأحضر اليه ماء غير مثلوج فضرب وجه الغلام بالكوز ، واستشاط غضبا . فقلت له : أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين قد رأيتَ ما كانَ من العبَر بالأمس – يعني زوال دولة بني أمية – والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحزم ألاّ تعوّد نفسك الترفه والنعمة ، بل تأكل الليّنَ والخشِنَ ، وتلبس الناعم والخشن . وتشرب الحارّ والقارّ . فنفحنى بيده وقال : لا والله لا أذهب الى ما تذهب اليه ، بل ألبس النعمة ما لبستني فاذا نابتني نوبة الدهر عدت الى نصابي عن حوار » [1]

٥

جاء الأمين فزاد فى اللهو نغمة بل نغمات — ومهما قال محققو المؤرخين من أن كثيراً من الأخبار وضعت فى عهـــد المأمون لتشويه سمعة الأمين ، والحط من شأنه ، وتبرير ما فعل به . فان ميله الى الافراط فى اللهو والشراب والغلمان مما لا يسهل انكاره .

روى الطبري قال : لما ملك محمد (الأمين) ... طلب الخصيانَ وابتاعهم وغالى بهم ، وصيّرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمْره ونهيه . ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رُمى بهم [2] ففى ذلك يقول بعضهم : [3]

لهم من عُمره شطرٌ ، وشطر   يُعاقرُ فيه شربَ الخندَريسِ
وما للغانيات لديه حظّ   سوى التّقْطيب بالوجه العبوس !
اذا كان الرئيس كذا سقيما   وكيف صلاحُنا بعد الرئيس ؟
فلو عَلِمَ المُقيمُ بدار طوسٍ   لعز على المقيم بدار طوس

---

١ شرح النهج لابن ابى الحديد ١ : ١٢١ وفى الأصل عدت الى نصابى عن حوار
٢ فى الأصل بهن   ٣ الطبرى ١٠ : ٢١٥ وهو يعنى المقيم بطوس أباه الرشيد

وَرَوى أيضا: أنه لما مَلَكَ وجَّه الى جميع البلدان في طلب المُلْهين، وضمَّهم اليه وأجرى لهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فُرْهِ الدواب وأخذَ الوحوش والسباع والطير، وغير ذلك واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقوّاده، واستخفّ بهم، وقسم ما في بيوت الأموال، وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدّثيه وأمر ببناء مجالس لمتنزّهاته، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه وأمر بعمل خمس حرّاقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعُقاب والحية والفرس، وأنفق في عملها مالا عظيما وفيها قال أبو نواس مدائحه[1] — ويصفه ووزيره الفضل بن الربيع فيقول «ينام نوم الظَّرِبان[2]، لا يفكر في زوال نعمة، ولا يُرَوِّي في امضاء رأى ولا مكيدة قد ألهاهُ كأسه، وشغله قدَحه، فهو يجرى في لهوه، والأيام تصرّع في هلاكه، قد شمَّرَ عبد الله (المأمون) له عن ساقه، وفوّق له أصْيَبَ أسهمه، يرميه على بعد الدار بالحتْف النافذ والموت القاصد، قد عبّى له المنايا على متون الخيل، وناط له البلاء في أسنة الرماح، وشفار السيوف»[3].

جاء المأمون بعد الأمين ولكن لم تكن شهوات المأمون وملاهيه كشهوات الأمين وملاهيه. فهو الأمين فهو شاب غِرّ رأى سلطانا ومالا، وليس له عقل ناصح فانفق كل وقته في ارواء شهوته وأما المأمون فرجل حنّكته التجارب، وعلمه ما قاسى من الأهوال في الحروب وما تحتاجه المملكة من خلق حديد ـ الحزمَ والنظرَ بالأمور، ثم كان له ملاذ عقلية تشغلُ وقته، فهو يحب الكتب ويحب الفلسفة ويحب الجدَلَ في المسائل الدينية والفقهية، وحوله العلماء من كل نوع يباحثهم ويجادلهم، وهو مع ذلك يلهو لهواً خفيفاً فيشرب النبيذ[4] ويقيم بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لا يسمع

---

١ طبرى ١ ٢١٥ ٢ الظربان دويبة كالهرة منتنة ٣ طبرى ١ ١٥٧
٤ طبرى ١ ٢٥٦ وطيفور ١ ٣٢

ثم يسمع [١] وكان يزين مجلسه ويغنيه اسحق الموصلى ، كما كان أبوه ابراهيم الموصلى يزين مجالس أبيه الرشيد ، قربه المأمون وأعلى شأنه ، وكذلك قرب اليه عمه ابراهيم بن المهدى وكان مُبدعا فى غنائه .

وكان الناس قد تجرعوا غصص البؤس أيام الفتن بين الأمين والمأمون ، وخربت بغداد ، وعم البؤس والشقاء فما عادت السكينة حتى شعروا أنهم فى حاجة أن يعوّضوا ما فقدوا ، فلهوا وأفرطوا .

هذه ناحية من نواحى القصور شرحناها لِمَا كان لها من أثر كبير فى الفن والأدب . ولها نواح أخرى مختلفة . فناحية سياسية ليست تهمّنا فى موضوعنا ، وناحية علمية من تشجيع للعلم ، وانفاق المال فى سبيله ، وعقد مجالس للجدل والمناظرات ، وبذل الجهد فى تحصيل الكتب ، وانشاء دورها والعمل على ترجمتها ، وكان من أعظم الخلفاء أثرا فى ذلك المنصور والرشيد والمأمون ، وهذه الناحية سنوضحها عند الكلام فى الحركة العلمية .

* * *

واذ كثر القول فى الشراب ، وروينا ما قال ابن خلدون من أن بعض الخلفاء كانوا يشربون النبيذ لا الخمر ، وشاع أن فقهاء العراق يرون حلّ النبيذ ، وكان لهذا القول أثر فى الأدب ؛ كان لا بد لنا من كلمة فى الشراب .

كثر الشراب عند العرب ، وتعددت أنواعه ، وقد كانوا يأخذون عمن جاورهم من الأمم الأخرى أنواعا من الشراب ، وألوانا من عاداته فقد أخذ أهل الشام عن الروم نوعا من الخمر ممزوجا بالعسل ، ونقلوا اسمه الرومى وهو « الرَّساطون Rosatoum » ولم يكن يعرفه عرب الحجاز [٢] ثم أخذ بعض الأمويين عن الفرس شرابا اسمه « الهفنجه » كانوا يشربونه سبعة أسابيع

---

[١] أغانى ٥ : ١٠٦ [٢] انظر لسان العرب فى مادة رسطن

فى بعض منازل القمر فشربه الوليد بن يزيد كذلك ١

وهكذا كان للأمم أشربة وعادات فى الشراب أخذت تتسرب الى المسلمين، فلما جاء العباسيون تفننوا فى أنواعه ، وفى مجالسه والمنادمة عليه .

ووقف الاسلام يحارب الخمر ، ويحرم السكر ، ونزلت الآية « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »

ومع هذا فنرى أن أسئلة أثيرت حول هذه الآية الكريمة ما المراد بالخمر أهى عصير العنب وحده ، أم كل مسكر خمر ؟ وما هو القدر المحرم ؟ أكلّ نوع مما يسكر كثيره فقليله حرام ، أم بعض الأنواع يحل قليله ؟ وظهر فى عالم الفقه مسألة النبيذ هل يحل أو لا يحل ، وما القدر الذى يحل ؟ وظهر هذا الخلاف من عهد الصحابة فمن بعدهم ، ورأينا عمر بن عبد العزيز فى العهد الأموى يشعر بخطر هذا الخلاف فى النبيذ وضرره ، فيصدر كتابا الى الأمصار يحرم فيه النبيذ[٢] الى أن كان عصر الأئمة فكان بينهم الخلاف السابق ، فذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد بن حنبل الى سد الباب باتا ، ففسروا الخمر فى الآية السابقة بما يشمل جميع الأنبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها وقالوا : كلها تسمى خمراً ، وكلها محرمة . أما الامام أبو حنيفة ففسر الخمر فى الآية بعصير العنب مستندا الى المعنى اللغوى لكلمة الخمر وأحاديث أخرى، وأدّاه اجتهاده الى تحليل بعض أنواع من الأنبذة كنبيذ التمر والزبيب إن طبخ أدنى طبخ وشُرب منه قدر لا يُسكر ، وكنوع يسمى «الخليطين» وهو أن يأخذ قدراً من تمر ومثله من زبيب فيضعهما فى إناء ثم يصب عليهما الماء

---

١ أغانى ٦ ١٣ ٢ ورد كتاب عمر فى العقد الفريد ٣ ٤١١

ويتركهما رهما وكذلك بين العسل والتين، والبر والعسل [١] ويظهر أن الامام أبا حنيفة فى هذا كان يتبع الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود؛ فقد علمت من قبل [٢] أن ابن مسعود كان امام مدرسة العراق، وعلمت مقدار الارتباط بين فقه أبى حنيفة وابن مسعود، ودليلنا على ذلك ما رواه صاحب العقد عن ابن مسعود من أنه كان يرى حل النبيذ حتى كثرت الروايات عنه، وشهرت وأذيعت واتبعه عامة التابعين من الكوفيين، وجعلوه أعظم حججهم وقال فى ذلك شاعرهم

مَنْ ذَا يُحَرِّمُ ماءَ المُزْنِ خالَطَهُ فى جَوْفِ خابية ماءُ العناقيد؟
انى لأكْرَهُ تشديدَ الرواة لنا فيه، ويُعجِبُنى قولُ ابن مسعود [٣]

على كل حال كان هناك جدال شديد بين الفقهاء فى النبيذ كالذى كان بينهم فى الغناء، فابن أبى ليلى يحرم النبيذ ويجادل فيه أبا حنيفة، وأبو حنيفة يرد عليه، وعبدُ الله بن ادريس كان الوحيد بين فقهاء الكوفة يحرم النبيذ فيرد عليهم ويردون عليه الخ [٤] ولما كان كثير من فقهاء العراق يَرَوْن حل النبيذ اشتهر العراقيون بحل النبيذ فقال شاعرهم

رأيُه فى السَّماع رأيُ حجازىٍّ وفى الشراب رأيُ أهل العراق [٥]

وانتقل هذا الجدال الى الأدباء والشعراء، وأخذوا يتلاعبون بهذه الآراء، فقال بعضهم «أباح أهل الحرمين الغناء وحرموا النبيذ، وأباح أهل العراق

---

١ راجع فى هذه الأحكام الى شرح النووى على مسلم ٤ ٢ ٣ [illegible] ٥ ٤ وما بعدها
٢ فجر الاسلام ص ٢٢ ٣ العقد ٣ ١٥٣. ٤ [illegible]
وقد مر فى مجالس [illegible] وقول صاحب العقد [illegible]
٥ ومع أن كثيرا من فقهاء العراق كانوا يرون حل النبيذ كانوا [illegible] وفى ذلك يقول [illegible] فلان أقول فى [illegible] [illegible] أن [illegible] واحده هو حرام — ولأن أخر من السماء فتخطفنى الطير [illegible] أحب الى من أن [illegible] العقد
١ ٤١٢

النبيذ وحرموا الغناء فأوجدوا في الرخصة فيهما عند اختلافهما الى أن يقع الاتفاق ¹ » وقال ابن الرومي »

أباحَ العراقيُّ النبيذَ وشُربَه وقال حرامانِ المُدامةُ والسُّكرُ
وقال الحجازيُّ الشرابانِ واحدٌ فحَلَّ لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذُ من قوليهما طرفيهما وأشربُها لا فارقَ الوازرَ الوزرُ ²

وعلى الجملة فان كثيرا اتخذوا هذه الآراء تكأة يصلون بها الى أغراضهم ، ولم تكن هي الباعثَ على شربهم ، فانهم لم يقفوا عند النوع الذي حللوه ، ولا القدرِ الذي أباحوه فليس من فقيه أباح أيَّ نوع من النبيذ الى حد الاسكار ؛ ولكنها خلاعة الأدباء ، وتظرُّفُ الشعراء

أما أبو نواس وشيعته ؛ فلم يركنوا الى هذا الضرب من الحيل بل جاهروا بها مع الاقرار بتحريمها ، وقال زعيمهم (أبو نواس)

فان قالوا حرام قل حرامٌ ولكنَّ اللذاذةَ في الحرام !

وقال : ألا فاسقني خمراً ، وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا أمكن الجهر !

* * *

فقلد الأغنياء والخاصة قصورَ الخلفاء ، وعاشوا عيشة بذْخ وترَف ، بل زادوا في لهوهم ، لما تقتضيه طبيعة مجالس الخلفاء من حشمة ووقار لا يلتزمهما غيرهم من الأغنياء

وقد كثر أولاد الخلفاء وأقاربهم ، وأُحصيَ وَلدُ العباس من رجال ونساء وصغار وكبار ، فكان عددهم أيامَ المأمون ثلاثة وثلاثون ألفاً ³ وكانوا ممتازين في رفتهم وجمالهم « كان يقال انتهى جمال ولد الخلافة الى أولاد الرشيد ومن أولاد الرشيد الى محمد وأبي عيسى ، وكان أبو عيسى اذا عزم على

---

١ محاضرات الأدباء ١ ٤١٢ ٢ المصدر نفسه ٣ المسعودي ٢ ٢٥٩

الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما يجلسون للخلفاء »[١]. وقد أولع كثير من أفراد هذا البيت بالغناء والفنون الجميلة ؛ فعُلَيّة بنت المهدى كانت « من أحسن الناس وأظرفهم ، تقول الشعرَ الجيد ، وتصوغ فيه الألحان الحسنة »[٢] وأخوها ابراهيم بن المهدى « كان من أعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات وأطبعهم فى الغناء ، وأحسنهم صوتاً »[٣] ثم أبو عيسى بن هارون الرشيد المشهور ـ كما أسلفنا ـ بجماله « كان من أحسن الناس وجهاً ومجالسة وعشرة ، وأمجنهم وأحدّهم نادرة وأشدهم عبثاً »[٤] وسبب موته : أنه كان يحب صيدَ الخنازير فوقع عن دابته فلم يسلم دماغه »[٥].

وتبعهم فى ذلك أولادُ الخاصة ، فقد كان حفيد الفضل بن الربيع ـ وزير الرشيد ـ وهو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع مغنّياً ماهراً ، وماجنا مستهتراً[٦] يصطبح فى حدائق النرجس ، ويعيش عيشة لهو وخلاعة . وأمثالهم كثيرون يطول ذكرهم وسَرَت العدوى من أولاد الأغنياء الى الطبقة الوسطى فكانوا يحتذون حذوهم ، ويسيرون على منهاجهم .

تفننوا فى فن العمارة ، وأجادوا تشييد القصور ، ووصفها ابن الجهم فقال :

صُحُونٌ تسافرُ فيها العيونُ ... وتَحْسر عن بُعْدِ أقطارها
وقبةُ مُلكٍ كأنّ النجو ... مَ تُصغى اليها بأسرارها
وفوّارةٌ ثأرُها فى السماء ... فليست تقصّر عن ثأرها
اذا أُوقدَتْ نارُها بالعراق ... أضاء الحجازَ سَنَا نارها
تردُّ على المزن ما أنزلَتْ ... على الأرضِ من صَوْبِ أقطارها
لها شُرُفاتٌ كأن الربيعَ ... كساها الرياضَ بأنوارها

ويصف أحدُهم شيئاً من قصر الواثق فيقول : لم يزل الخدم يُسلمونى

١ أغانى ٩ : ٩٦   ٢ أغانى ٩ : ٨٣   ٣ أغانى ٩ : ٣٥   ٤ أغانى ٩ : ٩٦
٥ أغانى ٩ : ٩٧   ٦ انظر ترجمته فى الأغانى ١٧ : ١٢٧

من خدم الى خدم ، حتى أفضيت الى دار مفروشة الصحن ، مُلبّسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب ، ثم أفضيتُ الى رواق أرضه وحيطانه ملبّسة بمثل ذلك ، واذا الواثق في صدره ، على سرير مرصّع بالجوهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه « فريدة » جاريته ، عليها مثلُ ثيابه ، وفي حجرها عود الخ » ١

وبالغوا في الموائد وتنسيقها وألوان طُعُومها ، فوصف العُمَاني الشاعرُ ما أكل على مائدة محمد بن سليمان بن علي فقال

جاءوا بِفُرْنيٍّ لهُمْ مَلْبُونِ بَاتَ يُسَقَّى خالصَ السُّمُونِ ٢

مُصومَعٍ أكوَمَ ذي غُضُونِ قدْ حُشِيَتْ بالسُّكَّرِ المَطْحونِ

وَلوّنوا مَا شِئْتَ مِنْ تلْوينِ مِنْ باردِ الطَّعَامِ والسَّخينِ

ومن شَرَاسيفَ ومن طُرْدينِ ومن هُلامٍ ومَصوصٍ جُونِ ٣

ومن أُوزٍّ فائقٍ سَمينِ ومن دَجاجٍ فتَّ بالعجينِ

فالشحمُ في الطُّهور والبُطونِ وأتْبَعوا ذَلكَ بالجَوزينِ

وبالخبيصِ الرطب واللوزينِ وَفكَّهُوا بِعِنَبٍ وَتينِ

والرطَبِ الأزادِ والهَيْرُونِ ٤

ويقول أبو العتاهية « دُعيتُ الى بيت مُخارق (أحد المغنين) فجئته ، فأدخلني بيتاً نظيفاً فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبز سَميذ ، وخل وبقل وملح ، وجدي مشوي فأكلنا منه ثم دعا بسمك مشوي فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا وجاءونا بفاكهة وريحان ، وألوان

١ أغاني ٣ : ١٨٤ ٢ الفرني خبز حوله مضمومة الى وسطه يسوى ثم يروى سمنا ولبنا وسكرا ٣ الشراسيف أطراف الأضلاع المشرفة على البطن ، والطردين نوع من أطعمة الأكراد ، والهلام طعام من لحم عجل بجلده أو مرق السكباج المبرد المصفى والمصوص لحم ينقع في الخل ثم يطبخ ، والجون المائل الى السواد ٤ الأزاد والهيرون نوعان من التمر

من الأنبذة فقال اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت »[١] وكان ذلك قبل أن يتزهد

وقل ما شئت فى مجالس اللهو والشراب ، وما كان يجرى فيها من خلاعة ومجون املأ بوصفها كتاب الأغانى ، ودواوين الشعراء مثل بشار ، وأبى نواس ومسلم بن الوليد[٢]

أولعوا بالغناء وتفننوا فيه ، وأبدعوا فى مجالسه من مُلَح ونوادر وشراب ، وغير ذلك ، وذهبوا فيه مذهبين حديث وقديم وتعصب كلّ فريق لمذهب[٣]

ولعبوا بالنرد والشطرنج وغلوا فيهما[٤] وعنوا بتربية الحمام ، وتغالوا فى أثمانه[٥] وتهارشوا بالديوك والكلاب[٦] ولعب أبو نواس بالكلاب زماناً حتى عرف منها ما لا تعرفه الأعراب[٧] . وانتشر القمار حتى فى حانات الفقراء[٨] وأولعوا بالنقش والتصوير وكثر رسم الصور على الكأس كما فى شعر بشار وأبى نواس ، ورثى أبو الشبل مَسْرَحة له مصورة تصويراً بديعاً كسرها كشخ له[٩] . وأغربوا فى الهدايا يوم النيروز يبدعون فيهـا نقشاً وتصويراً ، ورقصوا فكان إسحق بن إبراهيم الموصلى يجيد الرقص ، واشتهر فى عصره بالرقص جماعة[١٠] وأحبوا البساتين وأكثروا الخروج إليها والأزهار يزينون بها موائدهم ويتغزلون فى لونها وعبقها[١١] إلى كثير من أمثال ذلك

---

١ أغانى ٣ ١٨ ٢ انظر وصف إسحق لمجالس ... — أغانى ١٧ ٢٤ وديوان أبى نواس ١ ١٣٦ وما بعدها و ٥ ١١٢ الخ ٣ أغانى ٧ ٢٥

٤ المسعودى ٢ ٤٥٦ ٥ ... ٣ ٩١ ٦ أغانى ٧ ١ ... ٢ ١

٨ حيوان ٥ ١١٥ ٩ أغانى ١٣ ٢٧ وانظر زهر الآداب ٣ ٣٠

١٠ أغانى جزء ٥ فى ترجمة إسحق ١١ أغانى ١٢ ١٣

كثر النعيم . وكثر العنصر الفارسى العريق فى المدنية ، المُمْعن فى الترف ، وكثر الجوارى يُجْلَبن من الأصقاع المختلفة ، وكثر الجمال وسفَرَ ، اذ لم تكن عامة الاماء يطالَبْن بحجاب ؛ فقوِيت النزعة الى اللهو والخلاعة والمجون التى وصفنا ، وشعر قوم من الشعراء بهذه النزعة من الناس أمثال بشار وصريع الغوانى وأبى نواس ؛ فقادوا زمامها وألهبوها ، وسهّلوا السبيل لها إن سكر القوم وشعروا بالحاجة الى أبيات من الشعر تُرْوِى عاطفتهم ، وتزين لهم عملهم ، وتحملهم على المضىّ فى شرهم ؛ رأوا فى شعر هؤلاء إرواء لغلتهم ، وإن تشبَّبوا فى فتاة أو غير فتاة ، فشعرُ الشعراء كفيل أن يجدوا فيه بغيتهم فى صريحٍ من القول غير كناية ، وبشار يخصّص يومين فى الأسبوع للمتظرفات من النساء يأخذن عنه شعره الماجن ، وينشرنه فى الناس !

فلا عجب إن رأينا الحياة لاهية لاعبة ، ورأينا شعر الشعراء فى ذلك العصر الا القليل منهم داعراً فاجراً

وهنا ظاهرة واضحة ، وهو أن هذا العراق الذى كان فى العصر الأموى جاداً إذا قيس بغيره من الشام والحجاز[١] أصبح الآن فى العصر العباسى لاهياً ، بل هو محط أنظار اللاهين ، وسائر الأمصار انما تقتبس من لهوه !

والسبب فى ذلك أمور أهمها — على ما يظهر — سببان

(الأول) المال فالعراق كان مصب أموال المملكة الاسلامية العظيمة — بحكم أنه مركز الخلافة — والمال كل شىء فى اللهو يتبعه حيث كان فالرقيق والشراب والغناء وما الى ذلك انما تكون حيث يكون الترف ، وانما يكون الترف حيث يكون المال ، والعراق أكثر البلدان مالا ، وأعزها جاهاً وكل نابغ فى فن — ومنه الأدب — انما ينفق سوقه فى العراق ، ومن نبغ فى غيره ولم يرحل اليه خمل ذكرُه ، وضاع فنه فأى مغن مشهور لم يكن فى العراق ؟

---

[١] فجر الاسلام ص ٢١٥

وأى نابغة فى الشعر لم يكن فى العراق ؟ وأية جارية امتازت بجمال أو غناء لم تكن فى العراق ؟

والسبب (الثانى) أن العراق كان أكبر بلاد الله خليطا ، فقديما تعاقبت عليه أمم مختلفة ، ومدنيات متتابعة ، وفى العصر العباسى كان حاضرةَ الخلافة ، وكان مَقْصِدَ الأمم وكان مسكن العنصر الأرستقراطى من الفرس ، وكان محطَّ الراحلين من الهند والروم وغيرهم وكان يجلب إليه أجناس الرقيق من كل جنس ، ولهؤلاء جميعا تاريخ فى اللهو ، وإمعان فى الحضارة ، وتفنن فى الترف فلما حلّوا بالعراق ، ووجدوا السبل ممهدة ، عرَضتْ كلُّ أمة فنّها ، وأنواع حضارتها ، وكان من ذلك معرض عام أخذ العراق من كل شىء منه بحظ وافر ، وأخذت البلدان الأخرى من العراق بقَبَس

ولكن من الحق أن نقول إن هذا الوصف الذى وصفنا ليس حالَ الناس جميعهم ، فما كانوا كلُّهم أغنياء ولا كلُّهم فارغين وما كان ذلك لأمة من الأمم فى أى عصر من العصور ، وما كان العالم الاسلامى كله هو العراق وملاهيه ، ولا كان العراق كله يحيا هذه الحياة — فإن أنت قرأت كتاب الأغانى ، وتنقلت فى صحفه من ضرب من اللهو الى ضرب ، أو قرأت ديوان أبى نواس وقرأت أكثره خمراً ومجوناً ، فلا تظن أن ذلك يمثل حياة العصر بأجمعها إنما هو يمثل ناحية واحدة من نواحيها المتعددة ووجوهها المختلفة ، وعذر الأغانى أنه ألف فى طبقات المغنين ، والمغنون فى كل عصر هم طلاب اللهو وبغاة المجون

على أنا نريد أن ننبه على أمر فطن له ابن خلدون وهو وضع الأخبار الكاذبة فى الملاهى ونسبتها الى الكبراء وكانوا يتوسعون فى أخبار الملاهى ليغروهم بها وليكسبوا هم من وراء ذلك مالا أو جاها أو نحوهما

لم تكن أموال الدولة موزعة توزيعا متقاربا، ولا كانت الفروقُ بين الطبقات فروقا طبيعية، إنما كان هناك هُوّات سحيقة بين الطبقات، فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلافة والأمراء ورؤساء الأجناد، وعمال الدولة وهم ينفقون منه جُزافا على المقربين من أدباء وعلماء ومغنين وجوار وأتباع، وطبقة تجار ومن إليهم. وهؤلاء في درجة من الثروة دون الأولى. وعامةُ الشعب يفشو فيهم الفقر والبؤس

كانت بغداد تعجبُ أربابَ الأموال لما يجدون فيها من عيش رَغَدٍ وهناءة ونعيم

أعايَنْتَ في طُولٍ من الأرضِ والعرْضِ
كبغدادَ داراً إنها جنّةُ الأرضِ ؟
صفَا العيشُ في بغدادَ واخضرّ عُودُهُ
وعَيْشُ سِواها غيرُ صافٍ ولا غَضِّ
تَطُولُ بها الأعمارُ إن غذاءها
مَرِيءٌ وبعضُ الأرض أمرأُ من بعضِ [1]

فأما الفقراء وذوو الحاجة فضاقت عليهم بغداد بما رحبت، ولم يستطيعوا العيش فيها ولا المقام بها

بغدادُ دارٌ طيبُها آخذ ٌ نسيمُها مِنّي بأنْفاسي
تَصْلُحُ للموسر لاَ لامْرِىءٍ يبيت في فَقْرٍ وإفلاسِ
لو حلّها قارونُ ربُّ الغِنى أصبح ذا همّ ووَسْواسِ
هي التي تُوعدُ سكانَها عاجلةً للطاعمِ الكاسي

---

١ تاريخ بغداد ١ : ٦٨

حُورٌ وولْدانٌ ومن كلِّ ما تطلبُهُ فيها سوى النّاسِ !

ويقول آخر أذمُّ بغدادَ والمُقامَ بها من بعدِ ما خبرةٍ وتجريبِ

ما عند سُكَّانها لمُختبطٍ خيرٌ ولا فرحةٌ لمكروبِ

يحتاج باغي المقام بينهمو الى ثلاثٍ من بعد تتريبِ

كنوزُ قارونَ أن تكونَ لهُ وعمرُ نوحٍ وصبرُ أيوبِ

كما كرهها جماعة من أهل الورع والصلاح والزهاد . وعلتهم فى الكراهية ما عابوا بها من الفجور والظلم والغصب . وكان بعض الصالحين اذا ذكرت عنده بغداد يتمثل

قل لمن أظهر التنسُّكَ فى النا س وأمسى يُعَدُّ فى الزهّادِ

الزم الثغرَ والتواضعَ فيهِ ليس بغداد منزلَ العُبّادِ

ان بغدادَ للملوك محلٌ ومُناخٌ للقارىء الصيّادِ [2]

ويقول بشر بن الحارث « بغداد ضيقة على المتقين ، لا ينبغى لمؤمن أن يقيم بها » [3]

٤

كانت كثرة الأموال فى العراق ووفرة ما يحمل اليها من خراج الأقطار، سببا فى ارتفاع الأسعار ، وذلك إن احتمله الأغنياء فانه يمس الفقراء . وقد شكا أبو العتاهية ذلك ، وصوره تصويرا دقيقا فقال :

من مُبلغٌ عنى الاما م نصائحا متواليَه

انى أرى الأسعار أسـ عار الرعية غاليه

١ المحـ... ... ... ص ٩٥ ... ٢ معجم البلدان فى مادة بغداد
٣ ... ١ ... و ... روى الخطيب ... أخرى ... الا ... أن بعضهم كان يرى ... لا ... ثابت ... احاديث وردت فى ذمها

وأرى المكاسب نزرةً وأرى الضَّرورة فاشيهْ
وأرى غُمُومَ الدهْر را ئحةً تمرُّ وغاديه
وأرى اليتامى والأرا ملَ في البيوتِ الخاليه
مِن بَيْنِ راجٍ لم يزل يسمو إليك وراجيه
يشكون مجْهَدةً بأصـ ـواتٍ ضعافٍ عاليه
يرجُون رِفدك كي يرَوْا مما لقُوه العافيه
من يُرْتجَى للناس غيـ ـرُك للعيون الباكيه
مِن مُصبيَاتٍ جُوَّعٍ تمسي وتصبح طاويه
منْ يُرتجى لدفاع كر بِ مُلمة هي ماهيه
من للبطون الجائعا تِ وللجسوم العاريه
يا ابنَ الخلائف لا فقدْ تَ ولا عدمتَ العافيه
إن الأصولَ الطيبا تِ لها فروعٌ زاكيه
ألقيتُ أخباراً إليـ ـك من الرعية شافيه [١]

* * *

كان المال فرصة أن يأتي في طرفة عين، ويذهب في طرفة عين، ذلك لأن عطاء الخلفاء والأمراء والولاة إذ ذاك كان لا يقف عند حد، ومصادرتهم للأموال لا تقف كذلك عند حد، قد يعجب أحدهم نغمة المغني، أو بيت الشعر أو الكلمة الطيبة، أو الجواب الحسن فيَهبُ الألوفَ وقد يكره ذلك فيهدر الدم، ويصادر المال!

وصف العتَّابي هذه الحالة في عصره فقد سئل لم لا تتقرب بأدبك

١ ديوان أبي العتاهية ص ٣٠٤

الى السلطان ؟ فقال : « لأنى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شيء ، ويرمى من السور فى غير شيء . ولا أدرى أىّ الرجلين أكون ! »[١] والمفضّل الضّبى يدعوه رسول المهدى ، فيخاف ويتوهم السعاية به ، ثم يتطهر ويلبس ثوبين استعداداً للموت فاذا مَثَل بين يديه سلّم ورد عليه ، فلما سكن جأشه سأله عن أى بيت قالته العرب أفخر ؟ ثم سأله مسائل أخرى ، فلما أحسن الجواب سأله عن حاله فشكا اليه دَيْنه فأمر له بثلاثين ألف درهم[٢] وحكى الجاحظ فى كتابه الحيوان أن أبا أيوب المورِيانى وزير المنصور بينا هو جالس فى أمره ونهيه إذ أتاه رسول أبى جعفر فامتقع لونه ، وطارت عصافير رأسه ، وذُعِر ذُعراً نقض حبوته ، واستطار فؤاده ، ثم عاد طلْقَ الوجه ، فتعجبنا من حاله ! وقلنا له انك لطيف الخاصة ، قريب المنزلة ، فلم ذهب بك الذعر واستفرغك الوجل ؟ فقال سأضرب لكم مثلا من أمثال الناس ، زعموا أن البازى قال للديك ما فى الأرض شيء أقل وفاء منك ! قال كيف ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على أيديهم ، فأطعموك على أكفهم ، حتى اذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا ! وصِحت وصِحت ، وأُخِذْتُ أنا من الجبال فعلّمونى ، وقوّونى ، ثم يُخلّى عنى فآخذ صيدى فى الهواء فأجىء به الى صاحبى ! فقال له الديك انك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم مثل ما رأيتُ من الديوك ، لكنت أنفر منى ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى »[٣]

ولما قتل المأمون الفضلَ بن سهل عُرِضت الوزارة على احمد بن أبى خالد فأبى وقال لم أر أحدا تعرض للوزارة وسلمت حاله[٤]

« وكانوا يرفعون الأخبار الى المأمون ولو لم تصح بالعدول ، ويقول

١ المستطرف ١ ١١٢ ٢ القصة مذكورة مطولة فى الأغانى ١٤ ١١٦ وما بعدها
٣ الحيوان ٢ ١٣٢ ٤ طيفور ٢١٥

صاحب الخبر . لو لم يرفع الا ما شئت بالعدول لم يتهيأ ذلك فى السنة الا مرة أو مرتين »[١].

ودُعى محمد بن الحرث بن بُسْخُنَّر الى الواثق فى يوم لم يكن يُدْعَى فيه فقال « دخلنى فزع شديد وخفت أن يكون ساعٍ قد سعى بى ، أو بلية قد حدثت فى رأى الخليفة علىّ ، فتقدمت بما أردت » الخ وكانت النتيجة أن غنّاه فأمر له بعشرة آلاف درهم وتخوت[٢]

ووُشى برجل يقال له « الفضل بن عمران » الى أبى جعفر المنصور ، وكان المنصور جعله كاتب ابنه جعفر وولىّ أمره ؛ وُشى به أنه يعبث بجعفر ، فبعث المنصور برجلين وأمرهما أن يقتلا الفضل حيث وجداه ، وكتب الى جعفر يعلمه ما أمرهما به وقال « لا تدفعا الكتاب الى جعفر حتى تفرغا من قتله ، فضربا عنقه ! وكان الفضل رجلا عفيفا دينا ! فقيل للمنصور : إن الفضيل كان أبرأ الناس مما رمى به ، وقد عجلت عليه فوجّه رسولا وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ! فقدم الرسول قبل أن يجف دمه ، وقد استنكر ذلك جعفر وقال لمولاه سويد « ما يقول أمير المؤمنين فى قتل رجل عفيف دين مسلم بلا جرم ولا جناية ؟ فقال سويد . « هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء وهو أعلم بما يصنع » الخ[٣].

* * *

أنتجت هذه الحياة التى وصفنا من رفاهية قوم وبؤس آخرين ، ولهو قوم وجدّ آخرين ، حركتين ظاهرتين فى تاريخ هذا العصر

(أولاهما) ظهور فرقة المطوعة للتكبير على الفساق ببغداد ، يقول الطبرى فى سبب ظهورهم « إن فساق الحربية[٤] والشطّار الذين كانوا ببغداد والكرخ

---

١ طيفور ٦٨ ٢ أغانى ٣ ١٨٤ ٣ اقرأ الحكاية بطولها فى الطبرى ٩ ٣١٧

٤ الحربية محلة فى الجانب الغربى من مدينة بغداد نسبت الى حرب بن عبد الله صاحب حرس المنصور

آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء من الطرق لا سلطان يمنعهم، ولا يُقْدَر على ذلك منهم، لأن السلطان كان يعتزّ بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه: فلما رأى الناس ذلك، وما قد أظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغي وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم قام صلحاء كل ربضٍ، وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض» الخ

وكان لهذه الحركة زعيمان، لكل زعيم برنامج، فأما أحدهما وهو خالد الدريوش فبرنامجه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يثور على السلطان، فهو يطلب الإصلاح، ويتولاه في حدود الطاعة للحكومة، والزعيم الآخر سهل بن سلامة الأنصاري، برنامجه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كذلك، والعمل بكتاب الله وسنته. ومقاتلة من خالفه، كائناً من كان، سلطاناً أو غيره ويقول الطبري إنه تبعهما خلق كثير وكان كل من أجاب سهلاً هذا عمل على باب داره برجاً بجصٍّ وآجُرٍّ ونصبَ عليه السلاح والمصاحف — وكان ذلك سنة ٢٠١ و سنة ٢٠٢ هـ وقد انتهى أمرهما بالقبض عليهما وحبسهما[1]

وظاهر أن الذي دعا إلى هذه الحركة كما يقول ابن خلدون «تواثر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم» وقد استمرت هذه الحركة تبدو حيناً وتخمد حيناً، فقد جاء بعدهم فرقة الحنابلة تدعو كذلك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يطول ذكره

(ثانيهما) حركة الزهد — ذلك أن قوماً يئسوا من الغنى، ورأوا أن نفوسهم لا تطاوعهم للهرب من دوي الحياة، أو حاولوا ذلك ففشلوا فالتجأوا إلى القناعة يروضون أنفسهم عليها، وقالوا إذا لم يكن ما تريد فأرِد ما يكون !

---

[1] انظر الكلام عليهم في الطبري جزء ١ ص ٢٤١ و ٢٤٨ ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٤

وقوماً عافت نفوسهم ما رأت من شهوات لا حد لها ، ورأوا أن النفس اذا نالت ما طمحت تفتّحت أمامها شهوات وشهوات وللوصول الى كل شهوة متاعب وعقاب ، ففضلوا أن قمعوها ، وقالوا مع القائل

وما النفسُ الا حيثُ يَجْعلُها الفتى فإن أُهملَت تاقَتْ وإلا استقَرّت

أو مع الآخر

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغّبْتَها وإذا تُردُّ الى قليل تَقْنَعُ

وقوماً يئسوا من حب ، أو صُدموا صدمة عنيفة فى منصب أو جاه أو مال ؛ فلم يجدوا الا الزهد يركنون اليه ويأنسون به ، ويتسلّون به عما فقدوا

وكثيراً زهدوا تديناً لما فى الزهد من خفة المؤونة ، وسهولة الحساب ، يقولون كما قال محمد بن واسع « طوبى لمن يصبح الرجل وليس عنده غداء ، ويمسى وليس عنده عشاء ، وهو مع ذلك راض عن الله » ، صرفوا نفوسهم عن الشهوات ، وأكثروا من ذكر الموت والقبور ، وعدّوا أنفسهم فى الموتى ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ورفضوا أن يمدوا أيديهم لأحد عطاء من خليفة أو وال ، وقنعوا بالقليل ، كالذى فعل ابراهيم بن اسحق الحَرْبى ؛ عاش أكثر عمره على كِسَر يابسة وملح ، وربما عدم الملح ، ورفض أن أخذ ألف دينار بعث بها اليه المعتضد ، وأنفق مرة فى شهر رمضان كله درهماً وأربعة دوانق ونصفا [١]

كل هذه الأصناف ، كان منها فى العصر الذى نؤرخه وكما كان بشار وأبو نواس وأضرابُهما يلونون بريشة اللهو ، وينفخون نارها ، كان أبو العتاهية يعبّر عن نزعة الزهد ، ويروى عُدّة الزاهدين فإن قال أبو نواس فى الدعوة الى اللهو

---

[١] انظر ترجمتا فى معجم الأدباء لياقوت جزء ١

جَرَيْتُ مع الهوى طَلْقَ الجُمُوحِ ... وَهَانَ عَلَيَّ مَأْثُورُ القَبِيحِ
وَجَدْتُ أَلَذَّ عاريةِ الليالي ... قِرانَ النَّغْمِ بالوَتَرِ الفصيحِ
وَمُسْمِعَةٍ متى ما شِئْتُ غنَّت ... متى كان الخيامُ بذي طُلُوحِ
تَمَتَّعْ من شبابٍ ليس يبقى ... وصِلْ بِعُرَى الغَبُوقِ عُرَى الصَّبُوحِ

قال أبو العتاهية: رغيفُ خبزٍ يابسٍ ... تأكُلُه في زاويهْ
وكوزُ ماءٍ باردٍ ... تشربُه من صافيهْ
وغرفةٌ ضيقةٌ ... نفسُكَ فيها خاليهْ
أو مسجدٌ بمَعْزِلٍ ... عن الورى في ناحيهْ
تَدْرُسُ فيه دفتراً ... مستنداً بساريهْ
مُعْتَبِراً بمن مضى ... من القُرُونِ الخاليهْ
خيرٌ من الساعات في ... فَيْءِ القُصُورِ العاليهْ
تُعْقِبُها عقوبةٌ ... تُصْلِي بنارٍ حاميهْ
فهذهِ وصيّتي ... مُخْبِرَةٌ بحاليهْ
طوبى لمن يَسْمَعُها ... تلك لعَمْري كافيهْ
فاسمعْ لِنُصْحِ مشفقٍ ... يُدعى أبا العتاهيهْ

والناس يتنازعون أيهما أشعر، أبو نواس أم أبو العتاهية، ولسنا نفضل أحدهما في الحقيقة استنادا على الناحية الفنية، وإنما كلاهما يمثل نزعة خاصة، وكل فريق يفضل من عبّر عن نفسه وحكى نزعته

* * *

كان للحالة الاجتماعية التي ألممنا بها نتائج علمية وأدبية وفنية:
من ذلك أن غزارة الأموال في يد الخلفاء والولاة ومن إليهم، ووفرة

عطاياهم وقلة الأموال فى يد سواهم ، جعلت الفنون الجميلة ومنها الشعر ، لا تزهر الا فى أحضان الخلفاء ومن اليهم ، وتذبل فى غير جَوِّهمْ — قد كان من المعقول ان يفيض شعور الرجل وتهيج عواطفه ، وتغلى نفسه ؛ فينطق بالشعر يهدّىء من شعوره ، ويخفف من غليانه ، لا يرجو من ذلك الا ارواء لعاطفته الفنية ؛ وهذا هو كل مَطْمحه فى الثواب ! وكان من المعقول : أن يجيد الفنانُ إشباعا لنهمه الفنى ، فى فقر أو غنى ، ورخاء أو شقاء ! ولكن يظهر أن قليلا كان عندهم هذا السمو الفنى ، وأكثرهم رأى أنّ قليلا من الفن وأبياتا من الشعر اذا لوحظ فيها ذوق الممدوح — لا ذوقُ الفن — تدرّ عليه من الأموال ما لا يحلم به ، وهو إذا أرضى عاطفتَه وفنّه عاش عيشة كفَاف ، فاندفع يطلب هوى الخليفة أو الأمير ، وسال السيل وجرى التيار كله ، الا القليل النادر — نحو القصور ، يقفون بأبوابها الأيام والشهور ، حتى يؤذن لهم ، وأصبح الشعراء والفنانون أداة من أدوات الزينة ، وطرفة جميلة تحلّى بها الدور والقصور ، ولهم فى ذلك بعض العذر . فمَن مِن هؤلاء يرى من هو أقل منه — شعراً وفناً — يعمل بيتين أو ثلاثة فى مدح أمير فينال عشرة آلاف درهم ، ثم تقوى نفسه وتسمو همته ويترفع عن أن يسلك مسلكه ويجرى مجراه ؟ كذلك الشأن فى الغناء ، يقول الأصفهانى : إن مجموع ما أخذ ابراهيم الموصلى من الرشيد كان أكثر من مائتى ألف دينار [١] ، ولا تكاد تقرأ صفحة من الأغانى حتى تجد فيها شاعراً يمدح ، وألوفا تمنح ! ومهما كان فى هذه القصص من المبالغة فالأساس صحيح .

كان من نتائج هذا ، أن أصبح أكبر مجرى يصب فيه الشعر هو المديح ، وهو باب أبعد مايكون — فى نظرنا — عن الشعر الصحيح ، وتعاقبَ الشعراء يصوغون معانيه السائغة وغير السائغة ، حتى ارتشفوا آخر نقطة منها ، بينما

---

١ اغانى ٥ : ٢٠

الأبواب الأخرى من وصف عاطفة سامية ، وتحليل لشعور بجمال الطبيعة وجمال الزهور ، ونحو ذلك لم تمس إلا مساً رقيقاً

وكان من نتائج هذا أيضاً ، أن مؤرخ الأدب والفن فى هذا العصر يكاد لا يؤرخ إلا العراق ، وأما مصر والشام والحجاز فأدبها أدب خفيف ، وفنها لا يكاد يؤبه له ، وكل نابغ فى شعر أو فن لا يجد مشتريا لسلعته إلا العراق .

ونرى أن الأدب ، أصبح يمثل هاتين النزعتين البارزتين خير تمثيل ، نزعة اللهو ، ونزعة الزهد . فأما نزعة اللهو فما قيل فى الخمر والنسيب وما إليهما وتجد ذلك فى دواوين الشعراء أمثال أبى نواس ومسلم بن الوليد وفى كتاب الأغانى . وأما نزعة الزهد ، فما قيل فى الموت والبعث والحساب ، وما قيل فى حيـــاة الزهاد ومأثور قولهم وفعلهم وعقدت الفصول الطوال تشرح نفسيتهم وتروى حكمهم ، فنرى الجاحظ فى الجزء الثالث من كتاب «البيان والتبيين» يضع كتابا يسميه «كتاب الزهد» يقول فى أوله ، « نبدأ باسم الله وعونه بشيء من كلام النساك فى الزهد ، وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم » وصارت هذه الأقوال والقصص تعدى هذا الفريق من الناس الذين زهدوا فى الحياة ، وأصبحنا نرى المؤلفين فى الأدب بعده ينسجون على منواله ، ويجعلون باب الزهد ركناً من أركان الأدب ، فابن قتيبة يخصص كذلك باباً للزهد فى كتابه «عيون الأخبار» ، وابن عبد ربه فى «العقد الفريد» وهكذا ونقرأ هذه الفصول فتراها تمثل حياة هى على النقيض من اللهو .

أما العلم ، فقد كان هناك علمان علم دينى ، وعلم دنيوى - إن صح هذا التعبير - فأما العلم الدنيوى من فلسفة وطب ورياضة وفلك ، فقد نما كذلك فى كنف الخلفاء والأمراء والأغنياء ، وقلّ أن تجد عالما فى ذلك العصر فى علم من هذه العلوم إلا كان له أمير أو غنى يمده بمعونته ، ولذلك كانوا - غالبا - فى سعة من العيش

أما العلم الديني فقد كان الباعث عليه أخرويا غالبا ، فنما وأزهر خارج القصور أيضاً ، كعلم التفسير والحديث ، ومن أجل هذا أيضاً لم يكن نمو هذا النوع من العلم وإزهاره قاصراً على العراق ، بل تجده حيث الباعث الديني ، في كل قطر وكل إقليم ، فإذا أنت أرّخت لعلوم القرآن وعلوم الحديث ، أو علوم اللغة ، أرّخت لمصر والشام والحجاز كما أرخت للعراق ، وتقرأ تراجم هؤلاء العلماء فترى في أكثرهم فقراً مدقعاً ، وبؤساً واضحاً ، ورضىً بالقليل ، وأمثلة ذلك لا تحصى

وسيأتي عند الكلام في الحركة العلمية وصف ما كان لهؤلاء العلماء من جدّ في طلب ، واحتمال نَصَب ، وسهر بعيد ، في فقر شديد ، مما يدعو الى الاعجاب ، ويعد المثل الأعلى للحياة العلمية .

الفصل السادس

حياة الزندقة وحياة الايمان

كما قد رأينا في الفصل السابق ، حياة فيها لهو ومجون ، ونعيم ورخاء ، وحياة فيها جد وزهد وبؤس وشقاء ، نرى في هذا الفصل ألوانا أخرى من الحياة ، هي حياة القلب والعقل ، والعاطفة والدين ، فنرى صراعا بين الشك والزندقة والالحاد ، وبين الايمان الخالص والاعتقاد الصادق ، ويخيّل الينا ونحن نقرأ تاريخ هاتين الحركتين أننا في موقف قتال مُشْتَجِر تُستخدم فيه كل وسائل الحروب ، فخُدَع ومكايد ووسائل سرية أحيانا ، ولجوء الى السيف وسفك للدماء أحيانا ، وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحيانا ، ثم الحرب سِجال ، يوم ينتصر فيه الملحدون بما ينشرون من شكوك وأوهام ، وبما يضللون من ناشئة وشبان . فإن عجزوا ظاهرا استعملوا طرق الغواية سرا ، تحت مظهر

التشيع ، أو الغيرة على الاسلام أو نحو ذلك ، ويوم ينتصر فيه المؤمنون فينكلون بالملحدين تنكيلا ، ويوقعون بهم قتلا وتشريداً ، ثم بما يؤلفون من كتب ينقضون شبههم ، ويبطلون حججهم

ولكن لم يُعن المؤرخون فى تسجيل هذه الحرب ووقائعها ، كما عنوا بتسجيل الحروب السياسية . انما يعثر الباحث فى ثنايا الكتب على نتف مبعثرة ، قد يستطيع ـ فى عناء ـ أن يؤلف منها وحدة ، ويكوّن منها سلسلة متصلة الحلقات.

الزندقة — : نلاحظ فى هذا العصر الذى نؤرخه تردد كلمة « الزندقة » على الألسنة ، وكثرة اتهام الناس بها حقا وباطلا ، وتنبه الرأى العام الى هذا المعنى تنبها دقيقاً ، فهم يسمعون شعر الشاعر فسرْعان ما يلتفتون الى شيء فيه يتهمونه من أجله بالزندقة ، أو يرون فعلا صدر من انسان ، أو كلمة قالها جداً أو هزلا ، أو إشارة أشار بها فيرمونه بالزندقة [1]

ونحن اذا قارنا بين انتشار هذه الكلمة فى العصر الأموى ، والعصر العباسى ، وجدنا استعمال الكلمة فى العصر الأموى قليلا نادراً ، وفى العصر العباسى فاشياً شائعاً ، فمثلا اتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدبُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالزندقة فى العصر الأموى ، واتهم الوليد بن يزيد كذلك ، ولكن هذا قليل نادر ، أما فى العصر العباسى فالأخبار بالزندقة مستفيضة ، والمتهمون بها كثيرون

والسبب فى ذلك أن الزندقة فى بعض معانيها ـ وهو الشك أو الالحاد ـ انما تقترن عادة بالبحث العلمى ، وهو فى العصر العباسى أبين وأظهر ذلك أن العلم الذى كان شائعا فى العصر الأموى ، كان العلمَ الدينى من جَمْع للحديث ، وتفسير للقرآن الكريم ، واستنباط الأحكام الشرعية منهما . وهذه لا تثير فى النفوس شكوكا تبعث على الزندقة ، انما الذى قد يثير هذه الشكوك مذاهب

[1] انظر فى فجر الاسلام الاقوال المختلفة فى اشتقاق كلمة الزندقة فانظره ص ١٢٨

الكلام ، والجدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان ، والبحث الفلسفي على النحو الذي يبحثه ارسطو وأفلاطون في المادة والصورة ، والجزء الذي لا يتجزأ والجوهر والعرض ، وما إلى ذلك وهذه الأشياء كانت قليلة في العصر الأموي وهي وفيرة جداً في العصر العباسي

وسبب ثان هو أن بعض الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين الى العباسيين لم يحقق مطالبهم ، فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية الى يد أخرى هي يد العباسيين ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، في سلطها ولغتهـــا ودينها ورأوا أن ذلك لا يتحقق والاسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون لنشر المانويه والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن امكن ، وخفية اذا لم يمكن ، وكان من ذلك فشو الزندقة

يضاف الى ذلك أن الدولة الأموية ـ كما قدمنا ـ كانت دولة العرب فالحكم في أيديهم والملك لهم ، وولاتهم ورجالهم عرب والموالي أذلاء مضطهدون والعرب لا تعرف الزندقة كثيراً ولا تميل اليها ، فهم مطمئنون الى ملكهم والى دينهم فلما أتت الدولة العباسية انتعش الموالي وخاصة الفرس ، وأصبح أكثر السلطان في أيديهم ، وعلوا على العرب ، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوْها جميعها لما اعتنقوا الاسلام ، وكانوا لا يجرءون في الحكم الأموي أن ينبسوا بكلمة ، وكان همهُم الأول أن يتحرروا سياسيا لا دينيا فكانت دعوتهم السريه واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين والزندقه انما هي في الدين لا في السياسة ، فلما نجحوا واطمأنوا وتمكنوا بدأت تلعب في رءوسهم الديانات القديمة والجديدة فكانت الزندقة

نرى اسم الزنادقه مقرونا بالمُجّان في عهد أبي جعفر المنصور ، فقد ذكر الطبري « أن المنصور وجّه مع محمد بن أبي العباس بالزنادقه والمجان ، فكان فيهم حماد عجرد ، فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون ، وانما أراد بذلك أن

يبغضه الى الناس »[١] وكان محمد بن أبى العباس مرشحاً للخلافة ، فأراد من إحاطته بالزنادقة والمجان أن يكرهه الناسُ ، فيتسنى له أن يرشح ابنه المهدى ، ولعل ذلك كان سبباً فى لفت نظر المهدى الى الزنادقة ، فقد كان قرْب محمد ابن أبى العباس منهم مُبْعداً له عن الخلافة ، فليتقرّب هو الى الله والى الناس باضطهادهم !

على كل حال لم يُعرف عن المنصور امعان فى اضطهادهم ، وكانت سياسته ـ على ما يظهر ـ منع الفتن الظاهرة فقط فلما جاء المهدى كانت من أظهر المسائل فى تاريخه ، تنكيله بالزنادقة والفحص عنهم ، فقد عيّن رجلا وَكَلَ اليه أمرهم سماه « صاحب الزنادقة » يقول فى الأغانى « لما نزل المهدى البصرة كان معه حمدُويه صاحب الزنادقة فدفع اليه بشاراً ، وقال اضربه ضرب التلف »[٢]

وقال فى موضع آخر « أمر المهدى (عبد الجبار صاحب الزنادقة فضرب بشارا »[٣] وهذه ، أولُ مرة نسمع فيها بتعيين رجل خاص يعهد اليه أمرهم، يبحث عنهم ، وينكل بهم ويقول الطبرى فى حوادث سنة ١٦٧ « وفيها جدّ المهدى فى طلب الزنادقة ، والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم ، وولى أمرَهم « عُمَرَ الكلْوادى »[٤]

ويقول المسعودى فى المهدى « انه أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه ، واعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لِمَا انتشر من كتب مانى ، وابن ديصان[٥] ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء[٦] وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية

---

١ طبرى ٩ ٨ ٣ ٢ اغانى ٣ ٧٣ ٣ أغانى ٣ ٧٢ ٤ طبرى ١ ٩
٥ فى الاصل ابن دمان ٦ فى الاصل ابن العرجاء

والديصانية [١] والمرقوبية فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم فى الناس وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب (فى الرد) على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين »[٢]

اذن قام المهدى بعمله نحو الزنادقة ، انشاء ادارة للبحث عنهم ومحاكمتهم، وانشاء هيئة علمية لمناظرتهم ، وتأليف الكتب للرد عليهم .

وعلى الجملة فقد كان المهدى شديد الاهتمام بهذه الفئة ، حتى لم ينس أن ينصح ابنه اذا ولى الأمر أن ينكل بهم ، فالطبرى يذكر . « أن المهدى قال لموسى - (هو ابنه الهادى) يوماً وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه - يابنى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعنى أصحاب مانى - فانهـــا فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذا الى عبادة اثنين أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له ؛ فانى رأيت جدك العباس فى المنام فقلدنى سيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين » فقال موسى - بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر - : أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع فقال هذا فى شهر كذا ومات بعد شهرين »[٣]

وقد أنفذ الهادى وصية أبيه ، فكان يقتل الزنادقة وروى الطبرى

---

[١] فى الأصل الديصانية [٢] المسعودى ٢ : ٤١ [٣] طبرى ١٠ : ٤٢

فى حوادث سنة ١٦٩ : أن الهادى اشتد هذه السنة فى طلب الزنادقة ، فقتل منهم فيها جماعة ، فكان ممن قتل منهم ، يزدان بن باذان كاتب يقطين ، وابنه على بن يقطين من أهل النهروان . ذكر عنه أنه حج فنظر الى الناس يهرولون فى الطواف فقال ما أشبههم الا ببقر تدوس فى البيدر وله يقول العلاء ابن الحداد الأعمى :

أيا أمينَ الله فى خلقه ووارثَ الكعبة والمنبرْ
ماذا ترى فى رجلٍ كافرٍ يشبّهُ الكعبة بالبيدرْ [1]
ويجعلُ الناسَ اذا ما سعوا حُمُرًا تدوس البُرّ والدوسَرْ [2]

فقتله موسى ثم صلبه [3] .

ولما ولى هارون الرشيد ، سلك سبيل من قبله من الخلفاء فى تعقب الزنادقة فيحدثنا الطبرى فى حوادث سنة ١٧١ أن الرشيد فى هذه السنة أمّنَ من كان هارباً أو مستخفياً ، غير نفر من الزنادقة منهم يونس بن فروة ، ويزيد ابن الفيض [4]

حتى المأمون ، بلغه خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة ، يذهبون الى قول « مانى » ويقولون بالنور والظلمة ، فأمر بحملهم اليه بعد أن سُمّوا واحداً واحداً ، وكان يدعوهم رجلا رجلا ويسألهم عن دينهم فيخبرونه بالاسلام فيمتحنهم بأن يُظْهر لهم صورةَ مانى ، ويأمرهم بأن يتفلوا عليها ، ويتبرءوا منها ويأمرهم بذبح طائر ماء وهو الدرج ، وقد أبوا ذلك فقتلهم [5]

وفى عهد المعتصم [5] كانت حادثة عظمى فى تاريخ الزندقة . وهى محاكمة « الأفشين » (قائد جيوش المعتصم) فانه لمّا شق عصا الطاعة اتهم بالزندقة

---

١ بندر الطعام كومه والبندر موضعه الذى يداس فيه ٢ الدوسر نبت حبه الزوان الذى فى الحنطة ٣ طبرى ١٠ ٢٣ ٤ طبرى ١٠ ٥ ٥ المسعودى ٢ ٢٤٩

وألف محكمة لمحاكمته كان من أعضائها ، محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبى دواد وقد اتهم الأفشين بجملة تهم

١ — أنه عمد الى رجلين كانا قد وجدا بيتاً فيه أصنام — فى اشروسنة — فأخرجا الأصنام منه، وحولاه مسجدا ، وصار أحدهما إماماً للمسجد والآخر مؤذناً ، فضربهما الأفشين كلاً ألف سوط حتى قرب ظهورهما من اللحم .

وقد دافع عن نفسه ، بأنه كان بينه وبين ملوك السُّغْد عهد أن يترك كلَّ قوم على دينهم ، فكان عمـلُ الامام والمؤذن تعدِّياً على ما التزمه من حرية الأديان

٢ — واتهم كذلك بأنه عُثر فى بيته على كتاب قد زين بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله

وردَّ على هذه التهمة بالاقرار بها ، وأنه ورث الكتاب عن آبائه ، والكتاب فيه أدب من آداب العجم؛ وفيه كفر، فاستمتع بما فيه من أدب وترك ما فيه من كفر ، ولم يكن بحاجة الى مال حتى يجرد الكتاب من حليته ، وليس شأن الكتاب بعد ذلك الا شأن كتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك وهما فى منازل القضاة ، لم يعترض عليهما معترض !

٣ — واتهم أيضاً بأنه كان يأكل المخنوقة ، ويزعم أنها أرطب لحما من المذبوحة ، وكان يقتل شاة سوداء كلَّ يوم أربعاء ، يضرب وسطها بالسيف، ثم يمشى بين نصفيها ويأكل لحمها

وقد ردَّ على هذا بأن من شهد عليه بهذه الشهادة ، يعترف خصومه بأنه ليس ثقة ولا مُعَدَّلا ، وليس بين منزل الشاهد ومنزل الأفشين باب أو كُوَّة يطلع عليه منها ويتعرف أخباره

٤ — واتهم بأن أهل مملكته كانوا يكتبون اليه باللغة الأشروسنية ما تفسيره باللغة العربية الى إله الآلهة مِنْ عَبْده فلان بن فلان.فماذا أبقى بعدُ لفرعون

اذ يقول « أنا ربكمُ الأعلى ! »

وقد أجاب بأن هؤلاء القوم كانوا يكتبون لأبي وجدي كذلك، ولي قبل أن أدخل في الاسلام فكرهت أن أضع نفسي دونهم، فتفسد علىّ طاعتهم

٥ — واتهم خامساً — أن أخاه كتب الى مازيار، أنه ليس من ينصر هذا الدين الأبيض (يريد المجوسية) الا أنا وأنت وبابك — فأما بابك فقد قتل نفسه بحمقه، فان خالفتَ لم يكن للقوم من يرمونك به غيري، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس، فان وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا الا ثلاثة، العرب والمغاربة. والأتراك. والعربي بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة، ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب يعني المغاربة انما هم أكلة رأس، وأولاد الشياطين — يعني الأتراك — فانما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول عليهم الخيلُ جولة، فتأتي على آخرهم، ويعود الدين الى ما لم يزل عليه أيام العجم

وخلاصة هذه التهمة العظمى محاولة قلب المملكة الاسلامية، ومحو الخلافة، ومحو الدين الاسلامي، وإعادة المملكة العجمية كما كانت، بلغتها ودينها وسلطانها

وقد أنكر هذا الكتاب وقال انه عمل أخيه لا تلزمه ولو صح لكانت هذه حيلة مني أردت أن أستميله حتى يثق بي، ثم آتي به الخليفةَ لأحظى به عنده

٦ — واتهم أيضا بتهمة ترك الاختتان

فقال إنه خاف أن يقطع ذلك من جسده فيموت، وما علم أن في ترك الاختتان الخروج من الاسلام

فرُدّ الى الحبس، ومُنع عنه الطعامُ والشراب الى أن مات، ثم صلب، وأحرق بالنار [1] وقد مدحه أبو تمام أولاً بمدائح كثيرة منها .

---

١ انظر محاكمته في الطبري ١١ : ٣٦٤ وابن الأثير ٦ : ١٩ وتاريخ ابن خلدون

لقد لبس الأفشين قسطلة الوغى ... محشًّا بنصل السيف غير مواكل[١]

وجرد من آرائه حين أضرمت ... به الحرب حدًّا مثل حد المناصل

وسارت به بين القنابل والقنا ... عزائم كانت كالقنا والقنابل[٢]

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحًى ... بعقبان طير في الدماء نواهل

تراه إلى الهيجاء أول راكب ... وتحت صبير الموت أول نازل[٣]

فلما صلب وأحرق عاد فذمه في قصيدة طويلة منها:

قد كان بوَّأه الخليفة جانباً ... من قلبه حرماً على الأقدار

فإذا ابن كافرة يسر بكفره ... وجدًا كوجد فرزدق بنوار

ومنها:

ما زال سر الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى سر الزناد الواري

ناراً يساور جسمه من حرها ... لهب كما عصفرت شق إزار

طارت لها شعل يهدم لفحها ... أركانه هدماً بغير غبار

فصلن منه كل مجمع مفصل ... وفعلن فاقرة بكل فقار[٤]

مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ... ما كان يرفع ضوءها للساري

صلى لها حيًّا وكان وقودها ... ميتاً ويدخلها مع الفجار

يا مشهداً صدرت بفرحته إلى ... أمصارها القصوى بنو الأمصار

رمقوا أعالي جذعه فكأنما ... وجدوا الهلال عشية الإفطار

---

١ المحش: الحديدة تحش بها النار أي تحرك، ويقال: هو محش حرب أي شجاع

٢ القنابل جمع قنبل الطائفة من الناس ومن الخيل ٣ الصبير: السحاب المتراكم

٤ الفاقرة الداهية، والفقار جمع فقارة وهي عقدة الظهر

ويقول التبريزى « لم يكن الأفشين كافراً ولا منافقاً ، وإنما كان رجلا من الفرس ، اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته ، واعتمد عليه فى مهام أموره ، حتى وكَلَ إليه مقاتلة بابك الخُرَّمى فمضى إليه فى ألوف وأسره غير أن الحساد أفسدوا ما بينهما ، فذكروا للمعتصم أنه منطو على خلافك . وقالوا للأفشين إن المعتصم قد عزم على القبض عليك ، فانقبَضَ عنه حذراً من القبض عليه ، فتحقق المعتصم - بانقباضه - ما كان أُخبر به عنه ، فأخذه وأحرقه وصلبه وقيل إن السبب فى ذلك هو ابن أبى دُؤَاد لأمر جرى بينهما » وليس هنا موضع تحقيق ما اتهم به الأفشين فمحل ذلك البحث التاريخى . وإنما يهمنا هنا مظهر الزندقة ، وما وُجِّه إليه من التهم ، وطريقة محاكمته .

* *

وبعدُ ، فماذا كان يفهم من كلمة « الزندقة » فى هذا العصر الذى نؤرخه ، وماذا يعنون عندما يتهمون رجلا بالزندقة ، وماذا كان الباعث عليها ؟

الحق أن كلمة « الزندقة » لم يكن معناها واحداً عند الناس على السواء . فمعناها فى أذهان الخاصة والعلماء ؛ غيرُ معناها فى أذهان العامة

فأما العامة وأشباههم فكانوا يُطلقون على المستهتر الماجن « زنديقاً » ، فابراهيم بن سَيَّابة الشاعر كان يُرمى بالزندقة ، ولم يكن يعرف عنه قول فى الدين إنما كان يعرف عنه أنه كان خليعاً ماجناً طيّبَ النادرة ، يحب الغلمان ويحبه المُخَنَّثون[1] ، وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز ؛ اتهم بالزندقة لأنه كان خليعاً ماجناً منهمكاً فى الشراب ، يشرب الخمر فيفرط فى شربها ، ويجرى على لسانه - وهو سكران - أبيات فيها مساس بالدين ، كأن يقول :

---

[1] انظر الأغانى جزء ١١ ص ٧

اسقني واسقِ خليلي ... في مَدَى الليلِ الطويل
لونُها أصفرُ صافٍ ... وَهيَ كالمسك الفتيل
في لسانِ المرء منها ... مثلُ طعم الزَّنجبيل
ريحُها ينفَحُ منها ... ساطعاً من رأس مِيل
مَنْ يَنَلْ منها ثلاثاً ... يَنْسَ منهاجَ السَّبيل
فمتى ما نال خمساً ... تركَتْهُ كالقتيل
ليس يدري حين ذاكم ... ما دَبيرٌ من قَبيل
إنّ سمعي عن كلام اللائمي فيها الثقيل
لَشديدُ الوَقْرِ إلا ... عن مُطْواعٍ دليل
قل لمن يَلْحاك فيها ... من فقيه أو نبيل
أنتَ دَعْها وارجُ أخرى ... من رحيق السَّلسبيل
نَعْطَشُ اليوم ونُسْقَى ... في غدٍ نَعْتَ الطُّلول!

وكان يقول اسقني واسقِ غُصْناً ... لا تَبِعْ بالنقد دَيْناً
اسقنيها مُزَّةَ الطَّعْمِ ... تُريك الشَّيْنَ زَيْناً

من أجل ذلك اتُّهم بالزندقة، فأخذه المهدي ويضربه ثلثمائة سوط على أن يقر بالزندقة فيقول والله ما أشركتُ بالله طرفة عين، ومتى رأيتَ قرشياً تزندق؟ ولكنه طربٌ غلبني وشعرٌ طفَحَ على قلبي وأنا فتى من فتيان قريش، أشربُ النبيذ، وأقول ما قلت على سبيل المجون، ثم هجر الشرب والمجون بعد ذلك، وكان يكره أن يرى الشَّرْبَ[1] والشراب ويقول

شربتُ فلمّا قيل ليس بنازعٍ ... نزعتُ وثوبي من أذى اللوم طاهر[2]

فترى أن «آدم» لم يتزندق زندقة علمية، وإنما غلبه الشرب فقال فيه هُجراً، فاتهم بالزندقة، على هذا المعنى العامي الشائع

---

١ الشرب جمع الشارب القوم يشربون ٢ انظر الأغاني ١٤ ٦٠ و٦١

والواقع أن كثيراً من الشعراء فى ذلك العصر أفرطوا فى دعوة الناس الى الفجور والاباحة ، وحملهم على الاستهتار ولم يكتفوا أن يدعوا الى ما يدعون اليه من غير تعرض للدين ، بل تعرضوا له أحياناً ، وأخذوا يجهرون بأقوال فيها تهكم ، وفيها سخرية فسخرون ممن يقول بتحريم الخمر ، ويسخرون ممن يخوف بالنار ، وممن يذكر بيوم البعث وما فيه من حساب ، فيقول بشار

لا خيرَ فى العيش إنْ كنّا كذا أبداً لا نلتقى وسبيلُ الملتقى نَهَجُ

قالوا حرامٌ تلاقينا ! فقلتُ لهُم ما فى التلاقى ولا فى قُبلة حرجُ !

وبدأ هذا النوع خفيفاً ، ثم أخذ يشتد حتى وصل الى ضرب من الالحاد وكان من أشدهم فى ذلك أبو نواس كأن يقول

ومُلحّة باللّوم تحسب أنّنى بالجهل أُوثِرُ صُحبةَ الشطّار

بَكَرَتْ علىّ تلومُنى فأجبتُها إنّى لأعرفُ مذهَبَ الأبرار

فدَعى المَلامَ فقد أطعتُ غَوايتى وصرفتُ معرفتى الى الانكار

ورأيتُ إتيانى اللذاذةَ والهوى وتعجّلا من طيب هذى الدار

أحرَى وأحزمَ من تنَظُّرِ آجلٍ علْمى به رجْمٌ من الأخبار

ما جاءنا أحـــدٌ يخبّرُ أنّه فى جنة مَنْ مات أو فى النار !

ويقول :

يا ناظراً فى الدين ما الأمْرُ لا قدَرٌ صحّ ولا جبْرُ ؟

ما صحّ عندى مِنْ جميع الذى تَذْكُرُ إلاّ الموتُ والقبْرُ

ويقول

قاتُ والــكأسُ على كفّـــىَ تَهْوى لالتثــامى

أنا لا أعرفُ ذاكَ اليو مَ فى ذاكَ الزّحَــامِ [١]

على أن بعض هؤلاء الشعراء الذين نردُّ على لسانهم هذه الأقوال

---

[١] راجع هذه الأبيات من الموشح ص ٢٧١ وما بعدها والوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ص ٥٧ وما بعدها وتجد فيها أمثالا كثيرة من هذا النوع

وأمثالها ؛ كانوا يقولونها وهم مطمئنون الى دينهم ، ولكن غلبهم الظرف وجرى الشعر على لسانهم فتحرك بمثل هذا ، وذلك مثل الذى ورد من شعر آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز

والذين كانوا يسمعون لهذا القول ؛ يختلفون فيما بينهم ، فطائفة تسخط لمثل هذا ، وتحكم على قائله بالالحاد والخروج من الدين ، وطائفة لا ترى هذا جداً من القول ؛ وانما هو نوع من أنواع التملح ، لم يُقَل إلاّ على سبيل الفكاهة والمجون ، وعلى هذا الأساس الأخير شاع فى ذلك العصر وصف الزنديق بالظرف ، فأبو نواس يصف العباسَ بن الفضل بن الربيع فيقول

نَديمُ كأسٍ محدِّثٌ مَلِكٍ تِيهُ مُغَنٍّ وظَرْفُ زِنديقِ

بل شاع اتهام بعض الناس بأنه لا يتزندق عن عقيدة ، وانما يتزندق ليشتهر بالظرف ، ففى الأغانى ان محمد بن زياد كان يظهر الزندقة تظارفا ، فقال فيه ابن مُناذر

يا ابنَ زيادٍ ، يا أبا جعفر أظهرتَ ديناً غيرَ ما تُخفى
مزندق الظاهر باللفظِ فى باطن اسلامِ فَتًى عفٍّ
لستَ بزنديقٍ ولكنَّما أردتَ أن تُوسَم بالظَّرْف ! [١]

وقال غيره

تَزَنْدَقَ مُعْلِناً لِيقولَ قوم اذا ذَكَرُوه زنديقٌ ظريفُ
فقد بَقِيَ التزندقُ فيه وسماً وما قيل الظريفُ ولا اللطيفُ !

---

[١] أغانى جزء ١٧ ص ١٥

وعلى الجملة فالزندقة بهذا المعنى - معنى التهتك ، ثم التدرج فيه الى الخروج عن الدين أحيانا بألفاظ ماجنة ، ثم المغالاة فى ذلك الى أقوال فيها معنى الالحاد لا عن نظر وتفكير . كل هذا كان شائعاً فاشياً ، وكل هذا كان معنى « الزندقة » فى أذهان العامة وأشباههم ، وعلى هذا المعنى قالوا : « إن علامة الزندقة شرب الخمر والرشا فى الحكم ، ومهر البغى » [١] .

وهناك معنى آخر للزندقة ، كان يفهمه الخاصة وأشباههم ويعنون به اعتناق الاسلام ظاهراً ، والتدين بدين الفرس القديم باطناً ، وخاصة مذهب مانى ذلك أنه كان فى ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالاسلام ولكن آمنت بسلطانه ، ورأت أن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال الا بالاسلام فاعتنقته ظاهراً ، وظلت تخلص لدينها القديم ، وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا ، اذ رأوا أنهم لا يستطيعون افساد العقيدة الاسلامية الا بالانتساب اليها أولا حتى يؤمن جانبهم ، وحتى يسهل على النفوس الأخذ بقولهم ، ثم هم بعد يبثون تعاليمهم على أشكال مختلفة ، طوراً فى العلم والدين ، وطوراً فى الأدب ، وطوراً فى وضع مثالب العرب ، ومن حين لآخر كان يعثر على بعضهم فينكل بهم ، ولكنهم لا يبيدون ، أحيانا يعملون أفراداً ، وأحياناً يعملون جماعات ، وعصرنا الذى نؤرخه مملوء بهذه الأمثال ، فعبد الكريم بن أبى العوجاء يتهم بالزندقة ، ويفسد أحاديث رسول الله بما يضع فيها ، ويقر حين يقتله المنصور ، بأنه وضع أربعة آلاف حديث مكذوب مصنوع [٢] ، وحماد الراوية يفسد اللغة والأدب بما يعمله من شعر يضيفه الى الشعراء المتقدمين ، ويدسه فى أشعارهم ، حتى ان كثيراً من الرواة قالوا قد أفسد حماد الشعر لأنه كان رجلا يقدر على صنعته فيدس فى شعر كل

---

١ العقد الفريد ١ ١٨٧
٢ امالى المرتضى ١ ٨٩

رجل ما يشاكل طريقته »[١] وصالح بن عبد القدوس يدس في الأشعار معاني زندقة ، ويونس بن أبي فروة يعمل كتاباً في مثالب العرب ، وعيوب الاسلام بزعمه ، ويصير به الى ملك الروم فيأخذ منه مالا[٢]

هؤلاء وأمثالهم كانوا يتزندقون تزندقاً علمياً ، فهم يدينون بماني أو مزدك ، ويؤمنون بالنور والظلمة ، وبعبارة عامة يدينون بدين المجوس عن علم ، ثم يتظاهرون بالاسلام تقية ، أو توسلا الى إضلال الناس ويدل على هذا المعنى الخاص ما رواه الأغاني أن بشارا هجا حماد عجرد فقال

يا ابن نهبى ، رأس علي ثقيل واحتمال الرأسين أمر جليل

فادع غيري إلى عبادة ربيــن فاني بواحد مشغول[١]

فقال حماد ما يعيطي من بشار الا تجاهله بالزندقة ، يوهم الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها ، لأن هذا قول تقوله العامة لا حقيقة له ، وهو والله أعلم بالزندقة من ماني[٣]

ويقول أبو نواس كنت أتوهم حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس الزنادقة ، فاذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين ، يقرءون به في صلاتهم[٤].

اشتهر بالزندقة في هذا العصر كثيرون ، منهم الحمادون الثلاثة حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان ، وبشار بن برد ، وابن المقفع ، ويونس ابن أبي فروه ، ومطيع بن إياس ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، وصالح بن عبد القدوس ، وعلي بن الخليل ، وابن مناذر ، وتجد تراجمهم في الأغاني

---

١ المصدر نفسه ١ ٩١
٢ المصدر ء ١ ٩ ٩
٣ أغاني ١٣ ٧٦
٤ أغاني ١٣ ٧٤

وغيره ضروبا من القصص توضّح زندقتهم ، وكان بين بعض هؤلاء وبعض صداقة ووُدّ أحيانا ، وهجو وتنافُر أحيانا

والذى نلاحظه أن أكثر من ذكرنا موالٍ من الفرس، وذلك طبيعى، فإن الزندقة بهذا المعنى تستتر وراءها ديانة مجوسية من ديانات الفرس، فطبيعى أن ينزع إليها من كان أصلهم مجوساً ومع هذا فإنا نجد من العرب بل من الهاشميين من اتهم بالزندقة ، مثل الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب[1] وكالذى روى الطبرى من أن المهدى أُتى بداود بن على ، و بيعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن ابن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وقد اتهما بالزندقة فأقرّا له بها[2] ولكن كانت الزندقة فى العرب على العموم نادرة ، وأكبر من اتهم بها كانت زندقته بالمعنى الأول ، وهو الهتك والفجور ، أو كان اتهامهم شرَكا من الشراك التى تنصب من أجل خصومة سياسية

وقد اشتهر بهذا النوع من الزندقة طائفة من الكتاب ، كان أكثرهم كذلك من أصل فارسى ، وقد أخذوا من كل علم بطرَف ، ولم يتعمقوا فى علم، وأمعنوا فى الغرور بأنفسهم، فكثرت زندقتهم يقول الجاحظ « والناشئ منهم (من الكتاب) إذا حفظ من الكلام فيقه[3] ، ومن العلم ملحَه ، وَرَوَى لبُزُرجمِهْر أمثاله ، ولأردشير عهدَه ولعبد الحميد رسائله،ولابن المقفع أدبه ، وصيّر كتاب مزْدَك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنه كنز حكمه (وهمّ) أنه الفاروقُ الأكبر فى التدبير ، وابنُ عباس فى العلم بالتأويل ، ومُعاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وعلى بن أبى طالب فى الجُرأة على القضاء

---

١ أنظر زندقتهما فى الأغانى ١١ ٧٥ وما بعدها ٢ طبرى ١ ٢٣

٣ الفه فى الجزء الثانى

والأحكام ، وأبو الهُذيل العلّاف في الجزء والطفرة ، وإبراهيم بن سيّار النظام في المُكامنات والمجانسات ، وحسين النجار في العادات والقول بالإثبات ، والأصمعيّ وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالأنساب . فيكون أول بدوّه الطعنُ على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يُظهر فيه ظَرْفه بتكذيب الأخبار ، ويهجّن من نقل الآثار ، فإن استرجح أحد أصحاب الرسول فتل عند ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشْحَه ، وإن ذكر شُريح جرحه ، وإن نُعت له الحسن استثقله ، وإذا وُصف له الشعبي استحمقه ، ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة أردشير بابكان ، وتدبير أنوشروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حذر العيون ، وتفقّده المسلمون ، رجع بذكر السنن إلى المعقول ، ومُحكم القرآن إلى المنسوخ ، ونفى ما لا يُدرك بالعيان ، وشبّه بالشاهد الغائب ، لا يرتضي من الكتب إلا المنطق ... هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أحلامهم »[١]

وأحيانا تطلق كلمة الزنادقة على أتباع ديانة الفرس ، من غير أن ينتحلوا الإسلام ونرى هذا الاستعمال أحياناً في كتاب الحيوان للجاحظ فهو يقول :

وكان لهؤلاء الزنادقة كتب أجود ما تكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ، ويستجاد له الخط[٢] وإن كتبهم لا تفيد علماً ولا حكمة وليس فيها مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ... وجلّ ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين ، وتسافد العفاريت ، وذكر الصنديد ، والتهويل بعمود الصبح » ثم يذم كتبهم ويَسْتَخِفّ بمعانيها[٣]

ويقول . إن هؤلاء الزنادقة أثروا في بعض الناس ، وخاصة في ناس من

---

١ ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٢ ٢ حيوان ١ ٢٨ ٣ حيوان ١ ٢٩

الصوفية والنصارى ، وكانوا يرفضون الذبائح ، ويَتَحَرَّجُون إراقة الدماء ، ويزهدون فى أكل اللحوم ، ويقول إن قوما ممن ينتحل الاسلام يظهرون التقذر من الصيد ، ويرون أن ذلك من القسوة ، وأنه يُسْلِم الى التهاون بدماء الناس والرحمةُ شكل واحد ، ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الظبى ومن لم يرحم الظبى لم يرحم الجدى ، ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصبى وصغار الأمور تؤدى الى كبارها ، يضاهون فى ذلك سبيل الزنادقة [1]

وهناك معنى آخر للزندقة يستعمله الجاحظ وغيره أحيانا ، يطلقونه على قوم جحدوا الأديان كلها عن نظر ، فهى بهذا المعنى مرادفة للدهرية والالحاد قال أبو العلاء فى رسالة الغفران « والزنادقة هم الذين يسمّون الدهرية لا يقولون بنبوّة ولا كتاب »

وعلى هذا المعنى يروى الجاحظ « أن الزندقة فشت فى النصارى » [2] والظاهر انه يريد بذلك الشك ونحوه

من هذا كله نظهر أن كلمة الزندقة لم تكن ذات معنى واحد ، وانما كانت تطلق على معان أربعة

١ — التهتك والاستهتار والفجور مع تبجح فى القول ، يصل أحيانا الى ما يمس الدين ، ولكن قائله لم يقله عن نظر ، وإنما قاله عن خلاعة ومجون

٢ — أتباع دين المجوس وخاصة دين مانى مع التظاهر بالاسلام ، كالذى اتهم به الأفشين ، والذى اتهم به بشار وحماد وابن المقفع

٣ — أتباع دين المجوس ، وخاصة «مانى» من غير تظاهر بالاسلام ، كالذى يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة

٤ — ملحدون لادين لهم ، كالذى يحكيه المعرى ، ولكن نظهر أن الكلمة ـ أكثر ما كانت ـ تطلق على من اعتنق المانوية باطنا والاسلام ظاهراً ، ثم

---

١ حيوان ٤ : ١٣٦ ، ١٣٧ ٢ ثلاث رسائل الجاحظ ص ١٧

توسعوا فى معناها وأطلقوها على الاباحى ، والملحد الذى لادين له

* * *

على كل حال فشت الزندقة بمعانيها المختلفة فى هذا العصر ، وقد عد أبو العلاء من الزنادقة فى رسالة الغفران « الوليد بن يزيد الخليفة الأموى ، ودِعبلا الشاعر ، وبشاراً ، وأبا نواس ، وصالحَ بن عبد القدوس ، وأبا مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية ، وبابك ، والأفشين والحلاج الصوفى ، وغيرهم فيقول فى دعبل « وما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين وكان يتظاهر بالتشيع ، وانما غرضه التكسب ، ولا أرتاب فى أن دعبلا كان على رأى الحَكمىّ (أبى نواس) وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ، ومن ديارهم ناشية » ويقول « وقد اختلف فى أبى نواس ادُّعى له التأله ، وأنه كان يقضى صلوات نهاره فى ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه »

وكان من الطبيعى أن تكون فى هذا العصر زنادقة دعاهم اليها دواع مختلفة؛ فقوم دعاهم اليها دين آبائهم قديما وهو دين المجوسية وكان لهم فيه آباء عديدون وكانت لهم عادات وتقاليد أخذها الخلف من السلف ولكنهم رأوا جاهاً عريضاً ، ومناصب عزيزة لا يستطيعون الوصول اليها الا أن يسلموا فأسلموا « ولمّا يَدْخلِ الإيمَانُ فِى قلوبِهِمْ » واتّخذوا الاسلام ثيابا ظاهرية ، يخلعونها اذا خَلَوْا الى أهليهم ، وهم ـ اذا أمكنتهم الفرصة ـ كادوا للاسلام وللعرب ، ودعوا للشعوبية والمذاهب الدينية وقوم دعاهم الى التزندق شك فى الاديان ، والقول بسلطان العقل الى أقصى حدوده ، فهم لا يريدون أن يؤمنوا الا بما يرون بأعينهم ويحكّمون العقل حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فنبذوا الأديان جملة ، ودعوا الى الالحاد وآخرون انما كانوا همهم فى الحياة شهواتُهم فما الحياة الا خمر وما إليها ، لا يرضون أن يجهدوا عقولهم

فى تفكير فى دين ، إنما يعصمون على الدين وقت أن يتعارض مع شهواتهم ، ويجد من لذاتهم ، حينذاك ينطقون بالكلمة تلو الكلمة وهم سكارى يتضاحكون فيها على الدين ـ كل هذه الأصناف كانت فى العصر العباسى ، وكان جمهور المؤمنين يكرهها ويحاربها

ولكن من الحق أن نقول أيضاً إن الاتهام بالزندقة لم يقف فى ذلك العصر عند حد ، فالشاعر يكون بين عدو الشاعر وصديق نفسه ، ثم تكون بينهما جفوة فأول ما يرميه به أنه زنديق ، كالهجاء بين بشار وحماد ، وكالذى يقول خلاد الأرقط ذكر ابن مناذر فى حلقة يونس ، فقدح فيه أكثر أهل الحلقة حتى نسبوه الى الزندقة ، فلما صرت فى السقيفة التى فى مقدم المسجد سمعت قراءة قريبة من حائط القبلة ، فدنوت فاذا ابن مناذر قائم يصلى ، فرجعت الى الحلقة فقلت لأهلها قلتم فى الرجل ما قلتم وها هو ذا قائم يصلى حيث لا يراه الا الله ! »[1] ثم هم يسرعون فى الاتهام ، فيحكمون على أبى العتاهية بالزندقة لقوله : كأن عتابة من حسنها دمية قس فتنت قسها

يارب لو أنسيتنيها بما فى جنة الفردوس لم أنسها

ولقوله : إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك[2]

بل أكثر من هذا يرون أبا العتاهية يذكر الموت ، فيقولون إنه زنديق لأنه يذكر الموت ، ولا يذكر الجنة والنار[3]

كل هذا وأمثاله يدلنا على أن الناس فى ذلك العصر أفرطوا فى الرمى بالزندقة ، مع خطر الاتهام ، يقول أبو العلاء فى رسالة الغفران « وذكر صاحب كتاب « الورقة » جماعة من الشعراء فى طبقة أبى نواس ومن قبله ،

---

١ أغانى ١٧ ٢٩ ٢ أغانى ٣ ١٥١ ٣ أغانى ٣ ١٤٢

ووصفهم بالزندقة وسرائر الناس مغيبة ، وإنما يعلم بها علام الغيوب »

وكما كانت الخصومة الأدبية سبباً في الرمي بالزندقة ، كذلك كانت الخصومة الدينية والسياسية يقول صاحب الأغاني «كان حُمَيد بن سعيد وجهاً من وجوه المعتزلة ، فخالف أحمدَ بن أبي دواد في بعض مذهبه ، فأغرى المعتصمَ بأنه شعوبي زنديق»[١]، وظل الأصمعي يتقرب الى البرامكة ، ويمدحهم فلما نكبوا قال فيهم

اذا ذُكر الشِّركُ في مجلس أضاءت وُجوهُ بني برمكِ
وإن تُليت عندهم آيةٌ أتوْا بالأحاديث عن مزْدكِ !

ثم، أليس عجباً أن ترى بشاراً يظلُّ طول حياته يقول الشعر الماجن الخليع، ويتعرض للدين من قرب أو من بعد ، ويظل في ذلك ثمانين عاماً أو نحوها؛ فلا يتعرض له أحد ، الا ما نهاه الخليفة عنه من الغزل ! بل نرى المهديَّ ـ وهو أكبر من اضطهد الزنادقة ـ يحميه ويتأوّل له المعاذير[٢] فلما بلغ الثمانين أو جاوزها هجا يعقوبَ بن داود وزير المهدي بقوله

بني أميةَ هُبّوا طالَ نومُكم انَّ الخليفة يعقوبُ بن داودِ
ضاعت خلافتكم ياقومِ فاتطلبوا خليفةَ الله بين الزِّقِّ والعود

وهجا المهديَّ نفسه فأفحش ، فعند ذلك ـ فقط ـ عوقب بشار على زندقته فضُرب بالسياط حتى مات ـ وكذلك كان الشأن في ابن المقفع ، خاصمه المنصور سياسياً، وخاصمه سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب فقتله ورماه بالزندقة !

الحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء في ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء وأخشى أن يكون قد رمى بها أناس كثيرون صحت عقيدتهم ولكن كانت لهم حرية رأي في بعض المسائل

---

[١] أغاني ١ ١٧ [٢] انظر الأغاني ٣ ٥٧

خالفوا فيها جمهور العلماء فشهروا بهم

ونجد الحكم الفقهي في الزنادقة عند الحنفية العراقيين أشدّ منه عند الشافعية فكثير من الحنفية يرى أن المُرتدّ إذا تاب قبلت توبته ولم يقتل، وأما الزنديق فإذا تاب لم تقبل توبته وقتل، وخالفهم في ذلك الشافعية فقالوا لا يقتل من أظهر التوبة من الزنادقة [1]

على كل حال كانت حركة الزندقة في عصرنا الذي نؤرخه حركة عنيفة، كان من ضحاياها كثيرون بالحق أحياناً، وبالباطل أحياناً.

الإيمان — يقابل حركة الزندقة والشك هذه، حركة إيمان صادق من جانب آخر. وإذا كنا نريد أن نفهم جوانب الحياة في هذا العصر، وجب علينا أن نصوّر جانب الإيمان كما صورنا جانب الزندقة. والذي يظهر لي أن جانب الإيمان في ذلك العصر كان الأعم الأشهر، والزندقة - بمعنى الشك أو الإلحاد - كانت حظّ قليل من المفكرين إذا قيس بالعدد العديد من المؤمنين، ولذلك استطاع المؤرخون وكتّاب المقالات الدينية أن يسموا الزنادقة على شكهم في زندقة بعضهم، ولكن كان من العسير أن يسموا المؤمنين لأن الإيمان هو الأساس، والزندقة ليست إلا شذوذاً في اتجاه التيار العام. والذي زاد في عدد الزنادقة، أنهم أطلقوا الكلمة على المجّان والمستهترين، ولو لم يصل الشك في الدين إلى نفوسهم، وإن شئت فقل إنهم لم ينكروا الدين إنكاراً إيجابياً ولا سلبياً، وإن كثيرين حُشروا مع الزنادقة لسياسة لا لدين كما قدمنا، وإن كثيرين من الزنادقة كانت زندقتهم في الواقع ليست كراهية للإسلام من حيث هو دين له تعاليم خاصة لا توافق عقولهم. ولكن من ناحية وطنية قومية. وأكثر ما كان ذلك في قوم من الفرس رأوا أن ضياع ملكهم إنما كان على يد العرب، ولم يكن يتأتى للعرب ذلك لولا دينهم الجديد، وهو الإسلام

(١) انظر في ذلك الأم ج ٦ ص ١٥٦ وما حكى صاحب فتح القدير في الردة من روايتين عن الحنفية، رواية لا تقبل توبته كقول مالك وأحمد ورواية تقبل كقول الشافعي ج ٤ ص ٣٨٧

وكرهوا العرب، وكرهوا الاسلام لهذا السبب ، وأما الزندقة بمعنى البحث فى الأديان بحثاً علمياً عميقاً يُسلم أحياناً الى شك أو إنكار فذلك كان قليلا نادراً

* * *

اشتهر جماعة كثيرة فى ذلك ، كانوا المثلَ الأعلى فى الايمان أمثال عبد الله ابن المبارك وسفيان بن عُيَيْنة ، وسفيان الثورى ، وداود الطائى ، والفضيل ابن عياض الخ [1] تقرأ تراجمهم ، فتملأ منهم ورعاً وتقوًى ، وايماناً صادقاً ، ونفوراً من الاتصال بوالٍ أو أمير ، ورفضَ أيّ منصب يعرضه عليهم العباسيون . ولعل خير ما يمثل هذا النوع من الحياة ما رواه ابن قتيبة فى رثاء ابن السمّاك لداود الطائى ، قال « إن داود رحمه الله نظر بقلبه الى ما بين يديه من آخرته ، فأغشى بصرُ القلب بصرَ العين ، فكان كأنه لا ينظرُ الى ما اليه تنظرُون ، وكأنكم لا تنظرون الى ما اليه ينظر ! فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يَعجب ! فلما رآكم راغبين مذهولين مغرُورين ، قد أذهلت الدنيا عقولكم ، وأماتت بحبّها قلوبكم ، استوحش منكم ، وكنتُ اذا نظرتُ نظرتُ الى حيٍّ وسط أموات ، يا داود ما أعجب شأنك بين أهل زمانك ! أهنت نفسك وإنما تريد إكرامها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، أخشنتَ المطعَمَ وإنما تريد طيبه ، وأخشنت الملْبَسَ وانما تريد لينه ، ثم أمتّ نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها ولمّا تعذب ، وأغبتها عن الناس لكيلا تذكر ، رغبتْ نفسُك عن الدنيا فلم ترها لك قدراً الى الآخرة فما أظنك الا وقد ظفرت بما طالبت ، كان سماك فى سرك ، ولم تكن سماك فى علانيتك ، تفقهتَ فى دينك ، وتركت الناس يفتون ، وسمعتَ الحديثَ ، وتركتهم يُحدثون . وخرستَ عن القول ، وتركتهم يَنطقون ، لا تحسد الأخيار ، ولا تعيب الأشرار ، ولا تقبل من السلطان عطيّة ، ولا من الأخوان هدية آنسُ

---

[1] اقرأ تراجمهم فى وفيات الاعيان وطبقات ابن سعد وتراجم المحدثين

ما تكون اذا كنت بالله خاليا، وأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس. فمن سمع بمثلك وصبر صبرك وعزم عزمك؟ لا أحسبك الا وقد أتعبت العابدين بعدك. سجنت نفسك فى بيتك فلا محدث لك، ولا جليس معك ولا فراش تحتك، ولا ستر على بابك، ولا قلة تبرد فيها ماؤك، ولا صحفة يكون فيها غداؤك وعشاؤك مطهرتك قلتك، وقصعتك تورك ١

داود! ما كنت تشتهى من الماء بارده ولا من الطعام طيبه، ولا من اللباس لينه، بلى! ولكن زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر مابذلت! وما أحقر ما تركت فى جنب ما أملت! فلما مت شهرك ربك بموتك، وألبسك رداء عملك، وأكثر تبعك، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك وشرفك، فلتتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها، فقد أوضح ربك فضلها بك».

وسفيان الثورى، كان مع صلاحه وورعه وعلمه يعيش من تجارته ويرفض عطاء الولاة، ورفض أن يكون قاضيا على الكوفة للعباسيين، فطلب وظل دهراً من حياته يهرب من العراق الى اليمن، ومن اليمن الى مكة، خشية من العباسيين، وتوفى سنة ١٦١ متواريا من السلطان.

* *

وكما صورت حياة اللهو والمجون فى كتاب الأغانى ودواوين الشعراء، صورت حياة الايمان فى تراجم العلماء أمثال طبقات ابن سعد، وطبقات المحدثين فاذا أنت قرأت الأغانى ظننت أن الحياة كلها لهو ومجون وإباحة، واذا قرأت طبقات المحدثين والمتصوفة خلت أن الحياة كلها دين وورع وتقوى، وتنصف ان أنت اعتقدت أن الحياة كانت ذات صنوف وألوان، وأن المدينة العباسية كانت ككل المدنيات، مسجد وحانة، وقارىء وزامر ومتهجد ينتهب السحر، ومصطبح فى الحدائق وساهر فى تهجد، وساهر فى

---

١ التور اناء صغير يتوضأ به

طرب وتُخَمة من غنى ، ومسكنة من إملاق . وشك فى دين ، وايمان فى يقين . كل هذا كان فى العصر العباسى ، وكل هذا كان كثيراً .

* * *

هذا النوع من المؤمنين الذين سميناهم كسفيان وداود ، لم يدخلوا فى مُعْتَرك الجهاد مع الشاكين والمتزندقين . بل كانوا يُعْنَون بايمانهم ، ولا يأبَهُونَ لالحاد غيرهم . انما المؤمنون الذين تصدّوا للرد على الملحدين هم معتزلة ذلك العصر أمثال واصل بن عطاء ، وأبى الهذَيل العلاّف ، وبشر بن المعتمر ، وابراهيم النظّام ، فهؤلاء أخذوا يَستعرضون ما تقوله الزنادقة ، ويناقشونهم ويردّون عليهم ، ويلزمونهم الحجة وقد حكت لنا الكتب كثيراً من هذا الجدَل ، نعرض له عند الكلام على المعتزلة إن شاء الله .

الباب الثاني

الثقافات في ذلك العصر

تمهيد

كان من أثر اختلاف السكان في المملكة الإسلامية، وانتمائهم – من حيث أصولهم – إلى أمم مختلفة كما بينّا في الباب الأول – وامتزاج بعضهم ببعض في السكنى والتزاوج وما إلى ذلك، ودخولِ كثير من أفراد الأمم المختلفة في الإسلام، ونموّ الحضارة نموّاً يستدعي علماً واسعاً بكثير من شئون الحياة، من هندسة وطب ونجوم، ونظام حُكم وفقه، ولغة وأدب، كان من أثر ذلك كله أن انتشرت في المملكة الإسلامية ثقافات مختلفة لأمم مختلفة، وكان هناك رجال بارزون يحملون لكل ثقافة علَمَها، ويبذلون جهدهم في الدعوة لها، والترويج لمبادئها، وتحبيبها إلى الناس، وإفهامهم أنها خير أنواع الثقافات. وكان من مظاهر هذا أنّ كل ثقافة أخذت تشق لنفسها جدولا تسير فيه وحدها، وكلما غزُرت وزاد مددها، ووسّعت مجراها، وتعهدته بالإصلاح، وحافظت إلى حدٍّ ما على استقلاله، ثم نرى – بعد ذلك – أن هذه الجداول المستقلة – تقريباً – أخذت تلتقي وتكوّن منها نهر عظيم، تُصبّ فيه مياه

مختلفة ورأينا أن ما حصل فى الأجناس البشرية ، حصل نظيره فى الثقافات العلمية . فقد كان فى الأجناس امتزاج وتزاوج وتوليد ، فكان فى الثقافات العلمية امتزاج وتزاوج وتوليد ، وقد كان فى الأجناس ميزات مختلفة ، كل جنس له مزاياه وله عيوبه ، وكانت عملية التوليد تنشأ من تلقيح دم بدم ، فينشأ جنس جديد له مزايا الجنسين ، وعيوب الدمين ، وله خصائص أخرى ليست فى الجنسين ، فكان كذلك الشأن فى الثقافات . كان هناك تلقاح بين الثقافات ، ونشأ من هذا اللقاح ثقافات جديدة ، تحمل صفات من هذه وتلك ، وصفات جديدة لم تكن فى هذه ولا فى تلك ، وأصبح لها طابع خاص يميزها عما سواها . وكما كان فى المملكة الاسلامية أمم مختلفة ، اشتهرت كل أمة بميزة ، كذلك امتازت الأمم المختلفة بميزات فى العقلية ، تبعها ميزات فى الثقافة .

فما هى أشهر الثقافات فى ذلك العصر ؟ وما ميزة كل ثقافة ؟ وماذا كانت طبيعة جدولها قبل أن تصب فى النهر الأعظم ؟

ثم بعد أن صبت فى ذلك النهر ، ماذا كانت طبيعة مائه ، وأى العناصر غلب عليه ؟ وما مظاهر تلك العناصر فى مياه النهر ؟

ذلك ما نريد أن نبحث عنه فى ذلك الباب .

قد انتشر فى هذا العصر أربع ثقافات ، كان لها الأثر الأكبر فى عقول الناس وأعنى بها الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية ، والثقافة العربية كما كان هناك ثقافات دينية أهمها : اليهودية والنصرانية والاسلام . فسنتكلم كلمة فى كل منها ، ولنختر لكل ثقافة من يمثلها — ما أمكن — ثم لنختر مثلا لمن كان يمثل الثقافات كلها بعد امتزاجها

الفصل الأول

الثقافة الفارسة

انتشرت الثقافة الفارسية — فى العصر العباسى الأول — انتشاراً عظيما، وساعد على ذلك أمران

الأول — انشاء منصب الوزارة، واسناده غالباً الى الفرس

والثانى — انتقال عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد، وبعبارة أخرى من الشام الى العراق

الوزارة كانت كلمة «وزير» معروفة للعرب قبل الفتح الاسلامى، ففى القرآن الكريم على لسان موسى «وَاجعَلْ لى وَزيراً مِن أهْلى هارُونَ أخى» وفى حديث السقيفة «نحنُ الأمراء وأنتم الوزراء» وفى طبقات «ابن سعد» «ان أبا بكر كان وزيراً لله صلى الله عليه وسلم» وفى طبقات الشعراء لابن قتيبة «ان أبا ذُؤيب الهُذلى — وهو شاعر جاهلى اسلامى — خان فى امرأة ابن عم له، ثم خانه خالد بن زهير فيها فقال خالد يخاطب أبا ذؤيب

فلا تجزعَنْ مِن سُنَّةٍ أنت سِرْتَها ... وأوّلُ راضٍ سُنَّةً مَنْ يسيرُها

وكنتَ إماماً للعشيرة تنتهى ... اليكَ اذا ضاقت بأمرٍ صدُورُها

ألم تنتقذْها من ابن عُوَيمرٍ ... وأنت صفيُّ نفسه ووزيرُها

وفى الدولة الأموية كان اللفظ مستعملا، يقول الطبرى «ان زياداً كان يسمى وزير معاوية».

ولكن الكلمة فى كل المواضع التى ذكرناها لم تستعمل فى المعنى الاصطلاحى الذى نعرفه الآن من كلمة الوزير، وانما هى بمعنى المؤازر الناصر

قال ابن خلكان « وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين : أحدهما أنها من الوزر وهو الحمل ، وكأن الوزير قد تحمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة . والثاني أنها من الوَزَر ، وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة ، أو السلطان ، ويلتجيء الى رأيه ، وهو قول أبي اسحاق الزجاج » .

ونحن نرجح هذا ـ وهو أن أصل الكلمة عربي ـ على ماذهب اليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوي مأخوذ من فتشيرا Vi - chira ومعناه الأمر أو التقرير

لم تكن كلمة وزير بدعا في العصر العباسي . إنما المبتدع هو انشاء هذا المنصب ، واعطاء صاحبه السلطة الرسمية ، وتلقيبه بهذا الاسم ، وهذا المنصب فارسي ، ولم يكن معروفا قبل العباسيين ـ قال ابن خلكان في ترجمة أبي سلمة الخلال « إن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشُهر بالوزارة في دولة بني العباس ولم يكن قبله من يُعرف بهذا الاسم ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول » [١]

ويقول الفخري : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة . والوزارة لم تتمهد قواعدها ، وتتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس ، وأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشية ، فاذا حدث امر استشار ذوي الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمي الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا او مشيراً » .

١ وفيات الاعيان جزء ١ ٢٢٩

وقد كان الوزراء الظاهرون فى هذا العصر موالى فرساً ، فأبو سلمة الخلّال - أول وزير عباسي - مولى فارسى ، وأبو أيوب المُورِيانى وزير المنصور فارسى من «موريان» قرية من قرى الأهواز ، و يعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك ، وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد ، واستوزر المأمونُ بنى سهل وكانوا من أولاد ملوك الفرس ، ومن صنائع البرامكة ، واستوزر المأمون الفضل بن سهل ، ثم الحسن بن سهل ، ولما دالت دولة بنى سهل استوزر المأمون أحمدَ بن يوسف ، وهو مولى لبنى العجل [١] ثم استوزر ثابت بن يحيى بن يسار الرازى وهكذا

فترى من هذا أن أكثر الوزراء فى هذا العصر الذى نؤرخه كانوا فرساً ، وكان الوزير قائماً مقام الخليفة فى كل الشئون فينظر فى الشئون الحربية ، وفى الشئون المالية ، ويكتب الرسائل الى الجهات المختلفة ، ويوقّع على ما يُرْفع اليه من أوراق ، ولم تتعدد الوزراء فى الدولة العباسية بتعدد الأعمال ، فيجعل للحرب وزير ، وللمال وزير وهكذا وإنما كان تعداد الوزراء بتعدد الأعمال ، من نظام الأندلسيين « فقد قسّموا خطة الوزارة أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحُسبان المال وزيراً ، وللترسُّل وزيرا ، وللنظر فى حوائج المتظلّمين وزيرا ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً » [٢] وعلى العكس من ذلك العباسيون ، فقد جمعوا له بين خطّتى السيف والقلم

وهذا الذى ذكرنا من أن الوزير كان يجمع الى الادارة الحربية والمالية خطة القلم - وأعنى بها إنفاذ الرسائل الى الجهات ، والتوقيع على ما تُعرض عليه من مطالب ورسائل - جَعَلَ من شروط الوزير أن يكون عالماً مطلعاً ، كاتباً بليغاً . وكذلك كان أكثر الوزراء فى ذلك العصر « حتى أن المأمون كتب فى اختيار وزير إلى النسب لأموري رجلا جامعاً لخصال

---

١ النجوم الزاهرة ٢ : ٦ ٢ مقدمة ابن خلدون ١٩٩

الخير، داعية في خلائقه، واستقامة في طرائقه، قد هذّبته الآداب، وأحكمته التجارب إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلّد مهمات الأمور نهض فيها يُسكتهُ الحلم، وينطقه العلم وتكفيه اللحظة، وتُغنيه اللمحة له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أُحسنَ إليه شكرَ، وإن ابتُلي بالإساءة صبر لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده، يسترقّ قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه»[1] وتاريخ الوزراء، يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار، والأشعار والسير والجدل، والبرامكة كانوا ذوي مشاركة في كثير من العلوم والآداب والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف ورياسة القلم الخ.

وهذه القدرة الكتابية التي كان تشترطها العلماء في الوزير، كانت من أكبر الأسباب في قصر الوزارة على الفرس ـ غالباً ـ فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان، فقالوا: رجل لَسِن إذا كان ذا بيان وفصاحة، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة

والحق أن القدرة الكتابية كانت عند الفرس أبيَن منها عند العرب، وحتى في الدولة الأموية كان أظهرُ الكتّاب المتقنين من الفرس، أمثال عبد الحميد الكاتب، وسالم مولى هشام وكان العربي يفخر بالسيف واللسان لا بالقلم قال يزيد بن معاوية بعد تفضيل بنيه على زياد بن أبيه «لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عِزّ قريش، ومن عُبيد إلى أبي سفيان، ومن القلم إلى المنابر» ولم يزل العرب تفضّل السيف على القلم، وفي ذلك قول سليط ابن جرير التميمي

---

(1) الأحكام السلطانية ٢١

أتحقرُني ولستَ لذاك أهلاً ... وتُدني الأصغرينَ من الخوانِ ؟

جهابذةً وكتَّابا وليسوا ... بفُرسان الكريهة والطعان

ستعرفني وتذكرني إذا ما ... تلاقى الحلقتان من البطان [1]

***

هؤلاء الوزراء كان لهم — من هذه الناحية التي تعنينا الآن وهي ناحية أنهم أرباب أقلام — أعوان يسمون الكُتّاب، فقد كان لكل وزير كاتب، بل كتّاب يعينونه. ولولاة الأقاليم، ورجال الدولة كتّاب. وكان حماد عجرد مثلا كاتباً ليحيى بن محمد بن صُول بالموصل، وكان ابن المقفع يكتب لداود ابن عمر بن هُبَيْرَةَ والي كِرْمان [2]، وكان عَمرو بن مَسْعَدَة يكتب للمأمون، وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة، وكان يكتب ليحيى بن خالد البرمكي عبد الله بن سوّار بن ميمون وهكذا.

وكانت هذه الطائفة — طائفة الكتاب تؤلف وحدة على رأسها الوزير، بل وتتدرج في الرقي الى الوزارة، معتمدة على كفايتها وبلاغتها. فقد وقّع عمرو بن مسعدة على ورقة رُفعت الى جعفر بن يحيى، فأعجبَ جعفر بتوقيع عمرو، فضرب يحيى بيده على ظهر عمرو وقال «أي وزير في جلدك!» [3] وكان بين أفراد هذه الكتلة صلات ولو لم يتعارفوا «حضر ديوانَ الخراج في أيام الرشيد شيخ من قدماء الكتاب، ومعه توقيع من الرشيد بقضاء دين عليه، فعُني الكتّاب به ورحّبوا بكتابه، فقال لهم احفظوا عني ثلاثا الجوارُ نسب، والمودّة نسب، والصناعة نسب» [4] وقبل ذلك كانت نصيحة عبد الحميد الكاتب لمعشر الكتاب، دليلا على أنهم كانوا يؤلفون وحدة في آخر عهد الدولة الأموية.

١ الوزراء والكتاب للجهشياري ٢٤ والبطان حزام ذو حلقتين يشد على بطون الخيل ويعني بلاقيهما الاستعداد للحرب ٢ المصدر نفسه ٣ انظر مقالة الأستاذ كرد علي في هذا الموضوع في مجلة المجمع العلمي «البلاغة سبيل الوزارة» جزء ٥ و ٦ سنة ٢٧ ٤ الجهشياري ٣٤٣

كان أكثر هؤلاء الكتاب فرساً كالوزراء ، يحتذون حذو أجدادهم من الفرس - حتى فى مظاهرهم الخارجية - يروى الجهشيارى « أن الفضل بن سهل بن زادان فروخ - ذا الرياستين - كان يجلس على كرسى مُجَنَّح ، ويُحْمَل فيه إذا أراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يُحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضِع الكرسى ونزل عنه فمشى ، وحُمِل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يُسلِّم ذو الرياستين ويعود فيقعد عليه . . وإنما ذهب ذو الرياستين فى ذلك إلى مذهب الأكاسرة ، فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل فى مثل ذلك الكرسى ، ويقعد بين أيديها عليه ، و تتولى حمله اثنا عشر رجلا من أولاد الملوك ! »[1]

بل إنَّ تكوُّن الكتاب كطبقة ، ليس إلا تقليداً للنظام الفارسى ، فالجهشيارى يقول « كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن فى خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن فى غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عَرَفَ بلبسه صناعتَه ، والطبقةَ التى هو فيها . فكان الكتَّاب فى الحضر يلبسون لبستهم المعهودة . وكانت ملوك الفرس تسمى كتاب الرسائل تراجمة الملوك »[2]

كان لهؤلاء الكتاب أثر كبير فى نشر نوع من الثقافة خاص ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة ، لأنهم - بحكم مناصبهم - مضطرون أن يعرفوا أحوالَ الناس الاجتماعية وتقاليدَهم ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ طرفاً ، لأن كثيراً من مواقفهم يحتاج الى ذلك ، وقد تعْرِض للخليفة أو الوالى مسائلُ من هذا القبيل ، يضطرُّ الكاتبُ إزاءها أن

---

١ الجهشيارى ٤٠١ و ٤٠٢ ٢ المصدر نفسه ٣ و ٤

يكون مُلِمًّا بجميع ذلك . إذ هم الذين كانوا يَعْرِضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحرّرون ما يصدر منهم ويتضح ذلك إذا نحن قارنَّا بين معارف الكاتب ، ومعرفة المحدّث أو الفقيه فى ذلك العصر فالمحدّث أو الفقيه معارفه محدودة ، ودائرته حول فنّه ، فإن توسّع فى شىء فإنما يتوسع فى المسائل التى تُعَدّ وسائلَ لفنّه كاللغة والنحو والصرف أما الكاتب فدائرته أوسع من ذلك وحسبنا دليلا على هذا ما أُلِّف للكاتب من الكتب

فأول ما نعرفه من ذلك « أدب الكاتب لابن قتيبة » فقد حمله على تأليفه كما ذكر فى مقدمته أنه رأى طائفة من الكتاب « قد شُغِفت بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة ، وعرَف الكون والفساد وسمع الكيان والكمية والكمة ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم الخ » وأهملوا النظر فى اللغة وما إليها فوضع لهم كتابه فى ذلك ، فهو خاص بما يلزم الكاتب من لغة ونحو وصرف وإملاء وألّف بعده أبو بكر الصُّولى كتابه « أدب الكتاب » فعمَر ابنَ قتيبة بالتقصير فى كتابه ، وتوسّع هو فى مسائل لم يتعرض لها ابن قتيبة ، فتكلم فى حسن الخط وقبحه ، والدواة والقلم وما إليهما ، وتتريب الكتاب وطيّه ، والدعاء فى المكاتبات — والدواوين وتحويلها إلى العربية ، ووجوه الأموال التى تحمل إلى بيت المال ، وشىء من قواعد الإملاء وألف ابن دُرُسْتُويهَ المتوفى سنة ٣٤٦ كتاب « الكُتّاب » وأكثره فى قواعد الإملاء ، وفى آخره باب فى افتتاح الكتاب ، وفى التأريخ ، وما يذكر منه وما يؤنث ، وما يفرد ويجمع ثم فى بَرْى القلم وشقه وقطه ، والدواة وما إليها الخ . وتوسّع من جاء بعدهم — من المؤلفين للكتاب — حتى ختمت بكتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » فعرّض فيه — تقريبا — لكل المعلومات البشرية فى عصره ، من تاريخ وجغرافيا وفلك ، وما يحتاج إليه الكاتب عمليا فى صناعته من خط ونحوه ، ومصطلح

المكاتبات ، وكيمية العمود ، والبريد ، ومطارات حمام الرسائل ، والمنارات الخ .

فترى من هذا كيف كان المؤلفون يعنون بهذه الطبقة من الناس . وكيف كانوا يطالبون منهم المعارف الواسعة فى الموضوعات المختلفة ، وأن هذه الطبقة كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة

بل يظهر لى أن هذا الموقف ، هو الذى جعل الناس يقولون ان الأدب هو الأخذ من كل شىء بطرف ، فقد نرى أن كلمة الأدب فى صدر الإسلام كانت تطلق على التهذيب الخلقى ، ثم كانت تطلق على العلم باللغة والشعر ، وأيام العرب وتاريخها وما إلى ذلك . واستعملت بهذا المعنى فى العهد الأموى فلما جاء هؤلاء الكتاب واتسعت الثقافة ، وصاروا يطلبون من الكاتب أن يعرف الثقافة العربية والفارسية اتسع معنى الأدب ، وقالوا « ان الأدب الأخذُ من كل شىء بطرَف »

بل جعلوه يشمل معرفة شىء من الألعاب ، قال الحسن بن سهل ، وهو أحد الوزراء والكتاب فى عصرنا العباسى « الآداب عشرة . فثلاثة شَهْرَجانية وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية فضرب العود ، ولعب الشطرنج ، ولعب الصوالج وأما الأنوشروانية فالطب ، والهندسة ، والفروسية وأما العربية فالشعر ، والنسب ، وأيام الناس وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث ، والسمر ، وما يتلقاه الناس فى المجالس » [١]

بل يظهر لى — أيضاً — أن هذا كان أحدَ الأسباب فى وضع الكتب الأدبية المؤلفة فى ذلك العصر كالبيان والتبيين ، والكامل ، وعيون الأخبار فقد قصدوا فيها الى جمع ما تقدم ، وتكوينه بعضه فوق بعض ، فافهمن الأدب بمعناه الواسع الذى ذكرنا ، فحكمة بجانبها بيان من الغزل ، الى نادرة لطيفة الى خطبة بليغة ، الى قصص فى النحل ، الى أخبار الجوارح

١ زهر الآداب ١ ١٤٢

والجاحظ ـ فى كتابه الحيوان ـ تكلم فى الخصاء بعد كلامه فى فائدة الكتاب الى غير ذلك لأن الغرض عندهم أن يلم الأديب من كل شىء بطرف ، ثم جاءت الكتب الأخرى بعدها تحذو حذوها ، وتفرق مجتمعاً ، وتجمع مفرقا ، وتزيد ما استحدث من الطرف الأدبية

هؤلاء الوزراء والكتاب نشروا الثقافة العامة ، وضموا الى الآداب العربية الآدابَ الفارسية ، وأصبح مما يتطلبه الأدب ، أن تَعرِف حِكَمَ بزرجمهر كما تعرف حكم أكثم بن صيفى ، وتعرفَ تاريخَ الفرس كما تعرِف تاريخ العرب ، وتعرفَ أقوالَ كسرى وسابور وأبرويز وموبذ موبذان كما تعرفُ أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين ، فقد جاء فى نصيحة عبد الحميد الكاتب الى الكتاب . « فتنافسوا معشر الكتاب فى صُنوف العلم والأدب ، وتفقهوا فى الدين وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حِلية كتبكم ، وارْووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب ، والعجم وأحاديثها وسيرَها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون اليه بهممكم ، ولا تَضعُفَنَّ نظرُكم فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم » وقال الرشيد للكسائى مُعلم أولاده « يا علىّ بن حمزه ، قد أحللناك المحل الذى لم تكن تبلغه همتك ، فروّنا من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكِرْنا بآداب الفرس والهند ، ولا تسرع علينا الردَّ فى ملأ ، ولا تتركْ تفهيماً فى خلاء »[1].

السبب الثانى ـ فى نشر الثقافة الفارسية ـ انتقال عاصمة الخلافة من دمشق الى العراق ، وكان من أكبر بواعث العباسيين على هذا الانتقال أن دمشق كانت عاصمة الأمويين ، وكان صِلَع الشام مع بنى أمية من عهد الخلاف بين على ومعاوية ، وكان الشاميون هم الجندَ المخلص لبنى أمية ، وهم مثال

---

[1] ابن أبى الحديد ٤ ١٣٧

الطاعة لدولتهم فمن حزم العباسيين ألا تكون عاصمة الدولة الجديدة بين الشاميين وتحت رحمتهم، وفوق ذلك، فدمشق بعيدة جداً عن خراسان، منبع الثورة، ومصدر الدعوة، وذخيرة العباسيين وعمادهم.

وسبب آخر وهو أن دمشق مُنتحيةٌ ناحية الغرب وليست في الوسط، ولا قريبة من وسط المملكة التي تمتد من البحر الأبيض الى الهند والعراقُ يحقق هذه الأغراض فبغداد قريبة من خراسان، قريبة من الشرق، بعيدة عن الروم، كثيرة الخيرات، صالحة لأن تكون نقطة اتصال بين الفرس والأمم السامية. وقد كره العباسيون أن يتخذوا البصرة أو الكوفة مقراً لهم لأن تاريخهما ـ وخصوصاً البصرة ـ سلسلة ثورات متصلة، ولأن فيهما عدداً كبيراً تشيع لعلى وأولاده، وهذا التشيع جُرْم يؤاخذ عليه العباسيون، كما كان يؤاخذ عليه الأمويون ـ لذلك اتخذ السفاح مدينة الهاشمية قرب الأنبار، فلما جاء أبو جعفر المنصور اختار موقع بغداد، وقد وفق في اختياره، فجانبها الأراضي الخصبة بين دجلة والفرات، وهي كما قال بعض النصارى للمنصور «يا أمير المؤمنين» تكون على الصراة بين دجله والفرات، فاذا حاربك أحد كانت دجله والفرات خنادق لمدينتك، ثم إن الميرة تأتيك في دجلة ـ من ديار بكر تارة، ومن البحر والهند والصين والبصرة ـ وفي الفرات ـ من الرّقّة والشام، وتجيئك الميرة أيضاً من خراسان وبلاد العجم في نهر تامرّا، وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهارك لا يصل عدوّك اليك الا على جسر أو قنطرة، فاذا قطعتَ الجسر وأخربتَ القنطره لم يصل اليك عدوك، وأنت متوسط للبصرة والكوفه وواسط والموصل والسواد، وأنت قريب من البر والبحر والجبل»[١].

والذي يهمنا هنا أن بغداد كانت في العراق حيث عواصمُ الممالك القديمة مثل بابل والمدائن

١ الفخرى

لهذا كله ، أصبحت بغداد بعد قليل - أهم مركز للحضارة والثقافة في المملكة الاسلامية بل في العالم كله - ونحن اذا استثنينا أوقات الفتن والاضطرابات أمكننا أن نقول إنها ظلت في رقى واتساع وعظمة الى نهاية القرن الخامس الهجرى

كان لهذا الانتقال من الشام الى العراق أثر كبير - من الناحية العقلية - فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة . وتداولت عليه دول خلفت فيه مدنيتها وثقافتها ، وكان يسكنه قبيل الفتح الاسلامى بقايا من الأمم القديمة مثل الكلدان والسريان وهم الذين يلقبون بالآراميين ، وكان يسكنه العرب من إياد وربيعة . وكان يحكم به المناذرة الذين أسسوا مُلْكَ الحيرة ، وكانت مدنية الفُرس غالبة عليه لأن آخر من حكمه قبل الاسلام هم الساسانيون من الفرس ، وظل في أيديهم زمناً طويلاً إلى أن استولى عليه المسلمون فى أيام عمر ، وكانت فيه «المدائن» عاصمة الساسانيين كل هذا جعل العراق أكثر ما يكون اصطباغاً بالفارسية فلما كان العباسيون ، وكان الفرس هم الذين أعانوهم كان من هذا وذاك نفوذ للفرس عظيم فى المناصب وفى الثقافة .

والآن نريد أن نبحث النواحى التى كان فيها للثقافة الفارسية أثر فى الثقافة الاسلامية

فأول ذلك الألفاظ اللغوية ذلك أن العرب لما تحضروا بعد البداوة وجدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة ، ليس فى ألفاظهم ما يدل عليها ، وكان ذلك فى جميع مرافق الحياة ، من أدوات الزينة ، وأنواع المأكل والملبس ، وآلات الغناء ، والدواوين ونظامها ونحو ذلك ، فسلكوا خير طريق يسلك لذلك وهو أن توسّعوا فى مدلولات الكلمات العربية أحياناً وبأخذون الكلمات الأجنبية كما هى أحياناً ، ويصقلونه بما يوافق لسانهم أحياناً وكانت اللغة الفارسية منبعاً كبيراً من المنابع التى تستمد منه اللغة العربية وتوسع بها مادتها - حكى الصُولى قال حدثنا

عليّ بن الصبّاح قال: سمعت الحسن بن رجاء يقول: ناظر فارسي عربياً بين يدي يحيى بن خالد البرمكي فقال الفارسي: ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم، حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا، ما غيّرتموه، كالإسْفيداج والسكْباج والدُّوغْباج، وأمثاله كثيرة، وكالسكَنْجبين والجلنجبين والجُلاّب وأمثاله كثيرة: وكالرُوزْنامج والأسكَدار والفرانق وإن كان رومياً! ـ ومثله كثير ـ فسكت عنه العربي فقال له يحيى بن خالد قل له اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة، بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم، ولا إلى شيء كان لكم!»[1]

ويقول الجاحظ: «ألا ترى أن أهل المدينةَ لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علِقوا بألفاظ من ألفاظهم ولذلك يسمون البطيخ الخِرْبِزَ».

وكذا أهل الكوفة فإنهم يسمون المِسْحاة «بال» و«بال» بالفارسية.

وأهل البصرة إذا التقت أربعة طرق يسمونها مُرَبّعة ويسميها أهل الكوفة «بالجهارسو» والجِهارْسُو فارسية ويسمون السوق أو السويقة «وازار» والوازار فارسية. ويسمون القثاء خياراً، والخيار فارسية الخ[2]

من قديم تسربت ألفاظ فارسية إلى اللغة العربية، وكان ذلك بطريق التجارة أو الاختلاط ولكنها بعدُ قليلة إذا قيست بالألفاظ التي دخلت في العصر العباسي للسبب الذي ذكرنا، وهو أن العرب كانوا أكثر شعوراً بأسباب الحضارة في العصر العباسي، فكانوا أشد احتياجاً للاقتباس من الفرس، ولأن اللغة العربية لم تعد ملكاً للعرب وحدهم، بل كانت ملكاً للعالم الإسلامي جميعه، والعالم الإسلامي لا يتعصب للغة العربية تعصبَ العرب، فهو مُفْسِح صدرَه للغات الأخرى ما دعا داعٍ إليها

ثانياً: وقد كان للفرس ـ من قديم ـ علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم

---

١ أدب الكتاب للصولي ١٩٣ ٢ البيان والتبيين جزء ١ ص ١٧

وعظم سلطانهم ، فلما جاءت الدولة العباسية ، وكثير من رعيتها فرس ، لهم نزعة وطنية ، وميول قومية ، أخذ المثقفون ينقلون الى العربية تراث آبائهم ، وما حفظته العصور الى عهدهم

كانت لهم كتب فى التنجيم والهندسة والجغرافية ، وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم ولكن كانت مدنيتهم فى حياة وعظمة، فكانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم ، وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح الاسكندر الأكبر لبلادهم ، وقد تلف فى هذا العهد كثير من تراث كتبهم فلما جاءت الدولة الساسانية (٢٢٦ — ٦٥٢ م) استعادوا أدبهم وعلمهم . وأظهر ملوكهم فى الميل الى العلم ، وتشجيع الترجمة والتأليف أردشير بابك (٢٢٦ — ٢٤١ م) فقد بَعَثَ فى طلب الكتب من الهند والروم والصين وكذلك كان الشأن فى عهد ابنه سابور ، وعهد كسرى أنو شروان

وقد دامت الدولة الساسانية نحو أربعة قرون ، خلّفت فيها علماً كثيراً وأدباً وفيراً . وأكثر ما نقل الينا فى العصر العباسى ـ من الأدب والعلم ، والأساطير والتاريخ ـ إنما يرجع الى هذه الأسرة ، قال حمزة الأصفهانى «وأما تواريخ من كان قبل الساسانية من ملوك الأشغانية ، فلم اشتغل بها للآفات المعترضة فيها ـ كانت ـ فى أزمنة أولئك الملوك ، وذلك أن الاسكندر لما استولى على أرض بابل وقهر أهلها ، حسدهم على ما كان اجتمع لهم من العلوم التى لم يجمع قط لأمة من الأمم مثلها ، فأحرق من كتبهم ما نالته يده ، ثم قصد إلى قتل الموابدة والهرابذة والعلماء والحكماء ، وما كان يحفظ عليهم فى أثناء[1] علومهم تواريخهم ، حتى أتى على عامتهم ـ هذا ـ بعد أن نقل ما احتاج اليه من علومهم الى لسان اليونانيين »[2]

---

[1] هكذا كان فى الأصلين الهندى والأوروبى

[2] تارخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الاصفهانى ص ٢٢ والبحث الحديث لا يؤيد كل ذلك

فلما نشطت الحركة العلمية فى العصر العباسى، أخذ طائفة ممن يجيدون اللسانين – الفارسى والعربى – ينقلون الكتب من الفارسية الى العربية ، وقد عقد ابن النديم فى كتابه الفهرست فصلا لأسماء النقلة من الفارسى الى العربى، ذكرهم:
(١) عبد الله بن المقفع (٢) آل نوبخت (٣) موسى ويوسف ابنى خالد (٤) أبا الحسن على بن زياد التميمى (٥) الحسن بن سهل (٦) البلاذرى (٧) جبلة بن سالم (٨) اسحق بن يزيد (٩) محمد بن الجهم البرمكى (١٠) هشام بن القاسم (١١) موسى بن عيسى الكردى (١٢) زادويه بن شاهويه الأصفهانى (١٣) محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى (١٤) بهرام بن مردان شاه (١٥) عمر بن الفرخان [١]

وقد ترجم عبد الله بن المقفّع « كتاب خداينامه » وهو كتاب فى تاريخ الفرس من أول نشأتهم الى آخر أيامهم . وقد سماه ابن المقفع « تاريخ ملوك الفرس » والظاهر أن الطبرى اعتمد عليه فى كتابه تاريخ الأمم والملوك عند كلامه على الساسانيين، وترجم كذلك كتاب « آيين نامه » ومعنى الآيين النظم والعادات والعُرف والشرائع فالكتاب وصف لنظم الفرس ، وتقاليدهم وعُرفهم . وقد ذكر المسعودى : أنه كتاب كبير ، يقع فى آلاف من الصفحات .

كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية «كليلة ودمنة وكتاب «مردك» وهو يتضمن سيرة مردك الزعيم الدينى الفارسى المشهور ، وكتاب «التاج» فى سيرة أنوشروان ، وكتاب «الأدب الكبير» و «الأدب الصغير» وكتاب «اليتيمة» [٢]

وقد ذكر المسعودى : أن ابن المقفع ترجم كتاباً اسمه كتاب «السكيكين» من الفارسية الأولى الى العربية — وهذا الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم وسير ملوكهم [٣]

---

١ ابن النديم ص ٢٤٤ وما بعدها
٢ المصدر نفسه ص ١١٨
٣ مروج الذهب جزء ١ ص ١٠٩

وقد عُنيَ المترجمون فترجموا كتباً عديدة من تاريخ الفرس، يقول حمزة الأصبهاني «اجتمع لي ثمان نسخ – من تاريخ الفرس – وهي كتاب سير ملوك الفرس من نقل ابن المقفع، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكي، وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل زادويه بن شاهويه الأصبهاني، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصبهاني، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من إصلاح بهرام بن مردانشاه مُوبَذ «كورة سابور» من بلاد فارس فلما اجتمعت لي هذه النسخ ضربت بعضها ببعض حتى استوفيت منها حق هذا الباب»[١]

وقال المسعودي «ورأيت بمدينة اصطَخْر من أرض فارس في سنة ٣٠٣ عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم، وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياستهم، لم أجدها في شيء من كتب الفرس، كخداينامه، وآيينامه، وكهنامه وغيرها مصورٌ فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً، منهم خمسة وعشرون رجلا وامرأتان»[٢]

وترجم جَبَلة بن سالم «كتاب رستم واسفنديار» و«كتاب بهرامشوس» وهما في السَّمَر[٣].

وقد ترجم من الكتب الدينية كتاب زرادشت المسمى «أَفِسْتا» وما عليه من شروح، ونَقَلَ عنه حمزة الأصبهاني[٤] ويقول المسعودي «كانوا يقولون إن رجلا بسجستان بعد الثلثمائة مُستظهر بحفظ هذا الكتاب على الكمال»[٥]

---

١ حمزة الأصبهاني ص ٩٨ كذا الأصل وهي كما ترى سبع نسخ لا ثمان
٢ كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي ١٠٦   ٣ ابن النديم ص ٣٠٥
٤ المصادر نفسه ص ٦٤   ٥ مروج الذهب جزء ١ ١١

وفى الأدب ؛ ترجموا عن الفرس أشياء كثيرة ، منها ما ذكرنا قبل من كليلة ودمنة ، واليتيمة ، والأدب الكبير ، والصغير ، ومنها كتاب «هزار أفسانه» ومعناه ألف خرافة ، وهو أصل من أصول « ألف ليلة وليلة » وكثير غيره من كتب القصص ؛ ككتاب بوسفاس ، وكتاب خرافة ونزهة ، وكتاب الدب والثعلب ، وكتاب رُوزْ به اليتيم ، وكتاب نمرود ، الخ .

كما ترجموا فى الأدب عهدَ أَرْدشير ، وهو محفوظ بالعربية الى عهدنا ، وكتاب موبذ موبذان ، وكتاب أرْدشير فى التدبير ، وتوقيعات كسرى . وكتاب أدب الحرب ، الخ [١] .

هذا الذى ذكرنا كان ترجمة ونقلا من اللسان الفارسى الى العربى ، وشىء آخر لا يقل عنه شأنا ، وهو : أنه كان هناك قوم أتقنوا اللغة الفارسية والعربية معاً ، فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتثقفون بها ، ويُرَقّون أفكارهم وعقولهم ، ثم هم يخرجون باللغة العربية أدباً وشعراً وعلماً ، وليس ما يخرجونه نقلا تاماً لكلام فارسى ولكنه منبعث عنه ، ومتولد منه ، كالعربى اليوم يتثقف ثقافة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية ، ثم هو بعد ذلك يخرج أدباً جديداً بلغته العربية لا يسمى أدباً أوروبياً ، ولكنه نتاجه ومتأثر به ، وسائر على أثره .

كان كثير من الفرس على هذا النحو ، حذَقوا الفارسية والعربية ، وتثقفوا الثقافتين ، وأنتجوا فى الأدب العربى نتاجا جديداً كالفضل بن سهل ، وسهل ابن هارون ، وابن المقفع ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيَّار الأسْوَارى - أحد القصاص - كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه والفُرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية . فلا يُدرى بأى لسان هو

---

[١] انظر فى هذا مقالة كميب فى مجلة Islamic Culture ١ : ٦٢٤

أَنْيَن والقمان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضَّيْمَ على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسْوارى »[١].

بل نرى قوماً من العرب تعلموا الفارسية ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه فى العربية ، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون فى دراستها ، ثم يخرجون بعد أدباً عربياً فيه معانى الفرس ، وبلاغة العرب نذكر مثلا على ذلك « العتّابى » الشاعر العباسى المشهور وهو عربى من تغلب اسمه كُلثُوم بن عمرو بن أيوب تثقف بالثقافة الفارسية ، وأعجب بها يحدثنا طيفور فيقول « قال يحيى بن الحسن إنى بالرقة بين يدى محمد بن طاهر ابن الحسين على بِرْكة إذ دعوت بغلام له فكلمته بالفارسية ، فدخل العتّابى ـ وكان حاضراً فى كلامنا ـ فكلم معى بالفارسية ، فقلت له يا أبا عمرو مالك وهذه الرَّطانة ؟ قال فقال لى قدمت بلدكم هذه ثلاث قَدَمات ، وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمَرْوَ ـ وكانت الكتب سقطت الى ما هناك مع يزدجرد فهى قائمة الى الساعة ـ فقال كتبت منها حاجتى ثم قدمت نيسابور وجُزْتها بعشر فراسخ الى قرية يقال لها دَوذَرْ ، فذكرت كتاباً لم أقض حاجتى منه ، فرجعت الى مرو فأقمت أشهراً ، قال . قلت أبا عمرو لِمَ كتبت كتب العجم ؟ فقال لى وهل المعانى الا فى كتب العجم ، والبلاغةُ اللغة لنا والمعانى لهم ! ثم كان يذاكرنى ويُحدّثنى بالفارسية كثيراً »[٢]

كان العتابى اذاً مثقفاً ثقافة فارسية ، وأنت اذا قرأت شعره ونثره تبينت منه أنه كان أديباً مبتكراً ، عزيزَ المعانى ، على حين أن كثيراً من الشعراء أشعارهم جَوْفاء . تقرأ له مثلا فى العقد الفريد ، قطعا نثرية عزُزت معانيها ، ودقّ أسلوبها ، وتقرأ له شعراً مطبوعا فى فنون مختلفة من فنون الشعر ـ فتشعر بروح غير مألوف ، كأن يقول

---

١ البيان والتبيين ١ : ١٣٩ ٢ طيفور الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٥٧ ، ١٥٨

فلو كان للشكر شخص يبين ... إذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه ... لتعلم أني امرؤ شاكر

فيمتن به الناس، ويتغنون به زمناً طويلا[١] وهو الذي يقول

ما حجة للعينين بعد ... ذلك يا قرير العين مجزى
إن الصبابة لم تدع ... منى سوى عظم مبرى
ومدامع عبرى على ... كبد عليك الدهر حرى

وله حكم تشبه حكم ابن المقفع كان يقول «الأقلام مطايا الفطن قد يسلك من قرب منك حزنه، وإن عملك من عملك نفعه، وعشيرك من أحسن عشرتك. وأهدى الناس الى مودتك من أهدى بره اليك» وكتب يوصي بشخص فقال «موصل كتابي اليك أنا فكن له أنا» وعلى الجملة فالعتابي شخصية نادرة، لم تقدر قدرها اللائق بها. قليل اللفظ، غزير المعنى، يدل نثره وشعره على ثقافة واسعة، قد اجتمع له من الاجادة في النظم والنثر ما ندر أن يجتمع لغيره، وقد أدركنا سبب ذلك مما علمنا من ثقافته

هؤلاء الفرس الذين تعربوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظ من الثقافة الفارسية، ملأوا الدنيا في هذا العصر العباسي علماً وحكمة وشعراً ونثراً، فيها العنصر الفارسي وأصبح جلي ومن حظ العربية وقت ذاك أنها سادت اللغة الفارسية وغلبتها على أمرها، فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة إنما هو باللغة العربية لا الفارسية، شعر الشاعر منهم عربي كبشار، وأدب الأديب منهم عربي كابن المقفع، وألف المؤلف منهم عربي كابن قتيبة والطبري الخ

ثالثاً — أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي. وقد كان ذلك من جملة وجوه:

---

[١] أغاني ٢١

١ — ان الأدب — فى كل عصر — ظلّ الحياة الاجتماعية وقد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعددة ، أظهر لون فيها اللون الفارسى

وبيان ذلك . أن العادات الفارسية تغلغلت فى الناس فى ذلك العصر ، وكان مظهرها واضحاً جلياً فالناس يتخذون يومَ النَّيْرُوز عيداً لهم كالفرس قديماً ، والقضاة وعظماء الدولة يلبسون القَلَنْسُوَة كالفُرس ، ومجالس العلماء واللهو والشراب هى مجالس الفرس والفضلُ بنُ سهل وزيرُ المأمون — وهو فارسى — يحتال حتى يُقنع المأمون بتغيير السّواد بالخُضرة ، ويكتب الى جميع العمال أن يجعلوا أعلامهم وقلانِسهم خضراً ، والخضرة هى لباس كسرى والمجوس[1] ونظام الحرب وادارة الدولة ، اتَّبَعت — فى أغلب الأحيان — نظام الفرس فى حروبهم وادارتهم ، الى كثير من امثال ذلك .

والفرس من قديم ميالون الى الافراط فى الشراب ، والافراط فى الغناء حتى وصفهم « هيرُودُوت » بالإمعان فى ذلك ، والغلوّ فيه وتصريفهم شؤونَ الدولة وهم سُكارى

ويروى حمزة الأصفهانى أن « بهرام جور » أمر الناس أن يعملوا من كل يوم نصفه ، ثم يستريحوا ويتوفروا على الأكل والشرب واللهو ، وأن يشربوا على سماع الغناء فعزّ المغنون ومر بقوم يشربون على غير مُلْهِس (مغنّين) فقال ألبس قد نهيتكم عن الغفلة عن الملاهى ؟ فقالوا طلبناه بزيادة على مائة درهم فلم نقدر عليه ! فكتب الى ملك الهند تستدعى منه ملهين ، فبعث اليه اثنى عشر ألف رجل منهم ، ففرقهم على بلدان مملكته فتناسلوا بها

فما أن قرب الدولة العباسيه حتى عاد الفرس الى سيرتهم الأولى ، فملئوا الجو غناء ونشيداً ولهواً وطرفاً ، ورأينا رجالهم فى كل فن من هذه الفنون هم

---

١ الجهشيارى ٣٩٦ وما بعدها

قاده الناس فى ذلك فابراهيم الموصلى وابنه اسحق ، ينشران اللهوَ الطريفَ والغناء الحلوَ ، ويعلّمان الجوارى ويقدّمان للناس المثُل فى حياة الترَف والائتلاف فى تحصيل اللذائذ وكانا مع حسن صوتهما — وخاصة اسحق — عالِمَيْن أديبَيْن شاعرَيْن وقد وضع اسحق علمَ الموسيقى فى الدولة العباسية وألف فيه وأولِعَ الناسُ بغنائهما وقلّدوهما فى فنّهما ولهوهما ، ولمّا مات ابراهيم رثاه الشعراء بما يدل على أثره فيهم ، فمن قائل

تولى الموْصِلِىُّ فقد تولّتْ بشاشَاتُ المزَاهِرِ والقِيان
وأىّ بشاشةٍ بقيَتْ فتبقى حياةُ الموصلى على الزمان !
ستَبْكيهِ المزَاهِرُ والملاهى وتُسعِدُهُنَّ عاتِقةُ الدِّنان [١]

ومن قائل

ستبكيه أشرافُ الملوكِ اذا رأوْا محلّ التّصابى قد خلا منهُ جانبُهْ
وتبكيه أهلُ الظرْف طُرًّا كما بكى عليه أميرُ المؤمنين وحاجبُه

ومن قائل

أصبح اللّهْوُ تحت عَفْرِ التراب ثاوياً فى محلّـه الأحباب
إذ ثوَى الموْصلىُّ فانقرَضَ اللهْـوُ بخيرِ الإخوَان والأصحاب
تبكى المسمعاتُ حزناً عليـه وبكاهُ الهوَى وصفْوُ الشراب
وبكَتْ آلةُ المجالس حتى رحِمَ العودُ دمعةَ المِضْرَاب [٢]

وبشارُ بن برْد الفارسىّ كان امامَ المحدَثين ، والفاتحَ لهم بابَ التهتُّك على مصراعَيه ، سار شعرُه فى العراق فلا غزلَ ولا غزِلةٌ إلاّ يروى من شعره ، ولا نائحة ولا مغنّيةٌ الاّ تتكسب به ويأتيه النساء فى بيته فيأخذن عنه شعرَه

---

١ تسعد : تعين على البكاء ، وتعنى بعاتقة الدنان الخمر ٢ أغانى ٥ : ٤٧ وما بعدها

ويقول سوّار بنُ عبد الله ومالكُ بن دينار: «ماشيءٌ أدْعى لأهل هذه المدينة (البصرة) الى الفسق من أشعار هذا الأعمى». وكان واصل بنُ عطاء يقول: إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلماتِ هذا الأعمى الملحد»[١] ويقول بشار. «عسْرُ النساء الى مياسرة فيشجّع الفتيانَ على الامعان فى المغازلة والالحاح فى الطلب[٢]. فلما فتح هذا البابَ لج فيه من أتى على أثره، سواء فى ذلك العربى والعجمى: كمطيع بن إياس، وأبى نواس. وكان لنا من هؤلاء جميعاً أدب داعر، لا يتعفّف عن العبث بالغلمان ولا يَكنى عن فحش، إن مَلُح من ناحيته الفنية، فالذّوق النبيل لا يستسيغه.

نعم؛ فى الأدب الجاهلى خمرٌ تراه فى مثل شعر طرَفة، وفُحشٌ تراه فى مثل امرىء القَيْس «تقول وقد مالَ الغَبيطُ بنا معاً» و«ألا عِم صباحاً أيُّها الطّللُ البالى»، وكان فى الأدب الأموى خمرٌ كالذى فى شعر الأخطل. وكان غزل مكشوف كغزل عُمرَ بن أبى ربيعة. ولكن أين هذا كله من شعر بشّار وصَريع الغوَانى ومُطيع بن إياس، وأبى نواس! قد كان فجور الأوّلين ساذَجا بسيطاً فى ألفاظه ومعانيه كمعيشتهم، وكان فجور الآخرين مركّباً ممعنا فى الوصف، شاملا لكل المظاهر، ومشاعر الشهوة، يتخير اقبح اللفظ لأقبح المعنى.

قد تقول، إن هذا نتيجةٌ طبيعيّة لسير المدَنيّة، فلما تقدّمت بالناس حياتُهم الاجتماعية، وما يتبعها من ترَف تقدّم الشعرُ والأدبُ يُسايران عيشة الترف والنعيم. فما للفرس ولهذا!؟

وقد يكون فى هذا القول كثير من الصحة، ولكنى أظن أن الأمر ما كان يصل الى هذا الحد لولا الفرس، فهم الذين دفعوا الناسَ الى حياة

---

١ أغانى ٣ : ٤١

٢ انظر قصته فى ذلك فى الاغانى ٣ : ٥٣

ترف ألفوها هم وآباؤهم من عهد الأكاسرة ، وعلموهم كيف يكون الإفراط فى طلب الملاذّ من طرق فنّية أكسبتهم إياها حضارتهم القديمة ــ لا من طريق ساذَج كالذى يعرفه العرب ــ هل كان يعرف العرب مجالسَ الغناء المنتظمة ، ومجالسَ الشراب المترفة ، وحياةَ النعيم الناعمة لولا الفرس ؟ فعظماء الفرس كالبرامكة وأمثالهم أرشدوا الناس إليها ، وفنانوهم كإبراهيم الموصلى عنّوهم عليها ، وشعراؤهم كبشّار بن برد كانوا لسانهم الناطق بها ، المحدثَ عنها ! ولو كانت الحياة الأموية امتدّت وظلت السيادة العربية ، ما رأيت تشبباً بغلمان ، ولا هذا السيل الجارف من القيان ، ولما رأيت نعيماً وترفاً وفيراً ! »

ألم تر الشام ومصر والأندلس فى هذا العصر نفسه ــ لم تنغمس فى الترَف كما انغمست العراق وفارس ، ولم يكن أدبها أدباً ناعماً داعراً كالذى كان فى العراق .

قد يكون كثرة المال يُصَبّ فى حاضرة الخلافة سبباً للترف فى الحياة ، والترفِ فى الأدب ولكنّ المال وحده لا يكفى لولا العنصر الفارسى الذى كان يعلم كيف يستخدم المال فى هذه السبيل

من الحق أن نقول إن هذه النزعة إلى اللهو والترف لم تكن نزعةً عامة شاملة للفرس ، بل كان هناك نزعات أخرى تحاربها ، أظهرها ما كان يقابلها من نزعة الزهد وكان زعيم هذه النزعة فى الأدب أبا العتاهية الفارسى أيضا

قد كان قبل أبى العتاهية حياة زهد فى الجاهلية وفى العصر الإسلامى وكان قبل أبى العتاهية شعر زاهد ولكن أبا العتاهية أتى فى هـــذا الباب بما لم يسبق إليه ، وزاد فى معانيه زيادة بشار وأبى نواس فى أدب اللهو والمجون . وأصبح تعسر فى ذلك أن نقول إنه فلسف الزهدَ ، وملأ الأدب العربى ــ فى عصره ــ بالموت والتخوف منه ومما بعده ، واحتقار اللذة ، والجد فى الهرب منها

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى تباب[1]
لمن نبني ونحن الى تراب نصير كما خلقنا من تراب ؟
ألا ياموت لم أر منك بدًّا أتيت وما تحيف وما تحابي !

* * *

طلبتك يادنيا فأعذرت في الطلب فما نلت الا الهم والغم والنصب
فلما بدا لي أنني لست واصلا الى لذة الا بأضعافها تعب
وأسرعت في ديني ولم أقض بغيتي هربت بديني منك إن نفع الهرب

وشعره لجمهور الناس لا للخاصة ، وقال « إن الزهد ليس من مذهب الملوك ، ولا من مذهب رواة الشعر بها ، ولا طلاب الغريب وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد ، وأصحاب الحديث والفقهاء ، والعامة ، وأعجب الأشياء اليهم مافهموه[2] وقال المبرد « كان يخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتداراً »

وقد كان لشعره صبغة علمية دينية فلسفية ، قال الصولي « كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد ، وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لامحدث له إلا الله وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعا ، وكان يذهب الى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعا[3] وكان يقول بالوعيد ، وبتحريم المكاسب ، ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة لا ينتقص أحداً ، ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان وكان مجبراً »[4]

١ الذباب الفساد والهلاك ٢ ديوان أبي العتاهية ص ٢٥ ٣ في ذلك يقول
وإنما العلم من قياس ومن عيان ومن سماع
٤ الاغاني ٣ ١٢٨

وعلى الجملة فالشعر الديني الذي كان يحمل لواءه – في ذلك العصر – صالحُ ابن عبد القُدّوس وأبو العتاهية؛ فيه نزعة ثنوية كان ينزعها الفرس قديماً، وسنرى عند الكلام في التصوف أثرَ الفرس في حياة الزهد، ولكن يمكننا أن نقول الآن إنه إن كان في نزعة بشار الإباحية عنصر مزدكي، ففي نزعة أبي العتاهية الزاهد عنصر مانوي.

وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب غير هذا الذي ذكرناه، فقد كان كتبهم في القصص التي نقلت من الفارسية إلى العربية، ككليلة ودمنة وهزار إفسانه أساساً من الأسس التي بنت عليها الأجيال المتعاقبة ما بين أيدينا من قصص عربي. فابن النديم يروي أن محمد بن عبدُوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه ألفَ سمرَ من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسنَ ما يعرفون ويُحسنون، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحْلو بنفسه، وكان فاضلا فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة، وأقل وأكثر ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه ألف سمر»[١]

وضَرْب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير، وهو باب «التوقيعات» ذلك أن الفرس–قبل الإسلام– كانوا يُعْنَون بالبلاغة عناية كبرى وكان لهم فيها تآليف كما حكى الجاحظ وكان من أظهر عنايتهم بالبلاغة والحِكَم التوقيعات فقد كان الفرس – ككل الشعوب – يرفعون إلى وُلاة أمورهم أوراقاً يتضمن طلباً لشيء أو شكوى من شيء، نسميها نحن الآن «عرائض» وكانت تسمّى عند العرب «قِصَصاً» سميت كذلك على سبيل المجاز، لأن

---

١ ابن النديم ص ٤٣٠

القصة اسم للمحكى فى الورقة ، فسميت الورقة نفسها « قصة » وكانت تسمى كذلك رقاعاً لصغر حجمها . تشبيهاً لها برقعة الثوب

كانت هذه القصص ترفع الى الملك ، أو من يليه تبعاً لموضوعها ، وتبعاً للمتظلم وقدره ، وقد جرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقعوا على هذه القصص بعبارة بليغة ، أو حكمة حكيمة يتخيَّر لها أحسن اللفظ ، وأجود المعنى وتتناقل أثراً من الآثار القيمة كما يتناقل المَثَلُ الجيد . وقد نقل الى أدبنا العربى الشىء الكثير من توقيعات ملوك الفرس ، من ذلك أن رجلا رفع الى كسرى بن قباذ رقعة يخبره فيها أن جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم ، وخبثت ضمائرهم منهم فلان وفلان ، فوقع فى أسفل كتابه « إنما أملكُ ظاهرَ الأجسام لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ووقع أنوشروان فى قصة محبوس « من ركب ما نُهى عنه حيلَ بينه وبين ما يشتهى » ومدح رجل من الخاصة كسرى ابن قباذ بمدحٍ أطنب فيه وأسهب ، وذهب كلَّ مذهب ، وكان المدح فى رقعة فوقع فيها كسرى « إن للمدح مستصغرٌ ؛ لعلمى بأشياء قد مُدحت ، وكانت بأن تُذمَّ محقوقة » الخ الخ ولمّا تحضّر العرب وانتشرت بينهم الكتابة ، وحرروا مظالمهم على رقاع - بعد ان كانوا يشافهون بها أمراءَهم - كان لهم توقيع ، وقد نقلت توقيعات فى أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية أخشى أن يكون كثير منها كان شفهياً تحوّر الى توقيع . ولكن قد سال سيل التوقيعات فى عهد بنى العباس ، وكان أكثر الكُتَّاب والوزراء فرساً فساروا فيها على سَنَن آبائهم ، وكثر ذلك حتى أنشئوا فيما بعد دواوين أسموه « ديوان التوقيع »

هذا الى انه كان للفرس شعر كثير وأمثال كثيرة وأدب كثير ، وُضع تحت أعين العرب قال أبو هلال العسكرى فى رسالة « المفاضلة بين بلاغتى العرب والعجم » : « للفرس أشعار لا تُضبط كثرة ، ولليونانيين

أشعار دون الفرس » ويقول فى موضع آخر « سمعت أبا بكر بن دُرَيد يقول اجتمع فى ديوان صالح بن عبد القدوس - وهو رجل من شعرائهم ألفُ مَثَل للعرب، وألف مثل للعجم »[١] وتُرجمت بعضُ أمثال العجم الى العربية، مثل: عفوُ المَلِكِ أبقى للمُلْك، خاطَرَ من استغنى برأيه، الأسد بفرس الأرنب اذا أعياه الغَيْرُ، الفرار فى وقته ظَفَر، امسح أخاك من أكْل الخبيث فان أبى فأعطه ملعقة، من أوقد نار الفتنة احترق بها، لا تستبعد غداً وما بعده، هو يطلب الثمر بلا شوك[٢]

وكانت هذه المعانى الفارسية تُسرق و تنظم أو تحتذى، يقول بُزُرْجمِهر: « اذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فانها لا تفنى، واذا أدبرت عنك فأنفق فانها لا تبقى » فيقول الشاعر:

فأنفقْ - إذا أنفقت - إن كنت موسراً
وأنفق - على ما خيَّلتْ - حين تُعْسرُ

فلا الجود يُفنى المالَ والجَدُّ مقبلٌ
ولا البخلُ يُبقى المال والجدُّ مدبر[٣]

ويخطب أردشير لما استوثق له الملكُ يحرّض الناس على الألفة والطاعة، ويقوم بين يديه خطيب فيقول له: « قد أشرَقَ علينا من ضياء نورك ما عمّنا عموم ضياء الشمس، ووصل الينا من عظيم رأفتك ما اتصل بهوسنا اتصال النسيم، فجمَعْتَ الأيدى بعد افتراقها، والكلمة بعد اختلافها، وألفت بين القلوب بعد تباغضها، وأذهبت الاحَنَ والحسائك بعد استعار نيرانها » فيقول خالد بن صفوان فى مثـــل هذا المعنى يخاطب والياً. « قدِمْتَ

١ مجموعة رسائل طبع الجوائب ص ٢١٧ ٢ انظر كتاب خاص الخاص للثعالبى ص ١١ وما بعدها ٣ عيون الأخبار ٣ ١٧٩

فأعطيت كلا بقسطه من بطرك ومجلسك وصلاتك وعدلك، حتى كأنك من كل أحد أو كأنك لست من أحد».[١]

وقيل لابن المقفع، لم لا تطلب الأمور العظام؟ فقال: رأيت المعالي مَشوبة بالمكاره، فاقتصرت على الخمول ضناً بالعافية. وأخذه العتابي وقال:

دعيني تجئني ميتتي مُطمئنّة ... ولم أتجشَّم هولَ تلك المواردِ

فإن جسيماتِ الأمور مَشوبةٌ ... بمستودَعات في بطون الأساوِد[٢]

وينصح طاهرُ بن الحسين الفارسي ابنَه عبدَ الله – لما ولاه المأمون الرَّقة ومصر – بكتابه المشهور، ويوصيه فيه بجميع ما يحتاج إليه في دولته من الآداب الدينية والخلقية والسياسية الشرعية والملوكية؛ وتلمح فيه شبهاً كبيراً بينه وبين ما نُقل إلينا من عهد أردشير[٣].

ويكتب أبو مسلم الخراساني للمنصور حين أمره بالقدوم عليه: «أمّا بعد، فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس: أخوفُ ما يكون الوزراء إذا سكنَت الدّهماء»[٤].

* *

وشيء آخر كان له أثر كبير في الثقافة الإسلامية، ذلك ما أثبته ابن خلدون من أن حمَلَة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية[٥] إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته

---

١ عيون الأخبار ١: ٩٧ ٢ محاضرات الأدباء للأصفهاني ١: ١٧٧ والأساود الحيات العظيمة ٣ انظر كتاب طاهر بن الحسين في مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٤ وانظر عهد أردشير في كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه ١: ٩٩ وما بعدها ٤ مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥ ٥ هذا تعبير يستعمله ابن خلدون كثيرا يريد به سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية

فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته » [١] ويعلل ذلك بأن العلوم من جملة الصناعات ، والصناعات من خصائص الحضر ، والعرب كانوا أبعد الناس عنها فكانت العلوم من نتاج الحضر والحضر فى ذلك العهد هم العجم ، ومن فى معناهم من الموالى . ويقول « فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ، والفارسىّ من بعده ، والزجّاج من بعدهما وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما رُبُّوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنًّا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم ، أو مستعجمون باللغة والمربى ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم . لو تعلّق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس [٢]

ونحن نعتقد أن ابن خلدون — مع دقة ملاحظته — قد غالى فيها غلوّاً كبيراً وبخس العرب نصيبهم فى المشاركة فلئن كان أبو حنيفة النعمان فارسياً فمالك والشافعى وأحمد بن حنبل عرب ، ولئن كان سيبويه فارسياً فشيخه الخليل ابن أحمد عربى وليس كل علماء أصول الفقه عجما كما يقول ، فواضعه وأول مؤلّف فيه الشافعى وهو عربى ، وعلاوةً أن ندعىَ أن هؤلاء العلماء العرب هم عجم بالمربى ، فأن المرْبى كان مزيجاً من عرب وعجم

ولكن مما لا شك فيه أن العجم — وخاصة الفرس — كانوا فى جملتهم أقدر على التدوين والتأليف للسبب الذى ذكره ابن خلدون ، وهو تعمقهم فى الحضارة ، ولأنهم مرّنوا من قديم على التأليف بلغتهم هم وآباؤهم ، فلما دخلوا فى الاسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم بالعربية سهلا يسيراً ، لأنه ليس إلا احتذاء للمنهج ، وإن اختلف الموضوع واللغة

---

١ مقدمة ص ٤٧٧ ٢ ابن خلدون مقدمة ص ٤٨٧

ـ إذن ـ لا عجب من أن نرى فى عصرنا الذى نؤرخه كثيراً من الفرس، كانوا من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة.

فالإمام أبو حنيفة النعمان إمام المذهب، وحمّاد الراوية جامع المعلّقات العشر، وراوى كثير من الشعر الجاهلى، وبشّار بن بُرْد أحد المحدَثين من الشعراء، وسيبويه الإمام المقدّم فى النحو وتدوينه، والكسائى أحد الأئمة الأعلام فى النحو واللغة والقراءات، وهو أحد القرّاء السبعة، والفرّاء أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى العالم باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامها، وذو النزعة الشعوبية، وأبو العتاهية شاعر الزهد، وابن قتيبة المؤرّخ الأديب، صاحب التآليف الكثيرة ككتاب المعارف وعيون الأخبار. كل هؤلاء ـ وغيرهم ممن لم نذكرهم ـ كانوا فرساً وكان لهم أثر كبير فى الثقافة العربية الاسلامية

فقد كان وراء هذه الثقافة الفارسية، وهؤلاء العلماء الفرس قُوًى تحميها وتدفعها هذه القوى ظاهرة أحياناً وخفيّة احياناً، تنطوى على نية خير أحياناً ونية سوء أحياناً منهم من يريد خدمة العلم، والعمل على نشره، لا يريد بذلك إلا وجه الله والعلم، ومنهم من يريد أن نشيد بالقومية الفارسية، والحطّ من القومية العربية، بل منهم من يريد الكَيْد للاسلام وأهله ومنهم من يرى أن الحكمة ضالّة المؤمن ينشدُها حيث وجدها، ويعمل على إذاعتها ومنهم من ينشر شعوبية، ومنهم من ينشر زندقة، ومنهم من يغلو فى التشيّع لآل البيت، وهو يُضمر السوء للمسلمين. كل هذا الخير وكل هذا الشر كان فى النزعات الفارسية، وسيأتى توضيح لبعض ذلك فى أبوابه

يقول الجاحظ فى وصف الفرس «واعلم أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس، وهم أصحاب فَخ وتزيّد[1]، ولا سيما فى كل شىء مما يدخل

---

[1] الفخ الفخر والكبر، والتزيد المغالاة والكذب

فى باب العصبية ، ويزيد فى أقدار الأكاسرة » [1] وقد كان من أعظم من يحمى الثقافة الفارسية ، وينشرها « البرامكة » الفُرْس ، وما لهم من مال وفير ، وكرم واسع ، يحقق رجاءهم ، ويبسط نفوذهم . روى الجاحظ عن ثمامة ، قال كان أصحابنا يقولون : لم يكن يُرى لجليس خالد (البرمكى) دارٌ إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمَّه إن كانت أمَةً ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها إما من نتاجه أو من غير نتاجه » [2] وهم مع هذا وذاك مثقفون ثقافة واسعة ، وفى الغاية من العلم والأدب والفصاحة ، يقول سهل بن هارون فى وصف يحيى بن خالد البرمكى ، وجعفر بن يحيى « لو كان كلام يُتَصَوَّر دُرًّا ، أو يحيله المنطق السَّرى جوهراً لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما ! » ويحيى بن خالد ينشىء الكتاتيب للأيتام [3] ، ويتحبّب إلى الناس ، ويحبّب الناس أولاده ويقول لولده : لا بد لكم من كتّاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسَفِلة الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر ! » [4]

ما لقينا من جود « فضل بن يحيى » ترك الناسَ كلَّهم شعراء !

كان هؤلاء البرامكة وأمثالهم يعملون على نشر الثقافة الفارسية ، فالفضل ابن سهل الفارسى ، الملقب فيما بعد بذى الرياستين ، ينقل كتاباً من الفارسية إلى العربية ليحيى البرمكى ، فيعجب بفهمه وبجودة عبارته ، ويدعوه يحيى إلى الإسلام لينال المناصب [5] وهو بعد أن أصبح ذا الرياستين يبعث بمولاه ، وبأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان ، ويقول لهم تعلموا منه الحكمة ، ثم

---

١ الحيوان ٧ : ٥٦ ٢ الجهشيارى ص ١٧٣ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤٤

٣ انظر الجهشيارى ص ٢١٢ ٤ المصدر نفسه ٢١٥ ٥ المصدر نفسه ص ٢٨٧

يعرضون ما يعلمهم الشيخ على الفضل بن سهل ، فيتبين فيها الأثر الفارسي [1]

وقد عُرف عن البرامكة إيواؤهم لكثير ممن عُرفوا بحرية الرأي ، أو اتُّهموا بالزندقة ، وكانت البرامكة تحسن إلى محمد بن الليث الخطيب ، وتقدّمه وكان ممن يرمى بالزندقة[2] . وكان هشام بن الحكم الرافضي منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان القيِّمَ بمجالس كلامه ونظره . وقد ألّف كتباً كثيرة في الخلافة ، ومسائل علم الكلام [3]

ومن الحق أن نذكر أن البرامكة لم يشجعوا الثقافة الفارسية وحدها ، بل شجعوا كل ثقافة فابن النديم يروى عند الكلام على كتاب المجسطي في الهيئة أن أول من عُني بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك ففسّره له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض ذلك فندب لتفسيره أبا حسان ، وسلمان ـ صاحب بيت الحكمة ـ فأتقناه واجتهدا في تصحيحه [4] كما أنه أمر بتفسير كتاب في الطب لمنكه الهندي [5] ، وبعث يحيى أيضاً برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم ، وأن يكتب له أديانهم ، فكتب له هذا الكتاب [6]

فهؤلاء البرامكة ، وإن عُنوا بالثقافة الفارسية ؛ فقد عنوا بجانبها كذلك بالثقافة اليونانية والهندية والعربية .

والآن نستطيع أن نختار رجلا يمثل الثقافة الفارسية خير تمثيل ولكن « ابن المقفع »

---

١ زهر الآداب على هامش العقد ٣ ٢٦٩ ٢ ابن النديم ص ١٢
٣ انظر ابن النديم ص ١٧٥ ٤ ابن النديم ص ٢٦٨ ٥ المصدر نفسه
٦ ابن النديم ص ٤٣٥

ابن المقفع

لسنا نريد أن نبحث في ابن المقفع بحثاً تحليلياً، في مولده وأسرته، ومناصبه التي تولاها، وعلاقته بالولاة والأمراء. ولا أن نبحث طويلاً في مقدرته البلاغية وأسلوبه، وأثره في أسلوب عصره ومن أتى بعده، فذلك بالناحية الأدبية أشبه. وإنما نريد أن نبحث فيه من ناحية ثقافته الواسعة، وآثاره الخالدة، ومن ناحية أنه نتاج ثقافة فارسية عميقة واسعة تفتحت بعدُ للقاح عربي، فكان من هذا وذاك أدب ضخم، مدين في أكثر معانيه للفرس، وفي أكثر ألفاظه وأساليبه للعربية.

* * *

ابن المقفع، فارسيّ الأصل اسمه «رُوزْبه بن دَاذُوَيْه»، كان أبوه من قرية اسمها «جور»[1]، من إقليم فارس. ونشأ ابن المقفع بالبصرة في وَلاء «آل الأهتم» وهم قوم معروفون بالفصاحة واللسن، وخالط الأعرابَ وأخذ عنهم. وكان أبوه يدين بمذهب زرادشت ونشأ ابن المقفع — كأبيه — زرادشتياً. وتقلّد الكتابة لكثيرين فكتب ليزيد بن عمر بن هُبَيْرة، وكان يزيد والياً على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ثم كتب لأخيه داود بن عمر ابن هُبيرة، ثم اتصل بعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور، وكان — إلى هذا العهد — لا يزال مجوسياً، فأسلم على يديه وكتب له، ثم قتل لتشدّده — على ما يقول كثير من المؤرخين — في كتابة صيغة الأمان التي وضعها ابن المقفع ليوقّع عليها أبو جعفر المنصور أماناً لعبد الله بن عليّ. فأفرط ابن المقفع في الاحتياط فيها، حتى لا يجد المنصور منفذاً منها للإخلال

[1] ورد في الفهرست «حور» خطأ وورد الاسم صحيحاً في الجهشياري

بعهده [١] ، فغاظ المنصورَ ذلك فأوعز بقتله .

ولم نجد للمؤرخين سببا آخر لقتله ، إلا ما حكاه الجاحظ : من أنّ ابنَ المقفع كان أغرى عبدَ الله بن على بالمنصور ففطن له وقتل [٢] . وكان قتله سنة ١٤٢ هـ أو ١٤٣ أو ١٤٥ على خلاف فى ذلك [٣] .

نستطيع أن نستنتج من هذا نتيجتَين هامّتين :

(الأولى) أنه لم يقْض من حياته فى العصر العباسى الا نحو عشر سنوات ، أما بقيّة حياته فقد قضاها فى العصر الأموى ، وشهد اضطهاد العرب للموالى ، وشاركهم فى مِحْنتهم وبؤْسِهم - أيام الأمويين - ولم يكن مسلماً يلطِّف دينُه من كرهه للعرب - كما كان شأن المتدينين - فلا بد أن يكونَ قد أُفْعم بكره العرب ، وشاهد الدعوة العباسية ، واشتراكَ الفرس فيها ، وتمنى كما تمنَّوْا أن يُرفع عنهم نير الأمويّين وسُرَّ كما سروا باستيلاء العباسيين .

(الثانية) أنه نشأ مجوسياً زرادشتياً ، وقضى زَهرة شبابه فى أحضان المجوسية مثقفاً ، بثقافتها ، ولم يُسْلم الاّ قبل قتله ببضع سنوات ، بعد أن تكوّن ونضج ، وتقلد الكتابة للكثيرين . وكان قبل اسلامه مستمسكا بدينه ، فلما أراد أن يسلم قال له عيسى بن علىّ عم المنصور : ليكن ذلك بمَحْضَرٍ من القوّاد . ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فأحضر . ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس يأكل ويرمزم - على عادة المجوس - فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ فقال أكره أن أبيت على غير دين ! فلما أصبح أسلم على يده فسمّى بعبد الله ، وسنتعرض لهذا الموضع عند الكلام على زندقته .

---

١ انظر الجهشيارى ص ١١٠   ٢ انظر ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٧

٣ لم نر فيما بين أيدينا من الكتب القديمة تاريخا لمولد ابن المقفع وقد ذكر بعض المحدثين أنه ولد سنة ١٠٦ وان صح فيكون قد قتل وهو شاب لم يتجاوز الأربعين

وابن المقفع من أقوى الشخصيات فى عالم الأدب العربى ، قوى فى خُلقه قوى فى عقله وسعة علمه ، قوى فى لسانه .

أما خُلقه فنُبْل وكرم ، وتعهُّد لذوى الحاجات يواسيهم ، وتقديرٌ دقيق للصداقة ، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الأجدر والأنبل ، ورغبة شديدة فى اصلاح الراعى والرعية ـ خلقياً واجتماعياً ـ الى ظرف الخاصّة ، والتمسك بآداب اللياقة ، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق .

نستنتج هذا مما قصه علينا المؤرخون ، ومما نلمحه فى كتبه التى بين أيدينا . قال سعيد بن سلم : قصدت الكوفة ، فرأيت ابنَ المقفع فرحب بى ، وقال : ما تصنع هنا ؟ فقلت رِكبَتنى دَيْن . فقال : هل رأيت أحداً ؟ قلت رأيت ابن شُبْرُمَة فوعدنى أن أكون مربّياً لبعض أولاد الخاصة . فقال : أف أيجعلك مؤدّباً فى آخر عمرك . أين منزلك ؟ فعرّفته ، فأتانى فى اليوم الثانى ، وأنا مشغول بقوم يقرءون علىّ ـ فوضع بين يدى منديلا فاذا فيه أسْوِرَةٌ مكسورة ، ودراهم متفرّقة مقـــدار أربعة آلاف درهم ، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستغنت به[١] . ويقول الجهشيارى فيه : « كان سَرِيًّا سخياً يطعم الطعامَ ويتّسع على كل من احتاج اليه ، وكان قد أفاد من الكتابة لداود بن عمر مالاً ، فكان يُجْرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة الى الألفين فى كل شهر »[٢]. ثم هو صديق لعبد الحميد الكاتب ، فيُطلب عبد الحميد ليقتل ، وهو معه ، فيقول الذين دخلوا عليهما أيكما عبد الحميد؟ فيقول كل واحد منهما « أنا ! » خوفاً على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال : « ترفقوا فانّ فىّ علامات ، وكّلوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك العلامات ففعل ذلك »[٣] .

---

١ محاضرات الأدباء ١ : ٢٩ ٢ الجهشيارى ١١٧ ٣ الجهشيارى ٧٩

ويصفه الجاحظ فيقول «كان جواداً فارساً جميلاً» ويدعوه عيسى بن على للغداء فيقول أعز الله الأمير! لست اليوم للكرام أكيلا. قال ولم؟ قال لأنى مزكوم، والزكمة قبيحة الجوار، مانعة من عشرة الأحرار. ويُعجَب الناس بأدبه، فيسألونه من أدّبك؟ فيقول نفسى! إذا رأيت من غيرى حسناً أتيته، وإن رأيت قبيحاً أبيته. ويدل الباقى من كتبه على باقٍ ما وصفنا من خلقه.

ثم هو واسع الاطلاع، مضطلع باللسانين العربى والفارسى، نقل خير ما رأى باللغة الفهلوية، إلى اللسان العربى. وهو غزير المعانى إذا كتب ليست كتابته جوفاء ككثير من كتابات الناس، يمعن فى اختيار المعنى، ثم يمعن فى اختيار اللفظ له، قالوا «كان قلم ابن المقفع يقف، فقيل له فى ذلك، فقال إن الكلام يزدحم فى صدرى، فيقف قلمى لتخيّره»[1] ويقول محمد بن سلاّم «سمعت مشايخنا يقولون لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفّع ولا أجمع»[2] وقال جعفر بن يحيى «عبد الحميد أصل، وسهل بن هرون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر»[3]

وسنبين غزارة معانيه وقوة تفكيره مما يأتى:

---

١ زهر الآداب ٢ ٤ ١

٢ رسائل البلغاء نقلا عن المزهر

٣ رسائل البلغاء

آثاره الأدبية

ذكرنا فيما سبق ما ترجم من الفارسية إلى العربية ، وما نقله منها ابن المقفع . والآن نذكر آثاره الباقيــــة فى أيدينا ، ونتعرض لها بشىء من التحليل وهى

١ الأدب الصغير ٢ الأدب الكبير أو اليتيمة

٣ رسالة الصحابة ٤ كليلة ودمنة

* * *

الأدب الصغير والأدب الكبير — كلمة الصغير والكبير وصف للكتاب وقد شاع استعمال هذا التعبير فى ذلك العصر ، فقالوا كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، وأحياناً يحذفون كلمة « كتاب » ويبقون الوصف فيقولون « السير الكبير والسير الصغير لمحمد بن الحسن الشيبانى » ومن هذا : الأدب الصغير والأدب الكبير . فليس الصغير والكبير وصفين للأدب ، ولكن للكتاب المفهوم ضمناً .

والقارىء لعبارة ابن النديم يفهم أن الأدب الصغير ، والأدب الكبير غير كتاب اليتيمة فهى كتب ثلاثة ، ولكن كثيراً من الأدباء أطلقوا على الأدب الكبير اسم اليتيمة ، أو الدرة اليتيمة . كذلك يفهم من ابن النديم أن هذه الكتب الثلاثة ترجمها ابن المقفع ، والمعروف بين الأدباء ، والظاهر من تعبيراته أنه ألفها ونحن نرجح أن الأدب الكبير ليس هو اليتيمة ، وأنهما كتابان مختلفان لابن المقفع . ودليلنا على ذلك :

١ — أن ابن قتيبة فى كتابه عيون الأخبار ، يورد هذين الاسمين فى مواضع مختلفة ، فيقول أحياناً « قرأت فى اليتيمة » ، وأحياناً « فى الأدب الكبير » وما

ينقله عن اليتيمة ليس موجوداً فى الذى بين أيدينا مما يسمى اليتيمة [١] .

٢ — وردت فصول من اليتيمة فى كتاب المنثور والمنظوم لابن طيفور لانجدها فيما بين أيدينا من الأدب الكبير الذى سمى اليتيمة .

٣ — قال الباقلانى فى اعجاز القرآن : « وقد ادّعى قوم أنّ ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة .... والآخر فى شىء من الديانات » واليتيمة التى بين أيدينا ليس فيها فصول عن الديانات . فالراجح أن الذى بقى لنا هو الأدب الكبير ، أطلق عليه خطأ اسم الدرة اليتيمة .

وأما المسئلة الثانية : وهى هل هما مؤلّفان أو مترجمان ؟ فنفس الكتابين يدلاننا على أن ابن المقفع لم يترجمهما حرفياً ، كما نفهم من معنى الترجمة ، وان كان اعتمد فى كثير من المعانى على معانى الأقدمين . قال فى الأدب الصغير : « قد وَضَعتُ فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا ، فيها عَون على عِمارة القلوب وصِقَالها وتجلية أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامةٌ للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق » وقال فى الأدب الكبير المسمى بالدرة اليتيمة : انا لم نجدهم — أى الأولين — غادَروا شيئاً ، يجدُ واصف بليغ فى صفته له مقالا لم يسبقوه إليه ، لا فى تعظيم لله عز وجل ، وترغيب فيما عنده . ولا فى تصغير للدنيا ، وتزهيد فيها ولا فى تحرير صنوف العلم ، وتقسيم أقسامها ، وتجزئة أجزائها ، وتوضيح سُبُلها ، وتبيين مآخذها . ولا فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق . فلم يبق فى جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حِكَم الأولين وقولهم . ومن ذلك بعضُ ما أنا كاتب فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج اليها الناس » .

[١] انظر عيون الأخبار جزء ١ ص ٣ وجزء ٢ ص ٣٥٥

وكلمة الأدب في الكتابين ليس معناها ما نستعمله الآن فيما يقابل العلم، وإنما يطلقها ابن المقفع على معنى تهذيب النفس والخلق

والأدب الصغير — عبارة عن كلمات حكيمة في الأخلاق، لا تحلل النفس والخلق تحليلا دقيقاً واسعاً مستوفًى، ولا تذكر الخلق فتبسط القول فيه، وتذكر وصفه، والسبيل الى اكتسابه، فذلك بالعقل اليوناني أشبه ولكنها عبارة عن جمل موجزة أشبه بالأمثال وهي خطرات، نتيجة تجارب قد صيغت في إيجاز، وفي عبارة رشيقة رقيقة مثل «أربعة أشياء لا يُستقَلُّ منها القليل النار، والمرض، والعدو، والدَّين»

ومثل «لا تعدَّ الغُنم غنما إذا ساق غُرما، ولا الغرمَ غرماً إذا ساق غنما، ولا تعدَّ من الحياة ما كان في فراق الأحبة، الخ

ويلاحظ في الأدب الصغير أن ليس — في كثير من مواضعه — ارتباط بين حكمه وهي أشبه برجل أخذ يرصد تجاربَ مختلفة في حالات مختلفة، فكلما عثر على تجربة وضعها، وإن كانت إحدى التجارب اقتصاديةً، والأخرى دينيةً، والثالثة نفسية أو كرجل يقرأ في كتب مختلفة فكلما وجد كلمة أعجبته دوّنها، لذلك نرى كلمة في محاسبة النفس، وبجانبها كلمة في الصديق، ثم كلمة في معاملة الناس بحسب طبقاتهم، ثم في تعادي الرأي والهوى، ثم بعد كثير من الصفحات نجد كلمة أخرى في الصديق، وقد كان يحسن أن تكون بجانب الأولى، وهكذا ثم هو مختلف في طريقة التأليف، فأحيانا ينشئ الشيء من غير إسناد، وأحياناً يقول وقالت الحكماء وأحيانا نجد قبل الحكمة كلمة «وقال»، مما يدل على أنه لم يضعها هو في هذا الموضع.

أما الأدب الكبير — أو ما سماه الكتاب بالدرة اليتيمة، فكلمات كذلك ولكنها في مجموعها أطول وهي مرتبة غالباً، ألفت الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد تقريباً، تدور أغلبها على موضوعين قد استوفى

الكلامَ فيهما استيفاء حسناً ، فأولها الكلام على السلطان والولاة ، ومن يتصل بهما وقد كان هذا الموضوع يشغل نفسه كثيراً ، يتجلى ذلك فى أكثر ما كتب . لأن حياته كانت متصلة به ، فقد كتب للولاة ، واتصل بهم ، وصادقهم وعاداهم وقد اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه ، وكان ركناً من أركان هذا الخلاف ومحرّراً لوثائقه ، ومستشاراً فى أمره ، ومنغمساً فيه ، وقارئاً لمثل هذه الأحداث فى سير الفرس ، ومترجماً لها . فلا عجب إذا أكثر الكتابة فيه ، ولا عجب إذا أجاد ؛ وقد جمع فيه مأثور الأولين ، وتجارب الآخرين ، إلى ما منحه الله من دقة نظر ، وحسن أداء وقد استغرق هذا الموضوع القسمَ الأولَ من الكتاب والموضوع الثانى الصداقة والصديق وقد كان ابن المقفع يقدّر هذا تقديراً دقيقاً ، ويرى فى الأصدقاء عماد الحياة ، ومرآة النفس ، يفضى إليهم وحدهم بأسباب صدره ، ودخائل نفسه ، ويضع عندهم وحدهم مكنونات سره ، ويضع عنه مؤونة الحذر والتحفظ . اما غيرهم فيلبس لهم لباساً آخر ، لا يلقاهم الا متحفظاً متشدداً متحرراً ولأجل ذلك أطال فى شروط الصديق ، ونصح بالدقة التامة فى اختياره « لأن ذا الرأى لا يُدْخل أحداً من نفسه هذا المَدخلَ إلا بعد الاختبار والسَّبْر ، والثقة بصدق النصيحة ، ووفاء العقل ، وبذل سره على أنه آمن بما كسب ، ودان به ، وسار فى حياته على ما كسب من قوانين الصداقة ' فقد بذل دمه لصديقه عبد الحميد ، وبذل ماله لأصدقائه بل لمعارفه ، كما فعل مع سعيد بن سَلْمْ ، ومثلُ ابن المقفع فى علاقته الدقيقة بين الولاة والأمراء ، وما يلاقى فى سبيل ذلك من مشكلات وصعاب ، وفى عقله البحاث ، وانتقاله من دين إلى دين ، وما يعرض ـ عادة ـ فى ذلك من شكوك وارتياب وفى رغبته الى الاصلاح الاجتماعى ، وما يرى حوله من عيوب تتصل أحياناً بالولاة وأحيانا بالخلفاء وترى أحيانا وجوب الجهر بالنصيحة ، والارشاد الى مواطن الضعف وطرق

العلاج مثل ابن المقفع فى هذه المواقف يحتاج الى الصديق الذى يفهمه ، والى الشروط التى تشترطها له ، يفضى اليه بدخائل نفسه ، وفيما يرى من دولة تنهار ودولة تقام ، وأسس توضع لا بد أن يشترك فى وضعها ، وبين عيب القديم والحديث ، وما نطمح إليه من اصلاح ، وإليه تُفْزِع فى عوامل تضطرم فى نفسه من دين نشأ عليه ، وتمكن من أعماق نفسه ، ثم هو يريد أن يتخلى عنه إلى دين جديد له شعائر تخالف شعائر دينه القديم ، وله تعاليم تتعارض مع ما ألف ، هناك تنازع العقل والشعور ، وهناك تتجارب العواطف ، وهناك تجار بين علم المنطق الذى يرحمه ، والتقاليد التى ربى فى أحضانها ، فما أحوجه فى كل ذلك الى « الصديق » ! وقد أشار فيما كتب إلى كل ذلك ، أشار إلى العيوب الاجتماعية ، وإلى ظلم الولاة فى عصره ، وإلى ما يلحق العامة ، والى النزاع بين الدين والرأى — وقد جرّه الكلام فى الصديق الى الكلام فى العدو ، وكيف تكون داهياً فى حربه وتحى دهاءه وكيف تعمل فى هلاك عدوّه أو البعد عنه ، وفى جار السوء وكيف تصبر عليه ، وفى آخر الكتاب تعود الى جمع حكم متفرقة لا ترّبطها موضوع

فى الكتابين أثر كبير من الثقافة الفارسية ، ففيهما حكم كثيرة من حكم الفرس ، وفيهما نقص نظم الساسانيين فى الحكم ، وكثيراً ما تقول « احفظ قولَ الحكيم » و « قالت الحكماء » وهو يقصد حكماءَ الفرس وفيها بعض وصايا ما أخوذة من عهد أردشير ، كالنظام المعلق بولىّ العهد وفيهما من حكم كليلة ودمنة ، الى غير ذلك نعم إن هنالك أثر يونانى فى هذه الحكم مثل قوله « انّ العاقلَ ينظر فيما تؤديه وفيما يسرّه ، فيعلم أنّ أحقَّ ذلك بالطلب إن كان ممّا تحب وأحقّه بالاتقاء إن كان مما نكره ، أطوله وأدومه وأبقاه ، فاذا هو قد أبصر ، فضلّ الآخرة على الدنيا ، وفضلَ سرور المروءة على لذة الهوى ، وفضل الرأى الجامع العامّ — الذى تصلح به الأنفس والأعقاب — على حاضر

الرأى الذى يستمتع به قليلا ثم يضمحلّ ، وفضّل الاكلاتِ على الأكاة ، والساعاتِ على الساعة » فانك تلمح فى ثنايا هذا رأى أبيقور ، وهو أنه يجب أن يراعى ـ فى تفضيل لذة على لذة ـ الشدّة والمدّة . وتفضيل اللذائذ العقلية والروحية على اللذائذ البدنية ، الخ . ولكنّ ابن المقفع انما نقل عن الفرس ، وان كانوا قد تأثروا ـ فيما تأثروا به ـ بالمذاهب اليونانية . كذلك نلمح فى بعض حكمه أشياء اسلامية كقوله : « والدنيا دولٌ فما كان منها لك أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوّتك » فهو قريب فى لفظه من حديث مشهور . ونرى وجوه شبه عديدةً فى بعض الحكم بين ما ورد فى كتب ابن المقفع ، وما ورد عن الامام علىّ فى كتاب نهج البلاغة . ولكنا يعترينا الشك فى كثير مما نسب فى نهج البلاغة الى الامام علىّ ، وقد أبنّا ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، ونرجح أنها نسبت اليه بعد ابن المقفع فى عهد الشريف الرضى ومن قبله . فيمكننا أن نقول انّ أغلب استمداد ابن المقفع فى كتبه من الثقافة الفارسية ، وقليلا منها من الثقافة العربية الاسلامية . وأوضح دليل على ذلك : أن الروح الدينية فى حكم ابن المقفع نادرة جداً قلّ أن تلمسها ، على عكس ماينسب مثلا الى الحسن البصرى ، وما صح من أقوال علىّ رضى الله عنه . فهى مغمورة بالشعور الدينى الاسلامى ، أما ابن المقفع فحكمه مستمدة من تجارب دنيوية . حتى ما يتصل منها بالدين .

رسالة الصحابة

ولابن المقفع رسالة سميت بالصحابة، وليس يعني صحابة رسول الله - كما هو المشهور في استعمال الكلمة - وإنما عنى صحابة الولاة والخلفاء، وهم من يقرّبهم الأمراء أو الخلفاء وينادمونهم، ويجعلونهم موضع السر منهم، ويستشيرونهم في أمورهم. وقد عرض في هذه الرسالة لهذا الموضوع فسميت الرسالة به [1]

وللرسالة قيمة كبرى فإنها تقرير في نقد نظام الحكم - إذ ذاك - ووجوه إصلاحه، رفعه إلى أمير المؤمنين ولم يسمه، والظاهر أنه أبو جعفر المنصور لأنه يذكر دولة بني العباس وقد استقرت، ويذكر أمير المؤمنين، وقد أهلك الله عدوه وشفى غليله، ومكّن له في الأرض وآتاه خزائنها. ويذكر أبا العباس (السفاح) ويترحّم عليه. وإذا علمنا أنّ ابن المقفع قتل في عهد المنصور، صح لنا أن نستنتج - من ذلك كله - أن الرسالة إنما كتبت للمنصور.

بدأها بمدح أمير المؤمنين بأنه جمع إلى ما عنده من علم الرغبةَ في السؤال، والاستماع لنصيحة الناصح، وفي هذا ما يشجع ذا الرأي على أن يدلي برأيه.

ثم ذكر موضع الشكوى قبل أن يتولى أبو جعفر المنصور، فقال لا يهتم بالإصلاح، وإن اهتم به فليس له رأي يهديه، أو له رأي ولكن ليس له عزم يُمضي به ما يدعمه، وأعوان ليسوا على الخير بأعوان، ولهم من المكانة والنفوذ ما يمنع الخليفة من إقصائهم والنيل منهم، وأمّة إن أُخذت بالشدة

---

[1] أورد هذه الرسالة ابن طيفور في كتابه المنثور والمنظوم المخطوط في دار الكتب المصرية ونشرت في مجموعة رسائل البلغاء — واستعمال كلمة الصحابة في هذا المعنى معروف في ذلك العصر كما يدل عليه ما ورد في أوائل كتاب الخطيب البغدادي

حَميت ، وإن أحدث باللين طغت ، وأتاني أنّ أمير المؤمنين وفقه الله لمداواة هذه العيوب ، واقتلاع هذه الشرور ، ثم بدأ بتقريره الذى وضعه

وأول ما بدأ به شرح حال « الجند » وإذا علمنا أن الدولة فى عهد هذا التقرير دولة ناشئة ، ولها أعداء كثيرون ، وذوو أطماع عديدون ، ثم هى واسعة الأطراف ، مترامية الأنحاء لا يخلو فيها يوم من فتنة أدركنا ما للجند من عظيم شأن ، وعرفنا السبب فى أن جزءاً كبيراً من التقرير كان يدور حول هذا الموضوع وإذا كان عماد الجند هم الجند الخراسانية وكانوا هم القائمين بحماية الدولة ، وكانوا فرساً ، وكان ابن المقفع فارسياً ، كان محور كلامه الجند الخراسانية .

مدح جند خراسان بأنه لم ير مثلهم فى الإسلام ، يمتازون عن غيرهم من الجند بالطاعة والعفاف ، والكفّ عن الفساد ، والذلّ للولاة ثم شكا من أمور أولها أنه لابد أن ينظَّم أفكارهم ، ولا بد لذلك من أن يكون لهم دستور أو قانون ، يحفظ بكل شىء يجب أن يعرفوه ، يبين لهم ما يفعلونه وما يجتنبونه ، يحفظه رؤساؤهم ، ويقودون به عامَّتهم وأما ترك الأمر من غير قانون ، لا يعرفون به ما يحب وما يحرم ، فداعٍ إلى الفوضى وشكا من أن هذا جرّ قوما الى المغالاة فى الأمر بالطاعة لأمير المؤمنين ، ووُجد فى القواد من يقول : ان أمير المؤمنين لو أمر أن تستدبر القبلة بالصلاة لسمعنا وأطعنا ! وهذا له أثر سيىء فى النفوس ، وقد ساقه هذا القول الى بحث أوامر أمير المؤمنين وما يطاع منها وما لا يطاع وذكر المبدأ المشهور « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وقال ان قوماً فسَّروا هذا المبدأ تفسيرا مغْوَجاً والذى رآه ابن المقفع أن الخليفة يطاع فيما لا يطاع فيه غيره وبيان ذلك أن هناك فرائض وحدودا بيّنها الله ، وفى هذا لا يطاع امير المؤمنين لو أمر أمراً يخالفها . وهناك أشياء كثيرة من شؤون الناس لم يأت فيها نص ، بل

تركت لعقل الناس واجتهادهم . وهذه متى اجتهد فيها ولاة الأمر ورأوا فيها رأياً وجب طاعتهم ، وليس للناس في هذا إلا الإشارة عند المشورة ، والإجابة عند الدعوة والنصيحة لهم . ورأى ابن المقفع إذن أن هناك نصوصاً دينية يجب على الناس والولاة أن يطيعوها ، وليس لولاة الأمر أن يخالفوا . وهناك مسائل كثيرة لم يرد فيها نص ، كإعلان حرب واسترداد جيش وشروط صلح ، وتنظيم أمور الدولة حسب الزمان والمكان وهذه كذلك لا تترك فوضى ولكن للناس أن يشيروا بآرائهم ، وعلى أولي الأمر أن يفكروا ويدبروا ، فإذا رأوا رأياً وجب على الناس إطاعته ، وإن رأوا فيه نقصاً أو عيباً أو خطأ نصحوا ولاة الأمور بآرائهم .

ثانياً — مما نصح به أمير المؤمنين في شأن الجند ، أن يحول بين الجنود وبين إدارة الشؤون المالية . وقد دعاه إلى ذلك الرأي أن الخليفة كان يولي بعض قواده خراج بعض الأقطار فيولي قائداً خراج مصر ، وآخر خراج خراسان وبذلك تصبح مالية هذا القطر في يده يحاسب الناس عليها ، ويحاسبه الوالي كذلك . وقد علل ابن المقفع رأيه هذا « بأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » وهو نظر صائب فإن كثيرين من هؤلاء القواد اغتروا بسلطانهم وجنودهم ، فظلموا الناس فلما أوخذوا على ظلمهم اغتروا بما في أيديهم من مال ، وما تحت طاعتهم من جند فخرجوا على الدولة ، وكانوا سبباً لمصائب لا تحصى

ثالثاً — مراعاة الكفايات في الجند ، فقد لفت نظر الخليفة — في لطف — إلى أن يعيد النظر في الرؤساء ومرءوسيهم ، فكثير من المرءوسين أكفأ من رؤسائهم فلو ولي القيادة خيارهم ، ووضع الجند في منازلهم ، حسب كفايتهم لكان من ذلك خير عظيم

رابعاً — تثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية ، فيعنى بتعليمهم الكتابة والتفقه

فى الدين ، كما يعنى بتعويدهم الأمانة والعفة والتواضع ، واجتناب الترف فى الزّى والعطر واللباس ، وما إلى ذلك .

خامساً — تعيين وقت محدّد للجند يقبضون فيه أرزاقهم فان ذلك أدعى لطمأنينتهم ، وأمنع للشكوى والاستبطاء .

سادساً وأخيراً — أن يتقصَّى أحوال الجند ويعرف أخبارهم وحالاتهم ، وباطن أمرهم ، حيث كانوا وأن يعيّن لذلك الثقات الذين يخلصون له ، ولا يكتمون عنه شيئاً ، وألا يستكثر ما ينفق فى هذا السبيل ، وإن عظم فان فى ذلك الحزمَ واستئصالَ الشر قبل استفحاله

هذه خلاصة موجزة لوجوه الإصلاح التى اقترحها للجند .

ثم ذكّر أميرَ المؤمنين بأهل العراق عامّة ، وأهلِ البصرة والكوفة خاصّة وأنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومُحبيه ، ولأهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة ما ليس فى سواهم ، ورجاه فى العناية بهم والاعتماد عليهم ، وقال إنّه أزْرَى بأهل العراق ، أن وُلاةَ العراق — فيما مضى — كانوا أشرار الولاة ، وأعوانَهم كانوا أشرار الأعوان فسامت سمعة العراق من أجل هذه الفئة الضالة ، واستغلَّ أهلُ الشام ذلك ، فشنّعوا على أهل العراق عامة بما صنعت هذه الفئة . ولمّا جاءت دولتُكم لم تجد أمامها — من أهل العراق — إلا هؤلاء الطّاهرين ممن لا يصح الاعتماد عليهم ، فلو نُحّى هؤلاء ، وأمثالهم ، واستُقصى الناسُ وعُرف أهلُ الفضل ، وأسندت الأمور إلى الأكفاء غير المضيعين لظهر فضلُ العراق وأهله

ثم عرَض ابنُ المقفّع فى تقريره إلى موضوع من أهمّ الموضوعات وأعمقها أثراً فى حياة المسلمين ، وهو « فوضى القضاء » فذكر أنّ القضاء فوضى ، لا يُرجع فيه إلى قانون معروف ، وإنما هو متروك لرأى القضاة واجتهادهم . ونشأ من ذلك صدور الأحكام المتناقضة حتى فى البلدة الواحدة ،

فيستحلّ دماء وفروج وأموال فى ناحية من نواحى الكوفة ، وتُحرّم فى ناحية
أخرى — تبعاً لحكم القاضى — وكل ذلك نافذ على المسلمين . والقضاة نوعان :
نوع يزعم أنه يلتزم السنّة (يعنى بذلك النص على العموم) وقد تغالى فيما سماه
سنّة فكثيرا ما يَسفِك دَماً من غير بيّنة ولا حجة ، ويزعم أنه هو السنة ،
فإذا قيل له : إن مثلَ هذا الأمر لم يُرَق فيه دم فى عهد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، أو أئمة الهدى من بعده ! قال فعل ذلك عبد الملك بن مروان ،
أو أمير من بعض أولئك الأمراء ! ونوع يزعم أنه من أهل الرأى ، فيبلغ
به الاعتدادُ برأيه « أن يقول فى الامر الجسيم — من أمر المسلمين — قولا
لا يوافقه عليه أحد ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك ، وإمضائه الحكم عليه ،
وهو مُقِرٌّ أنّه رأيٌ منه لا يَحتَجُّ بكتابٍ ولا سنة » هذه هى الفوضى — كما شرحها
ابن المقفع — ثم اقترح لها علاجاً ، وهو أن يُرْفع إلى أمير المؤمنين كل
الأقضية والمسائل التى يحدث فيها الخلاف ، ويذكر ما يَحْتَجُّ به كل فريق من
المختلفين من نص أو رأى ، فيعمدُ أمير المؤمنين إلى هذه الحجج والبراهين ،
ويختار ما يراه صواباً ، ثم يدوّن ذلك فى كتاب ، ويعمل منه نُسخ ترسل إلى
الأمصار ، ويُلزم القضاةُ بالحكم به ، فإذا حدثت حوادث سِيرَ فيها هذا
السير ، ووجب على كل إمام يأتى بعدُ أن يُدخل على هذا القانون ما يجدّ
وما تدعو إليه الحاجة ، وهكذا إلى آخر الدهر

ويرى « ابن المقفع » أن وُلاة الأمور يجب أن يرجعوا فى المسائل
المختلف فيها إلى العدل ومصالح الناس ، وليس هناك ما يمنع من ذلك ،
لأن الأحكام المختلفة : إمّا أن يكون اختلاف القضاة فيها ناشئاً من استنادهم
على سنن مأثورة مختلفة ، وهذا الاختلاف فى السنن دليل على أنها ليست
مقبولة بإجماع إما لسندها وإما لأنها مجال للتأويلات المختلفة . وحينئذ يكون
الرجوع إلى العدالة أولى وإما أن يكون الاختلاف ناشئاً من مُراعاة القياس ،

وقد أفرط الفقهاء فى مراعاة القياس الشكلى ، والتزموا به فوقعوا فى ورطات وأتى ابنُ المقفَّع بمثل يهزّئ به قياسهم فقال . لو أنك سألت أحدهم أتأمرنى أن أصْدُق فلا أكذب كذبة أبداً ؟ لكان جوابهم نعم ! فلو سألتَ ما تقول فى رجل هارب أراد ظالم أن يقتله فسألنى عن مكانه وأنا أعرفه ، أأصدق أم لا ؟ فلو ساروا على قياسهم الذى وضعوه لأجابوا بالتزام الصدق مع أن المصلحة والعدالة فى غير ذلك ، ثم قرر مبدأ قيِّماً وهو أن القياس ليس الا وسيلة لتحقيق العدالة ، وطريقاً من طرق الوصول اليه ، فمتى رؤيت العدالة فى غير القياس يجب أن يضحّى بالقياس

فمجمل رأى ابن المقفع فى اصلاح القضاء : وضعُ قانون رسمى تجرى عليه المملكة الاسلامية فى جميع انحائها ، وهذا القانون يُرْجع فيه الى ما يُرشد اليه العقلُ فى معنى العدالة . وهذا فيما عدا ما ورد فيه نص مجمع عليه — من كتاب أو سنة — فأما ما ورد فيه نص مختلف فيه أو ما كان مبنيًّا على قياس ، فيجب أن يترك الى ولاة الأمور ينظرون فيه باعتبار واحد وهو المصلحة العامة . والفقهاء ليس لهم وضع قوانين وانما عليهم أن يجتهدوا فى المسائل من الناحيــــة العلمية النظرية ، ثم يُدْلون بآرائهم الى ولىّ الأمر ، وهو المقنّن وحده

وهو رأى له قيمته ووجاهته وهو يتفق فى كثير من نواحيه والآراء الحديثة فى التشريع ، ولو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير فى الحالة الاجتماعية وخاصة من الناحية القضائية

ولم تذهب دعوة ابن المقفع سُدًى ، فابن سعد فى الطبقات يروى عن مالك بن أنس أنه قال لمّا حجّ المنصورُ قال لى قد عزمتُ على ان آمرَ بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، ثم أبعثَ الى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمُرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدَّوْه الى غيره ، فقلتُ يا أمير

المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويلُ. وسمعوا أحاديثَ ورووا روايات، وأخذ كلُّ قوم بما سبق إليهم، ودانوا به فدَعِ الناس، وما اختار أهلُ كل بلد منهم لأنفسهم »

فلما أتى هارون الرشيد عاودته الفكرة، فرُوِي في كتاب الحلية عن مالك بن أنس قال « شاورَني هارونُ الرشيد في أن يعلّق الموطأ في الكعبة ويَحْمِلَ الناسَ على ما فيه، فقلت لا تفعل، فإنَّ أصحابَ رسول الله اختلفوا في الفروع، وتفرّقوا في البلدان وكلٌّ مصيب »

لم يكن في هذه المحاولة تحقيقٌ لكل فكرة ابن المقفع، فقد كان أكثرَ جرأةً مما قصد إليه المنصور والرشيد. ولكن كانت خطوةً من الخطوات المرسومة لم تُحقَّق !

ولسنا نجزم أن هذه المحاولات نشأت عن تقرير ابن المقفع، فقد تكون تطوُّراً لفكرة عمر بن عبد العزيز في جمع الحديث، فقد كان يرى هذا الرأي. فتقدّم الزمان رُئي جمع الحديث وجَعْلُه قانوناً وقد تكون فكرة المنصور والرشيد نتيجةً للعاملَيْن معاً — فكرة جمع الحديث التي ارتآها عمر بن عبد العزيز، وفكرة تقنين القوانين التي ارتآها ابنُ المقفع — وهو الذي نميل إليه

* *

ثم انتقل بعــــد ذلك إلى تعطيف المنصور على أهل الشام، وقد كان العباسيون ينظرون إليهم نظرة عداء وبغض، لأنهم كانوا أعوانَ الأمويين وجندَهم المطيع، فاعترف بأن أهل الشام يكرهون العباسيين، ولكن ينبغي ألا يؤاخذهم الخليفة بذلك، وألا يطمع منهم في المودة، فعداوتهم طبيعية فقد كانت الدولة دولتهم والملك لهم، ولكن هذا لا يمنع الخليفة أن يصطنع خيارهم؛ فهؤلاء لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى، ويتبعهم غيرهم، فتتسع دائرةُ المحبة للعباسيين والتودّد لهم كما تصحبه ألا يحلَّ بالمال

عليهم ، وأن يُنفق عليهم ما جُمع من بلادهم ـ بعد استقطاع الحقوق العامة ـ فإنه إن فعل ذلك رجحوت ألا يكون منهم نزوات ولا وثبات على الدولة ، فإن فعلوا رجوت أن تكون الدائرة لأمير المؤمنين عليهم إلى آخر الدهر ، وقد علّمنا التاريخ أنّ المُلْك إذا خرج من قوم بقيت فيهم بقيّة يحنّون إلى مجدهم القديم ، فيثورون وتكون ثورتهم سبب استئصالهم وتدويخهم »

بعد هذا تكلّم في صحابة الخليفة أو ما نسميه نحن الآن « بمعيّته » ورجال دولته والمقربين إليه ، وقد كرر شكواه من أن هؤلاء كانوا ـ قبل خلافة أمير المؤمنين ـ عملوا أعمالاً مُفْرِطة القبح ؛ مُفْسِدة للحَسَب والنَّسَب والسياسة ، داعية للأشرار طاردة للأخيار ذلك أن الخليفة كان يقرّب أوغادَ الناس وسفْلتَهم ، فهرب الخيار من التقرب للولاة حتى إن قوماً من صلحاء البصرة ، ـ وفيهم ابن المقفع ـ أتوا دارًا الخلافة في أيام السفّاح ، فأبوا أن يزوروا الخليفة ، لما يعلمون من بطانته وسوء سيرتهم وقد سمعنا الناس يقولون « ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ، ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور » ونزعة ابن المقفع في اختيار الصحابة نزعة أرستقراطية فارسية ، فهو يراعي في اختيار الصحابة من وزراء وكتّاب وغيرهم أمرين أمراً وجيهاً معقولاً ، وهو أن يكونوا ذوي رأي أمناء عدولاً ، ولكنه لا يشدد في هذا تشدده في الأمر الثاني ، وهو أن يكونوا ذوي حَسَب ونَسَب ويفزع كلّ الفزع أن يرى هؤلاء الصحابة ـ غير المعروفين بنسب يؤذن لهم على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين ، وأهل بيوتات العرب . وهو يرى أن الأمة لا يصلح أن يقرّب الخليفة ويجعل من خاصته إلا رجلاً أتى بكرمه خطة ، أو رجلاً له فضل من قرابة أو حُسْن بلاء ، أو رجلاً له من الشرف وجودة الرأي والعمل ما يؤهله لذلك ، أو رجلاً ذا نجدة ولكن

يجب أن يجمع الى نجدته حسناً وعفافاً ، أو رجلا فقيهاً مصلحاً ينتفع الناس بفقهه وإصلاحه وأما من يتخذون الشفاعات وسيلة للقرب من السلطان ، فيجب الا تمكنهم شفاعاتهم من هذه المناصب ثم اذا اختير الخائرون على الشروط التى ذكرنا ، يجب أن يعين لكل منهم اختصاص فى عمله لا يتعداه . فلا يكون للكاتب أمر فى رفع رزق ولا وضعه ، ولا للحاجب فى تقديم اذن ولا تأخيره »

انتقل بعد هذا إلى الكلام فى الخراج ، وهو عماد مالية الدولة ، ويعنى بالخراج المال المفروض على الأراضى ، وقد شكا من الفوضى فيه كما شكا قبل من فوضى القضاء ، شكا أن الأراضى — مع اختلافها جودة — ليس مقرراً على كل « وحدة » منها مبلغ معين ، ولا يسجل ذلك فى دفاتر يحفظ أصلها ويحصّل بمقتضاها وافترح للاصلاح أن تمسح الأرض ، ويفرض عليها المال المناسب ، ويعرف كل مالك ما عليه ويدون ذلك فى سجلات تحفظ أصولها فى دواوين الدولة ، وفى هذا « صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال » وشعر بصعوبة هذا العمل مع ضرورته فقال « ان مؤونته شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ، وحتم مطالبه فى اصلاح الخراج تخير الذين يتولون هذا العمل ، وشدة الرقابة عليهم ، والاستبدال بهم عند ظهور خيانة عليهم

وقد رأينا — بعد عصر ابن المقفع — أبا يوسف يقول . فى كتابه « الخراج » « ان أمير المؤمنين (يعنى هرون الرشيد) سألنى أن أضع له كتاباً جامعاً ، يعمل به فى جباية الخراج ، والعشور والصدقات والجوالى [1] وغير ذلك — مما يجب عليه النظر فيـــه والعمل به — وانما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم وطلب أن أبين له ما سألنى عنه مما يريد العمل به ،

---

[1] يريد الجوالى الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة

وأفسره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته »[١]

فهل كان هذا العمل تحقيقاً لمطالب ابن المقفع ؟ قد يكون ذلك ، ولكن مما لا شك فيه أن ابن المقفع عبّر عن أهم المسائل التي تشغل العقلاء في عصره ولا عجب أن نرى الكلام فيها كثيراً ، وأن نرى كبراءهم يصفون العلاج لتلافيها . كذلك نرى فرقا كبيراً بين معالجة ابن المقفع لمسائله وخاصة الخراج ، ومعالجة أبي يوسف فابن المقفع يعالجها من الناحية العقلية المحضة ، وأما أبو يوسف فيعالجها من الناحية الدينية ، فهو لا يخطو خطوة إلا يدعمها بسَنَد من كتاب أو سنة أو أثر ، وأحيانا بقياس أو استحسان ، وهذا يرجع الى الفرق بين ابن المقفع وأبي يوسف في المنشأ والمربى والمنصب .

* *

ثم انتقل ابن المقفع الى الكلام في جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها ، وقد كانت موضع نقمة المنصور اذ خرجت عليه ، فطلب اليه أن يُعنى بها عناية خاصة ، فيتخير لولايتها الخيارَ من أهل بيته ، وأن تسخوَ نفسُه عن أموالها . وكأن ابن المقفع نظر في هذين الأمرين الى أن جزيرة العرب منبع النبوة ، ومصدر الاسلام ، وفيها المسلمون وقد تولاها ولاة سوء انتهكوا حرمتها ، فكانت حاجتها الى خير الولاة أمسّ وأوجب . وهي فقيرة ليس فيها خصب العراق ، ولا غنى الأمصار فاذا كانت الأمصار الأخرى تحمل ما يراد من ثروتها الى دار الخلافة ، فخير للخليفة ألا يتّبع هذه السنة في جزيرة العرب فيترك لها مالها ان لم يُمِدّها بمال من عنده

وختم « ابن المقفع » تقريره ببيان ما للخليفة من أثر عظيم اذا صلح ، ذلك أن العامّة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة ، والخاصة لا تصلح إلا بصلاح إمامها ، سلسلة يأخذ بعضها بحُجَز بعض لأن العامة تقلد خاصتها في شؤونها

[١] أول كتاب الخراج لأبي يوسف

وتتبعها فى سيرها ، فاذا كان الخواص من ذوى الدين والعقل كان فى ذلك صلاح للعامة ، وموقف الخاصة من الامام موقف العامة من الخاصة « فنسأله أن يعزم لأمير المؤمنين على المراشد ، ويحصنه بالحفظ والثبات »

* * *

هذه خلاصة وتحليل لرسالة الصحابة ، وان شئت ؛ فقل انها ترجمة لما فيها من أفكار ، فقد اعتراها من فساد النَّسخ والتحريف والغموض ما جعل ادراك مراميها بعيد المنال .

ومنها نرى أن ابن المقفع كان ناصحَ العمل فى رسالته قوىّ الفكر ، شاعراً بوجوه الضعف فى الدولة ، ميالا الى اصلاحها ، ولو عرفنا أنهُ قال ولمّا يتجاوز الأربعين من عمره ؛ عرفنا قدر نبوغه ، وعرفنا اىّ عقل كبير كان يشغل رأسه

لم يعالج ابن المقفع ما عالجه من الناحية الدينية ، كما عالجه أبو يوسف مثلا ؛ فان تربيته لم تكن دينية بل لم يُسلم الا قريباً ، كما ساعده على هذا النوع من التفكير أنه كان فارسياً ، وكان واسع العلم بالتاريخ الفارسى ، وترجم بعض كتب التاريخ الى اللغة العربية ، فهو يعلم تمام العلم بنُظُم الفُرس فى الجند والقضاء والصحابة والخراج وقد مرت هذه الدولة بأدوار كثيرة . وجرّبت تجاربَ عديدة ، واستقر نظامها عهداً طويلا ، وعالجه مصلحون فيه ـ أقوالهم وأعمالهم ـ فكان ابن المقفع ينظر الى المملكة الاسلامية ، وما فيها من نظم ناقصة فى بعض نواحيها ، وينقل نظرهُ ـ بسرعة ـ الى قومه الفرس ، فيقارن بين ما يرى أمامه ، وما أرشده اليه التاريخ الفارسى ، فتُوحى اليه هذه المقارنة مقترحات الاصلاح ، وتصطدم هذه المقترحات احياناً بنظرات رجال الدين ، كالذى رأينا من مخالفة رأى الامام مالك لمقترحات ابن المقفع فى تنظيم التشريع والقضاء . ذلك لأن ابن المقفع ، ينزع الى تقنين قانون يعمّ انحاء

الدّولة ، كما كان الشأن فى فارس ، وأن نُحكّم العدالة والمصلحةَ العامة ـ فيما لم يرد فيه نص مجمع عليه ـ وهو اقرب ما يكون الى النظام الفارسى ، والامام مالك ، يرى أن أهل كل مصر وصلت اليهم أحاديث يرون صحتها فيلزمهم العمل بها ، وليس من الحق ولا من الدين أن يلزمهم برأى عقلى يخالف ما لديهم من حديث صحيح ، ـ أو على الأقل ـ صحيح فى نظرهم ، وابن المقفع ، يتكلم فى الخراج بمثل ما نقل الينا عن الأكاسرة ، وأبو يوسف يتكلم فيه بالآثار التى صحت عنده والخلفاء يرون ألا يلجئوا الى ابن المقفع ، والبرامكة وامثالهم وانما يلجئون الى رجال الدين أمثال الامام مالك وأبى يوسف .

كليلة ودمنـــــة

ليس من قصدنا ان نبحث هنا فى كتاب « كليلة ودمنة » ونعرض لأبحاث المستشرقين فى أصل الكتاب أمثال « ده ساسى » و « شوفان » و « بيكل » و « فالكونر » و « هرتل » و « نولدكه » و « جويدى » و « بروكلمان » و « رايت » ، وغيرهم ، فلو استقصينا ما قالوا ، وعمدنا الى مناقشة آرائهم لاحتاج ذلك الى كتاب بأكمله ، ولكنا نوجز القول هنا ، فيما يتعلق بموضوعنا ، وهو الثقافة الفارسية وآثارها وابن المقفع وأعماله

يقول ابن المقفع انه نقل الكتاب من اللغة الفهلوية ، وقد نقل فى أيام كسرى أنوشروان من الهندية الى الفهلويه ، وكان الباحثون فى شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هرتل Hertel على بعض الأصول الهنديه الأولى ، كتبت باللغة السنسكريتيه الهندية ، كما عثر غيره على بعض ابواب من الكتاب معروفه فعثروا فى كتاب على باب « الأسد والثور » و « الحمامة المطوقه » و « البوم » و « الغربان » و « القرد والغيلم » و « الناسك وابن عرس » وعثروا فى كتاب آخر على باب « الجُرَذ والسنّور » و « الملك والطائر

فنزة » و « الأسد وابن آوى » كما عثروا فى كتاب ثالث على باب « ملك الفيران » ، وعثروا أيضاً على باب « ايلاذ وبلاذ وايراخت » وباب « السائح والصائغ » و « ابن الملك ورفقائه » فجميع هذه القصص هندية الأصل . ولكنهم لم يعثروا إلى الآن ـ فيما أعلم ـ على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى كليلة ودمنة ، أو أى اسم آخر . فهل كان هناك كتاب هندى حوى كل هذه القصص ، ألفه مؤلف واحد : ونقله الفرس الى لغتهم ؟ أو أن الفرس نقلوا هذه القصص المتفرقة فى الكتب إلى لغتهم ، ووحَّدوها فى كتاب وأسندوها إلى مؤلف واحد ؟ هذا مجال خلاف لايزال بين الباحثين .

ويرجحون أن باب « بعثة برزويه » وباب ملك الجرذان من زيادات الفرس أنفسهم .

كما يرجحون أن هناك فصولا برُمّتها من زيادات ابن المقفع نفسه ، وهى باب « غَرَض الكتاب » وباب « الفحص عن أمر دمنة » وباب « الناسك والضيف » وباب « البطة ومالك الحزين » .

وكما يذهب بعضهم إلى أن الباب الأول ـ وهو مقدمة الكتاب ـ لعلى ابن الشاه الفارسى وضع بعد ابن المقفع ، ويذهب « ده ساسى » ويوافقه « نولدكه » الى أن بهنود بن سحوان أو على بن الشاه هو « أبو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهرى » الذى يقول عنه صاحب الفهرست « إنه من نسل الشاه بن ميكال وكان أديباً طيباً مفاكهاً فى نهاية الظرف والنظافة »[1] . وقد توفى سنة ٣٠٢ هجرية.

ولهم أدلة على كل ماذكرنا يطول شرحها ، ويخرج بنا عن الغرض الذى إليه قَصَدنا .

* * *

وقد كان الباعث لابن المقفع على ترجمته ـ على ما يظهر ـ ماعهدناه فيه من ميل إلى الاصلاح الاجتماعى ، شاهدناه فى الأدب الكبير والصغير ،

---

[1] الفهرست ص ١٥٣

، ورسالة الصحابة وكتاب كليلة ودمنة يشرح بعض هذه النواحي شرحاً وافياً ، فهو يتعرض للنصح بعدم الإصغاء إلى الحاسد والنمّام ، ويبين أن هناك جزاءً طبيعياً ، فعاقبة الخير خير ، وعاقبة الشر شر وينصح بأخذ الحذر من العدو ، والاعتماد على الصداقة ، الخ

ويظهر أن تعمّق ابن المقفع في دراسة الحياة الاجتماعية أدّاه إلى استنكار كثير من الأمور ، ورأى أن مُعظمها يرجع إلى حكام عصره ، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة في زمنه ، فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقداً صريحاً وقد عاش ابن المقفع وقت نضوج فكره في زمن أبي جعفر المنصور ، وهو شديد البطش قوي المُنّة[1] سريع إلى إعمال السيف وهو - كان - مؤسّسَ الدولة العباسية وواضع نظمها ومحصّنها ، وكان يرى ألاّ يمكن تثبيتُ قواعدها إلا بإخماد كل حركة تُضْعِف من شأن الدولة ، أو يتوهم فيها ذلك ، ويقطع رأس كل مخالف وكان من ضحايا المنصور كثيرون قتلوا بالظِّنّة ، وتذرع في قتلهم بالاتهام بالزندقة أو نحو ذلك ، وكان ابن المقفع نفسه أحدَ هذه الضحايا !

لعل ابن المقفع رأى أن موقفه مع المنصور موقف بيدَبا مع دبشليم ، فقد جاء في مقدمة الكتاب « فلما استوثق له (لدبشليم) الأمر ، واستقر له المُلْك طغى وبغى وتجبّر وتكبّر ، وجعل يغزو مَن حوله من الملوك ، وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً ، فهابته الرعية فلما رأى ما هو عليه من الملك والسَّطوة ، عبث بالرعية واستصغر أمرهم ، وأساء السيرة فيهم ، وكان لا يرتقي حالُه إلا ازداد عتواً فمكث على ذلك برهة من دهره وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة فاضل حكيم يعرف بفضله ويُرجَع في الأمور إلى قوله يقال له : بيدبا ، فلما رأى الملكَ وما هو عليه من الظلم للرعية ، فكّر

---

١ المنة القوة

فى وجه الحيلة فى صَرْفه عما هو عليه ، وردّه إلى العدل والانصاف الخ . »

ولعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه « المنصور » بأكثر مما واجهه به فى رسالة الصحابة ، وقد مزج نقده بكثير من المدح للخليفة والثناء عليه ، ونسب أكثر الشدة التى يراها إلى غيره . ولكن هذا لم يَشفِ غلته ، فرأى أن أسلم طريقة ، أن يترجم هذا الكتاب ويريد فيه ليعمل الكتاب فى الخلفاء والرعية ، ما فعله كليلة ودمنة فى الهند وفارس ، ولعل هذا هو الغرض الرابع الذى أخفاه فى مقدمة الكتاب ولم يصرح به . فقد جاء فيها « ينبغى للناظر فى هذا الكتاب ، أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ، ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان والثانى إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشدّ للنزهة فى تلك الصور . والثالث أن يكون على هذه الصورة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك المصوِّر والناسخ أبداً والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » وسكت عن هذا الغرض الرابع ولم يبينه وهو — من غير شك — غرض ابن المقفع من ترجمته والظاهر أن هذا الغرض يمكن تلخيصه فى أنه النصح للخلفاء حتى لا يحيدوا عن طريق الصواب ، وبفتح أعين الرعية حتى يعرفوا الظلم من العدل ، وحتى يطالبوا بحقهم فى العدل ولم يوضحه ابن المقفع لأن فى ايضاحه خطراً عليه من المنصور ، ولعل هذه النزعة فيه كانت من الأسباب فى الايقاع به له !.

ويدل المقارنة بين ما عثر عليه من الفصول الهندية ، والترجمة السريانية القديمة — التى ترجمت من اللغة الفهلوية القديمة نحو سنة ٥٧٠ م ، والتى وجدت فى دير فى « ماردين » ونشرت سنة ١٨٧٦ م — على أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية بل حوَّر كثيراً فى جمله ومعانيه وترتيبه ، حتى يفى

والذوق العربي الأسلامي وذوق المتأدّبين في عصره . بل أضاف فصولا من عنده ـ كما أشرنا قبل ـ كباب الفحص عن أمر دمنة ، ففيه نفحة إسلامية ظاهرة مثل : « ومن يَجْزِي بالخير خيراً ، وبالاحسان إحساناً الا الله ! » « ومن طلب الجزاء على الخير من الناس كان حقيقاً أن يحظى بالحرمان ، إذ يخطىء الصواب في خلوص العمل لغير الله تعالى ، وطلب الجزاء من الناس ! » ومثل « لأن تُعذَّب في الدنيا بجُرمك ؛ خير من أن تعذب في الآخرة بجحيم مع الإثم ! » ومثل « والعلماء قد قالوا ـ في شأن الصالحين ـ إنهم يُعرَفون بسيماهم » ، « وقالت العلماء مَن كتَمَ حُجَّةَ مَيّت أخطأ حُجَّتَه يومَ القيامة » ، « وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجبُ حكما » الخ وقد أثبت البحث أن ابن المقفع كان يحذف جملة من الأصل البهلوى ، ويضع مكانها جملة أخرى توافق مزاج عصره . وقد يضع فصلا كاملا ولعل هذا هو السبب فيما حكاه ابن خلكان من أن الكتاب مختلف فيه هل هو ترجمة ابن المقفع أو تأليف له

وترجمة ابن المقفع نفسها قد دخل عليها كثير من التغيير على توالى العصور بدليل (١) اختلاف النسخ التى بين أيدينا اختلافاً كبيراً (٢) وأننا نجد ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار ينقل بعض قطع من كليلة ودمنة ، وهى تخالف في عباراتها ما بين أيدينا من الكتاب (٣) ونرى في النسخ التى وصلت إلينا من كتاب « نتائج الفطنة ، في نظم كليلة ودمنة » لابن الهبّارية اختلافا في ترتيب الأبواب ، وليس فيه باب الحمامة ، ومالك الحزين » وسمى فيه « باب ايلاذ وبلاذ » و « هيلار وبلار » مع اختلاف في سياق المثل ، الخ

وقد كان لكتاب كليلة ودمنة أثر كبير في الأدب العربي ، وفي غيره من الآداب وعنى الناس به عناية كبرى ، وحذوا حذوه من ذلك أن كثيرين نظموه نعرف منهم أبانا اللاحقي ، ولكن لم يصل إلينا من نظمه الا القليل . ثم نظمه ابن الهبارية في كتابه « نتائج الفطنة » ويذكر ابن الهبّارية في

ترجمته أنها خير من ترجمة أبان [١] وله نظم ثالث اسمه « در الحكم فى أمثال الهنود والعجم » أكمله عبد المؤمن بن الحسن الصاغانى [٢].

وحذا حذوه كتاب كثيرون، فابن الهبارية ألف على منواله كتاب «الصادح والباغم» [٣] وكذلك ألف على منواله كتاب «سلوان المطاع فى عدوان الطباع» لأبى عبد الله محمد بن أبى القاسم القرشى المعروف بابن ظَفَر المتوفى سنة ٥٩٨ صنفه لبعض القواد بصقلية [٤]. وكذلك ألف على هذا النسق ابن عربشاه كتابه «فاكهة الخلفاء، ومفاكهة الظرفاء» [٥]. وكتاب «مرزبان نامه» الذى ترجمه من الفارسية [٦]

وقد ذكر «كشف الظنون» أن أبا العلاء المعرى ألف كتاباً اسمه «القائف» على مثال كليلة ودمنة وهو فى ستين كراسة ولم يتم، وأن له كتاب «منار القائف» يتضمن تفسيره فى عشر كراريس [٧]

وفى «رسائل إخوان الصفا» رسالة فى المناظرة بين الحيوان والانسان لاتخلو من لون من كليلة ودمنة، بل ظن «جولد زيهر» أن اسم «إخوان الصفا» مقتبس من كليلة ودمنة إذ ورد الاسم فى أول فصل «الحمامة المطوقة»

وعلى كل حال فقد أدخل هذا الكتاب على الأدب العربى القصص على ألسنة الحيوانات — نعم كان للعرب قبله شىء من ذلك كالذى ورد من أمثالهم، أن الأرنب التقطت تمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا إلى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل! فقال سميعاً دعوت، قالت أتيناك لنختصم إليك، قال عادلاً حكيما قالت اخرج إلينا، قال فى بيته يؤتى الحكمُ قالت إنى وجدت

---

١ طبع بطهران وفى الهند وبيروت ٢ وهو فى مكتبة فينا ٣ طبع فى بيروت ومصر
٤ وقد طبع فى تونس وبيروت ٥ أنظر كليلة ودمنة فى دائرة المعارف الاسلامية وعيون الأخبار، وكشف الظنون، وبولكه ٦ طبع فى مصر ٧ جزء ٢ . ٦١

تمرة قال حلوة فكليها . قالت فاختلستها منى الثعلب ، قال لنفسه بَغَى الخيرَ . قالت فلطمته ، قال بحقك أخذت . قالت فلطمنى ، قال حر انتصر . قالت فاقض بيننا ، قال قد قضيت ! وورد فى القرآن الكريم : « قالتْ نملةٌ يَا أيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلوا مَسَاكِنَكُمْ » وقال فى الهدهد فقال : « أحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » ولكن كان لكتاب كليلة ، أثر من ناحية تفصيل القصص على ألسنة الحيوانات تفصيلاً طويلاً ، ووضع الحكم والأمثال والعِظَة على ألسنتها ، وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع فى عصور الاستبداد . يوم كان الملوك والحكام يضيّقون على الناس أنفاسهم ، فلا يستطيع ناقد أن ينقـــد أعمالهم ، ولا واعظ أن يومىء بالموعظة الحسنة إليهم . ففشا هذا الضرب من القول والقصص ، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل وكأنهم يقولون : اذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل فأولى بذلك الانسان ! واذا كانت الولاة والرؤساء تأخذهم العزة بالاثم ، ويستعظمون أن يُصرَّح لهم بنصح أو نقد ، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهـائم ! واذا كان فى التصريح تعريض الحياة للخطر ، ففى التلميح نجاة من الضرر .

وانما ذكرنا كتاب كليلة ودمنة ، وما كان له من أثر فى الثقافة الفارسية ، ولم نذكره فيما يأتى من الثقافة الهندية لسببين :

(١) أن اللغة العربية انما تلقت الكتاب من الأصل الفهلوى الفارسى ولم تتلقه من الأصل الهندى . ومُترجِمُـه الذى كساه حلة من البلاغة العربية حبَّبته إلى الناس ، هو ابن المقفع الفارسى .

(٢) أن الفرس ـ وخاصة ابن المقفع ـ زادوا فيه زيادات كثيرة ـ كما أبنا من قبل ـ وان كان من الحق أن نقرر هنا ما للهند فى هذا الكتاب من فضل هو فضل واضع الأساس وصاحب الفكرة .

زندقة ابن المقفع

اشتهر رميُ ابن المقفع بالزندقة ، ومن أقدم النصوص فى ذلك ما حكى عن الجاحظ « أن ابن المقفع ومُطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون فى دينهم » ويروون أن المهدىّ قال « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع »[1] ويروى الجهشيارى أن سفيان بن معاوية لما أراد قتله - لما بينهما من عداوة شخصية وبإيعاز المنصور - قال له « والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة ! »[2] ثم تناقل الناس هذا القول وزادوا فيه وأصبح من المسلّم لديهم زندقته ، وكلهم يتداولون الحكاية المشهورة أنه مر ببيت من بيوت النار ، فتمثّل بقول الأحوص

يا بيتَ عاتِكةَ الذى أتعزَّل حذرَ العِدَى وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ
إنى لأمنحكَ الصُدودَ وإنّنى قَسَمًا إليكَ مع الصدود لأَمْيَلُ

وزاد من أتى بعدُ كالباقلانى ، والقاضى عياض اتهامه بمعارضة القرآن الكريم !

ونحن نعلم من حياة ابن المقفع أنه قضى أكثر حياته ، وهو مجوسى ظاهراً وباطناً ، ولم يسلم إلا وهو كاتب عيسى بن على ، ولم يعمّر بعد إلاسلام قليلا ، وهو من غير شك لا يؤاخذ على زندقته ، وما ألفه فيها - إن كان قد ألف - قبل أن يسلم . وإنما يؤاخذ على ما ألف أو قال بعد اسلامه ، فالاسلام يَجُبُّ ما قبله . ولم ينص هؤلاء الرواة على أنه قال ، أو ألف كتاباً فى الزندقة بعد اسلامه إلا عبارة سفيان بن معاوية وهو متهم لما بينهما من عداء شخصى ، سببه أن ابن المقفع كان يحتقره ويزدريه ، وإلا ماروى من تمثله ببيتى الأحوص

---

[1] ابن خلكان ١ ٢١١ [2] الجهشيارى ١١٤

وقد بالغوا فى الفحص عما يشتم منه رائحة زندقة، ورموه بها حتى فيما ليس فيه زندقة. فقد روى ابو تمام فى ديوان الحماسة لابن المقفع أبياتاً له فى الرثاء وهى :

رُزِئنا أبا عمرٍو ولا حيَّ مِثلُهُ ... فللهِ رَيبُ الحادثاتِ بمن وقَعْ

فإن تكُ قد فارقتَنا وتركتَنا ... ذوي خلّةٍ ما فى انسدادٍ لها طمعْ

لقد جرَّ نفعاً فَقْدُنا لك أننا ... أمِنّا على كل الرزايا من الجزَعِ

فقال ثعلب : « البيت الأخير يدل على مذهبهم فى أن الخير ممزوج بالشر، والشر ممزوج بالخير » وأنا أقول لثعلب هلا قرأت قول تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » ! الحق أن ثعلباً وأمثاله تحاملوا عليه كثيراً

وقد أخرجت « مؤسسة كايتاني » للابحاث عن تاريخ الاسلام وحضارته كتاباً نشره الأستاذ « ميكائيل انجلو جويدى » سنة ١٩٢٧ عنوانه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ـ عليه لعنة الله ـ للقاسم بن ابراهيم، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم »

وهذا القاسم بن ابراهيم كما فى عمدة « الطالب فى أنساب آل أبى طالب » هو « القاسم بن ابراهيم بن طباطبا بن اسماعيل الديباج بن ابراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب، كان يكنى أبا محمد، وكان يقيم فى جبال الرسّ ولذا عرف باسم قاسم الرسّىّ » وقد مات القاسم سنة ٢٤٦ هـ أى بعد ابن المقفع بنحو قرن وكتاب القاسم كامل ولكن كتاب ابن المقفع لم يذكر كله بنصه، وانما ذكر المؤلف فقرأ منه تمهيداً للرد عليها ويقع النص العربى فى خمس وخمسين صفحة، ثم ترجمه الأستاذ جويدى الى اللغة الإيطالية، وعلّق عليها وقدمه بمقدمة تبحث فى الكتاب وهذه الفقر التى تنسب الى ابن المقفع تدلنا على غرض الكتاب ومنحاه ولغته

ونحن نشك كل الشك فى نسبة الأصـــل لابن المقفع والرد للقاسم من وجوه :

وأما الشك فى نسبة أصل الكتاب لابن المقفع :

(١) من الناحية الفنية فأسلوب الكتاب غيرُ الأسلوب المعروف لابن المقفع ، والذى نتبينه من الأدبيْن ورسالة الصحابة وكليلة ودمنة ففى كل هذه الكتب لا يعمد الى السجع الا ماجاء عفواً ، أما فى هذا الكتاب فيتعمد السجع أحياناً تعمداً كقوله « لأنّ كونَ شىء لا من شىء لا تقوم فى الوَهْمِ له مثالٌ ، وما لا تقوم له فى الوَهْمِ مثالٌ فمحال »[١] هذا الى أن العبارة نفسها من نوع التعبير الفلسفى ، الذى لم يعرف الا بعد زمن ابن المقفع .

(٢) تستهوىُ هذا المؤلف بالتعبير بأن لله يدَيْن ، وبالاستواء على العرش ، وبانه قاب قوسين أو أدنى ، ويحمل هذه التعبيرات على ظاهرها ونحن نعلم أن ابن المقفع كان ضليعاً فى اللغة العربية ، حتى قال الأصمعى « قرأت آدابَ ابن المقفع فلم أر فيها لحناً الا قوله (العلم أكثرُ مِن أنْ يحاط بالكلّ منه فاحفظوا البعض) »[٢] وأنتصب ابن المقفع فى الكلام — كما حكى الجاحظ — وتعرّض للمعتزلة ، فمن البعيد جداً أن يفهم ابنُ المقفع من اليد والوجه والاستواء على العرش المعانى الحقيقية الظاهرية .

(٣) اذا نحن استثنينا أول الرسالة ، وهو قوله « باسم النور الرحمن الرحيم » وجدنا الرسالة كلها ليست تأييداً لمذهب مانى ، ولا لمذهب زرادشت أو مزدك ، وانما هى دعوة الى الالحاد المطلق ، فهو نهزأ بعلاقة الله بالانسان وكما عطف عليه خلقه وهم تَمثُلُ يديه ! وكيف قتل أعداؤُه أبناءه ورسله ! وكيف أمرض خلقه وعذبهم بما عرض من الاسقام لهم ! وكيف يأمرك بالايمان

---

[١] ص ٤٤ [٢] المزهر ٢ ٨٦ وموضع اللحن فى نظر الأصمعى إدخال أل على كل وبعض

بما لا تعرف ، والتصديق بما لا تَعقِل ! وكيف صارت العلة للشيطان فتبعه الناس إلا أقلهم ! ، الخ وهى كما ترى ليست مطاعن فى الاسلام وحده ، وإنما هى طعن فى كل دين ، ومنها الديانة الثنوية ونحن نعلم من تاريخ ابن المقفع أنه كان يستمسك بدينه ، ولما اعتزم الاسلامَ أبى أن يبيت ليلة على غير دين ، وسواء أكان إسلامه حقاً أم ظاهراً فقط فليس من طبيعته الحِرْصُ على دين مّا أن يهاجم الأديان كلها بهذه اللغة

(٤) أننا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب ، وخاصة فى الكتب التى أُلِّفت فى العصور الأولى كالمسعودى ، وفهرست ابن النديم مَن نَسَبَ لابن المقفع كتاباً كهذا ، وهو حرى بأن يُنَصّ عليه ، لأنه يهيج شعور المسلمين ، ويحملهم على الردّ عليه ، ودفع مطاعنه

وأما شكنا فى نسبة الرد للقاسم بن ابراهيم فمن وجوه كذلك

أولها — من الناحية الفنية ، فقد علمنا أن القاسم فى النصف الأول من القرن الثالث ، والكتاب من أوله إلى آخره كله مسجوع ، متكلَّف السجع . ونحن نعلم أن هذا العصر « عصر الجاحظ » لم يتكلف فيه سجع ، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها وإن تكلف فيه سجع فقرَة أو فقرتان ، فأما كتاب كله سجع ، فهذا ما لا نعرفه فى هذا العصر ، هذا ، الى إسفاف فى السجع ، ورداءة فى التعبير كقوله « فالانس والجن ليس بينهما عندكم خلاف ، والأعيان والأعراض فقد جمعتهما الأوصاف » [١]

ثانيها — ترجم ابن النديم فى الفهرست للقاسم بن ابراهيم ، وعدّد كتبه ، وهى كتاب الأشربة ، وكتاب الامامة ، وكتاب الأَيْمان والنذور ، وكتاب سياسة النفس ، وكتاب الرد على الرافضة [٢] وهذه هى كل كتبه التى ذكرها ولم يذكر منها رداً على ابن المقفع

---

[١] ص ٤٧ [٢] ص ١٩٣

هذا يجعلنا نخالف ما ذهب اليه الأستاذ « جويدى » من ترجيح صحة نسب الكتاب والرد عليه

* * *

وبعد فالقارىء لكتب ابن المقفع وتاريخه ، يخرج منه على أديب ثقف ثقافة واسعة فارسية وعربية ، نزع نزعة قوية لقومه من الفرس ، ويحبى أمته بنشر آدابها ، وسياستها وتاريخها ، ويرى عيوب النظم الاجتماعية فى عصره ويدعو باصلاحها ، بتطبيق الصالح من النظم الفارسية ، ثم هو نبيل شريف النفس يسترعى نُبْله وأدبه أنظار الناس ، فيروى الأصمعى أن ابن المقفع « سئل من أدبك ؟ قال نفسى ، اذا رأيت من غيرى حسناً أتيته وإن رأيت قبيحاً أبيته » ثم أن نُبْله وعلوّ خلقه أتيا من طريق الفكر والفلسفة ، لا من طريق الدين ، ورجال الخلق قد يكون خلقهم تديّناً ، وقد يكون خلقهم تفلسفاً فأخلاق الحسن البصرى العالية ـ مثلا ـ منبعثها الدين يتجلى ذلك فى حكمه وأقواله وسيرته . فهو يَصْدُق ويحسن ويعدل لأن الله أمر بالصدق والعدل والاحسان أما ابن المقفع فباعثه الخلق فلسفى يصدُق لأن فى الصدق شرفاً ورفعة ، ولو لم يأمر به دين لكان فى نفسه حَسَناً ؛ يظهر ذلك فى حكمه ، فقلّ أن يستند فى قوله الى آية أو حديث ، وانما يعلل ذلك تعليلا عقلياً ، فهو رجل مدنى وعالم مدنى ، لارجل دين ولا عالم دين يتجلى فى أقواله ايمان بالله ، وايمان بدين ؛ لكن لا يتجلى فيها ايمان بتفاصيل دين

فلو سئلنا ما ـ كانت ـ منزلة الاسلام من قلبه ؟ لخير ألا نحاول الاجابة ، فنحن لا نستطيع الحكم ـ فى هذا ـ على من هم تحت سمعنا وبصرنا ، فكيف بمن باعدت بيننا وبينه القرون ، وانغمس فى السياسة وأحزابها ، وحارب وحورب بها ؛ فلنكله الى الله والله وحده خير الحاكمين .

* * *

اذاً كانت الثقافة الفارسية عنصراً قوى الأثر فى ذلك العصر ؛ فى الشعر فى الأدب ، فى الحِكَم ، فى القصص ، ، فى الخرافات والأوهام ، فى العادات والتقاليد ، فى نظم الحكم ، فى دُعاة الاصلاح ، فى رجال اللهو والغِناء ، فى الديانات ومذاهب المتكلمين ، فى رجال العلم والتدوين ، فى قصور الخلافة ، فى الخاصة والعامة . وكان لهذا العنصر حُماةٌ ودُعاة ، يعملون كثيراً بداعى العصبية القومية ، وأحياناً بداعى الخير والاصلاح ، وكان لكثير من هؤلاء الدعاة مناصبُ تمكّنهم من بسط نفوذهم ، وحماية دعوتهم ، سراً اذا دعت الحال ، وجهراً إن أمكن الجهر . ولم يكن ابن المقفع الا زعيما من زعمائها العديدين ، وأبطالها البارعين . ولم تنتشر دعوتهم فى لين وهوادة ، بل قوومت من عناصر أخرى فى شدة وعنف ، قاومها العرب إذ أحسّوا الخطرَ ، وقاومتها الأجناس الأخرى دفاعاً عن قوميتها ، وكان صراع لغوى ودينى ، وصراع عادات وتقاليد ، وصراع علمى . وكان النصر فى بعض الميادين لهذا ، وبعضها لذاك ، كما سنبينه فى الكلام على امتزاج الثقافات ان شاء الله .

الفصل الثانى

الثقافة الهندية

قديماً عرف العربُ «الهندَ» فى جاهليتهم واتصلوا بهم تجارياً ، وأولعوا بالعود الطيب الذى يجلب من الهند ، فقال عدىُّ بن الرِّقاع

رُبَّ نار بت أرمقُها تقضم الهندىَّ والغارا

قالوا إنما عنى بالهندىّ العودَ الطيب الذى من بلاد الهند كما أولعو بالسيوف الهندية ، وسمّوا السيف المطبوع من حديد الهند : المُهنّد ، وقالو سيف مهنّد وهندى وهندُوانى إذا عمل ببلاد الهند وأُحكم عمله ، واشتقوا منه فقالوا هنّدَ السيف اذا شحذه ، وقال قائلهم « كلّ حسامٍ مُحْكم التّهنيد » قال الأزهرى والأصل فى التهنيد عمل الهند [1] وسموا كثيراً من نسائهم « هنداً » كما سموا « هند الهنود » ولا أدرى هل أصل التسمية هذه البلاد

ولما فتح المسلمون فارسَ والعراقَ فكّروا فى الهند ، فيحدّثنا البلاذُرى « أنه لما ولى عثمانُ بن عفان ، وولّى عبدَ الله بن عامر بن كريز العراق كتب اليه يأمره أن يُوجّه الى ثغر الهند من يَعْلَمَ علمه وينصرف اليه بخبره ، فوجه حكيمَ بن جبلةَ العبْدىّ فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال . يا أمير المؤمنين ! قد عرفتها وتنحّرْتها . قال فصفها لى قال ماؤها وشَلٌ ، وتمرُها دَقَلٌ [2] ، ولصّها بَطل إن قلّ الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا

---

١ لسان العرب ٢ الوشل القليل والدقل أردأ التمر

جاءوا فقال له عثمان أجائر أم ساجع ؟ قال بل جائر ، فلم يُغزِها أحداً » [1]
وتتابع المسلمون يغزونها ، ويصيبون منها المغانم ، حتى وجّه الحجاجُ محمدَ
بنَ القاسم الثقفي إلى الهند في أيام الوليد ففتح جزءاً عظيماً منها ، وهو المسمى
بالسِّند سنة ٩١ هـ ، ففتح دَيْبُل « Daibul » و « نيرانكوت » المسماة الآن
« بحيدر أباد » وسار الى « رَاوَر » وأخيراً فتح « مُلْتَان » وكان محمد بن القاسم
قائد الجيوش وفاتح هذه الفتوح فتى شاباً لم يتجاوز العشرين ، قال فيه القائل

إنّ المروءة والسّماحة والنّدى لمحمد بنِ القاسم بنِ محمد
ساسَ الجُيوشَ لسبعَ عشرةَ حِجّة يا قُربَ ذلك سُؤْدُداً من مَوْلِدِ !

وقال فيه آخر

ساسَ الرّجالَ لسَبْعَ عشْرةَ حِجّةً ولِدَاتُهُ عن ذاك في أشغال !

وقد غنموا مغانم كثيرة ، وسَبَوْا سَبْياً كثيراً ، انتشر كشأن السبايا في المملكة
الاسلامية ، وأصبح الجيل السندي عنصراً من العناصر المكونة للأمة
الاسلامية حدّث الأغاني قال « بعث الجنيدُ بن عبد الرحمن المرّي إلى
خالد بن عبد الله القَسْري بسبي من الهند بيض ، فجعل يَهَبُ كما هو - للرجل
من قريش ، ومن وجوه الناس ، حتى بقيت جارية منهن جميلة كان يدخرها ، وعليها
ثيابٌ أرضها وط ان فقال لأبي النجم هل عندك فيها شيء حاضر وتأخذها
الساعة ؟ قال نعم أصلحك الله » [2] ثم قال فيها رجزه المشهور الذي مطلعه »

عَلِقْتُ خَوْداً من بنات الزُّطِّ [3]

وفي عصرنا الذي نؤرخه ، جبى السند للعباسيين ، وولي أبو جعفر المنصور

---

١ البلاذري ص ٤٣٨ ٢ أغاني ٩ ٧٩ ٣ الزط جيل من الهند معرب
« جت » و تطلق الآن على سكان اقليم البنجاب

هشامَ بن عمرو التَّغْلِبي عليها سنة ١٤٢ فتوسع فى الفتح شمالا ، ففتح «كابل» و «كشمير» وأصاب سبْيا ورقيقاً كثيراً . واتصلت العلاقات التجارية بين السند والمملكة الاسلامية ، فكان يأتى منها العُود والسكر ، والعاب الهندى[1]

* * *

وما تم الفتح حتى رأينا الحركة العلمية تتبعه ، فكان بعض الفاتحين أنفسهم من العلماء ، فالربيع بن صَبِيح البصرى أشهر المحدثين ، وأولهم تدويناً للحديث ، كان فى الجيش الذى سيَّره المهدى سنة ١٥٩ لغزو الهند وبهامات[2] وقد ترجم الذهبى لبعض المحدثين فى السند فى كتابه تذكرة الحفاظ[3] وهكذا لم يكن الجيش الاسلامى فاتحا فقط ، بل ـ كان أيضا ـ ناشراً للدعوة ومعلما

ومن ناحية أخرى سَرعان ما رأينا الموالى الذين جُلِبوا من الهند، وغُنِموا فى الحرب وورِّعوا على الجند ، ينبغ منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدِّثون فمن الشعراء كان أبو عطاء السِّندى ، وهو شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، وكان أبوه سِنْدِيًّا لا يفصح ، ونشأ ابنه فى المسلمين شاعرا كبيراً ، وإن كان فى لسانه لُكْنة شديدة ولُثغة ، كان يقول فى مرحبا « مرهبا » وفى حياكم الله « هياكم الله » وفى الرُمح « الرُّمْ » وفى جرادة « زرادة » وفى الشيطان « سيطان » وفى أطن « أزن » حتى اضطر أن يتخذ له غلاما ينشد شعره تحامياً من أن ينشده بلسانه وهو القائل

أعْوزَتْنى الرُّواةُ يا ابن سليم وأبَى أن يُقيمَ شِعرى لِسانى

وَعَلاَ بالذى أجمجمُ صَدْرى وجَفَانى لِعُجْمَتى سُلطانى[4]

---

[1] المسالك والممالك لابن خرداذبه ص ٦٢ [2] انظر ابن الأثير ٣ ١٧

[3] جزء ٢ ص ٦٥ و٢٥٦ [4] الجمجمة إخفاء الشىء فى الصدر

وإن دَرَتْني العيونُ إذْ كان لَوْني حالكاً مُحْتَوًى من الألوان [1]
فضرَبْتُ الأمورَ ظهراً لبطنٍ كيفَ أحتالُ حيلةً لِلِساني
وتيقَّنتُ أنني كنتُ بالشعرِ فصيحاً وبانَ بعضُ بَيَاني

ولما أمر أبو جعفر المنصور الناسَ بلبس السواد قال

كُسيتُ ولم أكفُرْ من الله نعمةً سواداً إلى لوني ودَنًّا مُلَهْوَجاً [2]
وبايعتُ كُرْهاً بيعةً بعد بيعةٍ مُبَهْرَجَةً أن كان أمراً مبهرجاً

وقد كرهه العباسيون لأنه قال كثيراً في مدح الأمويين، فلما تحولت الدولة أراد أن يتحول فلم يقبلوا منه، فكان يذمهم، ومن ذلك قوله هذا، وقوله

فليتَ جَورَ بني مروان عادَ لنا وليتَ عَدْلَ بني العباس في النارِ [3]

ولم يصل إلينا من شعره كثير حتى نتبين إن كان فيه معان جديدة كسبها من أصله الهندي .

واشتهر من اللغويين ممن أصله هندي ابن الأعرابي (كان أبوه زياد عبداً سندياً) وكان ابن الأعرابي علماً من أعلام اللغة والأدب والشعر، أملى على الناس ما يحمل على أجمال . وألف تآليف كثيرة، وتلمذ له كثيرون من أشهرهم ثعلب وابن السكيت ولم يبق لنا من كتبه إلا كتاب في أسماء البئر وصفاتها [4] وكتاب في أسماء الخيل وفرسانها [5] ومن كتبه التي ألفها كتاب الأنواء ولو وصل إلينا لعلمنا هل تأثر فيها بمعارف الهند أو اقتصر

---

١ المحتوى : البغيض المكروه
٢ الدن والدنية : قلنسوة القاضي، والملهوج : المفكك غير المحكم
٣ اقرأ ترجمته في الأغاني جزء ١٦ ص ٨١ وما بعدها وفي طبقات الشعراء لابن قتيبة
٤ نشر في مجلة المقتبس مجلد ٦ جزء ١ ٥ في دار الكتب المصرية من كتب الشنقيطي

على معارف العرب ، على النحو الذى ألمّ فيها غيره من علماء العرب

ومن المحدثين الهنديين أبو معشر نجيح السندى ، صاحب المغازى سمع نافعاً ونصراً من التابعين ، وكان ألكن يقول حدثنا محمد بن « قعب » يريد كعب ، الخ ، الخ

هذا نوع يمثّل لنا اندماج الهنود فى المسلمين ، واعتناقهم الاسلام وتعلّمهم علماً اسلاميا عربياً ، ونبوغ بعضهم فيه وقد رأينا قبل فيما نقلنا عن الجاحظ ؛ اشتهار السنديين بحسن القيام على المال وتدبيره حتى « لا ترى بالبصره صيرفياً الا وصاحب كيسه سندى »

والآن نريد أن نتعرض للجانب الآخر من الموضوع ، وهو تأثير الهنود فى الثقافه الاسلامية .

أثّر الهنودُ فى الثقافة الاسلامية من ناحيتين - ناحية مباشرة - وذلك باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة ، ومن طريق الفتح العربى فان هذا الفتح صيّر ما فتح من بلاد السند جزءاً من الممالك الاسلامية تخضع لنظامها ، وتجرى عليها أحكامها ، وينتقل المسلمون اليها وينتقل الهنود الى أنحاء العالم الاسلامى المختلفة وكل من هؤلاء وهؤلاء يحملون ثقافتهم ، ويتبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السلَع

وناحية غير مباشرة وذلك نقل ثقافتهم بواسطة الفرس ، فان الفرس اتصلوا بالهنود اتصالا وثيقاً قبل الفتح الاسلامى ، وأثروا فيهم وتأثروا بهم وأخذوا كثيراً من الثقافة الهندية ، وأدمجوها فى ثقافتهم ، فلما نقلت الثقافه الفارسيه الى العربيه ، كان معنى هذا نقل جزء من الثقافه الهنديه فى ثناياها ،

وقد عدّ المسلمون الهنودَ احدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة ، وهى الفرس والهند والروم والصين . وقال الجاحظ فيهم « اشتهر الهند

بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ، والخراط والنحت والتصاوير ، والصناعات الكثيرة العجيبة »[١]

وقال المسعودي « ذكر جماعة من أهل العلم والنظر . أن الهند كانت قديم الزمان الغرّة التي فيها الصلاحُ والحكمة » ثم ألمّ بطرف من الهيئاتهم ورياضتهم وألعابهم الى أن قال : « والهند في عقولهم وسياستهم وحكمهم ، وألوانهم وصفاتهم ، وصحّة أمزجتهم ، وصفاء أذهانهم ، ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان »[٢]

وقال الأصفهاني في محاضرات الأدباء ان الهند لهم معرفة الحساب والخط الهندى ، وأسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء والرقى وعلم الأوهام ، وخرط التماثيل ونحت الصور ، وطبع السيوف والشطرنج ، والجنكلة ـ وهى وتر واحد يجعل على قرعة فيقوم مقام العود ـ ولهم ضروب الرقص ، والثقافة والسحر والتدخين »[٣].

وقال القِفْطي « ان الأمم الثمانى التى عُنيت بالعلوم هم الهند ، والفرس والكلدانيون ، واليونانيون ، والروم ، وأهل مصر ، والعرب ، والعبرانيون وهذه الأمم المذكورة هم الذين اعتنوا بالعلوم واستخراجها ، وباقى الأمم لم تعن بشيء من ذلك ولا ظهر لها شيء منه »[٤]

وقال فى موضع آخر « والهند هم الأمة الأولى كثيرة العدد فخمة الممالك ، قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز فى فنون المعرفة كل الملل السالفة . وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايتهم بالعلوم وكان الهند عند جميع الأمم معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلّت تآليفهم عندنا فلم يصل الينا الا طرف من علومهم ولا سمعنا الا بالقليل من علمائهم »[٥]

---

١ رسائل الجاحظ ص ٧٣ ٢ مروج الذهب ١ ٣٥ وما بعدها
٣ ص ١ ٩٣ ولعله التدخيل ٤ أخبار الحكماء ص ٢٧ ٥ ص ٢٦٦

وكان تأثير الهند من نواح: أهمها الالهيات، أو المقالات الدينية، والرياضيات أو الحساب والنجوم، والأدب وما يتبعه من فن.

الالهيات — كان للهند فلسفة كما لليونان فلسفة، وقد بحث مؤرخو الفلسفة في مبلغ تأثير إحداهما في الأخرى، وما أخذ اليونان عن الهند، وما أخذ الهند عن اليونان — مما لا مجال لبحثه هنا — ولكنا نقول إن للفلسفة الهندية أوصافاً خاصة تميزها عن الفلسفة اليونانية. ذلك، أن الفلسفة الهندية امتزجت امتزاجاً تاماً بالدين، واصطبغت صبغة شعرية لا صبغة علمية، لم تتدرج من المحسوس إلى المعقول، ورضيت في كثير من مواقفها بالتعبير الشعري، المملوء بالمجازات والاستعارات والخيـــالات، ولم تنهج المنهج العلمي الذي يتطلب التعبير بالحقائق لا المجازات. مثال ذلك أن تقول: إن العالم كلّـه مشتق من شيء واحد أبديّ أزليّ لا يقبل التعبير يسمى «بَرَهْـمن» ثم إذا شرَحَتْ كيف تَخَلّق هذا العالمُ من «برهمن» قالت: «كما تتشكل الحديدة المحماة في النار إلى آلاف من الأشكال، كذلك تخلق الأشياء من الأزلي الأبدي ثم تعود إليه» أو تقول: كما ينبعث النسيج من العنكبوت، أو الشرر من النـــار، كذلك يخرج الحيوانات والعالمُ وكلُّ شيء، من ذلك الأصل».

فأنت ترى أن هـذه تشبيهاتٌ ترضي الخيالَ، ولا ترضي العقل. وهكذا ملئت الفلسفة الهندية بمثل هذه التعبيرات في كثير من شروحها. وقد يكون لهـا العذر في أنها تحاول شرحَ شيء من الصعب إدراكه، والتعبيرُ عنه تعبيراً رياضياً، أو تعبيراً علمياً، وأنها تنتقل من محسوس يمكن التعبير عنه إلى لا محسوس يصعب توضيحه. ولكن الفلسفة اليونانية — في مثل هذه المواقف — لم تسلك هذا السبيل، وحاولت جهد طاقتها أن تعبّر التعبير العلمي، وإن كان في المدرسة الأفلاطونية شيء من الشعر.

كذلك مما خالف فيه الفلسفةُ الهندية الفلسفةَ اليونانية، أن الأولى حددت

الغرضَ من الفلسفة خدمة الانسان ، بينما الفلسفة اليونانية تتطلب المعرفة للمعرفة . فالباعث الأساسى للفلسفة عند الهنود شوق الانسان للخلاص من آلام هذا العالم ومصايبه وعند اليونان الباعث الأول على الفلسفة العجب ، عجب من مظاهر العالم فأراد أن يتعرّفها فتفلسف .

* * *

انتشرت فى الهند ديانة البراهمة ثم البوذية ، ومن الاطالة أن نعرض لشرح هاتين الديانتين فى عقائدهما وأصولهما وقد وصف «البيرُونىّ» ديانة الهند التى رآها فى القرن الرابع الهجرى ، وكان دقيقاً صادق الوصف ، عالماً باللغة السنسكريتية ، عاش فى الهند زمناً طويلا ، وخبر أحوال أهله ، ووضع فى ذلك كتابا أهمها : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة »[١] وصف فيه عقائدهم ، وعلومهم وآدابهم وأحوالهم الاجتماعية وقد أبان البحث العلمى الحديث ما للبيرونى من تحرٍّ للحق ، واخلاص للعلم ، وإصابة فى كل ما وصف ـ الا فى القليل النادر الذى أوقعه فيه اعتمادُه على نفسه فى فهم كلمة لغوية لم يكن فيها مصيبا ، وأحيانا نقله عمن أخطأ فى خبره ـ وقرب عهد البيرونى من عصرنا الذى نؤرخه يجعلنا نعتقد أن حالة الهند فى عصرنا العباسى الأول تشبه تمام الشبه ما وصفه « البيرونى » معتمداً على ما شاهد وسمع وقرأ فى كثير من الكتب الهندية باللغة السنسكريتية

وصف الهنود بالاعجاب بأنفسهم ، والاعتداد بأمّتهم ، والازدراء بمن عداهم « يعتقدون فى الأرض أنها أرضهم ، وفى الناس أنهم جنسُهم ، وفى الملوك أنهم رؤساؤهم ، وفى الدِّيانة نِحْلتهم ، وفى العلم أنه ما معهم وفى طبعهم الضن بما يعرفونه ، والافراط فى الصيانة له عن غير أهله منهم ، فكيف عن غيرهم ! على أنهم لا يظنون أن فى الأرض غير بلادهم ، وفى الناس غير

---

١ طبع فى لندن

سكانها ، وأن للحاق غيرهم علماً حتى أنهم إن حُدّثوا بعلم أو عالم فى خراسان وفارس استجهلوا المخبرَ ، ولم يصدقوه للآفة المذكورة ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم ا على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة فهذا « برَهْمِن » أحد فضلائهم حين يأمر بتعظيم البراهمة يقول ان اليونانيين ـ وهم أنجاس ـ لمّا تخرجوا فى العلوم وأنافُوا فيها [١] على غيرهم وجب تعظيمهم » [٢]

ولما ذكر اعتقادهم فى الله ، فرّق بين خاصتهم وعامتهم ، لأن طباع الخاصة تقصد التحقيق فى الأصول ، والعامّة تقف عند المحسوس ، ثم شرح عقيدة الخاصة فاذا هى توافق عقيدة المسلمين فيه ، فقال « واعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر الحكيم الحى المحيى المدبّر المبقى ، الفرد فى ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شىء » [٣] ثمّ استدلّ على أن هذا عقيدة الخاصة من الهنود بنصوص من كتبهم القديمة ، ثم وصف عقيدة العامة «وأن الأقاويل عندهم اختلفت وربما سمجت ، كما يوجد مثله فى سائر الملل وفى الاسلام من التشبيه والاجبار ، ومثّل لذلك عند الهنود بأن خاصتهم يقول انه محيط بكل شىء حتى لا يخفى عليه خافية ، فيظنُّ عامتُهم أن الاحاطة تكون بالبصر، والبصر بالعين ، فيصف الله بألف عين عبارة عن كمال العلم

وقد أطال البيرونى فى وصف الفلسفة الدينية للهند من الاعتقاد بالله والموجودات العقلية والحسية ، وتعلق النفس بالمادة ، والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار . وكيفية الخلاص من الدنيا ، ومنبع السنن والنواميس والرسل ، ونسخ الشرائع وقارن فى كثير من المواضع بين عقائد الهند والاسلام ، والصوفية والنصرانية ، والفلسفة اليونانية والأفلاطونية

---

١ أناف زاد ٢ تحقيق ما للهند من مقولة ص ١١ ٣ ص ١٣

الحديثة ، مما يخرج بنا عن القصد لو شرحناه

غير أن هنا مسألة هامة لابد من الاشارة اليها ؛ لأنها خاصّة من خواص الهند ، ولها أثر كبير في المسلمين ، تلك هي مسألة « تناسخ الأرواح ». وقد قال فيها البيروني نحو « كما أن الشهادة بكلمة الاخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والإسبات علامة اليهودية ؛ كذلك التناسخ عَلَمُ النِّحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ، ولم يُعَدَّ من جملتها ! » [١]

وشرح نظريتهم في التناسخ أن الأرواح لا تموت ، ولا تفنى وأنها أبدية الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصّها ولا ريح تُنشفها ولكنها تنتقل من بدن الى بدن ، كما يستبدل البدنُ اللباسَ اذا خلق ، وترقى النفسُ في الأبدان المختلفة كما يترقَّى الانسان من طفولة ، الى شباب ، الى كهولة ، الى شيخوخة ذلك أن النفس طالبة للكمال ، شيِّقة الى العلم بكل شيء . وهذا يحتاج الى زمن فسيح ، وعمر الانسان وعمره قصير ، فلا بد من تنقل النفس من بدن إلى بدن وفي كل بدن تستفيد تجارب جديدة ، ومعلومات جديدة فالأرواح النافعة تتردد في الأبدان العالية ، وهي تتردد من الأرذل الى الأفضل ، دون عكسه ، لتترقى النفس في الكمال ، حتى تتحقق شوقها بعلمها ما لم تعلم ، واستيفائها شرفَ ذاتها ، واستغناؤها عن المادة فتُعرض عنها ، و تتحد العاقل والعقل والمعقول ، ويصير واحداً » .

وقد ربطوا الثوابَ والعقابَ والجنةَ والنارَ بنظرية التناسخ فقالوا :

ان الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر ، والعلم من الجهل ، فالأرواح الشرّيرة تتردد في النبات ، وخَشاش الطير ، ومَرْذول الهوام ، الى أن تستحق الثواب فتنجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى وقال بعضهم : « لو لم أكن صائراً الى آلهة حكماء سادة أخيار ، ثم من بعدُ الى ناس ماتوا خير ممن هنا

---

[١] البيروني ص ٢٤

لكان تركى الحزنَ على الموت طلْماً ! » ، « وقال بعض من مال إلى التناسخ من المتكلمين إنه على أربع مراتب هى «النسخ» وهى التوالد بين الناس ، بأن ينسخ من شخص إلى آخر ، وضده «المسخ» ويخص الناسَ بأن يمسخوا قردة وخنازير وفيلة ، و «الرسخ» كالنبات ، وهو أشد من النسخ لأنه يرسخ ويبقى على الأيام ، ويدوم كالجبال وضده « الفسخ » وهو للنبات المقطوف ، والمذبوحات لأنها لا تتلاشى ولا تعقب »[1]

وقد لعبت نظرية التناسخ دوراً هاماً فى الفلسفة اليونانية ، وفى الديانة المانوية ، وفى المذاهب الاسلامية ، وفى التصوف ، وفى النصرانية .

وقد قال فيثاغورس بنظرية التناسخ ، ويرجح كثيرون من مؤرخى الفلسفة اليونانية أنها مأخوذة ـ فى الأصل ـ من الفلسفة الهندية ، ثم أخذها عن فيثاغورس ، إمبدُكليس ، وأفلاطون ـ قد كان فيثاغورس يرى تناسخ الأرواح بين الانسان والحيوان ، وأن تحرر النفس يرقّيها فى دورة الحياة ، وذلك بالشعائر الدينية ، وبالفكر والتأمل والفلسفة ـ وأفلاطون ربط رأيه فى عالم المثُل ، ونظريته فى تذكر المعلومات قبل حلول الروح بالجسم بنظرية التناسخ وإن اختلفت نظريته فى التفاصيل عما حكاه بوذا ، من تذكّره أشياء كثيرة ، حدثت له فى مواليده الأولى ، وقد نقض أرسطو رأى فيثاغورس وأفلاطون فى التناسخ ، وخاصّة حلول روح إنسان فى جسم حيوان ، وذهب إلى أن ما كان وظيفة لشيء لا يمكن أن يكون وظيفة لآخر الخ

وقد حكى « البيرونى » أن « مانى » نُفِيَ من بلاد فارس فدخل أرضَ الهند ونقلَ التناسخَ منهم الى نحْلته ، وقال إن الحواريّين لما علموا أن النفوس لا تموت ، وأنها مترددة فى صور مختلفة ، سألوا المسيح عن عاقبة النفوس التى لم تقبل الحقّ فقال أىّ نفس لم تقبل الحقّ هالكة لا راحة لها ،

[1] البيرونى ص ٣٢

وتعني هلاكها عدامها لا تلاشيها »[1].

أما في الاسلام فكان أثر التناسخ في بعض الفرق الدينية كبيراً ، فقد قال احمد بن حائط (وقد كان من المعتزلة ثم تبرءوا منه) وأبو مسلم الخراساني، والقرامطة ، ومحمد بن زكريا الرازي . إن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخر ، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت واحتج احمد بن حائط بقوله تعالى « يأيها الانسان ما غرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدَلك في أيّ صُورَة ماشاء ركّبَك » وبقوله تعالى «جعَل لكم من أنفُسِكم أزْواجاً ومنَ الأنعَامِ أزواجاً يَذْرَؤُكُم فيهِ »[2]

وقد أوضح الشهْرستاني قول احمد بن حائط في التناسخ فقال . إنه كان يقول إن الله أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين في دار سوى هذه الدار التي هم فيها اليوم ، وخلق فيهم معرفته والعلم به ، وأسبغ عليهم نعمه فابتدأهم بتكليف شكره ، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به وعصاه بعضهم في جميع ذلك وأطاعه بعضهم في البعض دون البعض فمن أطاعه في الكل أقرّه في دار النعيم التي ابتدأهم فيها ، ومن عصاه في الكل أخرجه من تلك الدار إلى دار العذاب وهي النار ، ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض أخرجه إلى دار الدنيا ، فألبسه هذه الأجسام الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضرّاء على صُوَر مختلفة من صور الناس ، وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم . . ثم لا يزال يكون الحيوان في الدنيا كرّة بعد كرة وصورة بعد أخرى ، ما دامت معه ذنوبه »[3]

وقبل هؤلاء كان السّبَئيّةُ أصحابُ عبد الله بن سبأ ، فقد رَوَوا عنه أنه قال لعلي أنت أنت أي أنت الاله وتبعته فرقة فقالت بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي[4] ومثل ذلك قال الغالية من الشيعة[5]

---

١ البيروني ٢٧ ٢ الفصل في الملل والنحل لابن حزم جزء ١ ص ٩ و ٩١ وانظر فيه الدعائم كذلك ٣ جزء ١ ص ٧٧ وما بعدها ٤ الشهرستاني على هامش ابن حزم جزء ٢ ص ١١ ٥ الشهرستاني ٢ ١

وبعد هؤلاء كان النصيرية يعتقدون أن مرتكبى الآثام يعودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى ، أو مسلمين سُنّيين ، أما من لم يؤمن بعلى فيعودون جمالا أو بغالا أو حميراً ، أو كلاباً أو نحو ذلك من أصناف الحيوان . وبمثل ذلك يقول عوام الدروز .

وفى بعض قصص ألف ليلة وليلة ما يشير إلى مذهب التناسخ .

وقد رأيت قبلُ : أن نظرية التناسخ تُسْلم الى مذهب الحُلول ، فيتحد العقل والعاقل والمعقول وتصير كلها شيئاً واحداً . وهذا النظر كان له أثر كبير فى مذهب الصوفية ، كما سنشرحه إن شاء الله عند الكلام فى التصوف .

ومن مذاهب الهند القائلة بالتناسخ ، مذهب يسمى «السُّمَنِيّة» نسبة الى « سومنات » وهو اسم صنم كان فى الهند ، أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين سنة ٤١٦ كما ذكر الجزرى فى تاريخه . وقد ذكر البيرونى أنها فرقة شديدة البغض للبراهمة ، وقد كانت خراسان وفارس والعراق والموصل الى حدود الشام فى القدم على دينهم ، إلى أن ظهر زرادشت من أذربيجان ، ودعا ببلخ إلى المجوسيه ، وراجت دعوته فانجلت السمنية عنها إلى مشارق بلخ [1] .

وقد عُرف هذا المذهب بين المسلمين فى العصر الذى نؤرخه ، فيحكى لنا الأغانى : « أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام ، عمرو بن عُبَيد ، وواصل ابن عطاء ، وبشّار الأعمى ، وصالح بن عبد القُدّوس ، وعبد الكريم بن أبى العَوْجاء ، ورجل من الأزد (قال أبو احمد يعنى جرير بن حازم) فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ، ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة . وأما بشار فبقى متحيراً مُخَلِّطاً ، وأما الأزدى فمال الى قول السمنية ، وهو مذهب من مذاهب الهند وبقى ظاهره على ما كان عليه » [2]

---

١ ما للهند من مقوله ص ١٠   ٢ أغانى ٣ : ٢٤

وقد عَرَفَ علماء المسلمين السمنية، وناقشوهم طويلا فى كتب التوحيد أو علم الكلام – وأكثر مناقشتهم كانت حول « نظرية المعرفة » ، فيؤخذ من حكاية قول السمنية أنهم كانوا يقولون إن العلم أو المعرفة لا تحصل الا من باب الحواس فكل علم ليس أساسه الحس لا يكون علماً صحيحاً ، أما النظر المجرّد ، غير المؤسس على الحس فلا يفيد علماً سواء كان ذلك فى الالهيات أو غيرها[1] ، وقد لخص صاحب كشاف مصطلحات الفنون مذهبَهم فى هذا بقوله « انهم يقولون بأنه لا يفيد العلمَ الا الحس » فكأنهم بذلك سبقوا « لوك » ومن تبعه ، اذ يقولون « ان أداة المعرفة الصحيحة هو الادراك بالحس ، وكل الأفكار الراقية الجليلة التى تفوق السحاب رفعة ، وتعلو علوّ السماء إنما أصلها الحواس يَسْبَح العقل مسافات بعيدة ويفكر ، ويتأمل تأملات رفيعة ، وهو فى كل هذا لا يخرج قيد شعرة عمّا أمدّته به الحواس أو التأمل » وهم يعارضون فى ذلك نظرية الذهنيين أو العقليين ، الذين يرون أن بعض المدركات ليس سببها الحواس . وانما سببها الإدراك العقلى المحض كما فى الرياضيات والالهيات

* * *

أما فى الرياضيات فقد اتصل المسلمون بالهند ، وأخذوا عنهم قبل أن يتصلوا – اتصالا وثيقاً – باليونان فقد ذكروا « أن وفداً من الهند وفَدَ على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها ، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته ، وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه « براهْمَسْبُهُطَسِدْهانْت » ألفه سنة ٦٢٨ م أو (٦ و ٧) هجرية الفلكى الرياضى « برهمكبت » فكلف المنصور ذلك

---

[1] انظر حكاية قولهم والرد عليهم فى كتاب المواقف جزء ١ ص ١٣٧ وما والمطالع ص ٦١

الهندى باملاء مختصر الكتاب، ثم أمر بترجمته الى اللغة العربية، وبأنه تخرج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب، وما يتعلق به من الأعمال. فتولى ذلك الفزارى، وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب، حتى انهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية»[1] وقد اقتصر العرب على الجزء الأخير من الاسم السابق وهو «سِدْهانت» ثم حرفوه قليلا وسموه «السند هند»[2]

وقد أخذ عن هذا الرجل الهندى الذى وفد على المنصور ابراهيم بن حبيب الفزارى، ويعقوب بن طارق[3]

وكما أخذ المسلمون عن الهند كتاب السند هند، ترجموا كتاباً ثانيا اسمه «الأَرْكَنْد» وثالثاً اسمه «الأَرْجَبْهر»[4]

وقد قال الاستاذ «نللينو» بعد بحثه العميق «كفت هذه الملاحظات دليلا على شدة تأثير كتب الهند فى أوائل نمو الفلك عند العرب وسنرى فيما بعد. أن العرب أخذوا طرقا مهمة كثيرة النفع مجهولة لليونان فى حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية»[5] وقال فى موضع آخر «فاتضح مما تقدم أن تأثير علماء الهند والفرس فى نشأة ميل العرب الى ذلك العلم الجليل سبق تأثير اليونان ولو بزمان قليل، ولكن لم ينل العرب ما نالوا من الثقافة والكمال والشهرة فى ذلك الفن. لو قصروا عنايتهم على نقل الكتب الموصوفة الى الآن لأنها مصنفات عملية مقتصرة على منطوق القواعد، وشرح استعمال الجداول، خالية من البراهين وبيان العلل»[6]

---

١ الاستاذ نللينو فى كتابه العلم علم الفلك، تاريخه عند العرب ص ١٤٩ وفيه فصول ممتعة عن علم الفلك عند الهنود، ومبلغ ما أخذه العرب منهم، وقد اعتمدنا عليه فى هذا الموضوع.
٢ ص ١٥٠ ٣ انظر المصدر نفسه ص ١٥٦ وما بعدها ٤ ص ١٧٢ و١٧٣
٥ ص ١٨ ٦ ص ٢١٤

ويؤيد هذا النظر ما قاله البيروني من قبل ، فانه رأى أن فلكي الهنود لا يبحثون في العلل ، وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يأخذ عن الهنود ، فقال « انى كنت أقف من منجميهم (منجمي الهند) مقام التلميذ من الأستاذ لعُجمتي فيما بينهم ، وقصوري عما هم فيه من مُواضعَاتهم ، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أُوقفهم على العلل ، وأشير الى شيء من البراهين ، وألوّح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات ، فانثالوا عليّ متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين وكادوا ينسبوني إلى السحر »[1] .

وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من الهنود، كلفظة «الجيب» في حساب المثلثات [2]

كما اقتبسوا كثيراً من نظريات الهند في الحساب والهندسة مما ليس من موضوعنا الأدبي [3] كذلك كان في بغداد أطباء هنود ، يمثلون الطب الهندي ـ بجانب الطب اليوناني ـ اشتهر منهم في عهد الرشيد « صالح بن بهلة الهندي » ، قال جعفر بن يحيي البرمكي لهرون الرشيد ـ وقد مرض ابن عمه ابراهيم بن صالح ، فرآه جبريل بن بختيشوع ، وأخبر الرشيد بأنه لا أمل في شفائه ، وسيموت في المساء ـ : يا أمير المؤمنين جبريل طِبُّه رومي، وصالح بن بهلة الهندي في العلم بطريقة أهل الهند في الطب ، مثل جبريل في العلم بمقالات الروم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر باحضاره ، ويوجهه إلى ابراهيم بن صالح ليفهما عنه فعل .

ويقول الجاحظ إن يحيي بن خالد جلب أطباء من الهند مثل « منكه » و « بازيكر » و « قلبرقل » و « سندباد » [5]

---

[1] ما للهند من مقولة ص ١٢ [2] نلينو ص ١٦٨

[3] انظر مادتي حساب وهندسة في دائرة المعارف الاسلامية ففيها ، كما أخذ المسلمون من الهند وفيها اشارة الى مراجع بعض الباحث في الموضوع

[4] أخبار الحكماء للقفطي ص ٢١٥ وفيه أنه رآه وكان طبه أدق من نظر جبريل فلم يبرأ ابراهيم من مرضه هذا على عكس ما أخبر جبريل [5] البيان والتبيين ١ ٧٨

الأدب وما إليه : كان عند الهنود نحو وصرف، وقالوا في أولية النحو إن أحد ملوكهم كان يوماً في حوض مع نسائه فقال لإحداهن « ماود كندهي » أي لا ترشّي عليّ الماء، فظنت أنه يقول « مود كندهي » أي احمل حلوى فذهبت فأولت بها فأنكر الملك فعلها فخاشنها في الخطاب، فاستوحش الملك لذلك، وامتنع عن الطعام كعادتهم، واحتجب إلى أن جاءه أحد علمائهم وسلّى عنه بأن وعده تعليم النحو والصرف، وذهب إلى « مهادبو » مصلياً مسبحاً وصائماً متضرعاً الى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي ووعده التأييد فيما بعدها من الفروع، فرجع العالم إلى الملك وعلمه إياها، وذلك مبدأ هذا العلم [١]

وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية ولعل مما يرجح هذا الظن، أن الحكاية العربية مختلفة الأشكال، متعددة الروايات، فمن قائل إن علي بن أبي طالب هو الذي أوْعَزَ إلى أبي الأسْوَد بوضع النحو، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب، ومن قائل انه زياد بن أبيه ثم من قائل ان سبب الوضع؛ أن قارئاً قرأ « لا يأكله الا الخاطئين » ومن قائل ان قارئاً قرأ « انّ الله بَرِيءٌ مِن المشْرِكين ورَسُولِهِ » ومن قائل ان ابنة أبي الأسود قالت « ما أحسنُ السماء » تريد التعجب فقال لها نحومها - يظنها تستفهم - فقالت يا أبت انما أخبرتك ولم أسألك ! فقال لها اذن فقولي « ما أحسنَ السماءَ ! » الى آخر ما قالوا مما يحمل على الشك في القصة، ثم هناك شَبَه بين ذهاب العالم الهندي الى « مهادبو » مصلياً مسبحاً، وبين ذهاب أبي الأسود الى علي بن أبي طالب بسأله المعونة في وضع النحو، وهكذا

وكان للهنود شعر وولع بالشعر والنظم حتى شكا « البيروني » من نظمهم

---

[١] البيروني ص ٦٥

لقواعد الرياضة والفلك . لأن ذلك يحرجهم أحياناً من ضبط القواعد ، وما يستلزمه من دقة فى تعبير لا يتسنى فى النظم ووضعوا للشعر بحوراً وأوزاناً ، عكف البيرونى على دراستها وبيّنها فى كتابه ، ثم قال « ومن الممكن أن يكون الخليل بن احمد سمع أن للهند موازين فى الأشعار ، كما ظن به بعض الناس » [١]

وأهم ما استفاد الأدب العربى من الهند أمور ثلاثة

(١) ألفاظ هندية عُرّبت ، وقد كان ذلك أيامَ كان العرب يتاجرون مع الهند ، وينقلون سِلَعاً هندية ويحملون مع هذه السلع أسماءها، وقد حكى السيوطى ألفاظاً هندية عربت ، ووردت فى القرآن الكريم ، مثل زنجبيل وكافور — ومما ورد فى اللغة العربية من الألفاظ الهندية الآبنوس والببغاء والخيزران والفلفل والأهليلج وغير ذلك من أسماء النباتات والحيوانات الهنـــدية

ويضاف الى ذلك آراء فى الأدب والبلاغة نقلت الينا عنهم ، وقد كان من أتى بغداد من أطباء الهند وغيرهم يحملون معهم كتباً وصحفاً فى مواضيع شتى منها الأدب ، حكى الجاحظ أن مَعْـمَراً أبا الأشعث قال قلت لبهلة الهندى — أيام اجتلب يحيى بنُ خالد أطباء الهند — ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أُحْسِن ترجمتَها لك ،ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث فلقيت تلك الصحيفة التراجمة فاذا فيها « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكنَ الجوارح ، قليل اللحظ ، متخيّر اللفظ ، لا يكلّم سـيـد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوكَ بكلام السُوقَـةِ . ويكون فى قواهُ فضل للتصرف فى كل طبقة ،ولا يدقق المعانى كلَّ

---

[١] البيرونى ص ٧١

التدقيق ، ولا ينقّح الألفاظ كلّ التنقيح ، ولا يُصفّيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادفَ حكيماً أو فيلسوفاً عظيماً » [١]

إذن كان مع هؤلاء الأطباء الهنود صحف في موضوعات غير موضوعاتهم الطبية ، وكان العلماء يخالطونهم ، ويسألونهم في شتّى المسائل ، وكان هناك تراجمة يترجمون من الهندية إلى العربية وكان هناك شوق لتعلم الناس ما عند كل أمة ليقارنوا بها ، ويأخذوا أحسنها وقد نُقِلت إليهم هذه الجملة الهندية في البلاغة ، ورأيناها تصاغ فيما بعد في كتب البلاغة العربية بما سموه «مقتضى الحال»

وقارن التَّنُوخيّ [٢] بين بلاغة الهند وبلاغة العرب ، بأن الأولى مُطْنَبَة مُسْهَبَة والثانية مختصرة موجزة ، إذ ذكر أن خارجياً خرج على بعض ملوك الهند فخرج إليه الملك بنفسه ، فقتله الخارجي ، وملك دارَه ومملكته ، فأحسن السيرة وسلك سبيل الملوك فلما طال أمرُه ، وعزّ ذكرُه وقوي سلطانه ، جمع بعض عقلائهم وحكمائهم وسألهم ، هل ترون فيّ عيباً أو في سلطاني نقصاً ؟ قالوا لا إلا شيئاً واحداً إن أمّنتنا قلناه ! قال أنتم آمنون قالوا : نرى كلّ شيء لك جديداً (يُعَرِّضون بأنه لا عِرْقَ له في الملك) قال : فما حال مَلِكِكم الذي كان من قبلُ ؟ قالوا كان ابن ملك قال فأبوه ؟ قالوا ابن ملك قال فأبوه ؟ إلى أن عدّد عشرة أو أكثر وهم يقولون ابن ملك فانتهى إلى الأخير فقالوا كان متغلباً قال فأنا ذلك الملك الأخير ، وإن طالت أيامي كان الملك بعدي في ولدي ! قال التنوخي : هذا شيء قد سبقت إليه العرب في كلمتين استغنى بهما عن المثل الطويل العجمي ، فقد رَوَت العربُ أن رجلين تهاجرا ، فقال أحدهما لصاحبه نسبي مِنّي ابتدأ ، ونسبُك إليك انتهى » .

(٢) القصص الهندي وقد أولع العرب به ، فقد علمنا قبل أن أصل

---

١ البيان والتبيين جزء ١ ص ٧٩

٢ نشوار المحاضرة ١ ٥٧

« كليلة ودمنة » هندى نقل الى الفارسية ثم نقل من الفارسية الى العربية ، مع زيادات على الأصل الهندى .

وقصة السندباذ ، كما يدل اسمها هندية الأصل نقلت الى العربية قال ابن النديم « وكتاب سندباذ نسختان كبيرة وصغيرة ، والخُلْف فيه مثل الخلف فى كليلة ودمنة ، والغالب والأقرب الى الحق أن يكون الهند صنّفته »[١] وقد عدّد فى الفهرست كتباً كثيرة للهند فى الخرافات والأسمار والأحاديث منها كليلة ودمنة والسندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتاب هابل فى الحكمة ، وكتاب الهند فى قصة هبوط آدم ، وكتاب دبك الهند فى الرجل والمرأة ، وكتاب حدود منطق الهند ، وكتاب ملك الهند القتّال والسبّاح ، وكتاب شاناق فى التدبير ، وكتاب بيدبا فى الحكمة[٢] .

كما أن فى كتاب ألف ليلة وليلة قصصا دل البحث العلمى على أن أصلها هندى ، هذا . الى قصص صغيرة نثرت فى الكتب العربية ، مما نقل عن الهند كالذى قال الجهشيارى : « ومما استحسنه من شدّة التحرز ما حُكى فى كتاب من كتب الهند أنه أهدى الى بعض ملوكهم حلىّ وكسوة ، وبحضرته امرأتان من نسائه ووزير من وزرائه ، فخيّر احدى امرأتيه بين اللباس والحلية ، فنظرت المرأة الى الوزير كالمستشيرة له ، فغمزها باحدى عينيه على أخذ الكسوة . ولحظه الملك ؛ فعدلت عما اشار به من الكسوة واختارت الحلى لئلا يفطن الملك للغمزة ، ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادة وخلقة »[٣] .

وفى كتاب للهند « ان ناسكا كان له عسل وسمن فى جرّة ، ففكّر يوما فقال : أبيع الجرة بعشرة دراهم ، وأشترى خمسةَ أعنُز فأولِدُهن فى كل سنة مرّتَيْن

١ الفهرست ٣٠٥ ٢ ص ٣٠٥
٣ كتاب الوزراء والكتاب ص ١١

ويبلغ النّتاج في سبين مائتين، وانّتاج بكل أربع بقرة، الى آخر القصة المشهورة[١].

(٣) أما النوع الذى أخذوا منه عن الهنود كثيراً فهو الحِكم ، وهو نوع يتفق والذوق العربى ، فهو أشبه شىء بالأمثال العربية ، والجمل القصيرة ذوات المعانى الغزيرة التى أولع بها العرب ، وهى نتيجة تجارب كثيرة ، تركز فى جمله بلمعة والعقل يميل اليها قبل أن يميل الى مثل الفلسفة اليونانية المنظمة بأبواب وفصول وموضوعات فالبحث العميق المفصل المتسلسل ، لا يصل اليه العقل الا بعد أن يمر بطور يعجب فيه بالطرائف المنثوره، والحكم المأثورة

وقد اشتهر الهند بهذا ، وملئت كتب الأدب المؤلفة فى هذا العصر بهذا النوع ، يقول ابن قتيبة

قرأت فى كتاب من كتب الهند « شرُّ المال ما لا ينفق منه ، وشر الاخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن» [٢] وفى كتاب للهند « ثلاثة أشياء لا تنال الا بارتفاع همة وعظيم خطر. عمَل السلطان ، وتجارة البحر ومناجَزَةُ العدو » وفيه أيضاً « ذو الهمة إن حُطّ فنفسه تأبى الاعلوا، كالشعلة من النار يصوبها صاحبها، ولا تأبى الاارتفاعاً» [٣].

وقرأت فى كتاب للهند « ليس من خَلّة يُمدَح بها الغنىُّ الا ذُم بها الفقير فان كان شجاعاً قيل أهوج ، وان كان وقوراً قيل بليد ، وان كان لسِناً قيل مهْذار ، وان كان زِمّيتاً قيل عَيِيٌّ» [٤]

وفى كتاب للهند «العالم اذا اغترب فمعه من علمه كاف ، كالأسد معه قوّته التى يعيش بها حيث توجه » [٥] الخ الخ .

وعقد صاحب كتاب « سراج الملوك » فصلا من حِكَم « شاناق » الهندى يتضمن نصحاً للملوك والولاة بالعدل فى الرعية ،مع ضرب الأمثال وقال ان

---

١ عيون الأخبار ١ ٢٦٣ ٢ عيون الأخبار ١ ٣ ٣ ١ ٢٣١
والرمب الوفور الررس ٤ ١ ٢٣٩ ٥ ٢ ١٢١

هذا الفصل مأخوذ من كتاب لشاناق اسمه « منتحل الجواهر » [١]

ويكل هذا تأثر الأدب العربي ، والشعر العربي جاء في كتاب للهند « لا ينبغي اللاجّاج في اسقاط ذي الهمة والرأي وإذالته[٢]، فانه اما شرس الطبع كالحيّة ان وُطئت فلم تلسع لم يُغْتَرّ بها فيعاد لوطئها وإما سُجُحُ الطبع كالصندل البارد ان أفرط في حَكّه عاد حاراً مؤذياً » تأثر بذلك أبو نواس فقال في لزهير اذا حَدّا وشدَا أقلِلْ وأكثر فأنتَ مِهْذَارُ

سَخُنْتَ من شدّة البرودة حتّى صرْتَ عندي كأنك النارُ

لا يعْجَبُ السامعون من صفتي كذلك الثّلْجُ باردٌ حارُّ

قال ابن قتيبة . « وهذا الشعر يدل على نظره في علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشيء اذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً »

حتى لقد تأثر الشعراء بأقوال الهنود في الفلك ، قال أبو نواس في الخمر

تُخُيِّرَتْ والنُّجُومُ وُقَّفٌ لم يتمكّن بها المَدَارُ

« يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ، ثم سيرها من هناك وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه، واذا عادت اليه قامت القيامة وبطل العالم ، والهند تقول . انه في زمان نوح اجتمعت في الحوت الا يسيراً منها ، فهلك الخلق بالطوفان ، وبقي منهم بقدر ما بقي منها خارجاً عن الحوت »[٣]

ولسنا ننسى أن الهنود — كما ذهب كثير من الباحثين — هم واضعو الشّطرنج وعنهم انتشر في العالم ، ومنهم أخذ المسلمون ، وان اختلفوا هل أخذوه من

---

١ سراج الملوك ص ٣٣١ (٢) أذاله أهانه ٢ طبقات الشعراء ص ٥٠٦

٣ طبقات الشعراء ٥٠٤

الهند مباشرة أو بواسطة الفرس، وللهند فى الشطرنج أشكال من اللعب مختلفة حكاها البيرونى فى كتابه «الهند» وهى تخالف من بعض الوجوه ما هو معروف عندنا اليوم

انتشرت هذه اللعبة عند المسلمين، وقد أهدى هرون الرشيد شطرنجاً إلى «شارلمان» واشتهر قوم بلعبه حتى نسبوا إليه مثل الصُّولى الشطرنجى، وأبى حفص الشطرنجى وتكوّن حوله أدب فارسى وأدب عربى، فالفردوسى نظم فيه صفحات فى لغة شعرية جميلة، والعرب نظموا فيه الشعر الكثير الجميل، كالذى قال ابن الرومى فى أبى القاسم التَّوَّزى الشطرنجى

تَهزِمُ الجمع أوْحَدِيًّا وتُلْـــوِى بالصَّناديد أيّمَا إلوَاءِ
وتحُطُّ الرِّخاخَ بعد الفرازيـــنِ فتزداد شدّةَ استعلاء
ربّمــا هالَنى وحيّر عقلى أخْذُكَ اللاعبين بالبأساء
ورِضاهُم هُناكَ بالنصف والرُّبـــع وأدنى رِضَاكَ فى الإرْبَاءِ
واحتراسُ الدُّهاة منك وإعْصا فك بالأقوياء والضعفــاء
عَن تداببرك اللَّطافِ اللَّواتى هُنَّ أخْفَى من مُسْتَسرِّ الهَبَاء
بل من السّرّ فى ضمير مُحِبٍّ أدّبَتْه عقوبةُ الإفشـــاء
فأحالُ الذى تُديرُ على القَوْ مِ حُروباً دوائرَ الأرْحَاء
وأظنُّ افتراسكَ القِرْنَ فالقِرْ نَ منايا وَشِيكَةَ الإرْدَاء
وأرى أنّ رقْعَة الأدم الأحْمــرِ أرضاً حَلّتْ بهـــا بدماء
غلط الناسُ لستَ تلعبُ بالشِّطْــرنج لكن بأنفس اللُّعبــاء
لك مَكْرٌ يَدِبُّ فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الأعضاء
أو دبيبِ الملالِ فى مُسْتهام مَيِّتٍ إلى غاية من البغضاء

أو مسير القضاء فى ظُلَم الغَيْب إلى من يريده بالتَّواء
تقتل الشاه حيث شِئْت من الرقعة طَبًّا بالقتلة الشنكَراء
غير ما ناظر بعينيك فى الدَّسْت ولا مقبل على الرُسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظَّهْر بقلب مُصَوِّر من ذكاء
ما رأينا سواك قِرْناً يُولّى وهو يُرْدِى فوارس الهيجاء
رُبَّ قوم رأوك ريعوا فقالوا هل تكون العُيونُ فى الأقفاء؟!
تقرأ الدَّسْت ظاهراً فتؤدِّ يه جميعاً كأحفظ القُرَّاء!

***

وأخيراً كان للهند عادات وتقاليد، وشعائر ونظُم وشرائع. فاماتة الحيوان فى الأصل محظورة عليهم ـ قالوا ـ ولكن الناس نبذوا كل أمر ونهى وراء ظهورهم. ونفّذ هذه الأوامر البراهمة لاختصاصهم بالدّين، ومنع الدين إياهم عن اتباع الشهوات[1]، وربما كانت هذه التعاليم هى التى أثّرت فى أبى العلاء، فحرّم على نفسه اللحم وكره ذبح الحيوان، وكان لهم شرائع فى الزواج والعدة وأحكام الجنين والنفاس، وشرائع فى المرافعات وطرق القضاء، ونظامٌ فى العقوبات والكفارات، وأحكامٌ فى الميراث، وعاداتٌ فى أيام الأعياد، ومقام فى طبقات الناس وتحديد العلاقات بينهم[2].

كل هذه الفلسفة الدينية، والتعاليم الرياضية، والقصص والحكم الأدبية، والشعائر والتقاليد الاجتماعية؛ ذابت فى المملكة الاسلامية، وكانت عنصراً هاما من عناصر الآداب العربية.

---

١ أنظر البيرونى فى كتابه « ما للهند من مقولة » ص ٢٧٦
٢ شرح ذلك البيرونى كله حسب ما رأى فى كتابه ص ٢٧٦ وما بعدها

الثقافة اليونانية الرومانية

إذا نحن وصلنا إلى اليونان ، فقد وضعنا أيدينا على كنز لا يفنى ، وثروة لا تقدّر ، وغنى عظيم فى كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق فى الفلسفة ، والرياضة ، والفلك ، فى علوم الطبيعة والحياة والطب فى الأدب ، فى التاريخ ، فى السياسة ، فى الفنون الجميلة لقد نفخوا فى كل ذلك من روحهم ، وغذّوا العقول بآرائهم وأمدّوا العالم بأفكارهم وآدابهم ، وعلمهم وأساطيرهم ، وربّوا الذوق بفنهم ، ونحتهم وتصويرهم .

فأقليدس ظل إماماً فى الهندسة من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن التاسع عشر الميلادى والطبُ ظل قائما فى العصور القديمة ، والقرون الوسطى ، على أساس مادوّن بقراط ، وجالينوس والفلاسفة إلى اليوم ، عيال على تعاليم سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ومن إليهم من فلاسفة اليونان وجمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو منبع لما حدث من نظريات فى السياسة ، وهكذا فى كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن فلسفة المسلمين أسست على فلسفتهم . والمدنية الحديثة بما فيها من علم وأدب تقوم على أكتافهم ، وأول شرارة للنهضة الأوروبية الحديثة انما انبعثت من كنوزهم

يمتاز علومهم وفلسفتهم بميزة يكاد مؤرخو الفلسفة يجمعون عليها ، وهى أن اليونان كانوا يبحثون وراء الحق للحق ، على حين أن كثيراً من الأمم كانت تتفلسف لما ينتج الفلسفة من فوائد مادية ، أو لتأييد قضايا دينية ومن ثم لم يشاءوا أن يعدّوا الآراء الهندية أو المصرية أو الصينية أو الآسورية والبابلية فلسفة ، لأنهم شرطوا فى الفلسفة البحث وراء الحقيقة المجردة

فى حرية تامة وسمو عن المادة ، ولا عدوا الرومانيين أمثال « ماركوس أوريليوس » و « سنكا » و « شيشرون » فلاسفة لأنهم لم يقدموا للعالم آراء فلسفية جديدة ، تزيد فى ثروة الفلسفة اليونانية .

وليس من غرضنا أن نلم بما وصل اليه اليونان فى بحثهم فى كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن ، فذلك ما لا يحتمله فصل فى كتاب [١] وإنما غرضنا أن نعرض لبيان ما اقتبس المسلمون من الثقافة اليونانية الرومانية ، ونبحث فى إيجاز عن أى طريق وصلت هذه الثقافة للمسلمين

كانت فتوح الاسكندر المقدونى لكثير من بلاد آسيا وأفريقية سبباً كبيراً من أسباب انتشار الثقافة اليونانية فى الشرق فقد كانت مملكته بلاد اليونان ومقدونية فى أوروبا ، ومصر وليبيا فى أفريقيه ، وسوريا وفلسطين والعراق وما إليه ، وبلاد الفرس ، وتركستان وأفغانستان وبلوخستان ، وقسما من بلاد الهند فى آسيا . وكان من سياسته التقريب بين هذه البلاد المفتوحة وبلاد الاغريق ، ومزج الجنس الاغريقى بأجناس آسيا وأفريقيا فى الحضارة والعمارة ، ونظم الحكم والثقافة ولهذا كان يحث اليونانيين على سكنى هذه البلاد ومخالطة أهلها ، وينظم مدنها تنظيما يونانيا ، ويشجع الأدباء والكتاب والعلماء على نشر أدبهم وعلمهم ، فكان من ذلك ، ومن الولاة اليونانيين الذين ورثوا الحكم من الاسكندر فى الممالك الشرقية ، أن انتشرت الحضارة اليونانية ، والثقافة اليونانية من عهد الاسكندر وكانت البلاد التى بين دجلة والفرات ، تغلب عليها الثقافة الاغريقية ، حتى ليروون أنه لما وصل موت « كراسوس Crassus الى أورود يس Orodes الملك البرتى [٢] كان يطالع مأساة من روايات يوريبيدس Euripides وظلت هذه الثقافة تنمو وتؤتى ثمرها ، حتى بعد أن

---

١ اقرأ فى هذا Legacy of Greece

٢ والبرث أو البرت هم الفرس الأولى كونت مملكتهم من سنة ٢٥٥ ق م الى ٢٢٦م

انسحب الجيش اليونانى من هذه الأقطار ، واشتهرت فى الشرق قبل الاسلام الى ما بعده مدن كثيرة كانت منبعاً للثقافة اليونانية ، من أشهرها جُنْدَيْسابور ، وحَرّان ، والاسكندرية

جُنْدَيْسابور . مدينة فى خُوزِستان أسسها سابور الأول واليه تنسب ، واتخذها موطناً لأسرى الروم ، ولعل هذا من الأسباب التى جعلتها فيما بعد منبعاً للثقافة اليونانية ، وأسس فيها كسرى أنوشروان مدرسة الطب المشهورة وكانت تُعلم فيها العلوم اليونانية باللغة الآرامية ، وقد فتحها المسلمون فيما فتحوا من بلاد الفرس ، وظلت المدرسة قائمة الى العصر العباسى . ولم يبق من البلد فى عهد ياقوت الا أطلالها ، وقد زالت هذه الأطلال ، ولم يبق منها الآن اثر وموقعها اليوم أطلال « شاه أباد » [١] .

كان الذى أنشأه كسرى فى جنديسابور بيمارستانا ، يعالج فيه المرضى ، ويدرس فيه الطب ، وما انه يحكى القفطى أن المدرسة بنيت على شكل القسطنطينية وأن أول من علّم الطبّ بها أطباء من الروم « ولما أقاموا بها بدءوا يعلّمون أحداثا من أهلها ، ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم ، ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم ، حتى برّزوا فى الفضائل » « وفى سنة عشرين من ملك كسرى ، اجتمع أطباء جنديسابور بأمر الملك ، وجرى بينهم مسائل وأجوبتها ، وأُثْبِتَتْ عنهم ، وكان أمراً مشهوراً ـ وهذه المسائل والمعرفات اذا تأملها القارئ استدل على فضلهم ، وغزارة علمهم » [٢] وكان أطباء جنديسابور يعتقدون أنهم أهلُ هذا العلم ، ولا يخرّجونه عنهم، وعن أولادهم وجنسهم وقد رووا أن الحارث بن كَلَدَة الثّقَفى طبيب العرب ، تعلّم قبل الاسلام فى مدرسة جنديسابور ، وعالج

---

١ دائرة المعارف الاسلامية فى مادة جنديسابور   ٢ أخبار الحكماء ص ١٣٣

٣ المصدر نفسه ١٧٤

بفارس ، وطَبَّ بعض أجلاء الفرس ، فأعطاه مالاً وجارية ، سماها الحارث سُمَيَّة ، وهى أم زياد بن أبيه ومات الحارث فى أول الاسلام ولم يصح اسلامه [1]

وقد كانت تدرس فى مدرسة جنديسابور الثقافة الهندية ، بجانب الثقافة اليونانية ، وكان يشترك بعض الهنود فى التدريس باللغة الفهلوية .

وظلت مدرسة جُنْدَيْسابور تؤدّى عملها فى الاسلام ؛ كما كان فى عهد الفرس ، وازداد اتصالها بالمسلمين فى العهد العباسى ، فان أبا جعفر المنصور عند ما بنى بغداد أصيب بمرض فى معدته لم يستطع أطباؤه معالجته ، فدلوه على جورجيس بن بختيشوع ، رئيس أطباء جنديسابور [2] ومن ذلك الحين اتصلت قصور الخلفاء بمدرسة جنديسابور ، حتى أن الرشيد أمر جبريل ابن بختيشوع أن يعمل ببغداد بيمارستاناً على نمط بيمارستان جنديسابور ، وتقلد رياسته أطباء جنديسابور وتلاميذهم [3]

وقد اشتهر من مدرسة جنديسابور فى العصر العباسى ، جورجيس ابن بختيشوع طبيب المنصور ، وابنه بختيشوع طبيب الرشيد ، وجبريل ابن بختيشوع طبيب المأمون الخ ، وكانوا كلهم نصارى نساطرة

حَرّان وأما حَرّان فمدينة فى الجزيرة شمالىّ العراق ، تقع بين الرُّها (أودسا) ورأس العين وهى مدينة قديمة ، عاصرت اليونان والرومان ، والنصرانية والاسلام ، وفى عهد الاسكندر سكن كثير من المقدونيين هذا الجزء الشمالى للعراق ، وكان من أثر ذلك فى حَرّان أن الآلهة المعبودة عند الحرّانيين اتخذت أسماء يونانية — وفى أول عهد النصرانية كان شمالىّ العراق

---

[1] أخبار الحكماء ١٦١ وما بعدها

[2] القفطى ١٥٨

[3] ص ٣٨٣

ومنه حران يسكنه أهلـه الأصليون ، وهم السريانيون ، وكثير من المقدونيين ، والاغريقيين ، والأرمن ، والعرب . ولما قويت النصرانية ، وأصبحت دينَ الرومانيين الرسميّ ؛ حاولوا أن يضغطوا على الحرانيين ليتنصروا فلم ينجحوا . ومن أجل ذلك كان رجال الكنيسة يطلقون على حرّان مدينة الوثنيين « هيلينوبوليس » Hellenopolis [١] وظلت حران (مدينة الوثنيين) يهرب اليها الذين لم يشاءوا أن يدخلوا فى النصرانية من اليونانيين وغيرهم . ويظهر أن دينهم كان مزيجاً من الديانة البابلية ، واليونانية القديمة ، والأفلاطونية الحديثة ، حتى كان شأنهم كذلك فى العصر الاسلامى ، إلى عهد المأمون ، فتسموا ـ إذ ذاك ـ بالصابئة ، احتماء بما يفهم من القرآن الكريم من عد الصابئين من أهل الكتاب ، ولم يكن ذلك الاسم يطلق عليهم من قبل ، إنما كان يطلق على قوم لهم ديانة مزيج من اليهودية والنصرانية ، كانوا يسكنون « البطيحة » كما ذكر القفطى (وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة) [٢] .

روى ابن النديم أن المأمون اجتاز فى آخر أيامه ديار مضر ، يريد بلاد الروم للغزو ، فتلقاه الناس يدعون له ، وفيهم جماعة من الحرّانيين (الحرنانيين) . وكان زيهم إذ ذاك لبْس الأقبية ، وشعورهم طويلة بوفرات .... فأنكر المأمون زيهم ! وقال لهم من أنتم من الذمة ؟ فقالوا نحن الحرانيون (الحرنانية) ، فقال أنصارى أنتم ؟ قالوا لا ، قال فيهود أنتم ؟ قالوا لا ، قال فمجوس أنتم ؟ قالوا لا ، قال لهم أفلكم كتاب أم نبى ؟ فجمجموا فى القول . فقال لهم فأنتم إذاً الزنادقة عَبَدَة الأوثان ، وأصحاب الرأس فى أيام الرشيد والدى ، وأنتم حلال دماؤكم ، لا ذمة لكم فقالوا نحن نؤدى الجزية ! فقال لهم إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الاسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه ، ولهم كتاب . فاختاروا أحد أمرين : إما أن تنتحلوا دين الاسلام ، أو ديناً

١ انظر دائرة المعارف الاسلامية فى مادتى حران وصابئة ٢ انظر القفطى ص ٣١١

من الأديان التى ذكرها الله فى كتابه ، وإلا قتلتكم عن آخركم ، فإنى قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتى هذه . ورحل المأمون يريد بلد الروم ، فغيروا زيهم ، وحلقوا شعورهم ، وتركوا لبس الأقبية ، وتنصر كثير منهم ، ولبسوا زنانير ، وأسلم منهم طائفة ، وبقى منهم شرذمة بحالهم ، وجعلوا يحتالون ويضطربون ، حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه ، فقال لهم قد وجدت شيئاً تنجون به ، وتسلمون من القتل فحملوا اليه مالا عظيما . فقال لهم إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون ! فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه فى القرآن ، فانتحلوه فأنتم تنجون به ، وقضى أن المأمون توفى فى سفرته .. وانتحلوا ذلك الاسم من ذلك الوقت ، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة ، فلما اتصل بهم وفاة المأمون ارتد أكثر من كان تنصر منهم وطولوا شعورهم ، الخ [١] ، وأطلق عليهم الصابئة منذ ذلك الحين

٭٭٭

على كل حال كان هؤلاء الحرانيون منبعاً كبيراً من منابع الثقافة اليونانية فى العهد الاسلامى ، وقد اتصلت مدرستهم بالخلفاء العباسيين بعد اتصال مدرسة جنديسابور ، وبعد العصر الذى نؤرخه فأول من اتصل منهم ثابت ابن قرة « ٢٢١ — ٢٨٨ هـ » أوصله بالمعتضد بنو موسى بن شاكر الذين ربّاهم المأمون ومن ذلك الحين قرب الحرانيون من الخلفاء ثم من بنى بويه . واشتهر منهم ثابت بن قرة هذا الرياضى الفلكى ، وابن سنان الطبيب العالم بالظواهر الجوية وقد أسلم ، وحفيده ابراهيم بن سنان ، كما اشتهر منهم أسرة هلال ، ومنهم هلال بن ابراهيم ، وكان طبيباً ، وابنه الأديب المشهور ابراهيم أبو اسحاق الصابئ ، صاحب الرسائل . وكان بليغاً وله اليد الطولى فى الرياضة

---

١ الفهرست ٣٢

والهندسة والهيئة . كما كان من الحرانيين « البتّانى » أحد المشهورين برصد الكواكب ، والمتقدمين فى علم الهندسة ، وصاحب الزّيج المنسوب اليه ومنهم أبو جعفر الخازن الرياضى ، وابن وحشيّة المنسوب اليه الفلاحة النّبطيه الخ ، ولئن كانت مدرسة جُنْدَيسابور لها الأثر الكبير فى نشر الثقافة اليونانية فى الطب ، وما إليه من فلسفة ، فمدرسة حران كان أثرها الأكبر فى الرياضيات ، وخاصةً الهَيْئَة ولعل ما فى ديانتهم من تعظيم الكواكب ، وإقامة الهياكل لها كان باعثاً على نبوغهم فى العلوم الرياضية والفلكية

* * *

وأما الاسكندريه فعاصمة مصر اليونانية ، وبها ولد مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية هو مذهب الاسكندرانيين ، أو الافلاطونيه الحديثة مؤسسه مصرى هو « أفلوطين » (٢٠٥ — ٢٦٩ م) . وهذا المذهب مَدين بأهمّ افكاره لفلاسفة اليونان ، فعناصره الأولى مستمدة من آراء أفلاطون . وأرسطو ، والرواقيين[1] وقد امتاز بروحانيته وبنبذه للمذهب المادّى ، حتى لقد حكى أفلوطين أنه وصل فى روحانيته الى الاستغراق فى الوحدانيه أو على التعبير الصوفى « الفناء فى الألوهية » بضع مرات فى حياته ، ووصل الى ذلك تلميذه فورفوريوس Porphyry مره واحده وقد ظل مذهبه هو المذهبَ الفلسفى السّائدَ فى المملكه الرومانية نحو ثلاثة قرون ونصف قرن ـ بعد وفاة مؤسسه ـ حتى أبى الامبراطور جوستنيان فأمر سنة ٥٢٩ م باغلاق مدارس أثينا الفلسفيه ، وصادر أملاك الفلاسفه ، وغلّ عقولهم وقيّد ألسنتهم

---

[1] انظر ماكتب عن هذا المذهب فى فجر الاسلام ص ١٥٣ وما بعدها وانظر فيه كذلك الكلام على السريانيين ص ١٥٤ وما بعدها

بجانب هذه الحركة الفلسفية كانت حركة واسعة فى الأدب والعلم والفن وأطلق على هذه الحركات كلها مدرسة الاسكندرية . وقد عاشت من سنة ٣٠٦ ق م — ٦٤٢ ب . م وكان يغذى هذه الحركة متحف الاسكندرية ، ومكتبتها المشهورة .

ويقسم مؤرخو هذه المدرسة تاريخها إلى عصرين : العصر الأول ، من قيام دولة البطالسة إلى غلبة الرومان (أعنى من سنة ٣٠٦ ق م الى سنة ٣٠م) وقد عُدَّت الاسكندرية فى هذا العصر فى مقدمة بلاد العالم فى الأدب .

والعصر الثانى : من سنة ٣٠ م إلى سنة ٦٤٢ م وهى سنة فتح العرب للأسكندرية ، ويمتاز فى هذا العصر بالمذهب الفلسفى الذى أشرنا اليه وكانت المدرسة فى عصريْها متصلةً بالعالم الذى حولها تمده بنورها

انتشرت الديانة النصرانية فى الاسكندرية ، فى العهد الرومانى كما انتشرت فى غيرها ، وقامت النصرانية فيها بجانب الفلسفة اليونانية ، واختلف النصارى فيما بينهم طوائف وشيعاً ، وتجادلوا فى طبيعة المسيح ، وناسوته ، ولاهوته وعلاقة المسيح بالله فلجئوا الى الفلسفة يستعينون بما لها من منطق وترتيب فى الجدل ، وبما لها من أبحاث وراء المادة ، ومن ثمّ اتصلت النصرانية بالفلسفة اليونانية ، وكانت أول حركة للاتصال فى الاسكندرية ، كما اتّصلت اليهودية بالفلسفة فى الاسكندرية أيضاً ـ من قبل ـ على يد فيلون وكان من أوائل النصارى فى ذلك « كليمان الاسكندرى » « Clement »[١] فمزج النصرانية بالأفلاطونية ، ثم من بعده أوريجن « Origen » (١٨٥—٢٥٤م) تلميذ أفلوطين ، واضطُهد أوريجن ففر من الاسكندرية ، وأنشأ مدرسة على النمط الاسكندرى فى قيصرية فى فلسطين ثم أُسست بعدُ مدرسة على هذا النمط فى نصيبين ، وأغلقت مدرسة نصيبين ، فانتقلت الى الرُّهَا وهكذا

---

[١] ولد كليمان حول سنة ١٥٠ م من أبوين وثنيين فى أثينا

انتشر النَّمَطُ الاسكندرى فى مزج النصرانية بالفلسفة فى أنحاء الشرق ، وأصبح كثير من رجال الكنيسة يعلمون النصرانية مفلسفة أو الفلسفة منصّرة ، وجدّوا فى التوفيق بين ما يتعارض بينهما فمثلا : قالت النصارى «إن المسيح ابن الله » والأبوة مقدمة على البُنُوّة ، تقدّمَ السبب على المسبَّب ، وإذن كان الله قبل المسيح . وترى الفلسفة أن العلة الأولى ، أو بعبارة أخرى «الله» لا يلحقه تغير فكيف يكون أباً ، وكان قبلُ غير أب ، فيجب أن يفسَّر الابن تفسيراً يتفق والفلسفة وهكذا

وكان أغلب القائمين بهذه الحركة النصارى النَسَاطِرة ، فشوا مدارسهم وتعاليمهم فى الشرق ، وكانوا يعلّمون باللغة السريانية ، وينقلون الكتب اليونانية الى السريانية وكانت الحرب فى ذلك العهد قائمة بين الفرس واليونان فى آسيا ، فكان كثير من البلاد يقع حيناً فى يد الرومان ، وحيناً فى يد الفرس وأقنعَ «بَرْسوما» ملكَ الفرس «فيروزَ» بأن النساطرة يكرهون الرومانيين ؛ بما لقوا منهم من عَنَت ، وأنهم يوالون الفرس ، فقبل منهم فيروز ذلك ، وظلوا هم قائمين بما وعدوا[1]

* * *

ولعل هذا الذى ذكرنا يلقى ضوءاً على كثير من المسائل الغامضة التى تعترض الباحث كيف اتصل الفرس بالفلسفة اليونانية ، وكيف عرَفوا «ايساغوجى» وأمثاله من كتب اليونان ؟ وكيف كانت الأديار المنثورة فى الشرق مصدرا للفلسفة اليونانية ؟ وكيف اتصل المسلمون بالفلسفة اليونانية ؟ فظهرت فى المجادلات الدينية وغيرها ، وفى مناقشات المعتزلة وغيرهم قبل أن تنقل الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية ، نقْلا منظماً فى عهد المأمون ومن بعده ولم كان المترجمون الأولون — من السريانية أو اليونانية الى العربية — أكثرهم نصارى

---

[1] انظر Oleary, Arabic Thought

أو وثنيون ؟ لعل القارىء يجد طرفاً من الاجابة عن هذه الأسئلة فيما حكينا .

كانت الكنيسة الاسكندرانية والمصرية ـ فى الغالب ـ على مذهب اليعاقبة وكانت لغتها السريانية والقبطية ، وكان إنتاج النساطرة فى آسيا فى الفلسفة باللغة السريانية ؛ أكثر من إنتاج اليعاقبة فى مصر ، لأن الجدل الدينى فى آسيا ـ وخاصة فى العراق ـ بين النصارى بعضهم وبعض ، وبين النصارى وغيرهم من أهل الديانات الأخرى ـ كان أكثر منه فى مصر ، وقد اشتهرت مدرسة الاسكندرية بالطب والكيمياء ، والعلوم الطبيعية ، وكانت كذلك عند الفتح العربى ، ولكن أبحاثها إذ ذاك كانت ممزوجة بالسحر والطلاسم والتنجيم غلب على اليعاقبة فى مصر مذهب الأفلاطونية الحديثة ، والميل الى التصوف ، وحب معيشة الأديار والرهبنة ، على حين غلب على النساطرة فى آسيا الميل الى التفكير الفلسفى ، وحب المنطق من غير إغراق فى الروحانية والرهبنة ، وإن كانت لهم أديار .

وقد اتصل المسلمون بمدرسة الاسكندرية فى العهد الأموى ، فنرى أن خالد بن يزيد بن معاوية يترجم له بعض الكتب « اصطفن » ويلقبه القفطى اصطفن الاسكندرانى ، ونرى ابن أبجر ـ وهو طبيب اسكندرى ـ يُسلم على يد عمر بن عبد العزيز ، ويصحبه ويستطبه عمر . ويعتمد عليه فى صناعة الطب[1]

وفى العصر العباسى ، نرى ذكراً لبعض تلاميذ المدرسة الاسكندرانية فابن أبى أصيبعة يروى أن « بليطيان » كان طبيباً نصرانياً مشهوراً بديار مصر ، وكان بطريركا على الاسكندرية فى أيام المنصور ، فلما ولى الرشيد مرضت له جارية مصرية ، فطلب لها طبيباً مصرياً ، لأنه أبصر بعلاجها ، فأرسل اليه « بليطيان » وبعده كان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون ، وهكذا[2]

ولكن مما نلاحظ ، أن مدرسة الاسكندرية لم تتصل بالخلفاء العباسيين اتصال مدرسة جنديسابور وحران وأمثالها ، ولم تكن لها أثر كأثرهما ،

---

١ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ : ١١٦   ٢ عيون الأنباء ٢ : ٨٢

ولعل السبب فى ذلك ، بُعْد مصر عن العراق ، وقرب حران وجنديسابور ، وأن مدرســـة الاسكندرية ـ كما أشرنا ـ انغمست فى العزائم ، والرهبنة والمكاشفة ، على العكس من مدارس العراق ، فقد كانت أعلم بشئون الدنيا ، وأكثر اهتماماً بعلومها ، وهذا أنسب لدولة ناهضـــة كالدولة العباسية ، أما نزعة الاسكندرية هذه فتناسب التصوف ، وسنعرض لذلك عند الكلام فى التصوف إن شاء الله وسبب آخر ، وهو ضعف مدرسة الاسكندرية قبيل الاسلام ، واضطهاد أهلها ، وإحراق كتبها حتى اضطر كثير من معتنقيها إلى التنصر ، أو الفرار من البلاد

على كل حال ، فسَّر النّساطرة واليَعاقِبة كثيراً من كتب اليونان ، نقلوها من هذه اللغة إلى اللغة السريانية ، فلما اتصلوا بالعرب كانوا هم أيضاً البادئين بنقل هذه الكتب من السريانية إلى العربيـة وشرحها ، وتاريخ هذه الحركة التى قام بها هؤلاء النساطرة واليعاقبة ، يدلنا على عيبين كبيرين فيها ، (الأول) قلة الابتكار فلم يزيدوا على ما نقلوا علماً جديداً ، ولا نظريات جديدة ، ولا كثيراً من الآراء الجديدة . (والثانى) أنهم حتى فى كثير مما نقلوا لم ينقلوا فى دقة ما كان عند اليونان ، بل غيّروا فيه ، وحرّفوا وكثير من الأخطاء التى وقع فيها العرب علمياً كان منشؤه هذا الخطأ السريانى والحق أن العرب فى هذا كانوا أكثَر ابتكاراً وأدقّ نظراً ويكاد مؤرّخو علم المسلمين من طب وجبر وهندسة وكيمياء وفلسفة ، يقسمون ما وصل اليه المسلمون قسمين قسم أخذوه عن اليونان ، وقسم ابتكروه بأنفسهم

نقل إلى العربيـــة فى هذا العصر ، أهم آلِف أرسطو ، وشروح الاسكندرانيين عليها ، وبعض مؤلفات أفلاطون وأهم كتب جالينوس فى الطب ، وعلى الجملة أهم ما وصل اليه العقل اليونانى فى العلم والفلسفة ولسنا نريد أن نفصل الكتب التى ترجموها ، ولكن يمكننا هنا أن نجمل القول بأنه

يمكن تقسيم الترجمة إلى أدوار ثلاثة :

الدور الأول : من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ إلى سنة ١٩٣ هـ وفى هذا الدور ترجم كليلة ودمنة من الفارسية ، والسِّنْدْهِنْد من الهندية ، وترجمت بعض كتب ارسطاليس فى المنطق وغيره ، وترجم كتاب المَجِسطى فى الفلك — ومن أشهر المترجمين فى هذا الدور ابن المقفع وقد تقدمت ترجمته ، وجورجيس بن جبرائيل ، ويوحنّا بن ماسويه وكلاهما كان طبيباً نصرانياً — وفى هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب التى ترجمت ، فنجد الأوّلين منهم كالنَّظَّام عَرَف أرسطو وعرف بعض كتبه فى الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ، وتكلموا فى الطفرة والجوهر والعرض ، وما إلى ذلك كما سيأتى بيانه ، وكان كلامهم فى هذا قبل المأمون ، مما يدل على اتصالهم بالفلسفة من أول عهد الترجمة .

الدور الثانى : من عهد المأمون من سنة ١٦٨ إلى سنة ٣٠٠ هـ وأشهر المترجمين فى هذا الدور يوحنَّا أو يحيى البِطْرِيق — مولى المأمون — وكانت الفلسفة أغلبَ عليه من الطب ، وتَرْجَم كثيراً من كتب أرسطو . والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفى عاش سنة ٢١٤ ، وقُسْطا بن لوقا البَعْلبكّى عاش سنة ٢٢٠ هـ ، وعبد المسيح بن نَاعِمَةَ الحِمْصِى عاش سنة ٢٢٠ ، وحنين بن اسحاق توفى نحو سنة ٢٦٠ ، وابنه اسحاق بن حنين توفى سنة ٢٩٨ ، وعنى بكتب الفلسفة عناية أبيه بالطب ، وثابت بن قُرَّة توفى سنة ٢٨٨ ، وحبيش الأعسم ابن أخت حنين ، وغيرهم . وقد ترجم فى هذا الدور أهم الكتب اليونانيـة فى كل فن فأعيدت ترجمة المجسطى ، والحكم الذهبية لفيثاغورس ، وجملة مصنفات لبقراط وجالينوس ، وكتاب طيماوس لأفلاطون وكتاب السياسة المدنية لأفلاطون ، وكتاب النواميس له أيضاً ، وكتاب المقولات لأرسطو . كل ذلك على يد حنين بن اسحاق ومدرسته ، وترجمت

أغلب كتب أرسطو على يد إسحاق بن حنين

الدور الثالث من أتى بعد هؤلاء، ومن أشهر المترجمين فيه متى بن يونس، كان في بغداد سنة ٣٢٠، وسنان بن ثابت بن قرة مات سنة ٣٦٠، ويحيى ابن عدي سنة ٣٦٤ وابن زرعة سنة ٣٩٨، وأهم ما ترجموا الكتب المنطقية والطبيعة لأرسطو، وتفسيرها[1]

* * *

وقد كان الباعث على هذه الترجمة، ونشاطها في الدولة العباسية أموراً

(الأول) أن العهد الأموي كان عهداً بدويا ـ في الجملة ـ ظهرت فيه سيادة العرب على غيرهم من الأمم أوضح ظهور، والعرب في ذلك العصر لم تتأصل فيهم ميل الى فلسفة إنما كان يعجبهم الأدب العربي، والتحدث بأيام العرب ولذة خلفائهم إنما هي في الاصغاء إلى قصيدة عربية، والاستفسار عن لفظ غامض، وما الى ذلك. فلما جاء العصر العباسي، وأمعن المسلمون في الحضارة، وسادت العناصر غير العربية، رأوا أن حياة الحضارة لا بد أن تستند الى العلم. فمالية الدولة تحتاج إلى حساب دقيق، وعيشة الحضارة المركبة تحتاج الى أدوية مركبة، وعلاج مركب. ومتى لجأ الناس الى نوع أو نوعين من العلوم، وأخذوا يتلقونه عن الأمم الأخرى؛ دعاهم الشغف الى تعرف ما عند الأمم المختلفة من العلوم جميعها، ولو لم يكن لهم بها حاجة ماسة مباشرة

(الثاني) أن الحركة الدينية كانت قد بلغت في آخر الدولة الأموية شأواً بعيداً ـ كما ذكرنا في فجر الاسلام ـ وجرّهم البحثُ الى أن يتكلموا في القضاء والقدر ونحوه، ورجحت عند قوم عقيدة الجبر، وعند آخرين عقيدة الاختيار، وتجادل المسلمون فيما بينهم، ثم تجادل المسلمون والنصارى واليهود؛ أي

---

[1] أنظر محاضرات الأستاذ نالينو وإذا أردت استيعاب الكتب المترجمة فراجع فهرست ابن النديم وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وأخبار الحكماء للقفطي وقد لخصها الأستاذ جرجي زيدان في كتابه التمدن الاسلامي

الأديان خير ؟ وأى آراء الأديان فى المسائل الجزئية أصح ؟ وكان المعتزلة يحملون لواء الدفاع عن الاسلام ، ومقارعة خصومه ، وكان كل من اليهودية والنصرانية تسلح من قبل بالمنطق اليونانى ، والفلسفة اليونانية يستخدمها فى الجدل فأحسّ المسلمون أن لا بد من محاربتهم بآلاتهم ، فعكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونهما فى أغراضهم ، وفيما هم كذلك شعروا بلذة عقلية من دراسة الفلسفة ، فبعد أن كانت تُطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية تُطْلَب لذاتها

وسبب ثالث حكاه الأستاذ نالينو وهو أنه « فى أواخر مدة الدولة الأموية ، ثبتت سلطة الاسلام على جميع الأمصار والأقطار التى دخلتها ألْوِيته عَنوة أو صلحاً ، أثناء المغازى المتواصلة والفتوح من أقصى بلاد ماوراء النهر فى تركستان ، إلى منتهى المغرب والأندلس فعمت اللغة العربية الشريفة أهل تلك الولايات والبلدان ، وغلبت على ألسنتهم الأصلية ، فأخذ المسلمون كلهم من أى جنس أو ملة ، لا يستخدمون فى الانشاء والتأليف إلا لغة العرب ، فابتدأت وحدة الدين تستوجب أيضا وحدة اللسان والحضارة والعمران فصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر يُدْخلون علومَهم القديمة فى التمدن الإسلامى الجديد »[١]

وسبب رابع وهو ميل أفراد من الخلفاء فى العصر العباسى الى العلوم الفلسفية ، والخلفاء عادة أقدر الناس على الترغيب فيما أحبوا والناس أسرع ما يكون إلى تحقيق أغراضهم ، والوَلوع بما أولعوا به وأكبر الخلفاء العباسيين ميلا إلى ذلك فى عصرنا : كان المنصور والرشيد والمأمون وظاهر أنه قد كان لكل منهم أسباب خاصة حملته على ذلك فالمنصور كان ممعودا ويظهر أن ذلك حمله على العناية بالطب والأطباء جاء فى الطبرى بن على بن محمد بن

---

(١) تاريخ علم الفلك عند العرب ١٤١

سليمان النَّوْفلي عن أبيه أنه كان يقول : «كان المنصور لا يَسْتَمْرِئ طعامَه ويشكو ذلك إلى المتطببين ويسألهم أن يتخذوا له الجَوارَشْنَات . فكانوا يكرهون ذلك ، ويأمرونه أن يقلّ من الطعام ، ويخبرونه أن الجوارشنات تهضم في الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منها عليه حتى قَدم عليه طبيب من أطباء الهنـــد ، فقال له كما قال غيره ، فكان يتخذ له سَفُوفاً جوارشناً يابساً فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان يأخذه فيهضم طعامه فأحمده الخ[1] وكذلك كان يعتقد في التنجيم كما سيأتي بيانه فقرب اليه المنجمين . والرشيد ربّاه البرامكة على حبّ العلم ، والمأمون رباه الرشيد والبرامكة ، وقد حذا حذو الخلفاء كثيرٌ من أفراد الشعب كبنى موسى بن شاكر .

إذا علمت ذلك ، علمت فساد رأى من يَنْسُبُ رحمة الكتب اليونانية إلى رؤيا رآها المأمون أو نحو ذلك ، فقد ذكر صاحب الفهرست «أن أحد الأسباب التي قامت من أجلها كثرة كتب الفلسفة ، وغيرها من العلوم القديمة : أن المأمون رأى في منامه كأن رجلا أبيض اللون مُشْرَباً حمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب ، أجلح الرأس أشْهَل العين حَسَن الشمائل ، جالس على سريره . قال المأمون وكأني بين يديه قد مُلِئْتُ له هيبة ، فقلت من أنت ؟ قال أنا أرسطاليس ، فسررت به وقلت أيها الحكيم ، أسألك قال سل قلت ما الحسن؟ قال ماحَسُنَ في العقل ، قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن في الشرع ، قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور ، قلت ثم ماذا؟ قال لا ثم ! وفي رواية أخرى ، قلت زدني ، قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالتوحيد فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب»[2]

وروى ابن أبي أصيبعة هذه القصة بشكل آخر ، فقال إن المأمون رأى في منامه كأن شيخا بهيّ الشكل جالس على منبر وهو يخطب ، ويقول «أنا

[1] جزء ٩ ص ٢٩٢ [2] الفهرست ص ٢٤٣

أرسططاليس » فانتبه من منامه ، وسأل عن أرسططاليس فقيل له رجل حكيم من اليونانيين وأحضر حنين بن اسحق ، إذ لم يجد من يضاهيه فى نقله ، وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين الى اللغة العربيه ، وبذل له من الأموال والعطايا شيئاً كثيراً »

فهذه القصص وأمثالها لا يصح أن تكون سبباً ، وإنما كانت الترجمة لأسباب طبيعية ، هى التى ذكرنا ورواية ابن أبى أصيبعه أبعد عن الحقيقة ، فمن المستحيل ألا يسمع المأمون باسم أرسطو حتى يأتيه فى المنام ويقول له أنا أرسطو ! وحكاية ابن النديم إن صحت دلتنا على أن الحُلُمْ كان انعكاس صورة طبيعية لما كان يفكر فيه المأمون فى اليقظة

* * *

قال فى طبقات الأمم لصاعد الأندلسى « كانت العرب فى صدر الاسلام لا تُعْنَى بشىء من العلم الا بلغتها ، ومعرفة أحكام شريعتها ؛ حاشا صناعة الطب ، فانها كانت موجودة عند أفراد من العرب ، غير منكرة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طرًّا اليها ، ولما كان عندهم من الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الحث عليها حيث يقول : « يا عباد الله تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له دواء الا واحداً وهو الهرم .. »

« فهذه كانت حاله العرب فى الدوله الأمويه ، فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهِمَمُ من غفلتها ، وهبّت الفطن من سِنَتها ، وكان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور وكان رحمه الله مع براعته فى الفقه مقدَّماً فى علم الفلسفة ، وخاصه فى علم صناعه النجوم كَلِفاً بها وبأهلها

ثم لما أفضت الخلافه الى الخليفه السابع منهم ، عبد الله المأمون بن الرشيد ابن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور تمم ما بدأ به جدّه المنصور فأقبل

على طالب العلم في مواضعه، واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة، وقوة نفسه الفاضلة، فداخَل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاليس وأبقراط، وجالينوس وأقليدس، وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستجاد لها مَهَرَة التراجمة، وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حض الناس على قراءتها، ورغّبهم في تعلّمها فنَفَقت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لِمَا كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها، واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم، ويلتذ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدّثين والمتكلمين، وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة وسنّوا لمن بعدهم منهاج الطلب، ومهّدوا أصول الأدب، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها، وزمان اجتماع شملها [1]

وقال في موضع آخر «إن أول علم اعتني به من علوم الفلسفة، علم المنطق والنجوم فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي، كاتب أبي جعفر المنصور، فإنه ترجم كتب أرسطاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق وهي كتاب «قاطاغورياس» وكتاب «باري ارمينياس» وكتاب «أنولوطيقا» وذكر أنه لم يكن ترجم منه إلى وقته إلا الكتاب الأول فقط، وترجم مع ذلك المدخل المعروف «بايساغوجي لفورفوريوس الصوري» وعبّر عما ترجم من ذلك بعبارة سهلة قريبة المأخذ

---

١ طبقات الأمم ص ٤٧ وما بعدها

وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكليله ودمنة وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية الى اللغه العربية .

وأما علم النجوم فأول من عنى به فى هذه الدولة محمد بن ابراهيم الفزارى وذلك أن الحسن بن محمد بن حُمَيد المعروف بابن الآدمى ذكر فى زيجه الكبير المعروف بنظم العقد أنه قدم على الخليفه المنصور فى سنة ١٥٦ رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هند فى حركات النجوم .. فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغه العربية ، وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب فولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى . فكان أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام الخليفة المأمون [١]

ونحن اذا استعرضنا ما حكى عن الترجمة ونشأتها أمكننا ان نستنتج منها النتائج الآتيه

(١) أن أول نقل حدث فى الاسلام كان بفضل خالد بن يزيد بن معاوية ، والذى نقل له هو « اصطفن » وهو من الاسكندرية ، وكان هذا النقل من اللغة اليونانية والقبطية إلى العربيه ـ وأن خالداً إنما كان أهم ما عنى به الصنعة أو الكيمياء ، والغرض منها تحويل المعادن الى ذهب ، ويظهر أن الذى دعاه الى ذلك أنه كان شاباً يطمع فى الخلافة اذ كان أبوه (يزيد بن معاوية) خليفه ، وأخوه (معاويه بن يزيد) خليفة ، ثم نُحى عن الخلافة، وغلبه عليها مروان بن الحكم فصُدم من ذلك صدمة قوية فتحول الى مَلْهىً شريف يلهو به ويناسب أرستقراطيته فكان ذلك هو « الصنعة » رأى أنه اذا استطاع أن يحوّل المعادن الى ذهب استطاع أن يحول الناس اليه ، أو على أقل تقدير كان له من المنزلة ما يحسده عليها الخلفاء قال ابن النديم « كان خالد جواداً ، يقال إنه قيل له لقد جعلت اكثر شغلك فى طلب الصنعة ! فقال خالد ما أطلب

---

١ ص ٤٩ ، ٥

بذلك إلا أن أغنى أصحابي وإخواني، إني طمعت في الخلافة فاختُزِلَتْ دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحداً ـ عرفني يوماً أو عرفته ـ إلى أن يقف بباب سلطان، رغبة أو رهبة»[1] وقد اشتغل بالنجوم على أنها قد تكون وسيلة تساعد على الوصول إلى «الصنعة» إذ كان علم النجوم ممزوجاً بعلم أحكامها، وتأثيرها في العالَمَ السُّفلي، فلعله أمَّل فيه عوناً على الوصول إلى بغيته

(٢) أنه عنى في الدولة الأموية بالطب بعض عناية، لأن الناس في حاجة مادية إليه، ولأنه أبعد العلوم الأجنبية عن أن يؤثِّر في الدين، ولهذا لم يتحرج من إجازة الترجمة فيه أتقى بني أمية عمر بن عبد العزيز

(٣) أن محاولة الترجمة في العهـد الأموي كانت محاولات فردية، تموت بموت الأفراد القائمين بها، أما في الدولة العباسية فكانت الترجمة عملَ أمة لا عمل أفراد، وإن شئت فقل: كان في الدولة العباسية مدرسة كبيرة للترجمة، لا يضيرها موت فرد أو أفراد منها

(٤) كانت الترجمة في العهد الأموي مقصورة على العلوم العملية كالصنعة والطب والنجوم (بالمعنى الذي فسرناه) ولم يتعد ذلك إلى العلوم العقليـة كالمنطق والفلسفة والهندسة، وما إلى ذلك، فهذه لم تكن إلا في الدولة العباسية.

(٥) نرى أن المسلمين اتصلوا بالفلسفة اليونانية أول الأمر من طريق الفرس، فقد ترجم ابن المقفع كتباً من منطق اليونان، والظاهر أنه نقلها من الفارسية، إذ لم يعرف عنه أنه يعرف اليونانية، ثم تولى الترجمة بعدُ النصارى من النساطرة واليعاقبة، من السريانية إلى العربية.

(٦) كانت أول عناية الخلفاء العباسيين موجَّهة إلى الطب والتنجيم.

---

١ الفهرست ص ٣٥٤

والسبب فى ذلك الحاجة الماسة الى ذلك ، فالمنصور احتاج الى الطب لمرضه — كما بينا — واحتاج الى التنجيم لأنه كان يعتقد أن هناك ارتباطاً بين حركات النجوم وأوضاعها ، وبين ما يحدث فى عالمنا من نحس أو سعد . ومن ذلك الحين صار الطب والتنجيم عملين رسميّين، يتولاهما رجال رسميون . فجورجيس ابن جبريل بن بختيشوع الجنديسابورى صار طبيبا للمنصور ، ثم لما تقدمت به السن عين المنصور مكانه تلميذه عيسى بن شهلاثا . واتخذ نَوبَخْت الفارسى منجما له ، فلما ضعف عيّن المنصور مكانه ابنه أبا سهل بن نوبخت . ولما تولى اتخذ المهدى طبيبه عيسى الصيدلانى الملقب بأبى قريش ، واتخذ توفيل بن توما النصرانى الرهاوى رئيساً لمنجميه . فلما تولى الرشيد اتخذ طبيبه بختيشوع بن جورجيس ، ويوحنا بن ماسويه النصرانى . ولما استخلف المأمون كثر فى بلاطه الأطباء والمنجمون ، فمن منجميه حبش الحاسب ، وعبد الله بن سهل بن نَوْبَخت ، ومحمد بن موسى الخُوَارَزْمى ، وما شاء الله اليهودى ، ومن أطبائه سهل بن سابور ، ويوحنا بن ماسويه ، وجورجيس بن بختيشوع ، وعيسى بن الحكم ، وزكريا الطيفورى . فلما آلت الخلافة للمعتصم كان طبيبه سلمويه ، ثم يوحنا بن ماسويه[1] ، الخ

ونرى من هذا أن الطب والتنجيم أصبحا صناعتين تحميهما الخلفاء ، وكانت حاجتهم إليهما حاجة عملية . وأمر الطب ظاهر ، والتاريخ مملوء بالحكايات التى فزع فيها الخلفاء إلى المنجمين ، فالمنصور استشار المنجمين فى اختيار الوقت الذى يبدأ فيه بناء بغداد ، والمهدى لما هم بالخروج إلى « ماسبذان » استشار توفيل بن توما النصرانى المنجم[2] ، والمعتصم نصحه المنجمون ألا يغزو « عَمُّوريّة » الا فى أيام نُضج التين والعنب ، فلم يُصغ لقولهم وغزاها وفتحها . وقال أبو تمام فى ذلك بائيته المشهورة « السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ » ، والواثق لما

---

١ ابن العبرى فى مواضع متفرقة   ٢ ابن الأثير ص ٢١٩

اشتد مرضه ، أحضر المنجمين ، منهم الحسن بن سهل بن نوبخت ، فنظروا فى مولده فقدّروا له أن يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم ، فلم يعش بعد قولهم الا عشرة أيام [١] الخ

ولسنا ندّعى أن الخلفاء لم يشجّعوا من علم النجوم الا هذا الضرب ، فقد كان علم النجوم يشمل ما نُطلق عليه علم الهيئة الآن ، ويشمل كذلك البحث عن التغيرات التى تحدث فى الأرض بسبب مواقع النجوم وتأثيرها . وكلا الأمرين كان عند اليونان ، وكلا الأمرين عنى به العباسيون ، فرصدت الكواكب فى عهد المأمون ، وأصلحت آلات الرصد . وانما الذى نريد أن نذكره ، أن الشغف بمعرفة أحكام النجوم هو الذى جذب الخلفاء أولا إلى تشجيع هذا العلم ، ثم تدرجوا منه الى تشجيع الفلك الرياضى البحت

ويظهر لى أن هذين العلمين (الطب والنجوم) هما البابان اللذان أوصلا المسلمين إلى ساحة العلوم الفلسفية ، والسبب فى ذلك أن التخصص الذى نفهمه الآن ونراه فى دراسة الطب والهيئة لم يكن معروفاً فى هذا العصر العباسى ، وكان الطبيب والمنجّم يُلمان بكثير من المسائل الفلسفية . ويكاد يعد الفلسفة كوحدة ، فروعها : الطب والالهيات ، والحساب والمنطق ، والموسيقى ، والهندسة ، والهيئة . فالطبيب والمنجم يلمان ـ غالبا ـ بكل ذلك ، ثم يتبحران فى الطب أو التنجيم . وكانت رغبة الأطباء والمنجمين فى إتقان فنونهم تحملهم على معرفة اللغات الأجنبية ، وخاصة اليونانية ، فاذا حذقوها أقبلوا على الكتب المؤلفة فيها من جميع فروع الفلسفة . وقد نقل الينا ابن النديم ثبتاً بأسماء الكتب التى كان يدرسها الطبيون ، فاذا فيها طب وتشريح ، وما إلى ذلك . ثم فيها منطق وأخلاق وبحث فيما وراء المادة . وكان مما يقرءون كتاب موضوعه « أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً » [٢] واستمر هذا الحال

---

[١] ابن العبرى ص ٢٤٥ — [٢] فهرست ٢٨٩ وما بعدها

حتى فيمن نبغ بعدُ من الفلاسفة المسلمين ، فيعقوب الكندي – مثلا – « كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق ، وتأليف اللحون والهندسة ، وطبائع الأعداد والهيئة »[١] وكذلك كان ابن سينا منطقياً طبيباً رياضياً طبيعياً فلكيا ، الخ

من أجل هذا نرى أن كثيراً من هؤلاء الأطباء والمنجمين الذين كان الخلفاء يُمدّونهم بالمال عُنوا بترجمة كتب غير طبية ولا فلكية ، أو أشرفوا على ترجمتها فابن العبري يذكر « أن يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني الطبيب ولاّه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة وكان له تصانيف جميلة ، وكان يعقد مجلساً للنظر ، ويجرى فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة »[٢] ويقول إن يوحنا بن البطريق (الطبيب) الترجمان مولى المأمون كان أمينا على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني ، ألكن اللسان في العربية ، وكانت الفلسفة أغلبَ عليه من الطب »[٣] الخ

***

كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين . ومما زاد في أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحَبَ عصر تدوين العلوم العربية ، فتسربت الثقافة اليونانية إليها ، وصبغتها صبغة خاصة ، كان لها تأثير كبير في الشكل ، وفي الموضوع

أما الشكل فيرجع الى تأثير المنطق اليوناني ، وقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صُبّت في قالبه ، وبُوّبت على منهاجه إذ كان المنطق كما قال ابن سينا « خادمَ العلوم » – عني به المسلمون من أول عهدهم بالفلسفة ، وقد رأينا أن ابن المقفع ترجم كتب المنطق لأرسطو ، وتتابع المترجمون بعده يترجمون الكتب المنطقية ، وكان المنطق الذي وصل إلى العرب هو منطق

---

١ القفطى ص ٢٦٨ ٢ ص ٢٢٧ ٣ ص ٢٣٩

أرسطو معدّلا ومضافاً إليه ، ومشروحاً بمنطق الرّواقيين والاسكندرانيين ، ولم يزد العرب فيه شيئاً يذكر . فكل المنطق الذي بين أيدينا هو منطق اليونان ، لم يزد عليه إلا بعض الشروح . وقد نقل نقلا صحيحاً لم يدخله نقص ولا تهويش ، كالذي كان في الالهيات اليونانية . وقد كان منطق أرسطو وشروحه العربية أوسع وأعمق مما بين أيدينا من كتب المنطق اليوم ، وكان القياس يشغل فيه حيّزاً كبيراً . وفيه كتاب واسع في البرهان ، وآخر في الجدل وكيف يكون ، وكيف يسلك في إفحام الخصم ، وكان فيه باب للسفسطة ، وباب في الخطابة ، وباب في الشعر ، وكانت الأبواب الخمسة الأخيرة وهي البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة تُبحث فيه بحثاً وافياً [1] . ولكن المتأخرين حذفوا هذه الأبواب أو ألموا بها إلماماً يسيراً واقتصروا على الكلام في الكليات الخمس والقضايا والقياس ، مع أن الذي حذفوا أهم من الذي أثبتوا [2] وبذلك أفقدوا المنطق روحه .

على كل حال كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي ، وكان من جرّاء ذلك أن اصطبغت طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل صبغة غير التي كانت تعرف من قبل . فإن أنت قارنت بين أسلوب القرآن الكريم ، وأسلوب المتكلمين ، وجدت فرقاً كبيراً يمكنك أن تلخصه في أن أساليب المتكلمين جارية على أساليب منطق أرسطو ، وليس كذلك أسلوب القرآن . وقد وضع محمد بن إبراهيم الحسني اليمني الصنعاني كتابه المسمى « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » [3] فأسلوب القرآن في إثبات وجود الله تعالى « قلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ

---

[1] انظر في ذلك منطق أرسطو باللغة الانجليزية ، وقد اتبع العرب الأولون شراح أرسطو من اليونان بإضافة الخطابة والشعر [2] انظر مقدمة ابن خلدون ٤١

[3] الكتاب طبع في مصر بمطبعة المعاهد

والأبصارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللهُ». وقوله تعالى: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا، وَزَيَّنَّاهَا، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وأنبتنا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فأنبتنا به جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ» إلى كثير من أمثال ذلك. أما أسلوب المتكلمين فمثل «العالم حادث؛ وكل حادث لا بد له من محدث، والعالم لا بد له من محدث، إلى أمثال ذلك، وما يستتبعه من الجوهر والعرض، والكمية والكيفية، والعلم الضروري والنظري، وغير ذلك مما هو من تعبيرات الفلاسفة اليونانية

وكذلك الشأن إذا أنت قارنت بين تعبيرات الفقهاء في عصر الخلفاء الراشدين، والعصر الأموي، وبين تعبيرات الفقهاء في العصر العباسي - بعد أن عرفوا المنطق - فإنك تجد التعبير الأول عربياً محضاً، وتجد الثاني ارسطاليسياً محضاً فمثلا تقرأ الباب في موطأ الإمام مالك فتجده يذكر الحكم، ثم يحكي ما يدل عليه من حديث أو أثر. ثم لا تجد فيه أثراً لعلم المنطق، وتقرأ في كتاب الهداية مثلا الدليل الفقهي، وخاصة في المسائل الخلافية بين أبي حنيفة والشافعي؛ فترى أن قواعد الجدل التي وضعها أرسطو، وقواعد البرهان مطبقة في دقة تامة، فمقدمة صغرى، ومقدمة كبرى، ونتيجة. وأشكال القياس مستوفاة شروطها

وتقرأ كتاب سيبويه فتجد ترتيباً وتبويباً منطقياً، يبدأ بتقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، ثم يعرّف كل قسم ويأتي بأمثلة ويذكر أحكامه، وهكذا. ومن ذلك أن أرسطو قال: «إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء إذ لا بد لكل شيء محاوى أن يكون واقعا في زمان من الأزمنة، وفي مكان من

الأمكنة فهما كالوعاء له . وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً ، أي وعاء ،[١] وكما ألف ايساغوجي أي المقدمة أو المدخل في المنطق ، ألّف ابن فارس « مقدمة في النحو » .

وهذا القياس الذي شغل جزءاً كبيراً من منطق أرسطو طبق تطبيقاً دقيقاً ، وروعي في كثير من العلوم . فالقياس في الفقه وأصوله ، والقياس في النحو واللغة ، والقياس في الفلسفة ، وكان لهذا القياس أثر كبير في تفريع المسائل وتنويعها ، ووضع المسائل المتشابهة تحت قاعدة واحدة ، وطرد أحكامها على ما لم يرد فيه حكم مأثور ، سواء في ذلك الفقه والنحو واللغة ، وكان لهذا كله أثر في تضخيم العلم وترتيبه وتبويبه[٢] .

هذا في الشكل ؛ وأما في الموضوع ، فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في تعاليم المتكلمين ، نعرض له عند الكلام في المعتزلة . وكان للأفلاطونية الحديثة بعض الأثر في التصوف ، نوضحه عند الكلام فيه . وكان لهما معاً أثر كبير في الفلسفة الاسلامية ، وهذا بتاريخ الفلسفة الاسلامية أشبه وأليق . وكان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي ، ولكنه دُوّن بعد عصرنا الذي نؤرخه فلا نتعرض له الآن

---

١ محاضرات الأستاذ حويدي ٨٥

٢ أما القياس في الفقه فسيأتي الكلام فيه ، وأما القياس في النحو فقد عرفوه بأنه « حمل فرع على أصل لعلة مشتركة بينهما » ويكاد يكون هو التعريف الفقهي . وقد طبقه النحاة كما طبقه الفقهاء فيقولون — مثلا — ممنوع والقياس الكسر . وكانوا اذا رووا مسألة عن عربي قاسوا عليها ولذلك يقول ابن الانباري : « أن انكار علم القياس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو » وكانوا يقسمون مصدر المسائل الى سماع وقياس ويعنون بالسماع ما سمعوه عن العرب ، وبالقياس ما قاسوه على ما سمعوا . وقد ذكروا أن نحاة البصرة كانوا أصح قياساً من نحاة الكوفة ، لأن البصريين لا يلتفتون الى كل مسموع ، ولا يقيسون على الشاذ . ومعنى هذا أن الكوفيين كانوا يستعملون القياس بأوسع من البصريين ، لأنهم كانوا يقيسون على الشاذ . وقال الأندلسي : « الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للاصول جعلوه أصلا ، وبوبوا عليه بخلاف البصريين » (انظر مقدمة كتاب الانصاف في مسائل الخلاف)

ولكن مما لا شك فيه أن العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخداماً صالحاً ، وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه ، وزادوا فيه وابتكروا ، ولم يكن موقفهم موقف الناقل فحسب وكان كثير منهم ينظر باحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية وبالعين الأخرى إلى التعاليم الاسلامية والثقافة العربية فيختار من الأولى ما يتفق والثانية ، ويؤلف منهما مزيجاً لا هو يونانى بحت ، ولا اسلامى بحت إنما أظهرُ ما كان ذلك فى العصر الذى يلى عصرنا هذا وهو العصر العباسى الثانى ، فقد كانت الترجمة قد تمت وركزت ، فأعقبها الأخذ منها والبناء عليها وظهر أمثال اخوان الصفاء ، والفارابى وابن سينا ، وابن رشد وأمثالهم

* * *

وهناك نوع آخر خفيف من الثقافة اليونانية الرومانية ، وأعنى به الثقافة التى تنشأ من امتزاج الجنسين ؛ أعنى الجنس العربى والجنس اليونانى الرومانى فى الحياة الاجتماعية . فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين سَمْع العرب وبصرهم ، ولهم عادات وتقاليد ، وأفكار وآراء فى نظم الحكم ، ولهم فنون من غناء وتصوير وما إلى ذلك وكان العرب يقتبسون من ذلك ما تيسر لهم لا عن طريق الدراسة المنظمة ، ولا عن طريق البحث العلمى ، وإنما عن طريق المشاهدة والنظر ، وعن طرق الحديث والمشافهة وإن كان العراق أهم منبع للثقافة اليونانية العلمية ، فقد كان الشام ـ على ما نظهر ـ أهم منبع لهذا النوع من الثقافة الاجتماعية وسبب ذلك أن الشام كان محكوماً بالرومان قبل الفتح الاسلامى ، وكانت سلطة الرومان عليه أكبر من سلطتهم على العراق لقرب العراق من الدولة الأخرى القوية ـ وهى الفرس ـ ووقوعه تحت سيطرتها فى أغلب الأحيان ، وكان فى الشام عرب كثيرون ، ورومان كثيرون ، اختلطوا اختلاطاً تاماً . وترك الرومان عند خروجهم عادات

وتقاليد وفنوناً ونظماً اقتبس منها العرب

من الأمثلة على ذلك الغناء؛ فحدثنا الأغاني أن المسلمين اقتبسوا من الروم بعض غنائهم، وكان موضع الاقتباس هو الشام فيقول في «ابن مُحْرِز» «إنه سقط إلى فارس فأخذ غناء الفرس، وإلى الشام فأخذ غناء الروم، فتخير من نغمهم ما تغنَّى به غناءه»[١] ويقول ابن مسجح «إنه رحل إلى الشام وأخذ ألحانَ الروم»[٢]

وقد رأينا عند الكلام في الرقيق، أن كثيراً منه كان من الروم وكان هذا الرقيق من غلمان وجوار في قصور الخلفاء والأغنياء، والشعراء والعلماء وكان للمأمون جوار روميات، يلبسن لبس الرومي من زُنّار، وما إليه وكان لأبي تمام الشاعر غلام رومي[٣] وهكذا

ويحكي ابنُ أبي أُصَيْبِعَةَ. أن الرشيد كانت له جارية رومية اسمها حَرَشَى، وكان لها من قراباتها أخت أو بنت أخت، فتفقَّدَها الرشيد فلم يجدها، فسأل حرشي عنها فأعلمته أنها زَوَّجَتْها من قريب لها، فغضب من ذلك وقال كيف أقدمت على ذلك بغير إذني وأنت إنما اشتريتها من مالي! وأمر سلّاماً الأبرش بتأديب زوجها على عمله، فما زال سلام يتعرَّف خبره، حتى وجده فخصاه، وكانت الجارية الرومية قد علقت منه بغلام، فلما ولدت الجارية ـ وكان الرشيد قد توفي ـ تبنَّت حرشي الغلامَ، وأدَّبته بآداب الروم وقراءة كتبهم فتعلم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه رياسة، وكان يعرف بإسحاق ابن الخصي، وكان يتصل به كثير من أهل العلم والأدب[٤]

وكانت الحروب بين المسلمين والروم متواصلة في عصرنا هذا ومع الأسرى من كل من الجانبين في يد الآخرين فأسرى المسلمين قد يذهبون إلى

---

١ ج ١ ص ١٥١ ٢ ج ٣ ص ٨٤ ٣ أغاني ج ١٥ ص ١٠٧
٤ طبقات الأطباء ج ١ ص ١٨٥

القسطنطينية ، وأسرى الروم الى العراق والحكايات كثيرة فى التاريخ عن النوعين من الأسارى ، وخاصة فى عهد الرشيد ، وكان هذا سبباً من أسباب امتزاج الحياة الاجتماعية واقتباس كلٍّ من كلٍّ وليس من المعقول أن يمرّ هذا الاتصال ـ بحكم الروم لكثير من البلاد الاسلامية أولاً، ثم بالرق والأسر، ثم بالاحتكاك الدائم السلمى أحياناً ، والحربى أحياناً ـ من غير أن يترك بعضاً من المسلمين يتكلمون الرومية وبعضاً من الرومانيين يتكلمون العربية . فالرقيق الرومى مثلا فى البيوت كان يتكلم الرومية أولا بالضرورة ، ثم يتكلم العربية محرّفة ، ثم العربية القريبة من الصحيحة ، وهكذا الشأن فى أسرى المسلمين فى الروم إن استمرّوا ، وهذا يحمل بعض الأفراد الراقين من الجانبين على أن يتبادلوا الآراء والأفكار والكلام فى اللغة والأدب ويروى الأغانى فى ذلك خبراً طريفاً فيقول : قدم رسول لملك الروم الى الرشيد ، فسأل عن أبى العتاهية ، وأنشده شيئاً من شعره . وكان (أى الرسول) يحسن العربية فمضى (الرسول) الى ملك الروم وذكره له فكتب ملك الروم اليه وردّ رسوله يسأل الرشيد أن يُوَجِّهَ بأبى العتاهية ، ويأخذ فيه رهائن مَن أراد وألح فى ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك فاستعفى منه وأباه »[1]

* * *

وهذا يسلمنا إلى مسألة تستوقف النظر ، وهو ضعف تأثير الأدب اليونانى إذا قيس بتأثير العلم والفلسفة اليونانية ، فانك تقرأ أسماء الكتب التى ترجمت من اليونانية الى العربية ، فتجد الكثير فى كل فرع من فروع العلوم الرياضية والطبية والفلسفة ، ولا تكاد تعثر على كتاب أدبى يونانى ترجم الى العربية مع وفرة ما لليونان والرومان من كتب أدبية وقد ألمحنا لشىء من أسباب ذلك فيما مضى[2] ونزيد هنا سبباً آخر وهو أن الفلسفة

---

[1] أغانى ٣ ١٧٩ [2] فجر الاسلام ١٦١

والعلوم عالمية والأدب قومي؛ ذلك أن الفلسفة والعلم نتاج العقل، والعقل قدر مشترك بين الأفراد والأمم - وإن اختلفوا في أنصبائهم منه - والمنطق الذي يضبط هذه العلوم يستطيعه عقل الناس جميعاً، وقواعد الهندسة والطب تطبق على الناس جميعا. أما الأدب فلغة العواطف، وليس للعواطف منطق يضبطها، والأدب ظل الحياة الاجتماعية، ولكل أمة حياة اجتماعية خاصة بها تمتاز عن حياة الأمم الأخرى في أشكالها ومراميها. من أجل ذلك تذوق العرب منطقَ أرسطو وطبَّ جالينوس ولم يتذوقوا إلياذة هوميروس، ألا ترانا اليوم حتى في عصرنا الذي اتصل فيه الناس والأمم اتصالا أوثق مما كان في القديم، لا يتذوق العربي منا الإلياذة، إلا أن يكون قد وقف على الحياة الاجتماعية اليونانية وأدرك كنهها، ومرّن ذوقه طويلا على أن يستسيغها.

وسبب ثالث يصح أن يكون، وهو أن الأدب اليوناني أدب وثني، فيه آلهة متعددة، وفيه عبادة أبطال، والذوق العربي حين ترجمت العلوم ذوق مسلم، لم يستسغ هذا النوع من الأدب الوثني.

ومع هذا فقد كان لليونان أثر في اللغة العربية والأدب العربي من وجوه:

(١) ألفاظ يونانية عربت، ويلاحظ أنها أكثر ما تكون في أنواع ثياب يونانية أو رومانية لم تكن يعرفها العرب، ثم عرفوها ولبسوها، وأطلقوا عليها كلماتها الأصلية مثل «البُرْجُد» Paragauda وهو كساء غليظ مخطط، وأبو قَلَمُون وهو ثوب رومي يتلون للعيون ألواناً. أو أسماء أشياء عرفها العرب بعد اتصالهم بالرومان، ولم تكن من نتاج جزيرة العرب كالزبرجد والزمرد والياقوت، ومقاييس أو موازين رومانية كالقيراط والأوقية، أو أسماء طبية أو نباتية، كالبلغم والقولنج والترقوة، واللوبيا والترمس، أو كلمات نصرانية كالجاثليق، والبطريق، أو نحو ذلك[١] ويظهر أن أكثر هذه الكلمات تسربت

---

١ انظر في هذا كتاب الفروق للأب لامانس

الى العرب عن طريق الشام للسبب الذى أبنا قبل

(٢) قصص يونانية نقلت الى العربية وقد نقل ابن النديم أسماء كتب للروم فى الأسمار والتاريخ ترجمت الى العربية [١]، وحكى الجاحظ فى كتاب الحيوان قال «كان فى اليونانيين ممرور له نوادر عجيبة، وكان يسمى ريسيموس والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة [ما من نادرة] الا وهى غرة وعين من عيون النوادر فمنها أنه كان كلما خرج من بيته مع الفجر الى شاطىء الفرات — للغائط أو للطهور — ألقى فى أصل باب داره، وفى دورانه، حجراً كى لا يصفق الباب فيحتاج الى معالجة فتحه، والى رفعه . وكان كلما رجع من حاجته لم يجد الحجر، ووجد الباب مصمتاً فكمن فى بعض الأيام ليرى هذا الباب من يصنع به ما يصنع، فبينا هو فى انتظاره إذ أقبل رجل حتى تناول الحجر فلما نحاه عن مكانه انصفق الباب، فقال له مالك ولهذا الحجر، ومالك تأخذه ؟ فقال لم أعلم أنه لك . قال فقد علمتَ أنه ليس لك !

وقال بعضهم ما بال ريسيموس يعلّم الناس الشعر ولا يقول الشعر ! قال . ريسيموس كالمِسَنّ الذى يَشْحَذُ ولا يقطع

ورآه رجل يأكل فى السوق فقال أتأكل فى السوق ؟ فقال اذا جاع ريسيموس فى السوق أكل فى السوق [٢] الخ

(٣) الحكم، فقد ترجمت حكم نسبت لفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون وأرسطو ومليئت بها كتب الأدب فى ذلك العصر مثل البيان والتبيين، وعيون الأخبار وقال ابن النديم ان علىّ بن ربّن النصرانى نقل كتاباً فى الآداب، والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب [٣] الخ

والظاهر أن ولوع العرب بهذين النوعين «القصص والأمثال» دون غيرهما

---

١ الفهرست ٥ ٣، ٦ ٣ ٢ الحيوان ١ ١٤ وقد أصلحنا فى الحكاية بعض أغلاطها فى الاصل ٣ الفهرست ٣١٦

من أنواع الأدب كالإلياذة وبقية الروايات، والأشعار، والخطب اليونانية؛ سببه ما قدمنا فهذان النوعان من النوع العالمي، وقد جُرّدا مما يلابسهما من حياة اجتماعية خاصة، وليس فيهما أسماء يونانية ثقيلة على سمع العربي ولسانه، وليس فيهما أوزان شعرية لا تسيغها العربية، ولا فيهما وصف لحياة اجتماعية بعيدة عما يألفه العربي المسلم.

وبعد، فقد كان تأثير اليونان واسعاً عميقاً في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبية، ضيقاً ضعيفاً في الناحية الأدبية.

فإن شئنا أن نختار من يمثل هذه الثقافة اليونانية اخترنا لذلك «حنين ابن إسحاق».

حنين بن إسحاق

حُنَيْنُ بْنُ إسحاق، ويلقب بأبي زيد ولد سنة ١٩٤ هـ من أب عربي من قبيلة عِباد التي تسكن الحيرة. وكان أبوه إسحاق نصرانياً نسطورياً، فنشأ ابنه كذلك. وكان إسحاق صيدلانياً، فأعدّ ابنه لدراسة الطب. بدأ حنين يدرس على يوحنا بن ماسويه. وكان حنين يكثر السؤال على أستاذه، ويلح في الأسئلة فأحرج صدرَ يوحنا فطرده، وقال: «ما لأهل الحيرة والطب، عليك ببيع الفلوس في الطريق!» وكان في يوحنا عصبية لأهل جنديسابور ومدرستها، يعتقد أن العلم لا يخرج عنهم.

فذهب حنين إلى بلاد الروم، وأجاد تعلم اليونانية، ثم عاد إلى البصرة ولازم الخليل بن أحمد فأخذ عنه العربية. ويروون أنه حمل كتاب العين المنسوب للخليل إلى بغداد.

وكان يجيد أربع لغات: الفارسية، واليونانية، والعربية، والسريانية

وأهم ما امتاز به حنين الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية ، بدأ ذلك وهو فى السابعة عشرة من عمره ، ولكن كانت ترجمته ضعيفة لم ترْضِه لـمّا أن نضج ؛ فأعاد بعدُ بعض ما ترْجَم وصحح بعضاً .

اتصل أول أمره بالمأمون ، وعُيِّن فى بيت الحكمة الذى كان يترجم بالكتب اليونانيه التى نقلت من آسيا الصغرى ، ومن القسطنطينية وأخذ حنين يترجم منها الى السريانية أولا ، ثم الى العربية ، ثم ترجم للمعتصم والواثق والمتوكل

ولم يكتف بما جُمع فى بيت الحكمة ، بل رحل فى نواحى العراق ، وسافر إلى الشام والاسكندرية وبلاد الروم ، يجمع الكتب النادره ومات سنة ٢٦٤ هـ بعد أن عمر نحو سبعين عاماً بذل فيها من الجهد العلمى ما لا تستطيع عشره أن ينهض به فى مئات السنين

كان يترجم بنفسه ، وكان يشرف على جماعات تعمل بارشاده ، فقد جعل له المتوكل كُتّاباً نحارير ، عالمين بالترجمة كانوا يترجمون ، ويتصفح ما ترجموا ، كاصطفن بن باسيل ، وموسى بن خالد الترجمانى ، ويحيى بن هارون[١] كان يترجم كثيراً ، ويؤلف كثيراً ، وكان أحياناً يضع الشروح لما ترجم ، ويلخص المطولات ، ويصحح تراجم السابقين . وعلى الجملة فقد كان حركة علمية دائمة ، قلّ أن تُبَارى بل ظلت حركته التى أنشأها تعمل عمله بعد وفاته ، على يد ولديه وتلاميذه[٢]

أكثر ما ترجمه حنين كتب طبية ، وخاصة كتب جالينوس فقد ذكروا : « أنه ترجم الى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً وترجم الى العربية منها تسعة وثلاثين ، وأصلح ما ترجمه تلاميذه وهى ستة الى السريانية ، ونحو من السبعين الى العربية ، وأصلح معظم الخمسين كتاباً التى كان قد ترجمها

---

١ أخبار الحكماء ١٧١ ٢ انظر قائمة كتبه فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة

الى السريانية سرجس الرَّأسْعَيْني ، وأيوب الرُّهاوي ، وسواهما من الأطباء المتقدمين »[1]

ومع هذا فنجد له كتباً كثيرة في غير الطب فله كتب في المنطق وفي الطبيعة والهيئة ، وفي فلسفة أفلاطون وأرسطو وقد أثبت البحث العلمي أن بعضَ الكتب التي نسبت اليه انما هي من عمل تلاميذه ومدرسته لا من عمله .

واذا نحن أدركنا أنه أحد يترجم عن اليونانية ، وقد اعترضته مئات الكلمات اليونانية التي لم تُعرف لهــــا نظائر في اللغة السريانية والعربية ، من مصطلحات طبية وفلسفية ، وأسماء للنبات والحيوان والهيئة وغيرها وأنه كان مضطراً أن يوجد لها ألفاظاً عربية تقابلها ان أمكن ، وأن ينقل الكلمات الأجنبية نقلا عربيا إن لم يمكن ؛ علمنا أنه اضطلع بعبء ينوء بالعصبة أولى القوة ، وأدركنا قدر عَنائه ، ومبلغ نجاحه

وقد عاب الأستاذ « سيمون » Simon – عند نشره ترجمة حنين وحبيش لكتب جالينوس – عليهما « أن ترجمتهما مملوءة بالفقرات الدخيلة التي لم تكن في الأصل ، وأن طريقتهما في التعبير حرفية وليست دائما جميلة » وقد رد عليه الأستاذ برجستراسر ، ورأى أن حنينا وتلميذه حبيشا نجحا أكبر نجاح في التعبير عن معنى أصول الكتب اليونانية بقدر ما يستطاع من الوضوح ، وكانا يترجمان ترجمة حرفية حتى ولو ضحّيا في ذلك بجمال اللغة وتنسيقها . لكن ترجمة حنين أفضل ، ودقتها أعظم ، ويخيل الى الانسان أنها ليست نتيجة مجهود صادق فقط ، ولكنها نتيجة تمكن وتفنن من اللغة ، وحسن تصرف في مذاهبها وتتجلى هذا في سلاسة التوفيق بين اليونانية والعربية ، والدقة المتناهية في التعبير مع الايجاز تلك مميزات فصاحة حنين التي اشتهر بها »[2] .

---

[1] الأستاذ مايرهوف [2] كتاب الأستاذ برجستراسر عن حنين بن اسحاق ومدرسته وقد نقلنا معرب هذه الجمل من مقدمة الأستاذ مايرهوف لكتاب العشر مقالات لحنين بن اسحق

ونقرأ ثَبْتَ الكتب التي ترجمها أو ألفها حنين، والتي ذكرها ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء، فنرى أنه تعرض لكثير من فروع العلم المختلفة، ففضلا عن كتبه الكثيرة في الطب كانت له كتب في الفلسفة، وغيرها فله كتاب في الهواء والماء والمساكن، وكتاب في تولد الفرّوج، بيّن فيه أن تولد الفروج إنما هو من بياض البيضة، واغتذاؤه من المُحّ الذي فيها، ومقالة في المد والجزر، وكتاب في أفعال الشمس والقمر، وكتاب السماء والعالم، وكتاب في المنطق، وكتاب في خلق الإنسان، ومقالة في تولد النار بين الحجرين، وكتاب في أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين، وكتاب نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المتعلمين، وكتاب في الفلاحة ومقالة في قوس قزح، وكتاب تاريخ العالم والمبدأ والأنبياء والملوك والأمم والخلفاء والملوك في الإسلام، ومقدمة لكتاب فرفوريوس في المنطق، وكتاب في الفِراسة، وكتاب في إدراك حقيقة الأديان.

ولو عددنا كل ما ترجمه وألفه، لخرج ذلك بنا عن القصد الذي قصدناه، ومن هذا نرى أنه هو ومدرسته نقلوا إلى العربية زبدة آثار اليونان، وتناولوها بالشرح والاختصار، وجعلوا الثقافة اليونانية في مختلف فروعها بين أعين العلماء من المسلمين والنصارى يقتبسون منها وينتفعون بها. وكان عملهم هم وأمثالهم غذاء للمتكلمين في مذاهبهم، ولفلاسفة المسلمين، الذين نبغوا في العصر الذي بعد عصرنا هذا

وقد نقل حنين الترجمة نقلة جديدة لإتقانه للغات المختلفة، وكان العلماء يدركون الفرق الكبير بين ما ترجمه حنين، وما ترجم قبله. قد كانت ترجمة حنين وافية دقيقة، وترجمة من قبله عليلة سقيمة حتى أن ابن ماسويه لما قرأ قطعة من ترجمته أول أمره قال « أتُرَى المسيح في دهرنا هذا أوْحَى إلى أحد! » إعجاباً بترجمته، واعترافاً بأنها خارجة عن المألوف في الترجمة لعهده

ولنسق الآن مثلا من ترجمته ، قال فى أول كتاب الأسابيع لبقراط ، وشرحه لجالينوس الذى ترجمه حنين :

« قال جالينوس إن أَبُقْراط شبّه الانسان بالدنيا ، وسماه الدنيا الصغيرة ، لأن تدبيره على تدبير الدنيا ، وهذا الكتاب هو لأصحاب القياس ، أعنى الصنف من الأطباء الذين يُدْعوْن « دُغْمَاطيقيين » وهم ذوو الجدل والمحاورة ، وقد ذكر ههنا جزءى الطب : الجزء الذى يسمى « فسيولوغيا » وهو معرفة الطبائع والتوسم لها ، والجزء الذى يدعى « بَطُولُوغيا » وهو معرفة العمل [1]

وقال فى موضع آخر قال أبقراط (إن الفرقدين يشبهان الحرارة التى فى الانسان) قال جالينوس قد وعد هذا الرجل الفائق أن يجزّىء العالم على سبعة أجزاء ، فأنجز وعده ، وأحسن فيما قسم وجزّأ فإنه بدأ بالعالم الأقصى ، وانتهى إلى الأرض ، ثم قرن بعد ذلك كل جزء من أجزاء العالم بأجزاء الانسان فألطف النظر ، وأبهى القول ، وأحسن النظم ، فبدأ من الأرض حتى انتهى الى النار وفسرنا قوله هذا ، والوجه الذى أراده فى ذكره الأرض وابتدائه بها فإنه أراد أن يقرن أجزاء الانسان بأجزاء العالم ، والانسان أرضى ، يسلك على ظهر الأرض ، فابتدأ بالأرض ، وجعلها أول قوله ، وكرر القول ها هنا ليذكركم ما قال آنفاً ، فإن المعنى اذا ردّد ذكره مراراً كان الفهم له أرسخ فى القلب والحفظ » [2]

وقال فى موضع ثالث « واعلموا أن العصب ينقادُ للعمل ، وأمّا اذا تحرّكنا للعصب فدر العمل وقوى على إمساك ذلك العصب ولزومه ، ومنعه أن يفعل أفاعيله ، فإن العصب ربما هيج أفاعيل سيئة مكروهة ، فيحول العمل بينه وبين أفاعيله

---

[1] كتاب الأسابيع ص ٤ [2] ص ٦٨

واعلموا أيضاً أن الشمس هي المدوِّرة للفرقدين، وليست الفاعلة لذلك، لكنها تصعد وتنحدر فتظهر للفرقدين على نحو صعودها وانحطاطها. فقال لذلك هذا المرء الفاضل إن الشمس تدير الفرقدين، وليست المحركة لهما بالحقيقة، لكنها تظهرهما على وجه ما ذكرناه آنفاً ومعناه

وقد ذكر ذلك «أراطُسْ» الشاعر ووصفه فأحسن الصفة وأحكمها فمن أراد أن يستقصي معرفة ذلك فلينظر في كتابه الذي وضع في الفلك وسمّاه»[1]

* * *

ومن هذا نستطيع أن نحكم أن عبارة «حنين» واضحة المعنى جيدة الأسلوب، وأنه ـ إذا اضطر يستعمل الاصطلاحات العلمية بألفاظها مثل «دياطيقس» و «فسيولوجيا» و «بطولوجيا»، وأن يتبعها بشرح معناها إلى أن تؤلف الكلمة في العربية، ويتحدد مدلولها، وأنه يضع المتن من نفسه، ويتبع ذلك بما عنده من شرح وقد جرى على هذا النمط علماء المسلمين بعدُ في كتبهم

وعلى الجملة، فقد كان حنين ومدرسته خير من يمثل الثقافة اليونانية، وخير من قدم إلى قراء العربية نتائج القرائح اليونانية

---

١ ص ٨٢

الفصل الرابع

الثقافة العربية

للثقافة العربية ناحيتان هامتان (١) ناحية دينية من دراسة للقرآن الكريم وحديث وفقه ، ومن انتشار للثقافة الاسلامية بين أهل المملكة ، وأثرها فى عقولهم وأرواحهم . وهذا كله سنعرض له فى مواضع متفرقة من الكتاب (٢) وناحية لغوية أدبية وهى ما سنتكلم فيه الآن ، ذلك أن جزيرة العرب منبع اللغة العربية ، ومولد الاسـلام ، والعرب هم الذين حملوا لغتهم معهم حيث يسكنون ، وحيث يفتحون ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عربى ، والقرآن عربى ، ودعاة الأمم الأولون إلى الاسلام عرب فمن الواضح بعد أن ينسب الدين واللغة ، وما لهما من فضل إلى العرب ، وأن نسمى ما نتج عنهما ثقافة عربية

اللغة — فى الحق أن اللغة العربية أرقى اللغات السامية ، كما يقرر دارسو تلك اللغات فلا تعادلها اللغة الآرامية ولا العبرية ، ولا غيرهما من هذا الفرع السامى وهى كذلك من أرقى لغات العالم ، فهى تمتاز حتى عن اللغات الآرية بكثرة مرونتها ، وسعة اشتقاقها فاذا قيس ما يشتق من كلمة عربية من صيغ متعددة لكل صيغة دلالة على معنى خاص ، بما يقابلها من كلمة أوربية وما يشتق منها ، كانت اللغة العربية فى ذلك عالماً أوفر وأغنى فمثلا اشتقوا من الضَّرْب ضرَبَ ، ويضرب ، واضرِبْ ، وضارِبٌ ، ومضروب . وسموا آلة الضرب مِضْرَباً ، ومِضْراباً وقالوا ضَارَبَه أى جالده ، وتَضَرَّب الشىء ، واضطرب ، تحرك وماج ، وحديث مُضْطَرِب . وأمر مضطرب ، والضريبة : ما ضربته بالسيف

وضارَبه فى المال من المضارَبة (وهى أن تعطى انساناً من مالك مايتّجر فيه على أن يكون له سهم معلوم من الربح) واشتقوا منه مضارِباً ،ومُضارَبا ، الخ الخ .

هذا إلى المعانى المجازية التى يستعملون فيها الـكلمة ، فيقولون : ضَرَب الدراهمَ والدنانير (أى صَكَّهَا) واضْطرب خاتماً من ذهب (أى أمر أن يصاغ له) وضرَبَ فى الأرض ؛ اذا سار فيها مسافراً ، وضَرَبَت الطيرُ ؛ ذهبت . وضرب فى سبيل الله ؛ نهض ، وضرب على يده ،كفّه عن الشيء ومنعه. وأضرب عن العمل ؛ كف . وأضرَبَ البردُ النبات ، وضربه ؛ إذا اشتد عليه البرد حتى يَبِس ،والضَّريبة. الصوف أو القطن يُضْرَبُ بالمطْرَقة.والضَّريبُ من اللَّبَن ، الذى يُحْلَبُ من عدة لقَاح فى إناء واحد ، فيُضرب بعضه ببعض ، ثم أخذوا منه فلان ضَريب فلان أى نظيره (والضربَاء ؛ الأمثال النظراء) والضرائب الأشكال ، وضرْب المثل ذِكْرُه وقوله ، الخ الخ . هذا قليل من كثير مما يدل على غنى اللغة العربية ، غنى تاما فى الاشتقاق والمجاز ، قلّ أن تجاريها فيهما لغة أخرى . وكذلك مالها من طرق متعددة فى القلب والإبدْال والنَّحْت مما يطول شرحه . وقد أبنا فى « فجر الاسلام » ما كان للعرب من ملاحظات دقيقة فيما يقع عليه حسهم ، فالابل والخيل والأرض لـكل شيء منها اسم ، فاذا طرأ أى تغيير وضعوا له اسما خاصا . فاذا قصّرت اللغة فى شيء ، ففى ما لم يكن يقع تحت حسهم كمستخرجات البحار ، وأنواع النباتات والحيوانات التى تنتج فى غير إقليمهم [١] .

هذه المرونة التامة ، وهذا الاشتقاق والمجاز والقلب والابدال والنحت ؛ هو الذى جعل اللغة العربية تستطيع أن تـكون لغة القرآن الـكريم والحديث وما فيهما من معان فى منتهى السمو والرفعة ، وما فيهما من تعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية ، لا عهد للعرب بها فى جاهليتهم ، كما استطاعت بعد

---

١ انظر فجر الاسلام ص ٦٢ وما بعدها

أن تكون أداة لكل ما نُقل من علوم الفرس، والهند واليونان وغيرهم
وفى نحو ثمانين سنة من بدء العهد العباسى كانت خلاصة كل هذه الثقافات
مدونة باللغة العربية، والعرب الذين لم يكونوا يعلمون شيئا من مصطلحات
الحساب والهندسة والطب، ولا شيئا من منطق أرسطو وفلسفته؛ أصبحوا
فى قليل من الزمن يعبرون بالعربيـة عن أدق نظريات أقليدس، وحساب
الجيب الهندى، وما وراء المادة لأرسطو، ونظريات الهيئة لبطليموس، وطب
جالينوس، وحكم بزرجمهر، وسياسة كسرى. وما كانت تستطيع ذلك كله
لولا ما بها من حياة ومرونة ورقى.

واجهَ العرب فى العصر العباسى صعوبة شديدة فى نقل هذه الذخيرة العلمية
الأجنبية إلى اللغة العربية، بل وفى وضع مصطلحات لعلومها كالنحو والفقه،
ورأوا أنهم أمام علوم جديدة وأفكار جديدة، وأن رقعة المملكة الاسلامية
قد اتسعت، واختلفت أقاليمها ولكل إقليم نباتات، وحيوانات لم يكن
تعرفها ورأوا أنها قدمت على أنماط من النظم الاجتماعية، لم تكن تألفها،
فقد أنشئت دواوين لم تنشأ فى العهد الأموى، واختُرعت فى الأغانى نغمات
لا تعرف لها اسما عربيا، وآلات الموسيقى فارسية ورومية، ولكلّ اسمه
وملابس مختلفة الأنواع، لأمم مختلفة ومآكل ومشارب كذلك وعلى الجملة
فقد واجه العرب الحضارة العباسية، كما يواجه اليومَ العربُ الحضارةَ العربية
وهكذا، فماذا نصنع أمام هذا السيل الجارف؟ أننطق كل هذه الأسماء كما
ينطق أهلها؟ وفى هذا إهدار لشخصيتها أو نضع لها أسماء عربية من عندها؟
وفى تعميم هذا صعوبة شاقة. لقد تغلبت على ذلك كله فى دقة ومهارة، وفى
الحق إن معجم اللغة العربية تضخَّم فى العصر العباسى، من طريقين

الأول — : وهو الأكثر، التوسع فى مدلول الكلمات العربية، فالعربى لم
يكن يعرف الفاعل، والمفعول، بالمعنى الذى يفهمه النحوى، ولا يعرف

القضية ولا الموضوع والمحمول ، بالمعنى الذى يعرفه المنطق ولا يعرف الطويل والخفيف والمديد ؛ بالمعنى الذى يفهمه العروضى وهكذا وقد ملئت الكتب بحكايات طريفة كانت تجرى بين النحويين والأعراب الوافدين ، فلا يستطيع الأعرابى أن يفهم النحوىَّ ، لأنه يكلمه بمصطلحات لا علم له بها [١]

وكان علماء اللغة يُعْملون جهدهم فى الأخذ عن الأعراب ، ويجتهدون فى وضع الصيغة التى يفهمها الأعرابى ، فإذا قيل له صغ من وَفَى على وزن مفعَل لم يفهم ، لأنه مصطلح علمى

وبهذا كثرت معانى الكلمات العربية ، فلو عمل معجم لغوى فى العهد الأموى ما وجدنا للطويل معنى أنه بحر من بحور الشعر ، ولا وجدنا فيه فاعلا وظرفا بمعناهما النحوى وهكذا — وقد فتح هذا الباب أكثر الحاجات العلمية ، فإنك تقرأ النحو والصرف والفقه فلا تجد فيها لفظا أعجميا ، بل تقرأ المنطق كله — وهو يونانى الأصل — فلا تكاد تجد فيه كلمة أعجمية إلا مثل سفسطة ، وكذلك الشأن فى الفلسفة والرياضة فاستعملوا كلمة كَمِّية وكَيْفِيَّة وجوهر وعَرَض ، والمثلث والمربع والزاوية الخ ، ولم ينقلوا الكلمات الأعجمية إلى اللغة العربية

والثانى : نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى العربية ، وأكثر ما كان ذلك فى أسماء البلدان والنباتات والحيوانات ، والآلات والأمراض والمآكل التى لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وفى هذه تصرفوا تصرفات مختلفة طوعا للسانهم ولم يجروا فى ذلك على سنن واحد ، قال الجواليقى « إن العرب كثيراً ما يجترئون على الأسماء الأعجمية فيغيرونها بالإبدال ، قالوا اسماعيل وأصله

---

[١] مثل ذلك ما حكى الربيع بن عبد الرحمن السلمى قال قلت لأعرابى أتهمز إسرائيل؟ قال إنى إذاً لرجل سوء ، قلت أفتجر فلسطين؟ قال إنى إذاً لقوى ! وقال حاتم قلت لأعرابى ألقى عليك بيتاً؟ قال على نفسك فألقه !

اسماعيل فأبدلوا القرب الحرج .. وقد يبدلون مع البعد من الحرج وقد ينقلونها الى أبنيتهم ويزيدون وينقصون »[1] وفى الواقع لو قارنا بين أصل الكلمات الأعجمية وما عربت به؛ وجدنا أنهم لم يتبعوا قواعد ثابتة فتارة يبدلون الشين سيناً وأحياناً يبقونها، وأحياناً يقلبون الثاء تاء وأحياناً يبقونها، وتارة يغيرون تغييراً جسيماً وتارة تغييراً كبيراً[2] والذى نلاحظه فى ذلك أن النقل كان من مصدرين مصدر العلماء الذين واجهوا كتب اليونان، فعربوا بعض أسماء النبات والحيوان وهؤلاء تعريبهم أقرب الى الأصل، وأقرب لأن يكون على نمط واحد ونقل لم يكن من عمل العلماء، ولكن كان العرب الأميون وأمثالهم متروكين فيه لسليقتهم فالعربى يسمع اسم بلدة فارسية أو شيء يونانى فينطقه كما يسهل عليه حسبما اتفق له وقد يسمع عربى آخر اسما آخر فى ناحية أخرى، فينطقه نطقاً ليس على نمط الأول، بل إن الكلمة الواحدة قد ينطقها قوم من العرب نطقاً خاصاً وينطقها آخرون نطقاً مخالفاً، فيكون فى الكلمة لغتان أو أكثر . ومن أجل هذا صعب على الباحث أن يضع قواعد ثابتة لما اتبعه العرب فى نقل الكلمات مما ليس من موضوعنا .

* * *

خرجت اللغة العربية من هذا المأزق سليمة قوية واسعة ، هى لغة الدين ولغة العلم والفلسفة ، ولغة الأدب ، واضمحلت بجانبها كل لغات البلاد المفتوحة ، فاللغة السريانية التى ترجمت إليها الكتب اليونانية ، أخذت تتدهور بعد أن نقل ما فيها الى اللغة العربية والفرس فى ذلك العصر أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هى اللغة العربية ، إن ألفوا أو شعروا أو كتبوا فالعربية وحياة اللغة الفارسية إنما كانت عند الكلام العادى ، أو فى أوساط الديانة المجوسية

---

[1] المزهر ١ : ١٣٣ [2] للأمثلة على ذلك انظر كتاب الفروق للأماسى ، وكتاب الألفاظ الفارسية والمزهر للسيوطى ، وفقه اللغة للثعالبى

وكذلك اللغات الأخرى من رومانية وقبطية، فى الشام ومصر. وكسبت اللغة العربية من ذلك أنها أصبحت فى تآليفها وأدبها وعلومها نتاج كل هذه الأمم، تلبس كل أفكارهم، وتعبر عن قرائحهم وكسوا هم منها ما لها من ثقافة إسلامية وأدبية

ولئن أغنى الأعاجم اللغة العربية التحريرية؛ فقد أفسدوا اللغة اللسانية بما أدخلوا من لحن، كانت جزيرة العرب سليمة المنطق قبل الفتح، وقبل دخول الأعاجم فى الاسلام، ثم بدأ اللحن يفشو فيها، وللحن تاريخ من عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والأمويين لا نعرض له الآن، وإنما نريد أن نذكر كلمة عن اللحن فى عصرنا، فقد زاد بغلبة الأعاجم سياسياً، وأصبحنا نرى بدء تكوّن لغتين لغة الكتابة، والأعراب الفصحاء، ومن جرى مجْراهم، ولغة يسميها الجاحظ لغة المولّدين والبلديين، يقول: ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية، وعليك فضل كبير وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشْوة والطَّغَام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً، أو أن تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيا» ويقول «ولأهل المدينة ألسنة ذَلْقة وألفاظ حسنة وعبارة جيدة، واللحن فى عوامهم فاش وعلى من نظر فى النحو منهم غالب»[1] ويقول واللحن من الجوارى الظِّراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشوابّ الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهن، ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف»[2]

وقال فى موضع آخر «وزعم أبو العاصى، أنه لم ير قروياً قط لا يلحن

---

[1] البيان والتبيين ١ ١١١ [2] البيان ١ ١٢٣

فى حديثه ، وفيما يجرى بينه وبين الناس ؛ إلا ما تفقّده من أبى زيد النحوى ، ومن أبى سعيد المعلّم »

وذكر ابن قتيبة : أن أعرابياً دخل السوق ، فسمعهم يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح ! »[١].

كان هذا اللحن أنواعاً فلحن فى الإعراب فلا يصححون آخرَ الكلمات كما تقتضيه قواعد النحو ، كالذى رووا أن رجلا قال لآخر أحضرْتيه قال قد دعوته لكلْ ذلك يأبى - يرفع كل -[٢] ولحن فى بناء الكلمة كالذى قيل : إن نَبَطياً سئل لم اشتريت هذه الأتان ؟ قال أركبها ، وتلِدُ لى (بفتح اللام)[٣]. ولحن فى تركيب الجمل كالذى حكى الجاحظ قال خادم لى : فى أى صناعة أُسْلِمُ هذا الغلام ؟ قال أصحابَ سند ، نعَال ، يريد فى أصحاب النعال السندية[٤] وأحياناً يلجأ الرجل منهم إلى إسكان آخر الكلمات ، وترك الإعراب خوفاً من اللحن ، كان مهدى بن مهلهل يقول حدثنا هشامْ بنْ حسانْ ، ويجزم ذلك كله لأنه حين كان نحوياً رأى أن السلامة فى الوقف[٥]

وكان هذا اللحن فاشياً ، حتى فى العلماء فقد لحن أبو حنيفة ، ولحن عمرو بن عُبَيد ، وبشر المريسى[٦]. وهذا لا يطعن فى علمهم . فهناك فرق بين معرفة اللغة علماً والنطق بها كلاما ، فقد يجيد الرجل معرفة قواعد لغة وضبطها وفهمها ، ثم هو لا يحسن التكلم بها ، كالذى حكى عن بعض أئمة النحو[٧].

نستنتج من هذا كله أن فساد اللغة من الناحية اللسانية كثر - فى ذلك العصر - وأنه قد بدأ تكون للناس لغتان ؛ لغة عامية هى التى سماها الجاحظ لغة المولَّدين والبلديين ، وهذه لها ألفاظ غير معربة ، وتسامح فى الإعراب ،

---

١ عيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ٢ المصدر نفسه
٣ البيان ١ : ١٢١ ٤ البيان ١ : ١٢٢ ٥ البيان ١ : ١٢
٦ البيان ٢ : ١٥٦ والعقد الفريد ١ : ٢٩٦ وطبقات الأدباء ص ١٧٩
٧ كان الباوردى (؟) إماماً فى النحو ، وكان لا يحسن الكلام

وتميل إلى إسكان أواخر الكلمات [1] ولغة الطبقة الراقية والمتعلمة ، وهذه لغة معربة متخيرة - وإن كان اللحن يصدر منهم - وهذه اللغة الأخيرة هى لغة الكتابة .

* * *

ومن ثم لم تكن علماء اللغة والنحو يأخذون إلا عن سكان البادية ، لأنهم رأوا الحضر قد فسد بالاختلاط ، بل كانوا لا يأخذون عن البدوى إلا إذا لم يفسده الحضر فكانوا لا يأخذون عن الأعرابى إذا فهم القول الملحون « ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا (اللحن) وأشباهه بهرجوه (زيفوه) ، ولم يسمعوا منه ، لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطّردت ، وتكاملت بالخصال التى اجتمعت لها فى تلك الجزيرة ، وفى تلك الجيرة . ويقول الجاحظ « ولقد كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة ، وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه كان قد وضع منزله فى آخر موضع الفصاحة ، وأوّل موضع العجمة ، وكان لا ينفكّ من رُواة ومذاكرين » [2] . وكان البصريون يفتخرون على الكوفيين فيقولون نحن نأخذ اللغة من حرَشة [3] الضِّباب ، وأكلة اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكَلَة الشوَاريز ، وباعة الكوامخ » [4] وكان العلماء يمتحنون الأعرابى قبل أن يأخذوا عنه ، من ذلك أن أبا عمرو بن العلاء ارتاب فى فصاحة أبى خَيْرة الأعرابى ، فسأله كيف تقول حفرت الإراب ؟ قال حفرت إرَاباً قال أبو عمرو « لانَ جِلْدُكَ يا أبا خيرة ! » [5]

---

١ ذكر الأغانى أن الرشيد كان ممن يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه ، فقيل له ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية فعمل قصيدة « خانك الطرف الطموح » أغانى ٣ ١٧٧ ٢ البيان ١ ١٢٢ ٣ حرش الضب صاده

٤ الشواريز ، جمع شيراز اللبن الرائب المستخرج ماؤه ، والكوامخ جمع كامخ نوع من الأدام ٥ يريد أنه تحضر فذهبت لغته لأنه جمع « إرة » وكان الواجب أن يقول حفرت الإرات بكسرة ونون

كان كثير من الأعراب يفدون على مدن العراق ، فيأخذ العلماء عنهم اللغة ، وقد عدّ ابن النديم فى الفهرست عدداً ، منهم أبو زياد الكلابى وأبو سوّار الغَنَوِى — وقد أخذ عنه أبو عُبَيْدة — وثوْر بن يزيد — وقد أخذ عنه ابن المقفع — وأبو حَزْرَة العَدَوِى ، وأبو مهْدية ، وأبو مسْحَل ، وأبو صَمْصَم الكلابى[1] وقد اتصل بهم علماء اللغة يأخذون عنهم ، ومن هؤلاء الأعراب من كان يكتب ويؤلف كتباً ، كأبى زياد الكلابى ألّف كتاب النوادر ، وكتاب الفَرْق ، وكتاب الابل ، وكتاب خَلْق الانسان ، ومنهم من كان يعلم اللغة ويتعلم النحو على علمائه ، كأبى مسحل فقد أخذ النحو عن الكسائى . ومنهم من كان يميل الى الغريب النادر ، ويتقعر فى كلامه ، ويغلظ طبعه ليبرهن على إمعانه فى البداوة ، كأبى مُحَلِّم الشَّيْبانى وكانوا يتكسبون بذلك فمنهم من كان يعلم الصبيان بأجرة كأبى البيداء الرِّياحى ، ومنهم من كان يفد على الأمراء كأبى صمصم ، وفد على الحسن بن سهل ، وكثير من الأعراب كانوا يفدون على اسحاق الموصلى[2]

وكما كانت الأعراب ترحل الى الحضر للكسب أو طلب العلم ، كان العلماء والأدباء يرحلون الى البادية فى طلب اللغة والأدب ، فيحدثنا الأغانى أن بشاراً « قيل له ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم ؛ وشكّ فيه ، وانه ليس فى شعرك ما يشك فيه قال ومن أين يأتينى الخطأ ؟ وولدت هاهنا ونشأت فى حُجُور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم ، فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعْتُ فأبْدَيْتُ الى أن أدركت ، فمن أين يأتينى الخطأ ! »[3] . ويقول نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قيْس عَيْلان ،

---

[1] الفهرست ٤٣ وما بعدها
[2] أغانى ٥ ٧٧ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٢
[3] أغانى ٣ ٢٦ ، وأبدى أقام بالبادية

وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم (وكان يأتيهم أبان اللاّحقيّ) [١]
وكان علماء اللغة من بصريين وكوفيين يتسابقون فى الرحلة الى البادية ،
والأخذ عن العرب وقد اشتهر فى عصرنا بهذه الرحلة أبو زيد الأنصارى ،
وأبو عمرو بن العلاء ، والأصمعى والكسائى فأبو زيد يقول فى أول كتابه
النوادر ما كان فيه من شعر القصيد ، فهو سماعى من المفضل بن محمد الضبى ،
وما كان من اللغات ، وأبواب الرَّجَز ، فذلك سماعى من العرب » . وسأل
الكسائى الخليل بن أحمد ، من أين علمك هذا ؟ فقال من بوادى الحجاز ، ونجد
وتهامة فخرج الكسائى وأنفد خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب
سوى ما حفظه » [٢] وأما أبو عمرو بن العلاء ، فقد رووا : أن كتبه عن العرب
الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف » [٣] . وتاريخ الأصمعى مملوء
بالقصص عن الأعراب فى البادية ، وما سمع منهم من لغة وشعر وقصص

ولم يكن عمل علماء اللغة فى ذلك العصر ، الا نقل ما يسمعون من العرب
مشافهة الى التقييد بالكتابة ، فأكثر اللغة كتبت فى العصر العباسى الأول ،
لا قبله ، وكانت أهم وسائل النقل هى ما ذكرنا من رحلة العرب الى العراق ،
ورحلة علماء العراق الى البادية ، وتحرير اللغويين لما سمعوا من العرب مباشرة
أو بواسطة

وبعد ، فهل كان كل الذى دوّنوه صحيحاً ؟ وهل كان الآخذون وهم علماء
اللغة والمأخوذ عنهم وهم العرب كلهم ثقة ؟ الحق أن لا ! وأن بعض العرب
كانوا يخطئون أحياناً ويكذبون أحياناً ، وأن بعض علماء اللغة كانوا يخطئون
أحيـــاناً ويكذبون أحياناً ، كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على جديد لم
يعرفوه ، وكانت المنافسة بينهم شديدة ، وحب الفخر والتظاهر شـــديداً
خصوصاً فى مجالس الخلفاء والأمراء وكان يُقضَى على العالم فى جهله بكلمة

١ أغانى ٣ ٥٢ ٢ ضحى الإسلام ... ... ص ٨٤ ٣ ابن خلكان ١ ٥٥

أو خطئه فى كلمة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يتزيَّدوا ويختلقوا إذا أُحرجوا ، وأحس بعض الأعراب بهذه النفسية فكانوا يُغرُون أحياناً ، ويختلقون أحياناً وسبب آخر وهو أن العداء بين البصريين والكوفيين بلغ مبلغاً عظيما ، فكان علماء كلتا المدينتين يتشيَّعون لمذهبهم ، ويبرهنون عليه بالمصنوع أحياناً ، وكتبُ النحو واللغة مملوءة بالأدلة على ما نقول

أما خطأ العربى فقد يكون من عدم فهمه لمعنى الكلمة ، كقول عربى يصف امرأة بالعفة

لمْ تَدْرِ مَا نَسْجُ الْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا　　ودِرَاسُ أعْوَصَ دَارِسٍ مُتَخَدِّدِ

ظن أن اليرندج يُنْسَجُ ، وإنما هو جلد يصبغ[1] .

وقال عمرو بن كلثوم

علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليَمَانِى　　وأسيافٌ يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينا

قال ابن السِّكِّيت سمعه بعض الأعراب ، فظن أن اليَلَبَ أجودُ الحديد ، فقال . « ومِحْوَرٍ أخْلِصَ مِنْ ماءِ اليَلَبْ » وهو خطأ ، وإنما هو جلود تُنْسَجُ[2]

وأحياناً يكون خطأ العربى ناشئاً من عدم فهم طبائع الأشياء ، كقول عربى يصف درّة

فجاء بها ما شئتَ من لَطَمِيَّةٍ　　يَدُومُ الفُرَاتُ فوقها ويموج

فجعل الدر من الماء العذب ، وإنما يكون فى الماء الملح

وقد يكون خطأ فى الحوادث التاريخية فقد قال الكميت

كأنَّ الغُطَامِطَ من غَلْيِها　　أراجيزُ أسْلَمَ تهجو غِفَارا[3]

فقال نُصَيب ما هجت أسلم غفاراً قط ؛ وقد يكون من سوء تصرفه

---

[1] المزهر ٢ ٢٤٨　　[2] لسان العرب ٢ ٣٠٦

[3] الغطمطة صوت الغليان

العربى ، فقد قال عربى - وكانت قد ماتت زوجاته تباعاً - :

فهذا مَالكٌ يرمى بنانى كأنما ... بنانى لِسَهْمَىْ مالكٍ غرَضانِ

فيارب فاترك لى جُهَيْمَةَ أعصُراً ... فما لِكُ موتٍ بالقضاء دهانى !

ذلك ، أن هذا الأعرابى لما سمعهم يقولون « مَلَكَ الموت » سبق إليه أن هذه اللفظة على زنة فَعَلَ - كملك - فاشتق منها كلمة على وزن «فاعل» مع أن ملَكَ على وزن مفَلَ لأن أصله مَلأَك فالاشتقاق خطأ . وكجمعهم مصائب ، قياساً على صحائف ، وهو غلط لأن ياء مصيبة أصلية ، وياء صحيفة زائدة ، الخ

وأما أكاذيبهم ، فقد عقد المبرّد باباً فى كتابه الكامل ، سماه « أكاذيب العرب » - هذا شأن العرب . وأما خطأ العلماء فنروى منه ما رواه ابن الأعرابى قال لقينى أبو محلّم ومعه أعرابى ، فقال خبّئكم بهذا الأعرابى لتعرفوا أنه كذب الأصمعى ، أليس كان يقول فى بيت عنترة

شَرِبَتْ بماء الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحت ... زَوْرَاء تنفرُ عن حياض الدَّيلمِ ،

إن الديلم الأعداء لأنهم أعاجم ، والعرب كانوا يعدون جميع الأعاجم أعداءهم . فسلوا هذا الأعرابى ما معنى الديلم ؟ فسألناه فقال . الديلم حياض بالغور أوردتُها إبلى غير مرة !

والظاهر أن معاجم اللغة بعد ذلك جمعت كلَّ ما رُوِى وتأوّلت الخطأ ، وصححت الغلط ، وأخذت آراء العلماء على اختلافهم من غير تدقيق . فقد تأولوا كلمـــة « مالك » الواردة فى البيت السابق ، وقالوا فى اليلب إنهُ الحديد أو الجلد ، وصححوا الشطر الذى رويـــاه « يدوم الفرات فوقها ويموج » بقولهم يدوم البحار فوقها وتموج ، وفسروا الديلم بأنها الأعداء أو حياض بالغور ، وأسبغوا على العرب نوعاً من العصمة ليس بصحيح ، حتى زعموا أن العربى لا يطاوعه لسانه فى الخطأ ولو تعمّدَ ، ورووا

لذلك الحكاية المشهورة التى كانت بين سيبويه والكسائى ، والحق أن العربى الصميم ؛ مثله كمثل الانجليزى الصميم ، والفرنسى الصميم ولو أراد الفرنسى مثلا أن يحوّر لسانه ، لينطق بالخطأ عمداً لاستطاع ذلك فى يسر ، وهو كذلك يخطىء فى استعمال بعض الكلمات والتراكيب ، ونحو ذلك ، فالعربى مثال ذلك . ولكن مهما قلنا فى الخطأ أحياناً وفى الكذب أحيانا فهو صفة عارضة ونادرة . وكان الأغلب فيما نقل من اللغة الصدق والصواب

وقد جد العلماء الأولون فى تمحيص ما جمع من ألفاظ اللغة ، فقد رأوا أن هناك كلمات كثيرة أخذت عن قبائل مختلفة ، لكل قبيلة لفظ أو لهجة ، وبعضها أفصح من بعض ورأوا ألفاظاً لم يستوثق من صحتها ، والذى جاء بها لا يوثق به ، ورأوا كلمات اختلفت فى تحديد معانيها ، لأنها رويت فى جُمل ، واللفظ فيها يحتمل أكثر من معنى واحد ورأوا ألفاظاً صُحِّفَتْ ، وألفاظاً كان ينطق بها عربى ألثغ ؛ فنطقها الآخذ عنه لغة . وهكذا فاضطروا أن يحرروا ذلك كله ويمحصوه ، فبذلوا من الجهد ما يستدعى الاعجاب ، وبينوا من اللغة ما هو صحيح وفصيح ، وضعيف منكر ، ورديء مذموم فقالوا مثلا شَطَبَتْ شمةُ الانسان ورمَت ، ولبس بَنَبَبـ ـأرض جثْوَاء كثيرة التراب ، وليس بثبت وهكذا وألّف ابن خالويه كتاباً سماه « ليس فى كلام العرب » بيّنَ فيه ألفاظاً تستعمل ولم يصح سماعها عن العرب ، وقالوا قال الأصمعى ماسمعنا العام فابهً أى صوت رعد ، ولم يروه أحد غيرُ الأصمعى ، وإنما روى العلماء ما أصابنا العام قابة أى قطره ، وقالوا العَرْر لغة أهل الحرين والعَرَر اللغـة العليا ، وهكذا وقد تكون الكلمة واحدة ، وتختلف العرب فى النطق بها فقبيلة تقول ، الطَّبْع فى الطَّبْع ، وأما والله ، وهمَا والله ، وحمَا والله ، والاباب والعباب وأنّه وعنّه ، والاِعاء والوعاء وهجم عليهم وهجم عليهم ، الى مئات من مثل ذلك وليس لاختلافهامن سبب الا اختلاف

القبائل العربية فى النطق ، وأحياناً يكون الخطأ من العلماء فى الكتابة ، وهو ما يسمى بالتصحيف ، فقالوا : وبها سُؤْدة من شباب ، أى بقيّة من شباب ، ثم قالوا وبها سؤرة من شباب أى بقية ، وليست الأولى إلا تصحيفا للثانية .

وأحياناً يكون العربى ألثغ ، فيقول فى الشابة الثابة ، وفى الديك الديش وقد تعرض العلماء لشىء من ذلك ولم يستوفوه ، ولكن المتأخرين وبخاصة صاحب القاموس المحيط كدّسوا ذلك كله من غير تمحيص ، وفخروا بأنهم زادوا موادّ كثيرة عما قبلهم ، وكان الأولى أن تستبعد اللثغات ، ويحقق التصحيف ، وتترك اللهجات وإذن لا تتضخم هذه المعاجم ، وتملأ فراغاً كبيراً نحن أحوج إليه فى ألوف الأشياء التى ليس لها اسم واحد

* *

وكان المدوِّنون الأولون للغة فى هذا العصر يدونون المفردات حيثما اتفق ، وكما يتيسر لهم سماعها ، فقد يسمعون كلمة فى الفرَس ، وأخرى فى العَيْش ، وثالثة فى الرجل القصير وهكذا ، وكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب . وكانت الخطوة الثانية ، أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد ، وأظهر ما كان ذلك فى كتب الأصمعى ، فله كتاب الأنواء ، وكتاب المَيْسِر والقِداح ، وكتاب خَلْق الفرس ، وكتاب الإبل ، وكتاب الشاء ، وهكذا يجمع ما ورد من الألفاظ اللغوية فى موضع واحد ، ويسميه كتابا ، وقد يكون الكتاب نصف ورقات ، ثم كانت الخطوة الثالثة عمل المعاجم .

هذا موجز من القول فى الناحية اللغوية للثقافة العربية ، وهناك ناحية أخرى هى الناحية الأدبية ، فقد كان للعرب أدب غزير ممتع ، وكان بجانب رواية اللغة رواية الأدب ، بل كثيراً ما تكون رواية اللغة فى ثنايا رواية الأدب وكان عرب البادية فى ذلك العصر مصدراً للغة والأدب معاً

كان الناس إذ ذاك يتلذذون من سماع حديث الأعراب ، لخفة روحهم

وعذوبة نطقهم وسلاطتهم ، قال الجاحظ « ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ، ولا آنق ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان ؛ من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء »[1] وقال ابن عبد ربه - فى كلام الأعراب - « هو أشرف الكلام حسنا ، وأكثره رونقا ، وأحسنه ديباجا ، وأقله كلفة ، وأوضحه طريقة ، إذ كان مدار الكلام كله عليه ، ومنتسبه اليه »[2] وقد عقد فصلا طويلا ، نقل فيه شيئا من كلام الأعراب فى الزهد والمدح والذم والغزل والحيل والعيش ، والنوادر والمُلَح ، والطعام ، الخ[3] وعقد الحُصْرى فصلا ممتعا عنوانه « فقر من كلام الأعراب فى ضروب مختلفة »[4] وفى الحق ، إنك تقرأ هذه الفصول فتؤمن بأن أذنهم جيد اللفظ ، قريب المعنى ، قليل الكلفة.

يقول أعرابى فى امرأة يحبها : « لقد نَعِمَت عَيْنٌ نَظَرَت إليها ، وشقى قلب تمجَّع عليها ، ولقد كنت أزورها عند أهلها ، فيرحب بى طَرْفُها ، ويتجهَّمنى لسانها » وكره أعرابى البصرة وأهلها فقال

« دخلت البصرة ، فرأيت ثياب أحرار على أجساد عبيد ، إقبال حظهم إدبار حظ الكرام ، شجر أصله عند فروعه ، شَغَلهم عن المعروف رغبتُهم فى المنكر » ووصف اعرابى أميراً ، فقال « إذا وَلى لم يطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالمحسنُ راج والمسىء خائف وقدم أعرابى البادية - وقد نال خيراً من البرامكة - فقيل كيف رأيتهم ؟ قال « رأيتهم وقد أنست بهم نعمه كأنها من ثيابهم » إلى كثير من أمثال ذلك . ولهم النادرة الحلوة ، والفكاهة العذبة ، يفكه بها الخلفاء فى مجالسهم ، والخاصة فى أحاديثهم ، والأدباء فى سمرهم وروى الأصمعى - مثلا - فى ذلك

---

١ البيان والتبيين ١ . ١١   ٢ العقد ٢ ٩٢   ٣ المصدر نفسه ٩٢ — ١٣٢

٤ زهر الآداب هامش العقد ٢ ٢

الشيء الكثير ، يفرّج به همّ الولاة ، ويضحك به السُمّار — سافر أعرابى إلى رجل فحرمه ، فقال لمّا سئل « ما ربحنا فى سفرنا إلا ما قصرنا من صلاتنا ، وأما الذى لقينا من الهواجر ، ولقيت منا الأباعر ؛ فعقوبة لنا فيما أفسدنا من حسن ظننا ! » وقيل لأعرابى ما عندكم فى البادية طبيب ؟ قال « حُمُرُ الوحش لا تحتاج إلى بَيْطار ! » وسأل أعرابى رجلا فاعتل عليه فقال « إن كنتَ كاذبا فجعلك الله صادقا ! » وقال الأصمعى « أصاب الأعرابَ مجاعة ، فمررت برجل منهم قاعد مع زوجته بقارعة الطريق ، وهو يقول

يا ربِّ إنى قاعد كما ترى　　وزوجتى قاعدة كما ترى

والبطن منى جائع كما ترى　　فما ترى يا ربنا فيما ترى ؟ الخ

ثم لهم الحكمة الرائعة يجرون فيها على سَنَن حِكَم أكثم بن صيفيّ والأحنف بن قيس هى أشبه ما يكون بالأمثال ، قال أعرابى « الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبر عما يكون بما قد كان » « لم أرَ صاحبا أغرّ من الدنيا ، ولا ظالما أغشَمَ من الموت ومن عَصَف عليه الليل والنهار أرداه ، ومن وُكِّلَ به الموت أفناه ! » وقال أعرابى « الدراهم مياسم ، تسم حمداً وذما ، فمن حبسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له ، وما كل من أُعطى مالا أعطى حمداً ، ولا كل عديم ذميم ! » وقال أعرابى « إذا كان الرأى عند من لا يُقبل منه والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور ! » وقيل لأعرابى لم لا تطيل الهجاء ؟ قال « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعُنُق » الخ

ولهم الشعر الرقيق العذب ، كالأعرابى يقول فى رثاء ولده

دفنتُ بنفسى بعضَ نفسى فأصبحَتْ　　وللنفس منها دافنٌ ودفينُ

وكالأعرابى يقول فى سوداء

كأنها والكُحْلُ فى مِرْوَدِها　　تَكْحَل عينيها ببعض جلدها

وأنشد الرّياشي لأعرابي

ما كنت للقلب إلا فتنة عرضت ... يا حبذا أنت من معروضة الفتن

تسيء سلمى وأجزيها به حسنا ... فمن سواي يجازي السوء بالحسن

وقال أعرابي قتل أخوه ابناً له، فقُدّم إليه أخوه ليقتاد منه؛ فرمى السيف من يده، وقال

أقولُ للنفس تأساءً وتعزيةً ... إحدى يديَّ أصابتْني ولم تُرِدِ

كلاهما خلفٌ من فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ولهم القصص عن حروبهم وأيامهم، فكانوا يروون أيام العرب في جاهليتها وإسلامها، وما كان فيها من أحداث، فيتحدثون بيوم الفجار، ويوم ذي قار، وحروب قيس في الجاهلية، وحرب داحس والغبراء، ومقتل كُليب بن وائل. كما يتحدثون بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته، والصحابة وما كان بينهم، ويروون شعر الشعراء من جاهليين وإسلاميين، وخطب الخطباء، وأمثال الحكماء، ونوادر الظرفاء.

كل هذا كان في البادية فهم رواة الأدب القديم، ولهم إنشاء في الأدب الحديث، لذلك قصدهم العلماء يأخذون عنهم كل ذلك

وفي الحق كانت سكناهم في البادية، وقلة امتزاجهم بغيرهم من الأمم أدعى لأن يسلكوا سبيل الأولين ويحذوا حذوهم، ويحتفظوا بمآثرهم، ويسيروا في الأدب على منهاجهم فإن تأثر شعراء العراق وأدباؤهم بالفرس ومن إليهم فإن هؤلاء تأثروا آباءهم في الجاهلية وآباءهم في الإسلام، وكان أدبهم صورةً حيّة للأدب القديم، وصدورهم واعية لآثار الأقدمين، ونوع معيشتهم أشبه بمعيشة الأولين، قال عمر بن عبد العزيز «ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب، لولا جفاء فيهم!»[1].

---

[1] العقد ٢ ٩٣

فمما لا شك فيه ، أنه كان في هـــذا العصر أدبان أدب عربي صرف ليس فيه كبير أثر من حضارة ، ولا من ثقافات الأمم المختلفة . وهذا أدب - كما قلنا - خفيف الروح ، رشيق اللفظ ، لا ترى فيه خمراً كثيراً ، ولا ترى فيه تشبباً بغلمان ، ولا ترى فيه غزلاً بقيان ، ولا ترى فيه فخراً فاجراً . ولا فحشاً داعراً . كما لا ترى فيه عمقاً في تفكير ، ولا إمعاناً وفلسفة في تعبير . يعجبني في ذلك قول التبريزي ، فقد قال مما يدل على أن قصيدة

إنّ بالشِّعْبِ الذي دونَ سَلْعٍ   لَقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلّْ

ليست لتأبّطَ شراً وإنما هي لِخَلَفٍ الأحمر ، قوله فيها :

خَبَرٌ ما نابَنا مُصْمَئِلٌّ   جَلَّ حتى دقَّ فيه الأجَلُّ

فإن الأعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا

وأدب آخر حَضَري ، كالذي تراه في كتابة عمر بن مسعدة ، وابن المقفّع ، وقد تأثر بالفرس تأثراً كبيراً . وفي ذوقي أنه ليس في خفة روح الأول ، ولا رقتـــه وعذوبته ، يحتاج الذهن فيه إلى أن ينحرف بعض الانحراف ليفهمه ، وكالذي تراه في شعر بشار ، وأبي نواس ؛ فيه العمق وفيه الفكْر ، والقصيدة التي كان يُعَنّى بها العربي ، ليعبر عن عاطفة قوية بسيطة ؛ أصبحت في الحضر مُطوّلة يصنع صاحبها العاطفة ويغلو فيها . والأدب الذي كان يشرح حياة البادية ، وما فيها من بطولة وشجاعة وقوة ، أخذ يعبر عن حياة المدن ، وما فيها من نعومة ولين ، وانتقل النثر من جمل صغيرة مفصولة مقطعة أو خطبة قوية تقال شفاهاً ، إلى كتابة يتنوع موضوعها بتنوع مرافق الحضارة وتفصل فيها الكلام ويربط . وقد كان العربي الذي يعبر بلسانه خرّيج الطبيعة والبيئة ، فأصبح الذي يكتب بقلمه وابن التربية العلمية ، وخرّيج الكتب والدفاتر والمحابر . وعلى الجملة فكلا النوعين من الأدب ظل لحياته الاجتماعية ، هذا في حضَره وذاك في باديته . وإذ كانت البادية لم تتغير ،

وكانت في العهد العباسي مثلها في العهد الأموي، كان أدبهم كذلك يجري في
وادٍ واحد، وإذ كان الحضر متغيراً فالعراق العباسي غير العراق الأموي،
كان الأدب الحضري مختلفاً عما قبله، فكتابه في أنواع جديدة وغزَل
جديد، والكتب المؤلفة في الأدب تصف حياة اجتماعية جديدة، وهكذا

* * *

وكما كان خطأ ووضع في اللغة، كان كذلك في الأدب، بل الباعث في
الثاني أقوى منه في الأول، فالولاة والأمراء يعجبهم الشعر اللطيف، والقصص
الغريب، أكثر مما يعجبهم اللفظ، والتزيد من القصائد لفخر قبيلة أو ذمها،
والنوادر في القصص تسترعي الأسماع، والحكايات لإعلاء شأن فرد أو
قبيلة، والتوسع في المثالب والمناقب، كل هذا يجد مجالاً في الأدب أكثر مما
يجد في اللغة، وقد كان هؤلاء الوُضّاع من العرب أحياناً ومن العلماء أحياناً.
«تكاذَبَ أعرابيان، فقال أحدهما: خرجتُ مرّة على فرس لي، فإذا أنا بظلمة
شديدة فيمّمتها حتى وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه، فما زلت أحمل
عليها بفرسي حتى أنبهتُها فانجابت! فقال الآخر: لقد رميت ظبياً مرة بسهم،
فعدَل الظبيُ يَمْنَةً فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبي فتياسر السهم، ثم علا الظبيُ
فعلا السهم، ثم انحدر فانحدر حتى أخذه!» قال التوّزي: سألت أبا عبيدة عن مثل
هذه الأخبار من أخبار العرب فقال: إن العجم تكذب أيضاً فتقول كان رجل
نصفه من نحاس، ونصفه من رصاص! فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه[1]

وقد عقد الثعالبي - في كتابه فقه اللغة - فصلاً في خرافات العرب، فوضعوا
إسم الخُسّ لمن يولد بين الإنسي والجنية، والعملوق بين الآدمي والسِّعْلاة
والغيلان بين الآدمي والملَك. ومن ذلك ما زعموا أن جرهماً كانوا من نتاجٍ
حدَث بين الملائكة والإنس، وأن بِلقيس ملكة سبأ كانت من مثل ذلك النَّجْل،

---

[1] المزهر ٢ : ٢٥٣ نقلا عن الكامل

وأن يأجوج ومأجوج هم نتاج ما بين النبات وبعض الحيوان ، الخ[١] .

واشتهر بالوضع من العلماء حَمَّادٌ الرّاوية ، وخَلَفٌ الأحمر ، وهشام بن الكَلْبيّ النسّابة وغيرهم ، فهؤلاء ملأوا كتب الأدب العربي قصصاً وقصائد وأخباراً وأنساباً لم يتحروا فيها الحق والصدق . فحماد روى كثيراً من أخبار الجاهلية وشعر الاسلاميين ، وحروب القبائل ، وروى المعلقات السبع ، وكان له من المقدرة ما يستطيع بها أن يقلد الشعراء الأولين ، ويتمنّى بها على الناس روى الأغاني « أنه اجتمع في دار المهدي بعيساباذ وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضّل الضّبيّ الراوية ، فدخل فمكث ملياً ، ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً — وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط — ثم خرج حسين الخادم معهما ، فقال يا معشر من حضر من أهل العلم : إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ؛ فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدَثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل »[٢] .

وخلف الأحمر يقول : « أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا عليّ به فكنت أعطيهم المنحول ، وآخذ الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم ويلكم ! أنا تائب الى الله ، هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب »[٣]

وابن الكلبي كان عالماً بالنّسب ، وأخبار العرب وأيامها ووقائعها ، مكثراً

---

١ ص ١١٧ وفيه الآية طبع مصر وقد حذف هذا الفصل من الآثار المسوعة
٢ أغاني ٥ : ١٧٢ وانظر مقدمة الكامل وسبب هذا التسمية ٣ ابن خلكان ١ : ٣٩٣

فى الصنائف ، تزيد تآليفه على مائة وخمسين مصنفاً ، عدها ابن النديم فى الفهرست وقد قال فيه احمد بن حنبل « كان صاحب سير ونسب ، ما ظننت أن أحداً يحدث عنه » وقال الدارقطنى « هشام متروك وقال غيره ليس بثقة »[١]

هؤلاء الوضاعون ، أفسدوا العلم والرواية ، وأجهدوا الثقات من العلماء بنقد ما رووا ، يتبينون صحيحه من فاسده ، فوُفِّقوا أحياناً ، ولم يوفقوا أحياناً ، لأن قولهم فشا فى الناس ، وتفرق فى البلدان ، وتساهل الناس فى الأدب والأخبار ما لم يتساهلوا فى الحديث

* * *

كان نتاج الأمة العربية اللغوى والأدبى فى هذه القرون الثلاثة ـ أعنى قرناً ونصفاً قبل البعثة ، وقرناً ونصفاً بعدها ـ نتاجا عظيما ، ولكن نتاجها لا فى فلسفة ولا فى علوم رياضية ونحوها ، بل نتاج أدبى ، وليس محرراً فى كتب كالتى دونها الفرس واليونان وإنما هو شفوى ـ إلا فى القليل النادر ـ يتناقله جيل عن جيل ، والذاكرة لا تعى كما يعى الكتاب ، فدخل على هذه الثروة نقص وتزيد ، وتغيير وتبديل ، ولكنها على العموم ثروة كبيرة وقيمة إذا قورنت بثروة أمة أخرى فى مثل هذا الزمن ، وفى موقف كموقف الأمة العربية.

وهذه الثروة متعددة النواحى ، فشعر تدهشك كثرته ، حتى ليخيل اليك أن كل عربى شاعر ، وأن لسانه ينطق بالشعر كما ينطق بالكلام ، ثم هو منوع الأغراض ، متنوع الوزن ، متنوع المعانى . فكان لنا من امرىء القيس ، الى بشار بن بُرْد دواوين ضخمة لا تجمع كل ما قالوا ، ولكن تجمع أقله ، أودعوا فيه فخرهم وهجاءهم وغَنَّوْا فيه بعواطفهم وشعورهم ، ووصفوا فيه لوعتهم وحنينهم الى وطن ، ووفاءهم لمحب ، ووصفوا طبيعة أرضهم ونباتهم وحيوانهم

١ ناقوت ٧ ٢٥

وثروة من الخطب لا تقل شأناً عن الشعر ، يستعينون بها فى تهييج القبائل فى الجاهلية ، وفى تنظيم الأحزاب السياسية فى الاسلام ، ويصلون بها فى الجاهلية والاسلام الى تحقيق أغراضهم ، وبث أفكارهم فى السلم والحرب ، وجمع الكلمة وتفريقها ، ولهم الأمثال والحكم ، وقد برعوا فيها وأكثروا منها ، وقامت لهم مقام الفلسفة لليونان ، أمدهم بها كثرة تجاربهم ودقة ملاحظتهم وحسن صياغتهم .

ولهم الأخبار الكثيرة عن أبطالهم فى الكرم ، وأبطالهم فى الحرب ، وأبطالهم فى الوفاء ، وأبطالهم فى القيافة والكهانة ، الخ

ولهم القصص عن وفودهم وأسواقهم ، وحكامهم وفرسانهم ، وعدائيهم ولصوصهم ، ولهم أساطيرهم وخرافاتهم ، وتفاؤلهم وتشاؤمهم وتخيلاتهم .

ولهم الأخبار الطويلة عن أيامهم ، وأصنامهم وعاداتهم ، وحنفائهم ويهودهم ونصاراهم

* * *

ولما جاء الاسلام اتصلت به الثقافة العربية اتصالا وثيقاً ، حتى كان من الدين التثقف بها ، والعلم بلغتها وأخبارها ، بل عمل الاسلام عملا كبيراً فى رفعها وتقديسها ذلك أن القرآن الكريم والحديث عربيان ، ومن حسن الاسلام تعلم لغته ، فكان الاسلام أكبر البواعث على نشر هذه الثقافة ، والعناية بها دخل اللحن فى العربية ، فخاف المسلمون على القرآن أن يتسرب اليه لحن فوضعوا النحو ، وحمَلَهم وضع النحو على مشافهة الأعراب ، والأخذ عنهم ، حتى وصلوا الى قاعدة فى الرفع والنصب والجر والجزم يضعونها ، وكانت حركة عنيفة ومجهود كبير تُوِّج بكتاب سيبويه وما كان يكون لولا القرآن [١]

---

١ قال ابن خلدون : لما فسدت اللغة عندما أتى اليها مما يغايرها وخشى أهل العلوم أن تفسد الملكة رأساً ، وتطاول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم استنبطوا من مجارى

ووردت في القرآن والحديث ألفاظ لغوية، فضربوا أكباد الإبل إلى البادية يستفسرون عن لفظ، أو يقفون على تعبير، ودعاهم ذلك إلى حفظ الأشعار، ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنياً، أو يساعد على فهم تعبير قرآني. فأكثروا من رواية اللغة والأشعار لذلك، ودققوا فيها وتحروا الموضوع من الصحيح. وما كان يبذل هذا الجهد، وذلك التحري لولا ما وراءه من باعث ديني[1].

وعنوا بلهجات العرب، وكيف تنطق تميم وقريش، ومن الذي يُميل ومن لا يُميل، ومن يبدل ومن لا يبدل؛ لتفهم قراءات القرآن، كما عنوا بالمعرّب والأصيل لما في القرآن من معرّب وأصيل.

بل وجدّ بعض العلماء بعد في البلاغة، يضعون لها القواعد، ويستنتجون القوانين تفهماً لمواضع الإعجاز في القرآن، وتذوقاً لبلاغته[2].

كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب» الخ مقدمة ٤٨٠

(١) قال الثعالبي في أول كتابه فقه اللغة «أما بعد فإن من أحب الله أحب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن أحب النبي العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها» ويقول «والعربية خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، الخ»

وقال ابن عباس: الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه، وسئل عن قوله تعالى «عن اليمين وعن الشمال عزين» قال عزين الحلق الرفاق قال عبيد بن الأبرص.

فجاءوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا

انظر الإتقان ١ : ١٤٩ وما بعدها

(٢) «يقول عبد القاهر في البلاغة «وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة، ومعان شريفة، ورأيت له أثراً في الدين عظيماً وفائدة جسيمة. ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل» دلائل الإعجاز ص ٣٣.

وهكذا كان القرآن منبعاً لثقافة روحية وعقلية سنبينها بعد . وكان منبعا لثقافة عربية وعلمية ، أشرنا اليها الآن

٭٭٭

وعند الثقافة العربية فى الاسلام بمـــا كان فيه من أحداث ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار الخلفاء ، والغزوات والفتوح ، وما تخللها من شعر وأدب وقصص ، وما كان يفد على الخلفاء والولاة من شعراء وما كانوا يقولون ، وما تكوّن من مذاهب دينية من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، وما كان لذلك من أدب ، وما كان من أحزاب سياسيـة وانحياز الشعراء والخطباء إلى هذه الأحزاب كل هذا كان ثقافة عربية ، يتثقّف بها من كانوا عربا فى أصلهم ، ومن كانوا فرسا أو روما أو يونانيين ، وعلى الجملة من كانوا فى المملكة الاسلامية ، وخاصة من أسلموا وتعلموا وما كان يسمع السامع إلا إذا عرفها . وأحاط بطرف منها ، فكانت بذلك عنصراً من عناصر الثقافة العامة فى ذلك العصر

٭٭٭

هجم العلماء — فى عصرنا الذى نؤرخه من عرب وموال على هذه الثقافة يبحثون عنها من نواحيها المتعددة ، ويرحلون إلى البادية أحياناً ، وإلى الأمصار أحيانا ، ويسمعون للرجال والنساء والصبيان ، والخاصة والعامة حتى اختلفوا ، هل يأخذون اللغة عن المجنون أو لا ويدخلون على المرأة فى خبائها ، وعلى راعى الابل فى مرعاه ، فأبو حاتم يسأل أمّ الْهَيْثَم ، والأصْمَعِىُّ يقول : سمعت صبية يتراجزون والجاحظ يروى عن عبد أسود لبنى أسَد والواقدى يروى عن فاطمة بنت المنذر زوجة هشام بن عروة . وكان أهم عمل لهؤلاء تحويل الثقافة العربية من ثقافة لسانية شفهية — فى الغالب — إلى ثقافة كتابية تحريرية ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى ليتناول العلماء بعدُ ماجمع ، فيمحصونه ،

ويميزون خطأه من صوابه ، ويضعون له القواعد .

وكان هؤلاء العلماء فِرَقاً ، كل فرقة يغلب عليها الميل إلى ناحية من نواحي هذه الثقافة. فالخليل بن أحمد ، وأبو زيد الأنصاري ، والأصمعي ، وأمثالهم ؛ غلب عليهم مفردات اللغة وجمعها والنظر في تدوينها. والمفضل الضّبي ، وخلَف الأحمر ، وحمّاد الراوية ، وغيرهم غلب عليهم جمع القصائد والأشعار والأمثال ، وما إلى ذلك. ومحمد بن إسحاق ، والواقدي ، وأبو مِخْنَف ، والهيثم بن عديّ ، والمدائني ، مالوا إلى تدوين الروايات عن الأحداث التاريخية ، كفتوح الشام ، وفتوح العراق ، ووقعة الجمل ، ووقعة صفين ، ونحو ذلك ، وفي أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وكتبه إلى الملوك والمغازي ، وأسماء المنافقين ، والوفود وابن الكلبي ، وأمثاله عنوا بالأنساب وما يتبعها من بيوتات ومنافَرات وموءودات وفي أخبار الأوائل من عاد الأولى والآخرة ، والمعمَّرين والأصنام والقِداح ، وأيام العرب وأسمارهم الخ

***

وبعد ، فإذا حاولنا أن نختار من يمثل هذه الثقافة العربية بفروعها ، فلسنا نختار الأصمعي وما بين أيدينا من كتبه ؛ فليست تمثل إلا الناحية اللغوية ، ولا المفضل الضبي وكتابيه المفضليات والأمثال ؛ فهما لا يمثلان إلا الناحية الأدبية ولا كتب الجاحظ وابن قتيبة ، فإنها تمثل نوعاً آخر من الثقافة سيأتي بيانه ، إنما الذي يمثل الثقافة العربية هو « المبرد » وكتابه الكامل أوّلا ، ثم أمالي القالي ثانياً. ولنسب الأمالي مما أُلف في عصرنا ، فلندعها الآن ونجتزىء بالمبرد والكامل ، وإن كان قد عاش زمناً في عصرنا ، وزمناً في العصر الذي بعده ، وقد اخترنا الكامل لأنه خير كتاب وصل إلينا من تراث ذلك العصر ، يمثل شيئين هامين ، يمثل الثقافة العربية في عناصرها المختلفة ، ويمثل طريقة تعليم المعلمين في ذلك العصر لتلك الثقافة ومنهج التأليف فيها

المبرد والكامل

كذلك لا نطيل في ترجمة المبرد، والذي يهمنا كتابه

هو محمد بن يزيد عربي الأصل من قبيلة ثُمَالَةَ وثماله من الأزْد، والأزد من قحطان، فهو من عرب اليمن وكان للأزديين أثر كبير في الدولة الأموية أعانوا زياد بن أبيه وابنه من بعده، وتحالفوا مع ربيعة يناهضون حلفاً آخر هو حلف تميم وقيس، ووقفوا بجانب المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة ـ وهو أزدي كذلك ـ يحاربون الخوارج.

وُلد المُبَرِّد بالبصرة سنة ٢١٠ وأخذ العلم عن الجَرْمي والمازني «وكان إمام العربية ببغداد، وإليه انتهى علمها، وكان حَسَنَ المحاضَرة فصيحاً بليغاً مليح الأخبار، ثقة فيما يرويه كثيرَ النوادر، فيه ظرافة ولباقة»[1] وكان ينازع رياسة العلم في بغداد هو وثعلب، ومن أسباب نزاعهما اختلاف مدرستهما، فالمبرد بصري تعلم على المذهب البصري وطريقته، وثعلب كوفي تعلم على المذهب الكوفي وطريقته، وبينهما اختلاف كبير في النحو والصرف واللغة، وما يقاس عليه وما لا يقاس، الخ وقد ظهر المبرد بثعلب؛ لأن المبرد كان حَسَنَ العبارة حُلْوَ الإشارة فصيح اللسان ظاهر البيان، وثعلب متحفظ منكمش لبس في لباقة المبرد وفصاحته، وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة، وثعلب يراوغ.

كان يحفظ كثيراً من اللغة وغريبها، وكان أحفظَ الناس في عصره للأخبار، واسع الاطلاع في النحو، وكان لا يعنى بالأسانيد فيما يروى من لغة وأدب كما يعنى غيره من علماء عصره وقد ألف كتباً كثيرة في فروع الثقافة العربية المختلفة ألف في النحو «المقتضب» وغيره، وألف في إعراب القرآن، وفي قواعد الشعر وضروب الشعر وشرح كلام العرب وتخليص ألفاظها، وفي قحطان وعدنان الخ[2] وأهم كتبه الكامل وقد مات ببغداد سنة ٢٨٥ في خلافة المعتضد

---

[1] معجم الأدباء ٧ : ١٣٧ [2] حذا أسماء الكتب التي ألفها في الفهرست ومعجم الأدباء

كتاب الكامل

المبرّد مسلم عربى ، أزدى يمانى ، وهو لغوى نحوى ، وهو لبق طريف ، وهو لم يثقف بغير الثقافة العربية — على ما يظهر —

كان لكل كلمة من هذه الكلمات لون فى كتابه الكامل ، فهو صورة تامة لكل ما ذكرنا .

قال فى صدر الكتاب « هذا كتاب ألّفناه يجمع ضُروباً من الآداب ، ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومَثَل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ، والنية فيه أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستَغْلَق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يُرجَع إلى أحد فى تفسيره مستغنياً » ويقول فى صدر باب من أبوابه « نذكر فى هذا الباب من كل شىء ، ليكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفى المَلَل ، لحسن موقع الاستطراف ، ونخلط ما فيه من الجد بشىء يسير من الهزل ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس »[1] فالكتاب يغلب — فى مختاراته — الناحية التى تبعث السرور والفرح والضحك ، إلا قليلا من ذكر الموت والرثاء

اختار فيه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أقوال الصحابة والتابعين مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ وعمر بن عبد العزيز ، ومن أمثال الحكماء كأكثم بن صيْفىّ فى الجاهلية ، والأحنف بن قيس فى الإسلام ، وشعراً كثيراً من الشعر الجاهلى وصدر الإسلام ، وقليلا من شعر المحدَثين ، وأدباً لحوادث تاريخية ومذاهب دينية كأدب الخوارج ، والكتب التى دارت بين أبى جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله بن حسن العلوى .

---

(١) كامل ٢ ٢

أكثر ما يعجبه ما جمع بين أشياء ثلاثة : معنى جيد ، فى التعبير عنه شىء من غريب اللغة وشىء من مسائل النحو أو مشكلاته . يورد ما اختار ثم يعنى بشرح ما فيه من لغة ونحو — ويورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدح الأنصار : إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » فلا يتعرض إلا لكلمة الفزع ومعانيها المختلفة ، ويستشهد على كل معنى ، وإذا ورد فى الاستشهاد كلمة لغوية أو نحوية شرحها

يعنون كل نوع مختارات بكلمة « باب » ومن العسير فى كثير من الأحيان أن تفرق بين باب وآخر ، وتدرك أن هذا الباب وحدة مستقلة تجمع مختارات ذات صبغة خاصة تخالف ما فى الباب الآخر ، اللهم الا فى القليل النادر كباب الجوارح ، حتى ليخيل إلينا أن كلمة « باب » يستعملها فى معنى « درس » فكأنه يعنون كل درس أو جملة دروس بباب ، والدرس أو الدروس تكون حيثما اتفق له ، لا يتقيد فيها الا بأنها مختار فيه أدب ، وفيه لغة وفيه نحو

والكتاب يمثل الثقافة العربية فى جميع نواحيها ؛ فهو يختار من الحديث ومن أقوال الصحابة مثل كلمة أبى بكر فى مرض موته ، ورسالة عمر فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ، وكتاب عثمان الى على بن أبى طالب حين أحيط به وكلمة علىّ حين بلغه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عامله حسان بن حسان ، ثم يذكر ما أُعجب به مما كان من كلام العرب مختصراً مفهما ، بيّن اللفظ حسن الوصف ، جميل الرصف كقول الحطيئة

وذاك فتىً إن تأته فى صنيعةٍ إلى ماله لا تأته بشفيعِ

وقول عنترة

يخبرْكِ من شهِدَ الوقيعةَ أنّنى أغشى الوغى وأعفّ عند المغنمِ

ويقارن بين ما ورد لبعض العرب ، من ضرورة قبيحة ، وألفاظ مستهجنة ،

وبين ما هو أوضح لفظاً وأبين معنى ، ثم ينتقل إلى نبذة من كلام الحكماء فينقل عن ابن عمر أنه كان يقول « إنا كنا معشر قريش نعد الجود والحلم : السؤدد ، ونعد العفاف وإصلاح المال ، المروءة » ، وينقل عن الأحنف بن قيس قوله كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عُرف به » ثم يسترسل في ذلك ، فينقل عن عبد الملك بن مروان ، وأبي سفيان ومعاوية ، ثم ينتقل إلى شعر لرجل يهجو بلال بن أبي العنبر الحارثي ، ولأبي الطمحان يمدح بجير بن إياس وآخر يبني نسب آخرين ، الخ ويعقد باباً ثالثاً ، يذكر فيه نُبَذاً من حكم العرب لمعاوية والأحنف بن قيس

ثم باباً رابعاً يذكر فيه مختاراً لرجل من بني سعد يرثي رجلا وللحضرمي ابن عامر ، وقد غُبط بميراث ورثه من أحد أهله وانتقل فجأة الى قول جميل يشبّبُ فيه بثُنيْنَة ثم لأمية بن أبي الصلت في العطاء ، ثم للهيثم بن الربيع في الغزل ويأتي بعد ذلك باب خامس فيه نبذ من كلام حكماء العرب

وعلى هذا النحو كل الكتاب ، يعرض في بعض فصوله لما قال العرب في الخمر ، وما قالوه في السؤدد وما قال جرير والفرزدق في الفخر ، ووعظ الوعاظ أمثال عمر بن عبد العزيز وعلي بن أبي طالب ، وينقل مختاراً في مجالس العرب ، فينقل عن الأحنف بن قيس وقد سئل ، أي المجالس أطيب ، وعن المهلب بن أبي صُفْرة ، وقد قيل له ما خير المجالس وعن ابن عباس في الجليس ويذكر نبذة من أمثال العرب مثل لم يذهب من مالك ما وعظك ورب عجلة تهب ريثا ، وأن ترد الماء بماءٍ أكيس . ويذكر ما قاله بعض العرب في الرثاء ، وما قالوه في اللهو والعيش الرغد ، ويعرض لطرف مما دار من الكلام الحسن في الحروب الإسلامية الأولى كوقعة الجمل وما كان بين الحكمين . ويذكر طرفا من الخطب المختارة ، كخطبة زياد والحجاج ثم الغزل وطرائفه ، فأعرابي يشكو حبيبه ، وعمر بن أبي ربيعة في المجاوبة ، وأقوال في دهاء العرب

، وحلمهم وكرمهم وشجاعتهم ، وما بينهم من مدح وهجاء ، وعدّائيهم ولصوصهم وتكاذيبهم ، ونوادر الأعراب فى رواجهم وطلاقهم ، وطول اللحية وقصرها ، وبعض طرائف العشاق ، وتهاجى القبائل ثم ما ورد من العرب فى الوصف فى وصف جمل وحمار وحمامة وحادٍ ، ثم باب طويل فى أخبار الخوارج ، وحروبهم وعقائدهم وخطبهم وأشعارهم ونوادرهم وبين هذا وذاك ؛ أبواب علمية بعضها يحوى مثل «باب ما يجوز فيه «فعُل» فيما ماضيه «فعَل» مفتوح العين» وبعضها بلاغى مثل باب فى التشبيه

* * *

هذه نظرة الطائر ، الى كتاب الكامل أردنا بها أن نستدل على أن الكتاب يمثل الثقافة العربية ، ونتبين منها الاتجاهات المختلفة التى اتجهتها هذه الثقافة ، وعلى أن أنظار المعلمين فى ذلك العصر كانت أنظاراً فردية لمسائل فردية ، فالموضوع الواحد كالسؤدد عند العرب ، مفرق فى ثنايا الكتاب من أوله الى آخره . لا يجمع الباب ولا الكتاب إلا أنه مختار فيه معنى جميل أياً كان ، وفيه لغة ونحو ، فأما أن تكون أبيات المديح فى جانب ، والذم والرثاء ونحو ذلك فى موضع واحد ، فليس هذا شأن الكتاب ، ولا شأن معلمى ذلك العصر

فلنا إن المبرد — على ما يظهر — لم يثقف إلا الثقافة العربية . وذلك واضح فى كتابه ، فلم يتعرض لغيرهم إلا قليلا نادراً ، لقد نقل عن بُزُرْجمهر وأردشير ولكن فى مواطن معدودة ، وورد فيه كلام عن الموالى ولكن نظره اليهم نظر عربى . وقص ما كان بين عبد الله بن عبد الأعلى وأليون ملك الروم وقد أرسله عمر بن عبد العزيز اليه يدعوه الى الاسلام وقص ما كان بين الشعبى وملك الروم ، وقص ما كان من استئذان ملك الروم معاوية فى أن يعالنه ، وبعث اليه ملك الروم برجلين أحدهما طويل ، والآخر قوى جسيم الخ ، ولكن هذه أمور لا تدل على ثقافة أجنبية لأنها حوادث متصلة بالمسلمين العرب ، وقد رواها المبرّد كما نقلت اليه عن العرب

وقلنا أن المبرّد عربى أزْدِى يمانى ، وكتاب الكامل يمثل هذا النوع من العصبية القَبَلية تمثيلا صحيحاً ، فهو يتعصب للأزد ولليمانيين ، ويروى الكثير من الصحيح والسقيم لاعلاء شأنهم ، فهو يعقد باباً يعنونه « باب ذكر الأذواء من اليمن فى الاسلام ، فيذكر فيه الأذواء فى الجاهلية ، كذى كَلَاع وذى نُوَاس وذى رُعَيْن، وفى الاسلام كخُزَيْمة بن ثابت ذى الشهادتين ، ويذكر خبراً عمن كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية ، فسعد بن معاذ الانصارى هبط لموته سبعون الف ملك لم يهبطوا الى الأرض قبلها . وحنظله بن أبى عامر الأنصارى غسلته الملائكة ، الخ — هذا فى آخر الكتاب — وأما فى أوله فيختار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأنصار « إنكم لَتَكْثُرُونَ عند الفزع وتقلون عند الطمع » والأنصار من الأوس والخزرج وهما قبيلتان يمانيتان أزديتان فى قول النسّابين ، ويختار قول أبى بكر فى المهاجرين « ولمّا لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدّ علىّ من وجعى ، إنى وَلَّيْتُ أموركم خيرَكم فى نفسى فكلكم ورِمَ أنفُه أن يكون له الأمر من دونه ، ويختار الكلام فى الخوارج ويطيل لسببين — على ما يظهر — (١) فهو يعارض الجاحظ ، وقد ذكر فى كتابه الشعوبية ، والشعوبية حركة أعجمية تناهض العرب والخوارج أكثرهم عرب خلّص ، لهم أدب عربى (٢) والذى قاتل الخوارج المهلب بن أبى صفرة وبنوه ، وهو أزدى كالمبرد . وكان يعاونه الأزديون فيليه المبرد ، فالاشادة بالمكمل بالخوارج اشادة بقبيلته وهو فى كتاب الكامل يعلى شأن المهلب ويتأوّل له ، « لقد رمى المهلب الكذب حتى فى حديث رسول الله » فهو يذكر أنه انما كذب فى الحرب ، والحرب خُدْعة والكذب فى الحرب جائز والكتاب مملوء بالأخبار التى تعظم آل المهلب وترفع من شأنهم ويَرْوى فى أخبار الخوارج قول أعشى همذان

إنّ المكارم أكْمَلَتْ أسبابُها ... لابْنِ اللبوث الغُرِّ من قحطانِ

للفارسِ الحامى الحقيقةَ مُعْلِما ... زادَ الرِّفاق إلى قرى بخرَاسانِ

الحارث بن عُمَيْرَةَ الليث الذى يحمى العراقَ الى قرى كَرْمان

ودّ الأزارقُ لو يُصاب بطعنة ويموت من فرسانهم مائتان [١]

ويروى المبرد عن علىّ أنه قال « للأزد أربع ليست لحىّ : بذل لما ملكت أيديهم ، ومنع لحوزتهم ، وحىّ عِمَارةٌ لا يحتاجون الى غيرهم . وشجعان لا يجبنون » [٢]

وهكذا كان كتاب الكامل يمثل كل ناحية ، حتى التزيد فى الأخبار للعصبية القومية والقبلية

* * *

وبعد : فإن كانت الثقافة الفارسية تمثل حياة كسْرَوية فيها مدنية معقدة ونظم مركبة ، وفيها مرافق المدنية الممعنة فى الحضارة ، وفيها محاسن المدنية ومساويها فالثقافة العربية تمثل حياة بسيطة سهلة لا تركب فيها ولا التواء ، فيها بساطة العيش ، وفيها بساطة القول ، وفيها محاسن البادية ومساويها ، كما تمثل قوماً عاشوا فى جاهليتهم فى نزاع قَبَلى ، يفخرون ويمدحون ويهجون ، ويدينون بالأصنام ، ثم يجمعهم دين واحد هو الاسلام فيرفع من نفسيتهم وعقليتهم . ويأخذون فى حياة فيها أثر للقديم ، من عصبية قبلية ونحوها ، وفيها كثير من جديد ، فتوحيد وتقوى وخوف من الله وعذابه ورغبة فى ثوابه ، وفيها شعور بعزة الفاتح وسلطان الحاكم ، وفيها اعتداد بأنفسهم وخاصة من ناحيتين لسانهم وسيفهم ، واعتماد على غيرهم فى مرافق مدنية ذُرِبوها ومرنوا عليها .

ولئن كانت الثقافة الفارسية قد دونت من قديم وتعاوَرَها التلف والتجديد . وأُخرج فى كتب سلم منها شىء الى العهد الاسلامى فالثقافة العربية كانت كلها فى جاهليتها ثقافة شفوية تعتمد على الذاكرة والرواية وفى الاسلام ابتدأ بتدوين القرآن وبعض الحديث . وأما الأدب واللغة فظل أغلبهما كما كان

---

[١] الكامل ٢ : ٢١ [٢] كامل ١ : ٣٥

الحال في الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي يتناقل من طريق الحفظ والرواية ، حتى كان آخر الدولة الأموية وأول العباسية فأخذ العلماء في تدوينه .

ولئن كانت الثقافة اليونانية قد مرت بالأدوار الطبيعية للعلم من بحث في مسائل متفرقة ، فتنظيم وتبويب ، وجمع للمسائل المتشابهة وقواعدها في باب واحد ، ووصلت إلى المسلمين بعد أن هذبها المنطق ، ورتبتها الأجيال المتعاقبة من فلاسفة اليونان فالثقافة العربية في عصرنا الذي نؤرخه من لغة وأدب وتاريخ ونحوها كانت في أول دورها من حيث الترتيب والتبويب ، فنرى الفوضى في كتب اللغة المؤلفة في ذلك العصر ، كما رأينا في كتاب الكامل . ولم تجتز الثقافة العربية هذا الدور إلا بعد أن انتهى عصرنا أو كاد .

ومهما يكن من شيء فالثقافة العربية كانت ركناً من أركان الثقافات في ذلك العصر ، وعنصراً هاماً من عناصرها ، لا تقلّ عن غيرها من العناصر ، إن لم تزد عليها ، لأن لسانها لسان الحاكمين ، ولغتها لغة الدين .

الفصل الخامس

الثقافات الدينية

اليهودية والنصرانية والاسلام

بجانب هذه الثقافات المدنية - إن صح هـذا التعبير - ثقافات أخرى رُوحية ، تنشرها الأديان المختلفة . وأهمها الاسلام والنصرانية واليهودية .

اليهودية والنصرانية — : يقول الأستاذ « متز » إن مما يميز المملكة الاسلامية عن أوروبا النصرانية فى القرون الوسطى ؛ أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبِيَعَ ظلت فى المملكة الاسلامية ، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكوّن جزءاً من المملكة ، معتمدة فى ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فأعان ذلك على خلق جوّ من التسامح لا تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى . كان اليهودى أو النصرانى حراً أن يدين بدينه ، ولكنه إن أسلم ثم ارْتدَّ عوقب بالقتل . وفى المملكة البيزنطية كان عقاب من أسلم القتل »[1] .

كانت الكنيسة تحرّم على النصرانى أن يتزوج غير نصرانية إلا اذا تنصرت ، وكذلك النصرانية لا تتزوج إلا نصرانياً . أما الاسلام فقد حرم على المرأة المسلمة أن تتزوج غير مسلم ، وأحل للرجل المسلم أن يتزوج كتابية

---

[1] لخصنا هذه الكلمة من كتاب متز « نهضة الاسلام » الذى ترجمه « خدابخش » من الألمانية الى الانجليزية

يهودية أو نصرانية ، وإن بقيت على دينها لقوله تعالى : « اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُم الطيباتُ وَطَعَامُ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌ لَهُمْ وَالمحْصَنَاتُ منَ المؤمِنَات وَالمُحصَنَاتُ مِن الذينَ أوتُوا الكِتَابَ »
فكان كثير من المسلمين يتزوجون يهوديات أو نصرانيات ومنهن من تسلم ، ومنهن من تبقى على دينها . وكان هذا سبباً من أسباب اتصال المسلمين باليهود والنصارى

وقد كان بين الحنفية والشافعية خلاف شديد فى قتل المسلم بالكافر ، وكان الحنفية يرون أن المسلم إذا قَتَلَ ذِمِّياً قُتِل به ، وخالفهم فى ذلك الشافعى . وكان بين الفريقين جدال وحجاج ، نراه مبسوطا فى كتب الفقه وكان مما احتج به الحنفية : أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب — لما قتل أبوه — اتهم فى الاشتراك فى تدبير قتل « جُفَيْنَةَ » وكان نصرانيا ، فذهب اليه عبيد الله وقتله ، ولما علاه بالسيف صلّب بين عينيه ، فلما استخلف عثمان بن عفان ، دعا المهاجرين والأنصار فقال أشيروا علىّ فى قتل هذا الرجل (يعنى عبيد الله بن عمر) فَتَقَ فى الدين ما فتق ، فاجتمع المهاجرون والأنصار فيه عَلَى كلمة واحدة ، يأمرونه بالشدة عليه ، ويحثونه على قتله فاشارة المهاجرين والأنصار دليل على أن المسلم يقتل الذمى ، ولم يفعل عثمان ذلك لأن عمرو بن العاص أشار عليه بألا يفعل ، لأن الحادثة كانت قبل أن يولى عثمان ويكونَ له على الناس سلطان[١] ، الخ

وقد وقع فى أيام أبى يوسف القاضى ، أن مسلما قتل كافراً ، فحكم على المسلم بالقوَد ، فقال أحد الشعراء

يَا قاتِلَ المُسْلِم بالكافِرِ جُرْتَ وما العادلُ كالجَائِرِ

---

١ ويقول ابن قتيبة إن عبيد الله بن عمر بن الخطاب — لما قتل أبوه — جرد سيفه فقتل بنت أبى لؤلؤة وقتل الهرمزان وجفينة — رجلا أعجمياً — وقال لا أدع أعجمياً إلا قتلته فأراد على قتله عن قتل فهرب الى معاوية فقتل فى صفين المعارف ٦١، ٦٢

يا من ببغداد وأطرافها من علماء الناس أو شاعر
استرجعوا وابكوا على دينكم واصطبروا فالأجر للصابر
جار على الدين أبو يوسف بقتله المؤمن بالكافر

وخاف الرشيد الفتنة ، فأمر أبا يوسف أن يتدارك الأمر بحيلة لئلا تكون فتنة ، فطالب أبو يوسف أصحاب الدم بينة على الذمة[1] وثبوتها ، فلم يأتوا فأسقط القود[2]

وكان الشافعي يرى ، أن القود لابد فيه من تساوي القاتل والمقتول في الحرية والاسلام ، فإن فضل القاتل المقتول بحرية أو اسلام ، فقتل حر عبداً ، أو مسلم كافراً فلا قود عليه

وكان الشافعي يرى ، أنه يصح أن تشترك أهل الذمة من يهود ونصارى في الحروب مع المسلمين — أي أن يجندوا في الجيش الاسلامي — إذا رأى الامام ذلك — واستدل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان في غزاة خيبر بعدد من يهود بني قينقاع كانوا أشداء ، واستعان في غزاة حنين بصفوان بن أمية وهو مشرك ، فلا بأس أن يستعان بالمشركين على قتال المشركين ، اذا خرجوا طوعا ، ويرضخ لهم ولا يسهم لهم[3]

ولسنا نتعرض هنا لعلاقة اليهود والنصارى بالحكومة الاسلامية من حيث الضرائب ، وعلاقتهم برؤسائهم ، وعلاقة الرؤساء بالخلفاء ، ومدى استقلالهم ، والمقارنة بين حال النصارى في المملكة الاسلامية ، والمسلمين في الممالك

---

[1] في الأصل (الديه) وهو خطأ على ما نظن

[2] الاحكام السلطانية ٢١٩ وقد قال الجاحظ « إن قضاة أو عامتهم يرون أن دم الجاثليق والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة » ثلاث رسائل ١٨

[3] الأم ٤ ١٧٧ ومعنى يرضخ لهم : يعطيهم عطاء ليس بالكثير

وقد روى الخطيب البغدادي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل معه قوم من اليهود في بعض حروبه فأسهم لهم مع المسلمين تاريخ بغداد جزء ٤ ١٦٠

النصرانية ، وكيف كان اليهود والنصارى يتقاضون فى الأصقاع الاسلامية ، وعلاقتهم بالقضاة المسلمين ، ونحو ذلك من الشئون . فهذا بالتاريخ السياسى أشبه ، وإنما غرضنا هنا شرح ما كان لهم من أثر فى الثقافة .

كان اليهود والنصارى منتشرين فى المملكة الاسلامية ، وكانوا عدداً كبيراً ، فقد ذكر بنيامين أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا سنة ١١٦٥ م أى نحو سنة ٥٦٠ هجرية « أن عدد اليهود فى المملكة الاسلامية غير العرب كانوا نحو ثلاثمائة ألف » وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات وفى جزيرة ابن عمر والمَوْصل وعُكبرة وواسط وفى بغداد والحِلّة ، والكوفة والبصرة ، وفى كثير من بلاد فارس ، فى همدان واصفهان وشيراز ، وكانوا فى غزنة وسمرقند ، وكان فى فارس بلدتان تسمى كل منهما « اليهودية » ، إحداهما ، بجرجان ، والأخرى بأصفهان وكان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودى ، وكان فيها درب يسمى درب اليهود ، نسب إليه قوم من المحدِّثين منهم أبو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحيى اليهودى [1] وفى أوائل القرن الثالث الهجرى كان يجبى من الجزية من أهل بغداد مائة وثلاثون ألف درهم ، وفى أوائل القرن الرابع كان يجبى منهم ستة عشر ألف دينار والعددان يدلّان على أن من كان ببغداد إذ ذاك من غير المسلمين ممن يدفع الجزية نحو خمسة عشر ألفاً [2] ويقول ابن حَوْقَل أن النصارى فى مدينة الرّها وبكر بت أكثر عدداً .

وكان أغلب الماليين فى الشام يهوداً ، وأغلب أطباء القصور فى بغداد نصارى ، واشتهر اليهود باحترافهم حرفاً خاصة ، كالصيرفة ودباغة الجلود والصياغة [3] وقال الجاحظ « ان النصارى اتخذوا البراذين الشهرية ، والخيل

---

١ معجم البلدان فى مادة يهودية
٢ متز نقلا عن ابن خرداذبه
٣ Mez وكذلك ذكر الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى ص ١٧

العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصَّوالجة ، وتحدقوا المدينى ، ولبسوا المُلْحَم والمطبّقة . واتخذوا الشاكريّة ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلىّ »[١] .

على كل حال كان بين المسلمين كثير من أهل الأديان الأخرى ، وخاصة اليهود والنصارى ، وقد خالطهم المسلمون ، بل اتخذوا منهم أصدقاء . قال الجاحظ : أنشدنا أبو صالح مسعود بن قِنْدِيل الفَزَارِي فى ناس خالطهم من اليهود :

وَجَدْنا فى اليهود رجالَ صِدْقٍ ... على ماكان من دِينٍ مُرِيبِ

لَعَمْرُكَ اننى وابْنَىْ غريض ... لمثْلُ الماءِ خالطه الحليبُ

خليلانِ اكتسبْتُهُما ، وإنى ... لخَلَّة ماجدٍ أبداً كَسُوبُ

وقال أبو الطَّمَحان الأسدى ـ وكان نديماً لناس من بنى الحَذَّاء ، وكانوا نصارى فأحمد ندامتهم ـ فقال :

كأنْ لمْ يَكُنْ فى القصْرِ قصْرِ مقاتلٍ ... وَزَوْرَةَ ظِلٌ نَاعِمٌ وَصَدِيقُ

وَلَمْ أردْ البَطْحاءَ أمْزُجُ مَاءهُ ... بِخَمْرٍ من المَرُّوتَيْنِ عَتِيقُ

مَعِى كلُّ فَضْفَاضِ الثِّيابِ كأنَّهُ ... إذا مَا جرَى فيه المُدَامُ فَنِيق

بَنُو الصلْب وَالحَذّاء كل سَمَيْدَعٍ ... لهُ فى العُرُوقِ الصّالِحَاتِ عُرُوقُ

وَإنى وإن كَانُوا نَصَارَى أحِبُّهُمْ ... وَيرْتَاحُ قَلْبِى نَحْوَهُمْ ويَتُوقُ[٢]

ويقول أبو نواس :

سَأَلْتُ أخِى أبَا عِيسَى ... وجبريلٌ له عَقْلُ[٣]

---

١ ثلاث رسائل ص ١٨ والملحم نوع من الثياب سداه حرير ولحمته غير حرير ، والشاكرية جمع شاكرى معرب « چاكر » وهى بالفارسية بمعنى الأجير

٢ الحيوان ٥ : ٥٢ ٣ أبو عيسى هو جبريل بن بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع النصرانى كان طبيباً للرشيد

وقلت الرّاحُ تُعجبى فقال كثيرها قتلُ
رأيتُ طبائعَ الانسا ن أربعةً هى الأصلُ
فأربعة لأربعة لكل طبيعة رِطلُ

وبعد ، فقد كان لكل من اليهودية والنصرانية ثقافة ، وقد تسرب إلى المسلمين شىء منها ، فلنحاول بيان ذلك .

اليهودية : — أهم منبع للثقافة اليهودية التوراة ، وقد ذكرت فى القرآن الكريم ، ووصفت بأنها كتاب من كتب الله المنزلة « إنَّا أنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » وورد فيه أن عيسى أتى بعدُ مصدقاً لما فى التوراة « وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ فيهِ هُدًى ونورٌ ، وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » وقد نص القرآن على بعض أحكام وردَتْ فى التوراة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالعَيْنِ والأَنفَ بِالأَنفِ والأُذُنَ بِالأُذُنِ والسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ »

وأشير فى الأحاديث كذلك إلى التوراة ، وذكر فيها بعض أحكامها .

من ذلك ما روَى أبو داود عن ابن عمر ، قال أتى نَفر من اليهود فدَعَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القُفّ ، فأتاهم فى بيت المِدْراس ، فقالوا : يا أبا القاسم ؛ ان رجلا منا زنى بامرأة فاحكم ، فوضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها ، ثم قال ائتونى بالتوراة فأتى بها ، فنزع الوسادة من تحته ، ووضع التوراة عليها ثم قال : آمنت بك وبمن أنزلك ، ثم قال ائتونى بأعْلَمِكم ، فأتى بفتى شابّ ، ثم ذكر قصة الرجم [١]

وقد اختلفت أنظار المسلمين الى التوراة على أقوال ثلاثة ، فقال قوم :

---

١ انظر كذلك البخارى فى باب التوحيد وباب الاعتصام وباب التفسير

إنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة، ليست هى التوراة التى أنزلها الله على موسى. وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض[1]. وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام الى أن التبديل وقع فى التأويل لا فى التنزيل، وهذا مذهب البخارى، قال فى صحيحه «يحرّفون الكَلِمَ عن مَواضِعِه» يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى ولكنهم يتأولونه على غير تأويله، وهذا هو ما اختاره الرازى فى تفسيره ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبّقت مشارق الأرض ومغاربها، ولا يعلم عدد نسخها الا الله، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير فى جميع تلك النسخ، بحيث لا يبقى فى الأرض نسخة الا مبدلة مغيرة، والتغيير على منهاج واحد وهذا ما يحيله العقل ويشهد ببطلانه، قالوا وقد قال الله تعالى لنبيه عليه السلام محتجاً على اليهود بها «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» الخ وذهبت طائفة ثالثة الى أنه قد زيد فيها، وغُيِّرَ ألفاظ يسيرة، ولكنَّ أكثرها باق على ما أنزل عليه، والتبديل فى يسير منها جداً ومن اختار هذا القول ابن تيمية فى كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، ومثّل لذلك بما جاء فيها «ان الله سبحانه وتعالى قال لابراهيم عليه السلام اذبح ولدك بكرك أو واحدك اسحاق» فاسحاق زيادة منهم فى لفظ التوراة، لأدلة ذكروها[2]

وكلمة التوراة تستعملها المسلمون كثيراً للدلالة على كل الكتب المقدسة عند اليهود، فتشمل الزبور وغيره، كما يستعملها اليهود أنفسهم احياناً

وكان لليهود بجانب ذلك سنن ونصائح وشروح، لم تنقل عن موسى عليه السلام كتابةً، وإنما تدوول نقلها شفاهاً وتم على تعاقب الأجيال، ثم

---

[1] من أشهر من ذهب الى هذا الرأى ابن حزم فى كتابه الفصل فى الملل والنحل وقد بحث فيه بحثا مفصلا وأطال فى التدليل على ما فى التوراة التى بين أيدينا [illegible] فارجع اليه

[2] انظر ذلك مطولا فى كتاب اغاثة اللهفان لابن القيم الجوزية ص ٤١٥ وما بعدها

دوّنت بعد، وهذا هو المسمى بالتَّلْمود، والتلمود يختلف فيه فيما بينهم، فمنهم من يقبله وهم طائفة الربّانيين، ومنهم من لا يقبله وهم طائفة القرّائين.

وأما التوراة بالمعنى الدقيق فخمسة أسفار: السفر الأول سفر التكوين أو الخلْق، وقد ذكر فيه خلق العالم، وقصة آدم وحوّاء وأولادهما، ونوح والطوفان وتبلبل الألسن، ثم قصة ابراهيم عليه السلام وابنه اسحاق وابنه يعقوب وعيصو، ثم قصة يوسف

والسفر الثاني يسمى الخروج - أي خروج اليهود من مصر - وفيه قصة موسى من ولادته وبعثته، وفرعون وخروج بني اسرائيل من مصر، وصعود موسى الجبل وإيتاء الله له الألواح

والسفر الثالث سفر اللاويّين - أي الأحبار - وفيه حُكم القُرْبان والطهارة وما يجوز أكله، وغير ذلك من الفرائض والحدود

والسفر الرابع سفر العدد، بعضه في الشرائع، وبعضه في أخبار موسى وبني اسرائيل في التيه وقصة البقرة

والسفر الخامس سفر التثنية - أي اعادة الناموس -

وفي العهد القديم غير التوراة، سفر يوشع وهو في استيلاء بني اسرائيل على فلسطين، ثم سفر القضاة أي الحكام، ثم أربعة أسفار الملوك الأول في أخبار سمويل أو سموئل وشاول أي طالوت، والثاني في ذكر داود، والثالث والرابع في سليمان بن داود ومن ملك بني اسرائيل من بعده.

وأما التلمود فمجموعة من المناقشات الدينية الأولى، مع شروح لرجال الدين من الأجيال المتعاقبة، فيه القوانين اليهودية من قانون عقوبات وقوانين مدنية، وبعبارة أخرى فيه تحديد العلاقات الدينية والدنيوية يسجل أفكار اليهود في حياتهم وتقاليدهم في نحو ألف عام ويمزج مزجاً تاماً نواحي الشعب الخلقية بنواحيهم الدينية

وقد جُمع التلمود فى نحو ثلاثة قرون، ابتدءوا بجمعه فى أوائل القرن الرابع للميلاد، وتم فى نحو نهاية القرن السادس. ويسمى القسم الأول منه «المشنا» «Michna» وهو مجموعة أحكام استمدت على العهد القديم، وقد كتب باللغة العبرية الأولى والقسم الثانى يسمى الجيمارة «Gemara» ويتضمن مباحثات لربانيهم — أى فقهائهم — وقد كتب باللغة الآرامية

وحول هذه الكتب الدينية نسج كثير من الأدب اليهودى والقصص، والتاريخ والتشريع والأساطير

وكان بين اليهودية والوثنية اليونانية، وبين اليهودية والمسيحية نزاع شديد فى الشرق، وخاصة فى الاسكندرية — أهم مراكز الثقافة اليونانية — واضطر كثير من اليهود أن يتعلموا اللغة اليونانية ويتكلموا بها وكان هذا النزاع فى نوع الحياة الاجتماعية وفى الثقافة وفى الدين، فاضطر كثير من اليهود أن يبدلوا حياتهم وأنظارهم نحو الحياة اليونانية — كانوا يحترمون غشيان معاهد التمثيل تمثل فيها روايات يونانية فنشأ جيل جديد لا يرى فى ذلك من بأس وهكذا. واضطروا أن يأخذوا بحظ من الثقافة اليونانية، وواجهوا مشكلة جديدة وهى الى أى حد يقبلون تعاليم اليونان مع الاحتفاظ بأصول اليهودية؟ وكان من أشهر هؤلاء «فيلو» الذى حاول أن يوفق بين المعتقدات الدينية اليهودية، وبين العلم اليونانى. فكان من ذلك يهودية مفلسفة، لا هى يهودية صرفة ولا فلسفة صرفة اقتبس «فيلو» من أفلاطون والرواقيين، واستعمل المصطلحات الفلسفية ولكنه استخدم ذلك كله لاحياء العاطفة الدينية، وتذليل الصعاب التى تواجهها اليهودية وقد انتفعت الكنيسة النصرانية بعدُ بموقف اليهود إزاء الفلسفة اليهودية، لأنهم واجهوا ما واجه اليهود قبلهم [١]

---

[١] انظر الفصل الذى كتب فى العلاقة بين اليهودية والفلسفة اليونانية فى كتاب The Legacy of Israel

وعلى الجملة فقد كان لليهود ثقافة دينية وأدبية وتاريخية وقانونية ، مزجت بعدُ بالثقافة اليونانية .

وقديماً تسربت الثقافة اليهودية إلى من جاورهم من العرب ؛ جاء في الحديث عن ابن عباس « كان هذا الحي - من الأنصار - وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود وهم أهل كتاب ، فكانوا يرون لهم فضلا عليهم في العلم ، وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم » [1] وكان ذلك قبيل الاسلام كما يدل عليه تتمة الحديث

وكان بعض المسلمين في العصور الأولى يطّلعون على الكتب الأخرى المنزلة ويتلونها ، روى ابن سعد في الطبقات أن أبا الجلْد واسمه جيلان ابن فَرْوَة ؛ كان يقرأ الكتب . وروى عن ميمونة بنت أبي الجلد قالت كان أبي يقرأ القرآن في كل سبعة أيام ويختم التوراة في ستة ، يقرؤها نظراً ، فاذا كان يومُ يختمها حُشِد لذلك ناس ، وكان يقول كان يقال تنزل عند ختمها الرحمة [2]

وفي الحديث عن أبي هريرة قال « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الاسلام بالعربية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا ، وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد » [3] ويروون عن وَهْب بن مُنبه أنه كان يقول « لقد قرأت اثنين وسبعين كتاباً ، كلها أنزلت من السماء ، اثنان وسبعون منها في الكنائس ، وفي أيدى الناس ، وعشرون لا يعلمها إلا قليل » [4]

تسربت هذه الثقافة اليهودية إلى المسلمين من طرق أهمها : من دخل في

---

١ أخرجه أبو داود ٢ طبقات ابن سعد جزء ٧ قسم أول ص ١٦١

٣ وفي البخارى أيضاً حديث آخر يخالف هذا وهو نهى عن سؤال أهل الكتاب فانظره في باب شهادة أهل الكتاب ٤ ابن سعد ٥ ٣٩٧

الاسلام من اليهود ، وخاصة مُسْلمة اليمن ؛ ككعب الأحبار ، ووهب بن منبه وأمثالهما . وقد دخل فى الاسلام من اليهود كثيرون ، كان منهم بعض الصحابة وبعض التابعين ، وظلوا يتتابعون إلى عصرنا الذى نؤرخه ، وكان منهم محدّثون ومنهم قصّاص ومنهم قرّاء ، ومنهم أخباريون وأشهر من عرَفنا فى عصرنا هذا من أصله يهودى : أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى — والآن نعرض لأنواع المعارف التى تأثرت باليهود

فأول ذلك تفسير القرآن ذلك أن القرآن الكريم والتوراة يتفقان — كما رأيت — فى إيراد بعض المسائل ، وخاصة فى قصص الأنبياء ولكن للقرآن مَنْحَى يخالف منحى التوراة ، فانه يقتصر على مواضع العظة ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فهو لا يذكر — غالباً — تاريخ الوقائع ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها ، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث ، ولا يدخل فى تفاصيل الجزئيات إنما يتخير ما يمس جوهر الموضوع وموضع العبرة — لنأخذ لذلك مثلا قصة آدم ، فقد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع أطولها ما ورد فى سورة البقرة منها « وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

فترى من هذا أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ولا لنوع الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها ولا بين الحيوان الذى تقمّصه الشيطان ليزلها ولا

ما كان من تفصيل الحوار بين الله تعالى وآدم ولا للبقعة التي طرد إليها آدم بعد خروجه من الجنة ، الخ . ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه فأبانت أن الجنة في عدن شرقاً ، وأن الشجرة التي نهيا عنها كانت في وسط الجنة ، وأنها شجرة الحياة ، وأنها شجرة معرفة الخير والشر ، وأن الذي خاطب حواء هو الحية ، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي أغوتهما بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب وانتقم من حواء بتعبها هي ونسلها في حملها الخ ، فجاء المفسرون للقرآن ينقلون عن مُسْلِمة اليهود ما جاء في كتبهم ويضعونه شروحاً . فيحكي الطبري مثلاً عن وهب بن منبه أن هذه الشجرة كان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم ، فلما أراد إبليس أن يستزلهما دخل في جوف الحية ، وكان للحية أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجه الخ فلما أكلا قال الله لحواء ياحواء أنت التي غررت عبدي فإنك لاتحملين حملا الا حملته كَرْهاً فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً ، وقال للحية أنت الذي دخل الملعون في جوفك حتى غر عبدي ، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك ، ولا يكن لك رزق إلا التراب ، الخ . وروي عن ابن عباس نحو هذه القصة[1] . وتقرأ تفسير الطبري على هذه الآيات فيتجلى لك بوضوح أنهم أخذوا ما في التوراة وشروحها ، والأخبار التي رويت حولها ، ووضعوها تفسيراً لآيات القرآن الكريم وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة ، وعن إسرائيل عن أسباط عن السُّدّي مرة أخرى وهكذا فعلوا في كل ما ورد في القرآن من قصص وردت في التوراة ولم يكن

---

[1] تفسير الطبري ١ : ١٨٦ وما بعدها وقد روى الجاحظ في الحيوان ٤ : ٦٤ عن كعب الأحبار أنه قال مكتوب في التوراة أن حواء عوقبت بعشر خصال وأن آدم عوقب بعشر خصال وأن الحية عوقبت بعشر خصال ثم ذكرها ، وشك الجاحظ في ذلك لأنها ليست في التوراة وقال إن صحت الرواية عن كعب فإنه إنما كان يعني كتب اليهود جميعها

كل هؤلاء اليهود علماء باليهودية مدققين ، بل كان منهم عوام يعرفون – كما يقول ابن خلدون – ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، وتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المقولات[1] ومازالت هذه الاسرائيليات تكثر وتنمو ، حتى امتلأت بها الكتب أمثال قصص الأنبياء للثعلبى

وعنى المسلمون بنقل تاريخ بنى اسرائيل وأنبيائهم كما فعل الطبرى فى تاريخه ، وكما فعل ابن قتيبة فى كتابه المعارف وقد أثبت العلم أن كثيراً مما نقل من تاريخ بنى اسرائيل غير صحيح ، مما يدل على أن الروايات التى نقلت كان كثير منها ينقل عن العوام وأشباههم ونجد ابن قتيبة يقارن بين ما يرويه وهب ابن منبه وبين ما فى التوراة ، ويبين أحيانا ما بينهما من خلاف

وكان لليهود أثر غير قليل فى بعض المذاهب الاسلامية ، فابن الأثير يروى عند الكلام على احمد بن أبى دُواد «أنه كان داعية الى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة وأخذ ذلك عن بشر المريسى ، وأخذ بشر عن الجهم بن صفوان ، وأخذه الجهم عن الجَعْد بن درهم وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم وختنه وأخذه طالوت عن خاله ، لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة ، وأول من صنف فى ذلك طالوت وكان زنديقاً فأفشى الزندقة»[2]

وروى صاحب العقد الفريد عن الشعبى انه قال لمالك بن معاوية «أحذرك الأهواء المضلة، وشرها الرافضة، فانها يهود هذه الأمة، يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية ولم يدخلوا فى الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً بأهل الاسلام وبغياً عليهم ، وقد حرقهم على بن أبى طالب . وذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود قالت اليهود لا يكون المُلك الا فى آل داود ، وقالت الرافضة لا يكون الملك الا فى آل على بن أبى طالب ، وقالت اليهود لا تكون

---

١ مقدمة ابن خلدون ٣٦٧   ٢ ابن الأثير ٧ ٢٦

جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادى مناد من السماء ، وقالت الرافضة لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وينزل سبب من السماء واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة . واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً وكذا الرافضة ، واليهود لا ترى على النساء عدّة وكذا الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة واليهود حرّفوا التوراة ، وكذلك الرافضة حرفت القرآن واليهود تنتقص جبريل وتقول هو عدونا من الملائكة ، وكذلك الرافضة تقول غلط جبريل فى الوحى الى محمد بترك على بن أبى طالب ، واليهود لا تأكل لحم الجزور وكذلك الرافضة الخ »[1]

واخذ اليهود كثيراً من المسائل وبحثوا عنها واخذها منها ، فقد بحثوا فى النسخ ، وقالوا إن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وقد بدأت بموسى وتمت به ، فلا يجوز النسخ لأن النسخ فى الأوامر بَدَاء ولا يجوز البداء على الله

وتكلموا فى التشبيه لأنهم وجدوا التوراة مملوءة بألفاظ تشعر بالتشبيه مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهراً والنزول على طور سيناء والاستواء على العرش وجواز الرؤية

وتعرضوا للرّجعة أى رجوع بعض الأفراد الى الحياة بعد الموت ، وجاءهم ذلك من أن عُزَيراً أماته الله مائة عام ثم بعثه وقالوا إنه مات وسيرجع وقال بعضهم غاب وسيرجع[2]

وهذه الأقوال والخلافات كلها تسربت إلى المسلمين عمن أسلم من اليهود ، فرأينا المسلمين يبحثون فى جواز النسخ فى القرآن ، كما بحث اليهود فى نسخ التوراة وذهب جمهور المسلمين الى جواز نسخ الحكم دون النص ، والى أن

[1] العقد ١ ٢٦٩

[2] حكى هذه الأقوال كلها عن اليهود الشهرستانى فى الملل والنحل ص ٨٥ و٨٦ فانظرها

ذلك وقع فعلا ، ويخالف فى وقوعه أبو مسلم الأصفهانى . ونرى المسلمين فى كتب أصول الفقه – عند الكلام على النسخ – يناقشون اليهود فى رأيهم ، ويجادلونهم ويردون عليهم [1] مما يؤيد وجهة نظرنا فى أن اليهود هم السبب فى إثارة هذه المسألة ، ورأينا بعض الشيعة يرى البداء الذى أنكره اليهود وأقدمُ من قال به المختار بن عبيد الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفيَّة ويقول الشهرستانى « إنما صار المختار الى البَداء لأنه كان يدَّعى علم مايحدث من الأحوال اما بوَحى يوحى اليه ، وإما برسالة من قبل الامام وكان اذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة فان وافق كونُه قولَه جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم وكان لا يفرق بين النسخ والبداء فاذا جاز النسخ فى الأحكام جاز البـــداء فى الأخبار » [2] وقد اعتنق كثير من الشيعة مذهب البداء وطبَّقوه فى كثير من مسائلهم التاريخية وقال أحد أئمتهم « لا يعبد الله بأحسن من القول بالبداء » لأنه يفتح باب التوبة فى طلب العفو من الله وكان اليهود أقوى المعارضين فى البداء [3]

كذلك انتقل الى المسلمين مادار بين اليهود فى التشبيه فقد وضعت للبحث الآيات القرآنية التى تُشعر بذلك مثل « يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » « الرحْمنُ على العَرْشِ اسْتَوَى » « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ » الخ وما ورد فى الحديث كقوله « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وانقسم المسلمون فيه أقساماً فقال قوم من السلف نؤمن بذلك ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وذهب جماعة من غلاة الشيعة وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية الى التشبيه ، وقالوا إنه يجوز عليه

---

١ أنظر أصول ابن الحاجب ٢ ١٨٨

٢ الشهرستانى ٥٥ وقد انشعب كلمة البداء من ... اله

٣ أخبار حكاه يحيى بن زكريا فى ... ٨ والأ... لله ... ودى

الانتقال والنزول والصعود والاستقرار، الخ فحذوا فى ذلك حذو اليهود فى اختلافهم ويقول الشهرستانى ـ فى الكلام على المشبهة ـ انهم أجروا (الأحاديث الواردة فى ذلك) على ما يتعارف فى صفات الأجسام، وزادوا فى الأخبار أكاذيب وضعوها، ونسبوها الى النبى عليه السلام، وأكثرها مقتبس من اليهود، فان التشبيه فيهم طباع حتى قالوا (فى الله تعالى) اشتكت عيناه فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، وان العرش ليئط من تحته كأطيط الرحل الحديد. وروى المشبهة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «لقينى ربى فصافحنى وكافحنى، ووضع يده بين كتفى حتى وجدت برد أنامله الخ»[1] ويقول فى موضع آخر «ولقد كان التشبيه صرفاً خالصاً فى اليهود لا فى كلهم، بل فى القرائين منهم، اذ وجدوا فى التوراة ألفاظاً كثيرة تدل على ذلك»[2].

وقال الشيعة ـ فى الرجعة ـ على نحو ما قال اليهود، فقد كان عند اليهود أن النبى «الياس» صعد الى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون، فقال ابن سبأ اليهودى ـ كما حكى ابن حزم ـ لما قتل علىّ «لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً» ونمت هذه الفكرة عند الشيعة، فقالوا كذلك فى بعض الأئمة الذين اختفوا. ثم قالوا كذلك فى المهدى المنتظر

فترى من هذا أن كثيراً من المسائل الكلامية وغيرها كان منبعها اليهود، وأنها قيلت على مثال ما قالوا وحق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب، تبعتموهم قلنا يا رسول الله أاليهود والنصارى؟ قال فمن!

وكان بعض المتكلمين فى العقائد من أصل يهودى كبشر المريسى؛ وله

---

[1] الشهرستانى ٣٧ و ٣٨ [2] ص ٣١

آراء كثيرة انفرد بها ، وكرهه الناس من أجلها حتى كادوا يقتلونه ، وكان من أشهر القائلين بخلق القرآن

وروى ابن قتيبة « أن هرون الأعور بن موسى - أحد القراء - كان يهودياً ثم أسلم ، قال الأصمعي قال هرون كنت أقرأ ايدام بالعبرانية يعني آدم » [١].

ودخلت كتبَ الأدب نصائحُ يهودية تروى عن أنبيائهم وصلحائهم، كالذى روى أن شعْياء قال لبني اسرائيل « إن الدابة تزداد على كثرة الرياضة لينا ، وقلوبكم لا تزداد على كثرة الموعظة إلا قسوة . إن الجسد اذا صلَح كفَاه القليل من الطعام ، وإن القلب اذا صلح كفاه قليل من الحكمة ! كم من سراج أطفأته الريح ، وكم من عابد أفسده العجب ! يا بنى اسرائيل اسمعوا قولى ، فان قائل الحكمة وسامعَها شريكان ، وأولاهما بها من حققها بعمله » [٢]

وقد ذهب بعض الباحثين مثل الاستاذ شوفان - الى أن بعض قصص ألف ليلة وليلة من أصل يهودى

وعلى كل حال ، فقد كانت هناك ثقافة يهودية ، بعضها صحيح علماً وبعضها غير صحيح - بعضها أخذ عن أهل العلم بالكتاب ، وبعضها أخذ عن عوام اليهود ، وهذا وذاك تسرب الى المسلمين شيء غير قليل ويجادل اليهود والمسلمون ، كل يدعو الى دينه ويقيم الحجة على صحته ، وقد حكت لنا الكتب الكثير من هذا الجدل ، من أقدمها ما روى عن أوس من بنى قريظة ، فقد أسلمت امرأته ودعته أن يُسلم فأبَى وقال

دَعَتْنى الى الاسلام يومَ لَقيتُها ... فقلت لها لا بل تعالى تهَوَّدى

فنحنُ على توراة موسى ودينِه ... ونِعْم لعَمْرى الدينُ دينُ محمَّد

كِلاَنا يرى أن الرَّشادة دينُه ... ومن يُهدَ أبواب المَرَاشد يَرْشُدِ

وكالذى حكى الصَّفدى فى «الغيث» من مناقشة بين يهودى ومسلم يقول

---

[١] المعارف ١٨ [٢] عقد ١ ٣٥٦ وفيه مواعظ كثيرة من هذا القبيل

بالجبر ١ كل هذه المناقشات كانت تضطر كل جانب أن يكون على علم بدين مناظره ، يستمد منه حجته ويدفع به حجة خصمه وكان ذلك من أسباب انتشار الثقافتين

النصرانية — : كذلك ورد فى القرآن الكريم آيات تشير الى الانجيل » وتعده كتاباً من كتب الله السماوية « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ » « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ » « وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ » الخ وكان موقف المسلمين إزاء الانجيل واختلافهم فى صحته وتحريفه كاختلافهم فى التوراة ، بل ذهب ابن حزم وابن تيمية وغيرهما فى عدم الاعتراف بالانجيل الذى بين أيدينا الى أكثر مما ذهبوا اليه فى التوراة ٢ .

على كل حال كان للنصرانية ثقافة دينية أهمها الانجيل ، وما أحاط به من شروح ، وما زاد عليه من قصص وأخبار وقد تسرّب ذلك كله الى المسلمين من طرق أهمها نصارى العرب ، وقد كانت النصرانية انتشرت بين بعض قبائلهم ، ولا سيما قبيلة تغلب ونجران وكذلك من طريق من أسلم من النصارى ونلمس هذا الأثر فى كثير من النواحى ، فأول ذلك تفسير القرآن .

ذلك أن القرآن الكريم اشتمل على مواضع وردت فى الانجيل ، كقصة عيسى ومريم ومعجزات عيسى عليه السلام ، وأسلوب القرآن — كما ذكرنا — أسلوب موجز ، يقتصر على موضع العظة فجاء المفسرون ينقلون عن مسلمة اليهود والنصارى شروحاً لهذه الآيات — إن شئت فاقرأ تفسير سورة مريم

---

١ ج ١ ٧٣ ٢ انظر الفصل فى الملل والنحل والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية

فى الطبرى تجده ينقل شروحاً كثيرة من الانجيل وتفسيراته ، وما وضع حوله ، ينقل ذلك عن وهب بن منبه وعن أسباط وعن ابن جريج وعن زكريا بن يحيى بن زائدة . وانظر كذلك تفسيره لقوله تعالى - فى سورة آل عمران - فى تعداد معجزات عيسى عليه السلام « وَرَسُولاً إلى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ » الآية فيأتى ابن جريج فيفسر الطير بالخُفَّاش ، ويروى الطبرى عن ابن حُمَيْد عن سلمة عن ابن اسحق قصه فى كلمة ذلك الى آخره [١] وتصحيح ذلك بعدُ حتى رأينا القصص الطويلة عن زكريا ويحيى بن زكريا ومريم وعيسى عليهم السلام والحواريين وحديث المائده فى كتاب قصص الأنبياء للثعلبى [٢] وأمثاله

كذلك أدخل مُسلمة النصارى أقوالاً من الانجيل دُسَّت على أنها أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد مثل الأستاذ جولد زيهر لما دخل على النصرانية فى الحديث بحديث « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وحديث قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم سترون بعدى أثرَة وأموراً تنكرونها قالوا فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم » فقد أخذ مما ورد فى انجيل متى « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وكذلك الامعان فى تفضيل الفقراء على الأغنياء ، فان هذا نظر نصرانى ، وقد ورد فى الحديث « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام » ومثل حديث « كونوا بلها كالحمام » فقد ورد مثله فى انجيل متى « ها أنا أرسلكم فى وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات ، وبُسَطاء كالحمام » وكذلك حديث أبى داود عن أبى الدرداء ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه

---

[١] انظر ذلك فى الطبرى ٣ ص ١٩ [٢] وفى الاغانى ج ٨ ص ٤٢١ ه

أح له فليقل « ربنا الله الذى فى السماء تقدّس اسمُك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرؤ » فانه دعاء نصرانى مشهور .

ونحن مع موافقتنا للأستاذ جولد زيهير فى أن بعض الأقوال النصرانية دخلت فى الحديث ، ونسبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نوافقه على كل ما قال ، ولا على نسبة كل الأحاديث التى ذكرها الى النصرانية ، فمثلا نظرة تبجيل الفقر وتعظيمه ليست نصرانية بحتة ، وكل الديانات الالهية — من يهودية ونصرانية واسلام — ترى هذا النظر وطبيعى لها أن تراه ، فمن أركان الأديان اتخاذ المقياس العملَ الصالح لا المال ، وهى تهاجم ما ألف الناس من تقديرهم الانسان بغناه ، فالدين يرى أن العمل الصالح له قيمته الذاتية سواء أتى من غنى أو فقير ، بل طبيعى أن يكون بعض الأعمال من الفقير أفضلَ كالأعمال الخيرية المالية ، إذ تضحيه الفقير أعظم ، فعدْلٌ أن تكون ثوابها أعظم ، ومحمد رسول الله عف عن الغنى ولم يشأ أن يكون غنياً ، وكان فى امكانه أن يكونه ووردت فى القرآن نفسه آيات تمجّد الفقراء الصالحين « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ » واتحاد الاسلام والنصرانية فى مدح الفقر لا يدل على أخذ الاسلام ذلك من النصرانية ، قالوا إن العربى كان يفضل الغنى على الفقر ، فقد قال عُرْوَةُ بن الوَرْد

دَعِينِى لِلْغِنَى أسعَى فإنى رَأَيْتُ النّاسَ شَرُّهُمُ الفقير

ولكن قد قال عربى غيره وهو قَيْسُ بنُ الخَطِيم

غِنَى النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غِنَى وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاءُ

وليس فى هذا ولا ذاك دليل على قولهم ، فكلاهما فى الاسلام . والاسلام حكمه ما بدّنا « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » « مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » ولكن — من غير شك — روت فى النصرانية واليهودية أخبار كثيرة ، وقصص عن الفقراء وفضلهم ، أدخلها المسلمون فى كتبهم كالذى روى فى الاحياء : أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة ، فأيقظه وقال . يا نائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال ما تريد منى إنى قد تركت الدنيا لأهلها فقال له فنم إذاً » ومر موسى عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ، ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة ، فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع ! فأوحى الله تعالى اليه ياموسى أما علمت أنى اذا نظرت الى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها ، وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة ، وقال موسى عليه السلام يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال كل فقير فقير[1] الخ

ونظهر لنا أن هذه الأخبار وأمثالها لوّنت حياة المسلمين بلون خاص ، فقد كان الاسلام فى أصله يدعو الى العمل فى الحياة ، ولا يحب الرهبانية ويقدر العمل من عمل ، غنياً كان أو فقيراً ثم رأينا الأخبار التى وردت بعدُ من مثل ما حكى فى الأحياء تبعث على نزعة جديدة ، هى الهرب من الغنى ، وحب العبادة ، وان ترك صاحبها العمل فى الدنيا ، وهى نزعة أشبه ما تكون بالرهبانية لم نعرفها كثيراً فى الأيام الأولى من تاريخ الاسلام

روى أن رفقة من الأشعريين كانوا فى سفر ، فلما قدموا قالوا ما رأينا يارسول الله بعدك أفضل من فلان كان يصوم النهار ، فاذا نزلنا قام من الليل حتى نرتحل قال فمن كان يمهن له ويكفله ؟ قالوا كلنا قال كلكم أفضل منه

وفى التاريخ عنى مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى ، وكان من أولهم فى ذلك

---

[1] الأحياء ٤ ١٥٢ وما بعدها

اليعقوبى ، فقد ذكر فى تاريخه مقتبسات من الانجيل . وفى تاريخ الطبرى طرَف من تاريخ النصارى ، ففيه خبر طائفة من الحواريين وخبر جرجيس وهو - كما يقول الطبرى - عبد صالح من أهل فلسطين ، أدرك بقايا من حواريِّى عيسى وأطال فى قصته . وفيه خبر أصحاب الكهف ، الخ . وكذلك فعل المسعودى . وقد خلطوا فيما كتبوه بين الأخبار الصحيحة . والأقاصيص المتداولة على الألسنة ، كما فعلوا فيما نقلوا من تاريخ اليهود .

وغير هذا الذى ذكرنا كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى ، فقد فتح المسلمون البلاد كالشام والعراق ، وكانت مملوءة بالنصارى فلما هدأت الحرب بالسيف بدأت الخصومة باللسان . كان المسلمون يدعون الى الاسلام ، فيضطرهم ذلك الى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين. فكان رؤساء النصرانية يقابلون الحجج بحجج فنشأ من هذا جدل كثير ، وكثر ذلك فى الدولة الأموية . وكان أكثر ما يكون فى الشام ، اذ دمشق عاصمة الخلافة، وفى الشام كثير من النصارى ، لأنها كانت فى يد الرومان النصارى ، ولأن قصور الخلفاء الأمويين فى دمشق كان فيها نصارى ، يتولون مناصب كبيرة - من ذلك ما حكى لنا عن يحيى الدمشقى ، فقد كان نصرانياً شديد التمسك بنصرانيته ، وعمل هو وأبوه فى قصر عبد الملك بن مروان وألف يحيى كتاباً للنصارى يدفع فيه دعوة المسلمين ، من أمثال ما جاء فيه : « اذا قال لك العربى ، ما تقول فى المسيح ، فقل له . انه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلمَ بم سمى المسيح فى القرآن ، وليرفض أن يتكلم بشىء حتى يجيبه المسلم ، فانه سيضطر الى أن يقول « كلمة الله ألقاها الى مريم وروحٌ منه » فان أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله اذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح قال يحيى . فان قلت ذلك فسيُفحم العربى ، لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين . والمسلمون ردوا على هذا

الاعتراض بأن المراد بالكلمة أنه وجد بكلمة الله وأمره، من غير واسطة كما قال «إنَّ مَثَلَ عيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، كقوله تعالى «وأيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»، وأن عيسى لمّا لم يكون من نطفة الأب، وإنما تكون من نفخة الملَك وُصف بأنه روح، وقد سمى الله جبريل رُوحا، ولم يقل أحد فيه ما قالوا فى عيسى، وقال الله فى آدم (ونفخت فيه من روحى) كما قال فى عيسى وسمى القرآن روحا فقال «وكَذَلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنَا»، الخ. قالوا وحينئذ لا يَرِد اعتراض يحيى الدمشقى لأنه اعتراض وارد على فهم ظاهر لفظ «كلمة» وروح على كل حال كان هناك جدال بين المسلمين والنصارى، وكان ذلك يضطر كلا لقراءة كتب الآخر، يستعين بها على تأليف حججه

وفى الفرق الإسلامية نجد ظلا للتعاليم النصرانية، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلا فى خلود العذاب، وذهب آباء الكنيسة اليونانية إلى انكار أبدية عذاب النار[1] ورأينا جَهْمَ بن صفْوان يقول أن الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما[2].

ويذهب الأستاذ «فون كريمر» إلى أن فرقة المعتزلة نشأت من النصرانية، لأن آباء الكنائس كانوا يتجادلون فى حرية الارادة، وأن الانسان مجبور أو مختار وبعبارة أخرى فى مسألة القدر، كما كانوا يتجادلون فى صفات الله وقد تسربت هذه العقائد الى المعتزلة من طريق النصارى ـ بعد فتح المسلمين للشام ـ ومن أشهر من احتك بالمسلمين فى ذلك العصر الأموى يحيى الدمشقى وثيودور أبوكارا Abucara وقد تكلم يحيى فى أن الله مصدر الخير، وقال ان الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس، فتكلم المعتزلة الأولون فى القدر وفى صفات الله أخذاً عن النصارى

---

[1] فون كريمر [2] الفصل لابن حزم ٤ ٨٣

ولكني لا أرى هذا الرأي ، بل أرى أن مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم ، وكان سبب ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ظاهرها الجبر مثل قوله تعالى « ولا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » وبجانب هذا آيات ظاهرة الاختيار ، وأن الانسان مسئول عن عمله مثل « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » ووردت أحاديث كثيرة تعرض للقدر ، وكان ذلك قبل فتح المسلمين للشام والعراق ، مثل ماروى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وعن علي قال « كنا في جنازة ببقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده مخصرة فجعل ينكت بها الأرض ، ثم قال ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، فقالوا يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير الى عمل الشقاء ثم قرأ « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » [1] وروى

---

[1] اقرأ في هذا كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم

أن علياً – لما انصرف من صِفِّين – قام اليه شيخ ، فقال أخبرنا عن سيرنا الى الشام أكان بقضاء وقدر ؟ » الخ ، الى كثير من أمثال ذلك .

ونرى من هذا أن فكرة القضاء والقدر كانت عند المسلمين قديما ، ويظهر أنها فكرة تحدث حول كل دين تقريباً ، فقد كانت فى اليهودية والنصرانية والمجوسية ، فلِمَ كانت لما ظهرت فى الاسلام، وكان شأنها شأن الديانات الأخرى عُدَّت نصرانية الأصل ؟ بل تاريخ المعتزلة يدلنا على أن جدالهم مع مجوس الفرس كان أكثر من جدالهم مع اليهود والنصارى ، وأن كثيراً من أصول مذهبهم وضع للرد على الفرس لا على النصارى ، وأكبر ردهم كان على الجَهْمية أصحاب جهم بن صفوان الخراسانى الأصل، لهذا نرى أن المعتزلة كانت نشأتهم الأولى اسلامية بحتة وإن تأثروا بعدُ بغيرهم من أهل الديانات الأخرى، من ناحية أن هذه الديانات كانت تقترح على المعتزلة موضع النزال: فاذا قال المجوسى الذى دخل الاسلام بالتجسيم ، أو قال بالجبر نازلها المعتزلة ولكنهم يستندون فى حججهم على الاسلام والعقل ، أما بعد عصرهم الأول فهذا موضوع آخر سنتناوله عند الكلام فى المعتزلة فى العصر العباسى إن شاء الله

*

واستمر الجدل بين المسلمين والنصارى فى عصرنا العباسى ، وقد حفظت لنا الكتب منها الشىء الكثير كرسالة الجاحظ « فى الرد على النصارى »[1] فهى تصور لنا ما كان يثيره النصارى واليهود من شبهات ، وما كان يدفع به المسلمون تلك الشبهات كما تذكر لنا طرفا من أخبار اليهود والنصارى ، والسبب الذى من أجله كانت العداوة بين المسلمين والنصارى أقل من العداوة بين المسلمين واليهود ، الخ — ونُقل الينا أن عبد الله بن اسماعيل الهاشمى كتب رسالة الى

---

١ وردت هذه الرسالة مختصرة فى رسائل الجاحظ على هامش الكامل ووردت أطول من ذلك فى مجموعة ثلاث رسائل للجاحظ وهى التى نشرها وشرحها فنكل

عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعوه بها إلى الإسلام ، فرد عليه عبد المسيح يدعوه إلى النصرانية ، وكان ذلك في عهد المأمون [١]

وحكى الجاحظ في الحيوان جدالا كان بينه وبين النصارى في القرابين والذبائح [٢] ، إلى كثير من أمثال ذلك وكل هذا الجدل يدل على معرفة اليهود والنصارى لكتب المسلمين يأخذون منها حججهم ، ومعرفة المسلمين لكتب اليهود والنصارى كذلك

وفي الأدب تسرب بعض ما للنصرانية إلى الأدب العربي من وجوه عدة

١ — أن بعض الشعراء كانوا نصارى ، فأدخلوا في شعرهم العربي شيئاً من النصرانية ، وكان أوضح مثل لذلك في العصر الأموي « الأخطل » فقد ورد في شعره أثر من النصرانية مثل قوله :

ولقد حلفتُ بربّ موسى جاهداً والبيت ذي الحُرُمات والأستار
وبكل مُهتَبِلٍ عليه مُسُوحُه دُونَ السماء مُسبّحٍ جَأّار
لأُحبّرنّ لابن الحليفة مِدْحةً ولأقذفنّ بها إلى الأمصار

ويقول والصليب والقربان لأخلصنّ إلى كلب خاصة — دون مضر — بما يَلْبَسُهم خِزيُه ويلزمُهم عاره » [٣] وروى ابن الأثير أن الأخطل لما قال

لما رأونا والصليبَ طالعاً ومار سرجيسَ وسُمّاً ناقعا
والخيلَ لا تحمِلُ إلا دارِعا وأبصروا راياتنا لوامعا الخ

قال جرير

أبالصليب ومار سرجيس تتّقي شَهْبَاءَ ذاتَ مناكبٍ جُمْهورا ؟!

---

[١] ورد اسم الرسالة والإشارة إليها في كتاب الآثار الباقية للبيروني ، فاستشهد بكلام عبد المسيح على دفع الصابئة للبدنين قرابين للقمر ، وقال إن هذه الرسالة كتب جوابا على كتاب عبد الله بن إسماعيل الهاشمي وقد طبعت هذه الرسالة جمعية نشر المعارف المسيحية بأوربا ولكنا نشك كل الشك في أن هذه الرسالة كلها هي عينها التي رآها البيروني لأسباب ليس هنا موضع ذكرها

[٢] الحيوان ٤ : ١٣٨ وما بعدها [٣] أغاني ٧ : ١٧٣

وقال أيضاً

يستنصرون بمار سرجس واسه بعد الصليب، وما لهم من ناصر!

ولكن أثر النصرانية فى شعره قليل، كما لاحظ الأستاذ «لامانس» بل هو متأثر فى أيمانه بالاسلام أكثر من تأثره بالنصرانية كقوله

إنى حلفت برب الراقصات وما أضحى بمكة من حجب وأستار

وبالهدى اذا احمرت مدارعها فى يوم نسك وتشريق وتنحار

وما بزمزم من شمط محلقة وما بيثرب من عون وأبكار[١]

وقوله

وقد حلفت يميناً غير كاذبة بالله رب ستور البيت ذى الحجب

وكل موف بنذر كان يحمله مضرج بدماء البدن مختضب

وكذلك هو فى حياته مضطرب بين عادات من حوله من النصارى والمسلمين، فهو يشرب الخمر ويعلق الصليب، وهو يطلق امرأته ويتزوج أخرى بل ويتسرى!

وفى العصر العباسى لم يشتهر كثير من النصارى بالشعر العربى، وعرف منهم أبو قابوس قال العمدة «كان أبو قابوس الشاعر رجلا نصرانياً من أهل الحيرة» وكان منقطعا الى البرامكة يمدحهم ويرثيهم، روى من شعره قليل، من ذلك أنه استمنح جعفر بن يحيى البرمكى ثوباً يلبسه يوم العيد فى الكنيسة، فقال من قصيدة

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا رأيت مباهاة لنا فى الكنائس

فلا بد لى من جبة من جبابكم ومن طيلسان من جياد الطيالس

---

١ رقص البعير اذا أسرع فى سيره، والهدى النعم يهدى الى الحرم، والأشمط الذى شعر رأسه أبيض وأسود، والعون جمع عوان وهى المرأة النصف والتى كان لها زوج

ولكن – على العموم – شعراؤهم فى عصرنا قليلون، وليس لهم كبير أثر فى الشعر العربى، ولم يكن لهم مثل الأخطل، أو ما يقرب منه [١].

٢ – كان أكبر من ذلك أثراً ما نقل – من المواعظ – عن الرهبان فى الأديار، وما نقل عن الكتب النصرانية كالذى حكى ابن قتيبة «قال بعضهم أتيت الشام فمررت بدير حرملة وبه راهب كأن عينيه عدلا مزاد، فقلت ما يبكيك؟ فقال يا مسلم، أبكى على ما فرطت فيه من عمرى، وعلى يوم مضى من أجلى لم يحسن فيه عملى! قال ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا أسلم وغزا فقتل فى بلاد الروم» [٢] ويقول ابن قتيبة أيضاً قرأت فى الانجيل «لا تجعلوا كنوزكم فى الأرض حيث يفسدها السوس والدود، وحيث ينقب السراق، ولكن اجعلوا كنوزكم فى السماء، فانه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم، الخ» [٣] وفى العقد الفريد «قال عيسى عليه السلام للحواريين لا تنظروا فى أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظروا فى أعمالكم كأنكم عبيد فانما الناس رجلان مبلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية» [٤] «ولقى رجل راهباً فقال يا راهب صف لنا الدنيا، فقال الدنيا تخلق الأبدان وتجدد الآمال وتباعد الأمنية وتقرب المنية» [٥] الى كثير من أمثال ذلك

ومن غريب الأمر أن هذه الأديار كانت منبعاً لشيئين متناقضين أشد التناقض، كانت منبعاً لزهد وورع وبعد عن الدنيا وشرورها، ومحطاً لبعض زهاد المسلمين، يروون عن الرهبان أقوالهم فى الهرب من اللذات كالذى روينا وكانت كذلك مباءة الخلعاء من الشعراء والأدباء يخرجون اليها، ويصفون بساتينها وقيانها، ويقولون فى ذلك القول الخليع والشعر الجميل ذلك أن

---

١ أنظر مصادر ذلك «كتاب شعراء النصرانية بعد الاسلام» للأب لويس شيخو

٢ عيون الأخبار ٢ ٢٩٧ ٣ عيون ٢ ٢٧٠

٤ العقد ١ ٣٥٦ ٥ عقد ١ ٢٧١

الأديار كانت غالباً فى أجمل المواضع ، وأحسنها هواء وأجملها منظراً ، تحيط بها أنواع البساتين وتحمل فيها الأزهار والرياحين ، قال البُحْتُرِىّ :

ما أُنْصِفَتْ بُنانة عند لبنى والمعنَّى بالغانيات مُعَنَّى
لولا رَبْوَةَ العراقِ ارتياداً أى أرضٍ أشهَتْ داراً وأسْنَى
من دَيْرِ العاقول مُرْتَبَعٌ أشرف مُخْتَلَفُهُ الى دير قُنَّى
حيث نبات الزيتون من فوقه النخلُ عليه وُرْقُ الحمام تُغَنَّى

وشاع عند الشعراء ما فيها من خمر معتّق ، وشراب جيد مصفّى .

إنَّ عمراً كما يكون وعَنَّا أن تُرَى صاحبَيْنِ فى دير قُنَّى
حبذا روضهُ المُدَبَّجُ ليلا وهواهُ ذاك المُمَسَّكُ رَدْنا
قد جَرَى السلسبيل بالمسك فيها فَحَوَتْه الدِّنان دَنّاً فدَنّا

ويظهر أن الخمّارين استغلوا شهرة الأديار بالشراب ، فأنشئوا حولها الحانات ، قال ابن فضل الله العُمَرى « وكانت حول دير العذارى حانات للخمارين وبساتين ومنتزهات »[١] وكانت تقام لبعض الأديار أعياد سنوية ، قال الخالدى فى دير الكلب « وله عيد فى وقت من السنة يخرج اليه خلق من النصارى نساء ورجال للاقامة عنده وخلق من المسلمين للنظر اليه والنزهة فيه ، ويجتمع اليه أهل الرقص والمُجّان وتسمع به الأغانى وأنواع الملاهى ، وتذبح به الذبائح وتشرب الخمور »[٢]

اغتنم المجّان من الشعراء هذا كله ، وأنشئوا حول الأديار أدباً غزيراً ، وشعراً كثيراً ، هو من الناحية الفنية بديع ممتع ، مثل قول ابن المعتز .

يا ليالىَّ بالمطيرةِ والكَرْ ح ودَيْرِ السوسىِّ بالله عودِى

---

١ ، ٥ مسالك الأبصار ١ : ٢٥٨ ، ٢ : ٢٥٤

كنتُ عندي أنموذجاتٌ من الجنّـــة لكنّها بغيـــر خلود
أشربُ الرّاحَ وهي تشربُ عقلي وعلى ذاك كان قتل الوليد

وقول آخر

ما ترى الدّيرَ، ما ترى أسفل الديـــر وقد صار وردةً كالدّهان ؟
لو رآه النُّعمان شقّ عليـــه ما يرى من شقائق النُّعمان

وآخر

فبينا صورةٌ في بِيعةٍ فتنَ اللهُ الذي صوّرها
زادها الناقشُ في تحسينها فضلَ حُسنٍ إنه بصّرَها
وجهُها لا شكّ عندي فتنةٌ وكذا هي عندَ من أبصرَها
أنا للقَسِّ عليها حاسدٌ ليت عيني عَبَثًا كسّرها

وسرت هذه العادة في كل الأقطار، فنجد شعراء العراق والشام ومصر يشيدون بالأديار ومن فيها وما فيها، ونقرأ كتاب الديارات للشابشتي ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري فنعجب من كثرة ما قيل من الشعر فيها وسكانها، ونراهم قد سلكوا في ذلك كلَّ مسلك، وتفنّنوا كل فن، وهم بين مشهور ومحتشم وظريف مؤدب وخليع ماجن وهكذا كانت الأديار مصدراً لنغمتين كان الناس يسمعونهما كثيراً في ذلك العصر نغمة حزينة زاهدة، تدعو الى الفرار من الحياة وارتقاب الموت ونغمة مرحة لاهية، تدعو الى احتساء الكأس الى آخر قطرة من قطراته، كل يوقع على الوتر الذي يهواه، وكل يغني على ليلاه

***

كذلك نفذ إلى المسلمين بعض عادات اليهود والنصارى الدينية، فقد اتخذ بعض المسلمين أعياد النصارى عيداً فيوم السعّانين[1] عرف في العصر العباسي

---

١ السعانين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع

وما بعده ، وقالت فيه الشعراء شعراً كثيراً من ذلك ما يقوله عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع

يا شادناً رامَ اذ مَرَّ فى السعانين قتلى
يقولُ لى كيف أصبحتَ ، كيف يُصبحُ مثلى؟!

ويقول

يا ليلة ليس لها صُبح وموعداً ليس له نُجح
من شادنٍ مرّ على وشنده الصلبانُ والشلاّقُ والدّبْحُ [1]
وفى السعانين لو انى به وكان أقصى الموعد الفصْح
فالله أستعدى على ظالمٍ لم يغنِ عنه الجودُ والشحُ

ويقول .

إنّ فى القلب من الظبى كُلومُ فدع اللوم فان اللوم لومُ
حبّذا يومُ السعانين وما نلتُ فيه من نعيم لو يدوم !
ان تكن أعظمْت أن همتُ به فالذى تركتُ من ذلى عظيمْ
لم أكن أولَ من سنّ الهوى فدعِ اللوم فذا داء قديم [2]

ويقول

ان كنتَ ذا طب فداوينى ولا تلم فاللوم يغرينى
يا نظرة أبقت جوى قاتلا من شادن يوم السعانين ، الخ

ويرى ابن تيمية أن اتخاذ المسلمين القبور مساجد كان تقليداً لليهود والنصارى ، وروى فى ذلك الأحاديث الكثيرة مثل « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد » ويقول الشافعى

---

١ الفارد والا لاق والذبح أعياد للنصارى ٢ انظر كذلك ضحى الاسلام ص ٧٨

« وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس » [١] وعدّد كثيراً من البدع التي أدخلت على زيارة القبور من أبنية الأضرحة وإيقاد المصابيح والتوجه بالدعاء نحو القبور ، وختم ذلك بقوله « وكل هذه الأشياء من البدع التي تضارع دين النصارى » [٢]

وعلى الجملة ، فنظرة الى هذا كله تريبنا أن قد تسرّب الى المسلمين — في العصر العباسي — شيء غير قليل من اليهودية والنصرانية في التفسير والحديث ، والمذاهب الدينية والعادات والتقاليد ، وأنهما كانتا عنصرين من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر .

* * *

الاسلام — ليس من غرضنا — هنا — أن نبين تعاليم الاسلام وما دعا اليه ، وما أتى به من أصول وفروع ؛ فموضع ذلك قد مر في فجر الاسلام ، وانما غرضنا أن نبين تاريخ الاسلام في العصر العباسي ، فهو بموضوعنا أليق .

ليس من شك أن العباسيين لم يضيفوا كثيراً من البلدان والأقطار الى رقعة المملكة الاسلامية ، ونحن اذا قارناها في ذلك بالدولة الأموية رأينا العهد الأموي أكثر فتحاً ، وأعظم نشراً للاسلام ، ففيه فتح السِّند وبُخارَى وسَمَرْقَنْدُ الى كاشْغَرَ ، في حدود الصين ، وفتحت الأندلس وكان الفاتحون — كما رأينا — فيهم الدعاة الى الدين ، وفيهم العلماء ، فلم يكن الفتح فتحاً سياسياً حربياً فقط ، بل كان أيضاً نشراً للدعوة الاسلامية ، وتعليماً لأصول الاسلام وفروعه ، ووضعاً للنظم الاسلامية وتعليماً للغة العربية وما اليها ، وتبع ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد المفتوحة في الاسلام [٣] ، وكان أكثرهم

---

١ ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦ وما بعدها

٢ ص ١٧٥ وقد عدد في هذا الكتاب أشياء كثيرة من العادات والمآتم التي أخذت عن أهل الكتاب والمجوس فارجع اليه

٣ روى بعض المؤرخين أن العراق كان يدفع من الجزية في عهد عمر بن الخطاب نحو مائة مليون درهم أو ١٢٠ مليونا ونقص في عهد عبد الملك بن مروان الى نحو ٥ مليوناً من كثرة دخول الناس في الاسلام

العباسيين أن يبقوا على التراث الذى ورثوه عن الأمويين ، ويحافظوا على وحدته ، فنجحوا بعض النجاح أولا وفشلوا أخيراً ، وعلى العموم لم يزيدوا شيئاً يذكر من الأقطار الأجنبية على المملكة الاسلامية

ولكن ـ مع هذا ـ كان للعباسيين أثر كبير فى دخول عدد عديد فى الاسلام ، من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، مما فتح فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

وفى نظرى أن العباسيين من حيث هم أصحاب السلطان وأولياء الأمر والقابضون على زمام الدولة ، بذلوا فى هذا الباب جهداً أكثر من الخلفاء الأمويين ـ اذا استثنينا عمر بن عبد العزيز ـ فقد كان نشر الدعوة فى العهد الأموى عمل قواد وعلماء وأفراد متدينين أكثر منه عمل حكومة ، ولم يكن للخلفاء الأمويين ـ غالباً ـ مظهر دينى من هذا القبيل أما الخلفاء العباسيون فقد صبغوا صبغة دينية ظاهرة . ونظر اليهم كأنهم حماة الاسلام وكان أبو جعفر المنصور أكبر من أحاط الخلافة بالاجلال الدينى ، وقوّى من حرمة البيت العباسى ، لا من ناحية القوة المادية ـ فحسب ـ بل من ناحية القوة الروحية كذلك . وكان من أثر هذا أن الخلفاء العباسيين لما ضعف نفوذهم المادى ، وفقدوا السلطان على الرعية ، ولم يك شيء من القوة فى أيديهم طلب هذه السلطة الروحية فيهم ، يستغلها القواد والأمراء والوزراء وأصحاب السلطان المادى ، فيستجلبون رضى العامة باعلان رضى الخليفة عنهم وإمداده الروحى لهم ، ومن مظاهر ذلك فى هذا العهد أن رأينا البيعة للخلفاء تحاط بأنواع من المراسم والشعائر لم تكن معروفة ، وتؤكد البيعة فى الحرم ، وتعلق شأن اجماع أولى الحل والعقد ونحو ذلك

صبغة الخلفاء العباسيين بهذه الصبغة جعلتهم يشرفون على الدين من نواح مختلفة ، ويتدخلون فى المسائل الدينية بأكثر مما كان الأمويون من ذلك أما

نرى المهدى - كما سبق - يتعقب الزنادقة ، ويعيّن من يلى أمرهم ، ويعاقب من ظهر منهم ويحث العلماء على وضع الكتب فى الرد عليهم ، ويسير مَنْ بعده من الخلفاء سيرته ، وذلك ما لم نعهده من قبل المهدى ونرى الرشيد يتصل بالقضاة والعلماء اتصالا لم نعرفه فى العهد الأموى ، فلا نجد - مثلا - قاضياً كان من الخليفة الأموى فى القرب والاتصال ؛ ما كان أبو يوسف من الرشيد

ويصور أبو يوسف نظر الناس إلى الخليفة فى عصره ، فيقول للرشيد فى أول كتابه الخراج « وإن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاة الأمر خلفاء فى أرضه ، وجعل لهم نوراً يضىء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم » وقعد ابراهيم بن السِّنْدِيّ أمام المأمون على ركبتيه ، فقال له المأمون تمكن فى قعودك ، فقال ابراهيم والله لا أضع قدر الخلافة ، ولا أجلس إلا جلوس العبد بين يدى مولاه ![1]

ويقول البحترى للمتوكل ويذكر خروجه يوم عيد الفطر .

أظهرتَ عِزَّ الملك فيه بجَحْفَلٍ	لجب يحاطُ الدِّينُ فيه وينصَرُ
خلنا الجبالَ تسير فيه وقد غدت	عُدَدُ يسير بها العَديدُ الأكثرُ
والخيلُ تَصْهَلُ والفوارس تَدَّعى	والبيضُ تلمعُ والأسِنَّة تُزهرُ
والأرضُ خاشعة تَميدُ بثقلها	والجوُّ مُعْتَكِرُ الجوانب أغبَرُ
حتى طَلَعْتَ بضَوْءِ وجهكَ فانجلت	تلك الدُّجى وانجاب ذاكَ العِثْيَرُ
وافتنَّ فيكَ الناظرون فإصْبَعٌ	يُومى إليك بها وعين تنظرُ
يجدون رؤيتَكَ التى فازوا بها	من أنعُمِ الله التى لا تُكفَرَ
ذكروا بطلعَتِكَ النبىَّ فهلَّلوا	لما طلَعْتَ من الصفوف وكبَّروا

[1] طيفور ٦٨

حتى انتهيتَ إلى المصلّى لا بِساً … نورَ الهدَى يبدو عليك ويظهرُ

ومشيت مِشية خاشعٍ متواضعٍ … لله لا يزهو ولا يتكبّرُ

فلوَ انَّ مشتاقاً تكلّف فوق ما … فى وُسْعِهِ لمشى إليك المِنْبَرُ

أبْدَيْتَ من فَصْلِ الخِطَاب بحكمة … تنْبى عن الحقّ المبين وتخبرُ

ووقفت فى بُرْد النبىّ مذكّراً … بالله تنــــذر تارةً وتبشّرُ

حتى لقد عَلِمَ الجهولُ وأخلصتْ … نفس المروّى واهتدى المتحيّر

صلّوْا وراءكَ آخذينَ بعصمة … من ربهم وبذِمّة لا تُخْفَرُ

وكان من أثر ذلك نشاط الخلفاء فى نشر الدعوة إلى الاسلام، مع ما كان من حمية الناس وحماستهم للدعوة. ولذلك رأينا كثيراً من أهل الملل الأخرى يدخلون فى الاسلام أفواجاً، ولم يكن السبب لدخولهم واحداً، فهناك ـ من غير شك ـ أسباب لذلك متعددة.

فمنهم من كان يسلم اقتناعاً بالاسلام، وايماناً ببساطة عقيدته ويسرها وسهولة فهمها. فيكفى أن يقول الرجل « لا اله الا الله محمد رسول الله » ليعد مسلما من غير مراسم ولا طقوس، وفى أى مكان وعلى يد أى انسان.

وساعد على ذلك ما لاحظه الأستاذ أرنولد « من أن المذاهب النصرانية من يعاقبة ونساطرة وملكانية وغيرها، كان بينها من العداء واضطهاد بعضها بعضاً أشد مما كان بين أهل دين ودين آخر. فليس عجيباً أن يهرب آلاف من هذا الاضطهاد والعذاب، ويلجئوا إلى عقيدة سهلة هى عقيدة الوحدانية »[1]

وقد عمل ـ بجد ـ فى نشر الدعوة فى ذلك العصر المتكلمون من المسلمين وعلى رأسهم المعتزلة، ذلك أن هؤلاء المتكلمين هم الذين كانوا يبحثون فى الاسلام، ويعللون آراءه وتعاليمه من طريق العقل؛ على حين أن المحدثين

---

[1] أنظر Preaching of Islam لأرنولد ص ٦١ وما بعدها.

والمفسرين وأمثالهم كانوا يحدمون الاسلام من طريق النقل فاضطر المتكلمون تمشياً مع العقل أن يتسلحوا بكل ما يعينهم فى سبيلهم ، فاستعانوا بالمنطق اليونانى يصوغون فى قوالبه قضاياهم ، وعرفوا آداب الجدل والمناظرة وتقيدوا بقوانينها ، وقرؤا بعض كتب الفلسفة اليونانية فيذكر المرتضى « أن النظّام كان قد نظر فى شىء من كتب الفلاسفة ، ولما وردَ البصرة كان يرى أنه قد أورد من لطف الكلام ما لم يسبق عليه الى أبى الهذيل العلاف قال فناظرت أبا الهذيل فى ذلك ، فخيل الىّ أنه لم يكن متشاغلا قط إلا به لتصرفه فيه وحذقه فى المناظرة فيه »[1] ويقول فى موضع آخر : « إن جعفر ابن يحيى البرمكى ذكر أرسطاطاليس فقال النظام قد نقضت عليه كتابه ، فقال جعفر كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه ؟ فقال أيما أحب اليك أن أقرأه من أوله إلى آخره ، أم من آخره الى أوله ؟ ثم اندفع يذكر شيئاً فشيئاً وينقضه عليه فتعجب منه جعفر »[2] ثم نظروا فى كتب الديانات الأخرى وتبحروا فيها فيقول المرتضى أيضاً « إن النظام كان يحفظ القرآن والانجيل وتفسيرها »[3] ووصف رجل واصلَ بن عطاء فقال « ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج ، وبكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه »[4] وبعد أن أعد المتكلمون ـ وخاصة المعتزلة ـ أنفسهم هذا الاعداد نزلوا فى الميدان وقاموا بعملين ، أحدهما أنهم نازلوا الطوائف الأخرى الاسلامية المخالفة لهم يجادلونهم ويردون عليهم ، ويدعونهم الى عقائدهم الخاصة فالمعتزلة تحارب المجبرة ، والمعتزلة تنازل الرافضة . تجادلوا جميعاً فى الجبر والاختيار ، وفى صفات الله وفى التجسيم ، وفى الثواب والعقاب . وروت لنا الكتب الشىء الكثير من هذا الجدال ، وليس هذا الموضع محله وثانيهما منازلتهم لأهل الديانات الأخرى

---

١ المنية والأمل ص ٢٦ ٢ ص ٢٩ ٣ ص ٢٩ ٤ ص ١٨

من مجوس ويهود ونصارى ، ودعوتهم الى الاسلام . وكانت هذه الحركة عنيفة فى عصرنا ، على أشد ما يكون من العنف ، مانوية يدعون الى دينهم ويظهرون محاسنه ، ويهاجمون الاسلام ويأتون بالحجج ، ويهود ونصارى كذلك . ولم يكن المحدثون وأمثالهم يستطيعون أن يقوموا بمناهضتهم ، انما الذين استطاعوا ذلك وانتدبوا أنفسهم للقيام به هم المتكلمون ، حكى المرتضى « أن ملك السند طلب الى الرشيد أن يبعث اليه من يناظره فى الدين فبعث الرشيد اليه قاضياً لا متكلما ـ لأن الرشيد كان قد منع الجدال فى الدين وحبس علماء الكلام ـ فانتدب ملك السند سُمَنِياً ليجادل القاضى فسأل السمنى القاضى ، أخبرنى عن معبودك هل هو القادر ؟ قال نعم ، قال أفهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال القاضى : هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة وأصحابنا ينكرونه . فقال السمنى للملك : قد كنت أعلمتك دينهم . وكتب ملك السند بذلك الى الرشيد فقامت قيامته وضاق صدره ، وقال أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ ! قالوا بلى يا أمير المؤمنين ، هم الذين نهيتهم عن الجدال فى الدين ، وجماعة منهم فى الحبس . فقال : أحضروهم فلما حضروا قال ما تقولون فى هذه المسألة ؟ فقال صبى من بينهم : هذا السؤال محال ، لأن المخلوق لا يكون إلا محدثاً ، والمحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر ، كما استحال أن يقال يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلا ، فقال الرشيد : وجّهوا اليه بهذا الصبى ، فقالوا إنه لا يؤمَن أن يسألوه على غير هذا ، فقال اختاروا غيره ، فاختاروا معمر بن عباد السلمى (من شيوخ المعتزلة) فَسُمَّ فى الطريق »[1]

عرف المعتزلة المانوية واليهودية والنصرانية معرفة واسعة ، كما عرف علماء هؤلاء الطوائف الاسلام . وبذل كل فريق الجهد فى الدعوة الى دينه والرد

---

[1] المنية والأمل ص ٣١

على مخالفيه فأسلم على يدهم كثيرون : يقول (المرتضى) انه أسلم على يد أبى الهذيل العلاف ـ شيخ المعتزلة ـ أكثر من ثلاثة آلاف رجل [١]، ويقول ابن خلكان « إن لأبى الهذيل كتاباً يعرف بميلاس ، وكان ميلاس رجلا مجوسياً فأسلم ، وكان سبب اسلامه أنه جمع بين أبى الهذيل المذكور وجماعة من الثنوية فقطعهم [٢] أبو الهذيل ، فأسلم ميلاس عند ذلك »[٣] وحكى الجاحظ « أن قساً نصرانياً راهن على أن الصليب الذى فى عنقه من خشب لا يحترق ؛ لأنه من العود الذى كان المسيح عليه السلام صلب عليه . وكاد يفتن بذلك ناساً من غير أهل النظر حتى فطن له بعض المتكلمين ، فأتاهم بقطعة عود تكون بكرمان ، فكانت أبقى على النار من صليبه »[٤] . وحكى المرتضى فى أماليه « أن أبا الهذيل فى حداثته بلغه أن رجلا يهوديا قدم البصرة ، وقطع جماعة من متكلميها ، فقال لعمه يا عم امض بى الى هذا اليهودى حتى أكلمه ، وألح عليه فى ذلك ، فذهب اليه وما زال به حتى أفحمه »[٥] ويذكر ابن خلكان أن واصلا ألف فيما ألف كتابا فى الدعوة ، والظاهر أنه فى الدعوة الى الاسلام ، أو الدعوة إلى مذهب الاعتزال . وقد رأينا قبلُ أن الجاحظ يؤلف رسالة فى النصارى ، يذكر حججهم ويرد عليها ويروى ابن النديم : أن المأمون أرسل الى يزدانبخت ـ أحد رؤساء المانوية ـ فأحضره من الرى ـ بعد أن أمنه ـ فقطعه المتكلمون . فقال له المأمون : أسلم يا يزدانبخت فلولا ما أعطيناه إياك من الأمان لكان لنا ولك شأن ! فقال له يزدانبخت . نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك

---

١ ص ٢٦

٢ يعنى ألزمهم الحجة وقد استعملت كلمة قطعهم فى هذا المعنى كثيراً فى ذلك العصر

٣ ابن خلكان ١ : ٦٨٥

٤ الحيوان ٥ : ٩٥

٥ انظر الحكاية بطولها فى أمالى المرتضى ١ : ١٢٤

ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون أجل، ووكل به حفظة حوفا عليه من الغوغاء، وكان فصيحاً لسناً »[1]

وبجانب هؤلاء العمليين الذين يدعون الى الاسلام - من طريق العقل والحجج المنطقية - كان من يدعو الى الاسلام من طريق السيرة الطاهرة، والخلق النبيل، والحياة الصالحة، وكان داعياً من طريق المثل. ومن ذلك ما حكى ابن خلكان « قيل إنه أسلم يوم مات احمد بن حنبل عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس »[2] أو من طريق الوعظ والتصوف. وأبو القاسم الجنيد يقف على حلقته فى المسجد غلام نصرانى ويسلم[3]، وبعد هذا العصر كان أبو الفرج بن الجوزى واعظا مؤثراً وقد أسلم على يده كثيرون

وكان الخلفاء العباسيون من أنشط الخلفاء للدعوة الى الاسلام للصبغة الدينية التى شرحناها قبل

وكان المأمون من أحرصهم على ذلك، فحوله المتكلمون، يدعون الى الاسلام وهو نفسه ينشر دعوته، روى البَلاذُرى قال « لما استخلف المأمون أغرى السُّغْدَ وأُشْرُوسنة، ومن انتقض عليه من أهل فَرْغانة، الجندَ وألح عليهم بالحروب والغارات أيام مقامه بخُراسان وبعد ذلك، وكان مع تسريبه الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما » وقال « وكان المأمون - رحمه الله - يكتب الى عماله على خراسان فى غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صِلاتِهم وأرزاقهم، ثم استُخلف المعتصم بالله

---

[1] الفهرست ١٣٨ [2] ابن خلكان ١ ٢٣ [3] ابن خلكان ١ ١٦٥

فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والأشروسنه وأهل الشاش ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك »[١]

وكان رجل من خراسان ، نصرانيـاً فأسلم فارتد ؛ فأمر المأمون بحمله الى بغداد ، فسأله ما الذى أوحشك من الاسـلام ؟ فقال المرتد : أوحشنى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم ! قال المأمون : فان لنـا اختلافين ، أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتـكبير الجنائز والاختلافات فى التشهد وصلاة الأعياد وتـكبير التشريق ، ووجوه القراءات . واختلاف وجوه الفتيا ، وما الى ذلك ، وليس هذا باختلاف انما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة فمن أذّن مَثْنى وأقام فرادَى ، لم يؤثِّم من أذن مثنى وأقام مثنى ، لا يتعايرون ولا يتعايبون ، أنت ترى ذلك عياناً ، وتشهد عليـــه بياناً . والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع اجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا ، حتى أنـكرت كتابنا ؛ فقد ينبغى أن يـكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والانجيل متفقاً على تأويله كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصـارى اختلاف فى شىء من التأويلات . . . ولو شاء الله أن ينزِّل كتبه ويجعل كلام أنبيائه ، وورثة رسله لا تحتـاج الى تفسير لفعل ، ولـكننا لم نر شيئاً ـ من الدين والدنيا ـ دُفع الينا على الـكفاية . ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة . فرجع الرجل الى الاسلام فخر المأمون ساجداً لله ، ثم قال لأصحابه لا تبَرُّوه فى يومه ريثما يعتق اسلامه كيلا يقول

---

١ فتوح البلدان ٤٣٦ و ٤٣٧ طبعة مصر

عدوه إنه يُسلم رَغمة ، ولا تنسَوْا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه [١]

على كل حال نشط الخلفاء العباسيون الأولون فى الدعوة الى الاسلام ، ولكن قلَّ أن كان منهم إكراه على الدخول فى الاسلام ، كما رأينا فى موقف المأمون نحو برداسحب ، فقد اعترف بأن المأمون لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم ، وأقرَّه المأمون على قوله ، يقول الأستاذ « فِنْسِنْكْ » « ومع أن نصارى الشرق كان يقل عددهم باعتنـــاقهم الاسلام ، فقلَّ منهم من أسلم كَرْهاً » [٢]

نعم ، صدر من بعض الخلفاء فى ذلك العصر من اشتد فى معاملة المسيحيين ، كالذى رواه الطبرى فى حوادث سنة ١٩١ فقد قال « إن الرشيد أمر بهدم الكنائس بالثغور ، وكتب الى السِّندى بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذمة — بمدينة السلام — بمخالفة هيئتهم هيئةَ المسلمين فى لباسهم وركوبهم » [٣] ولكن هذا وأمثاله كان أثراً من آثار سوء العلاقات السياسية بين الدولة الاسلامية والمملكة البيزنطية ، لا أثراً للتعاليم الدينية ، وإلا فلم كان أمر الرشيد مختصا بأهل الذمة فى بغداد ، دون سائر الأقطار الاسلامية ؟ وظلت الأوامر بمخالفة الذميين فى لباسهم والتشديد عليهم تنمو مع نمو سوء العلاقات السياسية ، حتى بلغت أشدها فى أيام الحروب الصليبية ؛ صدى لما كان من معاملة الروم للمسلمين

كذلك لا ننكر أن بعض من أسلم إنما أسلم لينيل الجاه والمنصب ، كالذى كان من كاووس ملك أشروسنه ، فإنه لما غُلبَ فى الحرب أظهر الاسلام ، وكذلك ابنه حيدر المعروف بالأفشين ، والذى مات فى سجن المعتصم لزندقته كما أنبأنا من قبل [٤] وحكى الجهشيارى أن الفضل بن سهل (وكان

---

١ ضحى الاسلام ص ٦ ووردت الحكاية فى العقد الفريد مع خلاف فى بعض ألفاظها

٢ Muslim Creed ص ٢٨   ٣ طبرى ١٠ : ١٠٠

٤ أنظر البلاذرى ص ٤٣٦ و ٤٣٧

مجوسيا) نقل ليحيى بن خالد البرمكي كتابا من الفارسية الى العربية ، فأعجب بفهمه وبجودة عبارته ، فقال له يحيى إنى أراك ذكياً وستبلغ مبلغاً رفيعاً ، فأسْلِمْ ، حتى أجد السبيل إلى إدخالك فى أمورنا ، والاحسان اليك ، فقال نعم ، أصلح الله الوزير ، أُسْلِمُ على يديك فقال له يحيى لا ، ودعا بسلام مولاه فقال خذ بيد هذا الفتى وامض به الى جعفر وقل له يدخله على المأمون — وكان المأمون فى حجر جعفر — حتى يسلم على يديه، ففعل وأسلم على يد المأمون[1] وهو الذى صار فيما بعدُ وزير المأمون ،والذى لقب بذى الرياستين . كما أسلم بعض الناس فراراً من الجزية ، حتى إن بعض الولاة كتب الى الحجاج « إن الخراجَ قد انكسر ، وإن أهل الذِّمة قد أسلموا ، ولحقوا بالأمصار فأخذ الحجاج منهم الجزية مع إسلامهم . وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون ! »[2] ولكن هذه الجزية لم تكن بالمُرْهِقة « فهى لا تؤخذ من المسكين الذى يُتَصدق عليه ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من ذِمّىّ يتصدق عليه ، ولا من المترهبين الذين فى الدِّيارات إذا لم يكونوا من أهل اليسار . ولا تؤخذ الجزية من الشيخ الكبير الذى لا يستطيع العمل ولا شىء له »[3] ويدفع الغنى ٤٨ درهما كل سنة ،ويدفع الوسط ٢٤ درهما ، والعمال والصناع ونحوهم ١٢ درهما[4] وهذا مقدار محتمل ، لا يدعو كثيرين أن يهربوا من دينهم .

✡ ✡ ✡

وكما أثّر النصارى فى المذاهب الاسلامية ، والعادات — كما أسلفنا — أثّر المسلمون فى النصارى،فقد ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الاسلام من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت

---

١ الوزراء ٢٨٧ ٢ ابن الأثير ٤ ١٧٩ ٣ الخراج لأبى يوسف

٤ والدرهم نحو قرشين مصريين ونصف قرش

فى سبتمانيا (Septimania) [١] حركة تدعو الى انكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حق فى ذلك ، وأن يضرع الانسان الى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم ، والاسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار ، فطبيعى أن لا تكون فيه اعتراف [٢]

وكذلك كانت حركة تدعو الى تحطيم الصُّوَر والتماثيل الدينيــــة « Iconoclasts » ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجرى ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل فقد أصدر الأمبراطور الرومانى « ليو » الثالث أمراً سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م ، بعد الاتيان بهذا وثنية . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ، على حين كان البابا جريجورى الثانى والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والأمبراطورة ايرينى من مؤيدى عبادة الصور ، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة الى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالاسلام ، ويقولون ان كلوديوس claudius أسقفّ تورين (الذى عين سنة ٨٢٨ م وحول ٢١٣ هجرية) والذى كان يحرق الصور والصلبان ، وينهى عن عبادتها فى أسقفيته ، ولد وربى فى الأندلس الاسلامية [٣] ـ وكراهية الاسلام للتماثيل والصور معروفة روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفرَ وقد سترتُ سَهْوَةً لى بقِرَامٍ فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه وتلوّن وجهُه ، وقال ياعائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت فقطّعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين » [٤] والأحاديث فى هذا الباب مستفيضة

كذلك وُجدت طائفة من النصارى ، شرحت عقيدة التثليث بما يقرب

---

١ سبتمانيا مقاطعة فرنسية تقع فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط

٢ جدا ش [illegible] ٣ جدا ب [illegible] ٤ اللؤلؤ [illegible] من الا [illegible] والمرام السير [illegible]

من الوحدانية وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام [١]

* * *

ومسألة أخرى كبيرة الأهمية فى عصرنا الذى نؤرخه تلك هى أن تصور كثير من المسلمين للإسلام فى ذلك العصر يختلف عن تصور المسلمين له فى العصور الأولى ، فحياة العربى الساذجة البسيطة السهلة تعقدت ، والديانات المختلفة تسربت ، والأعاجم الذين كانوا وثنيين أو مانويين أو نحوهم دخلوا فى الاسلام ولم تنقَّ رءوسهم من كل ما علق بها من الديانات القديمة وقد عاشوا فى المدنيات المركبة المعقدة ، فنظروا الى الاسلام بعيونهم لا بالعين العربية الأولى وحق ما يقال إن الأمم وإن اتخذت ديناً فكل أمة يختلف نظرها فى تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى ، وهى تنظر الى الدين من خلال تاريخها ونظمها الاجتماعية ، من خلال أديانها المتعاقبة ومن خلال لغاتها وتقاليدها ومن خلال ثقافتها وتربيتها . الى غير ذلك كل المسلمين يقولون « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولكن نظر العالم الواسع الثقافة الى الاسلام غير نظر العامى الجاهل ، وكلاهما غير نظر الصوفى ، وهكذا بل نظر المسلمين من المصريين على وجه العموم — الى الاسلام ، يختلف فى تفاصيله عن نظر الهنود المسلمين والأتراك المسلمين . لأن كل أمة تداول عليها من العوامل ما يخالف غيرها ، وذلك — من غير شك — خالف بين أنظارهم وعقلياتهم ، والناس كانوا ينظرون الى الاسلام نظراً يختلف باختلاف العصور ، يحدى فى ذلك ما رواه البخارى والترمذى عن أنس بن مالك المتوفى سنة ٩٠ ه قال « ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل الصلاة ؟ قال أليس صنعتم ما صنعتم فيها ! » [٢] فأنس رضى الله عنه قد شاهد عصر النبى

---

١ Hume's Christianity of Islam in Spains ص ١١٦

٢ باب الاعتصام بالسنة

صلى الله عليه وسلم وعصر الأمويين ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الأنظار والأعمال ، وكيف اذا شاهد العباسيين ومن بعدهم قد كان الاسلام سهلا يسيراً ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن هذا الدين يسر ، ولن يشادَّ الدين أحدٌ الا غلبه » ويقول « لا تشددوا على أنفسكم فيُشَدَّد عليكم ، فان قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار ، رهبانية ابتدعوها ما كتبنا عليهم » [١] « ، وكان القاسم بن محمد يلبس الخز ، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ، ويقعدان فى مسجد المدينة فلا ينكر هذا على هذا ، ولا ذا على هذا » [٢] وكان هناك نزعة لبعض الصحابة فى الغلو فى الدين ، فقاومها رسول الله صلى الله عليه وسلم كالذى كان بينه وبين عبد الله بن عمرو ، فقد بلغه أنه لا ينام ولا يُفطر ، ولا يؤدى حقوق أهله انهماكا فى العبادة فقال له رسول الله « يا عبد الله إن لك فى رسول الله أسوة حسنة فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم ، ويؤدى الى أهله حقوقهم يا عبد الله إن لله عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقاً »

وبعد هذا رأينا تشدداً فى دين ، وابتداعا لتقاليد وغُلواً فى نواح مختلفة ، منهم من يلبس الصوف ويلتزمه ومنهم من يغلو فى الانكار على لابسيه ، قدم حماد ابن سلمة البصرة ، فجاءه فَرْقد السَّبَخى وعليه ثياب صوف فقال له حماد دع عنك نصرانيتك » [٣] وقال ابن السماك لأصحاب الصوف ، والله لئن كان لباسكم وفقا لسرائركم فقد أحببتم أن يطّلع الناس عليها ، وان كان مخالفا لقد هلكتم » وكان بعض الموالى يتشدد فى الوضوء والطهارة ، ويغلو فى ذلك غلواً لا تعرفه العرب فكان العرب يكرهون منهم ذلك [٤] الى كثير من أمثال هذا

---

١ أخرجه أبو داود ٢ العقد الفريد ١ ٢٥ ٣ العقد ١ ٢٥
٤ انظر العقد ٢ ٩١

وهناك ما هو أهم من هذا ، ذلك أن الناس فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبعده كانوا يقرءون القرآن أو يسمعونه فيُغَشّون بتفهم روحه ، فإن عنى علماؤهم بشىء من وراء ذلك فبما يوضح الآية من سبب للنزول ، أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظا غريبا ، أو أسلوباً غامضا . وأكثر ما روى لنا فى الطبرى وغيره عن الصحابة فى تفسير القرآن هو من هذا القبيل ، وما عرفنا فى العصر الأول انحياز الصحابة الى مذاهب دينية وآراء فى الملل والنحل . فلما كنا فى آخر العصر الأموى رأينا الكلام فى الصدر ، ورأينا المتكلمين فيه ينظرون الى القرآن من خلال عقيدتهم ، فمن قال بالجبر أولَّ كلَّ آيات الاختيار ، ومن قال بالاختيار أولَّ كلَّ آيات الجبر وسال بعد ذلك السيل فى العصر العباسى ، فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب ينظرون اليه من خلال مذاهبهم ولئن كان هذا النظر أفاد من ناحية الجدال بين المسلمين وغيرهم والدعوة إلى الاسلام - كما بينا فى موقف المعتزله - فقد أساء بإضعاف الروح الدينية وما كانت توحيه من احياء القلب أصبح علماء الكلام والمذاهب الدينية ، ينظرون الى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية ، وذلك إن كان فيه مران عقلى وتوسيع لبعض مناحى الفكر ، ففيه إضعاف لقوة الروح وحماسة القلب ؛ سواء فى ذلك المعتزله والأشعرية والماتريديه ، فكلهم استخدموا الأدلة اليونانيه فى العقائد الدينية ، وهى غير الطريقة التى نحاها القرآن الكريم فى الدعوة الى الدين ، لقد كادوا بعملهم هذا يقطعون الصله بين العقل والقلب ويَنْمُّون الناحية العقليه على حساب قوة العاطفة ، ان شئت فاقرأ - لاثبات قدرة الله - قوله تعالى « وأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أن اتَّخِذِي من الجِبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ ثم كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُه فيه شِفَاءٌ للنَّاسِ إنَّ فى ذلك لآيةً لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ثم اقرأ - فى

كتب علم الكلام ـ الجدل بين الأشعرية والماتريدية فى أن القدرة صفة أزلية تتعلق وفق الارادة ، بمعنى صحة صدور الأثر والتمكن من الترك كما يقول الماتريدية ، أو هى صفة تؤثر فى المقدورات عند تعلقها بها كما يقول الأشاعرة، وكم من الفرق بين المنهجين والرّوحين ! أهمّ غرض للقرآن الكريم أن يحيى الشعور ببيان علاقة الانسان القوية بالله والعالم ، وأن يعمل على ذلك بتغذية الحياة الروحية ، أما المتكلمون فأرادوا أن يصلوا إلى ذلك من طريق المنطق ، وشتان بين الطريقين ! فحياة المنطق لا تملأ القلب حماسة ، ولا تبعث فى النفس حرارة إيمان ، إنما تفعل ذلك الحياة الروحية

لقد كثرت المذاهب والنّحَل فى ذلك العصر كثرة مدهشة ، حتى يصفهم المأمون فيقول «وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رئاسة ، لعله يدعو فئة الى ضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه فى الأمر الذى عقد به رئاسة بدعة ويشطط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسالمه عليه »[1] الخ ، ونستعرض أسماء الفرق والمذاهب فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى فندهش لكثرتها واختلافاتها وهذه كلها كانت تنظر الى القرآن الكريم بعين مذهبها وتفسره بما يلائمه فالمعتزلى ينطق القرآن على مذهبه فى الاختيار والصفات والتحسين والتقبيح العقليين ، ويُؤوّل ما لا يتفق ومذهبه ، وكذلك يفعل السنى ، وذلك يخالف كل الاختلاف عن نظر المسلمين الأولين الى القرآن

كان القرآن يدعو الى الايمان من طريقين طريق النظر الى العالم نفسه وطريق التاريخ . فهو يرى أن نظر الانسان الى العالم يدعم ايمانه ويقوى يقينه، فى الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والابل كيف خلقت والسماء كيف رفعت والجبال كيف نصبت والأرض كيف سطحت آيات على الله ،

---

١ طيفور ٧٨

كما أن فى الأحاديث التاريخية عن الأنبياء وأممهم ما يدعو الى الايمان ، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم فى استطاعة العالم والجاهل أن ينال الايمان من هذا الطريق ، والدعوة الى الحياة الروحية وحدها هى الدعوة التى يمكن أن توجه الى الناس كافة فلما أولع العلماء بالفلسفة اليونانية فى العصر العباسى حوّلوا اتجاه القرآن نفسه الى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية ، ودرسوا القرآن على النحو الذى يدرسون به الحساب والهندسة والهيئة ، فكان فى ذلك إضرار بالدين من ناحيته القلبية . ونتج عن ذلك تعقيد العقيدة الاسلامية السهلة السمحة ، حتى صار يمثّلها تعاليم المتكلمين من معتزلة وأشعرية ، وأصبح أخيراً يمثلها « العقائد النّسفيّة » و « متن السّنوسية » وشعر بهذا النقص قوم من الصوفية المخلصين ، فدعَوْا الى الاسلام من منهجه الأول ، ولكن سرعان ما تحول بعضهم أيضاً إلى الفلسفة يستمد منها ، كما سنبينه ان شاء الله .

وكان كلما تعمق المسلمون فى العلوم والفلسفة نظروا الى القرآن من خلالها ، فاذا أتت آية فى الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل اليه علمهم فى الظواهر الجوّية ، وإذا أتت آية فى النجوم والسماء طبّقوا ما علموا من علم الهيئة ، وإذا أتت اشارة فى آية الى جبر أو اختيار عدّدوا مذاهب المتكلمين فيها ، وإذا أتت مسألة نحوية أفاضوا فى الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين وعلى الجملة ، فقد كدّسوا كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية ، و ضخم ذلك على توالى الأزمان ، كما ترى بعد فى تفسير الفخر الرازى ، ففيه كل شىء وصل اليه المسلمون إلا شيئاً واحداً ، هو شرح روح القرآن

* * *

ولكن إن كانت هذه نقطة ضعف فى الفلسفة والعلوم من ناحيـة الدين

فقد كان لها فضل كبير من الناحية الدينية أيضاً ، ذلك أن الناس واجهوا مشكلة كبرى فى العصر العباسى ، رأوا مدنيات عظيمة لأمم مختلفة ، ورثتها المملكة الاسلامية ، ورأوا عادات مختلفة لأمم متعددة فى جميع مناحى الحياة ، ورأوا معاملات تجارية ونُظما للأحوال الشخصية تأثرت بديانات الأمم المختلفة ، وهكذا فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية ، سواء كانت نواحى اقتصادية أم سياسية أم قانونية ورأوا — من ناحية أخرى — أن الاسلام أتى بأصول يجب المحافظة عليها ، وأتت فيه نصوص كذلك على جزئيات يجب مراعاتها ، ولكن فى كل عصر يحدث من الأقضية والأحداث ما لم يكن حدث من قبل ، ولم يرد فيه نص فكان أمام العلماء أن ينظروا باحدى العينين الى قواعد الاسلام وتعاليمه ، وبالعين الأخرى الى المدنية العباسية ، وما تحدّث فيها من مظاهر واحداث شتى ، وكان لا بد من أن يطبقوا قواعد الاسلام على تلك الأحداث — ولم يكن هذا بالأمر الهين — نعم عرضت هذه المشكلة فى تاريخ الاسلام من قبل العباسيين ، قد واجهها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بعد أن فتحت الفتوح ومُصّرت الأمصار ، ودخلت أمم مختلفة العقائد والنظم واللغات تحت حكم الاسلام ، وبذل من الجهد هو ومن حوله من العلماء ما لا يقدّر ، وضرب مثلا صالحاً لمن يأتى بعده ولذلك نص المشترعون على العمل برأيه فى كثير من نظام الفتح والجهاد والضرائب ، ونحو ذلك ، وعدوه مثلهم الذى يحتذى . وواجه هذه المشكلة الأمويون ، فنظروا فى نظم الدواوين والنقود ونحوها ، فخطوا بذلك خطوة ثانية ولكن المشكلة أمام العباسيين كانت أعقدَ لأن دهشة الفتح قد زالت ، والأمم التى دخلت فى الاسلام استقرت وتمكّنت جيلا جديداً ، ورث من آبائه وورث من المسلمين ، والعباسيون — كما رأينا قبل — لم يشاءوا أن يعيشوا عيشة ساذجة كمن قبلهم من الأمويين ، وتغلبت العناصر الأخرى كالفرس ذات

الحضارة المركبة ، فكان من ذلك كله أن أرادوا أن يضعوا نظما كاملة شاملة ، وأن يواجهوا هذه المشاكل ويحلوها حلا بقوانين ومبادىء ، لا بأمر جزئى ولا برأى فرعى . فأعانتهم العلوم فى ذلك العصر على هذا كله ، ولولا العلوم ما استطاعوا فرأينا أبا يوسف فى كتابه « الخراج » يضع النظام المالى لدولة الرشيد فيقرر نظام الأرض ومسحها ، وما يؤخذ منها وكيف يكون ذلك ، ويضع نظام الضرائب غير الأرض مما يخرج البحر ونحوه ، ويضع نظام الرىّ من الآبار والأنهار . ونجد الأئمة الأربعة وغير الأربعة يجتهدون فى وضع القوانين من مالية وجنائية وما يسمى بالأحوال الشخصية ، وغير الفقهاء يضعون نظما إدارية كنظام الشرطة والجند والجيش ، وقد تتعارض نظم الفقهاء مع نظم الاداريين فينظر فى التوفيق بينهما ، وتوضع نظام البريد والمصانع والتجارة ونحوها ، كل هذه حركات كانت فى الدولة العباسية نشطة قوية ، وكانت خاضعة فى مبادئها للقواعد الأساسية للاسلام. وبذلك نستطيع أن نقول إنه فى هذا العصر قُنّن الاسلام وأصبح هو النظام لحكومة ممدّنة ـ بالمعنى العصرى ـ نعم كان هناك خروج عن الاسلام فى بعض التصرفات ، وكان هناك نقص فى تنفيذ الأحكام القضائية ، وكان هناك نقص فى إعطاء الأحكام الفقهية سلطةَ القانون ، ولكن هذا لا ينقض ما ذكرنا من أن الروح العامة ـ فى التشريع ووضع النظم ـ كانت تتقيد بأصول الاسلام وأنه لولا اشتغال المسلمين بالعلم فى فروعه المختلفة ما كان يمكن ذلك

وهذا الاسـلام بتعاليمه ونظم حكمه أظلّ كل الأمم الاسلامية على اختلاف أنواعها من آريين وساميين وحاميين يخضعون لسلطانه ، ويجرون فى نظامهم وقضائهم ومعاملاتهم على ما قنّن من أحكامه ومن أجل هذا أخذت الفروق بين الأمم تتقلّص ويحل محلها وحدةٌ اسلامية . ومن أجل ذلك أيضاً كانت هذه الوحدة متجلية فى العصر العباسى أكثر مما كان

فى العهد الأموى ، ودخل الاسلام فى الحياة العامة وفى السياسة وفى الادارة ، وتأثر التشريع بعادات الناس ، وتأثرت عادات الناس بالتشريع .

كان الاسلام ديناً فى مكة ، وكان ديناً وحكما فى المدينة ، وكان ديناً وحكما ومدنية فى بغداد وسائر المملكة الاسلامية فى العصر العباسى. ولعل هذا من الأسباب التى دعت إلى دخول كثيرين فى الاسلام فى ذلك العصر ، فقد كان الناس يتنفسون اسلاماً أينما حلوا ، فى البيت ، فى الشارع ، فى المحكمة ، فى المعاملات التجارية ، فى الضرائب ، فى التعليم ، فى كل مرافق الحياة .

* * *

وبعد فقد كان للاسلام ثقافة واسعة من تفسير للقرآن واشتغال بالحديث وتشريع للأحكام ، ولكن محل ذلك كله الكلام فى الحركة العلميـــة إن شاء الله .

الفصل السادس

امتزاج الثقافات

هذه الثقافات التى ذكرنا من فارسية وهندية ، ويونانية وعربية ومن يهودية ونصرانية واسلام ، التقت كلها فى العراق فى عصرنا الذى نؤرخه . ولكن كل ثقافة فى أول أمرها كانت تشق لنفسها جدولا خاصاً بها يمتاز بلونه وطعمه ، ثم لم تلبث الا قليلا حتى تلاقت ، وكونت نهراً عظيما تصب فيه جداولُ مختلفة الألوان والطعوم ، مختلفة العناصر

والعلماء — على اختلاف أنواعهم — لم يكونوا كلهم يستسيغون ماء النهر الأعظم ، ولا يذوقون طعمه ، فكان منهم من يخرج الى بادية العراق يَرِدُ الجدول العربى صافياً قبل أن تكدره الحضارة ، يستقى منه ما شاء أن يستقى ، ويعود الى الحضر وقد تزود بما استساغه من ماء يعيش عليه ولا يشرب الا منه ، واذا استُسْقى فلا يَسْقى الا منه . أولئك أمثالُ الأصمعى الذى حفظ — كما يقولون — اثنى عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب ، وحفظ الكثير من قصائدهم ونوادرهم ولغتهم ، وتخصص لذلك يؤلف فيه ويعلم فى المسجد ويحاضر الخلفاء والولاة وأمثالهم وكأبى زيد الأنصارى الذى يجيد نوادر اللغة وغريبها . وكحمّاد الرّاوِيه وخَلَف الأحمر والمفضّل الضّبّى وأبى عمرو الشّيبانى ومحمد ابن سلّام الجُمَحِى ، فهؤلاء كانوا لا يعجبهم الا الجدول العربى ، يرحلون اليه ويأخذون منه ، وينقلون فى قبائله ، ويروون شعره ولغته وأدبه ، ويقصون نوادره مهما نَضَبَ ، ويحثّون كل شىء له . ثم يذهبون الى العراق يعلنون عن مائه ، وينشرون بعذوبته وصفائه ، فان عرض لهم ماء من جدول

آخر عافوه واستكرهوه ومجّه ذوقهم ،

ومنهم من كان لا يحب إلا الجدول اليونانى ، يتعلم كتبه ولغته ، ويستلهم مؤلفاته ، ولا يرى العمل إلا فيه ، ولا الحكمة إلا صادرة عنه ومقتبسة منه ، كأطباء السريان فى ذلك العصر ، وهكذا

ومن الناس من يستقى من جدولين ، يَرِد هذا مرة وذاك مرة ، حتى إذا علّ ونهلَ ملأ منهما كلّ آنيته ، وعاد فمزج العنصرين وكوّن منهما شراباً جديداً يستسيغه الناس فيُعْجَبون به ويستطعمونه ؛ كالذى فعل أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى فهو مولًى فارسى ، اطّلع على آداب الفرس وأخبارها وملوكها وحكمائها ومحاسنها ومساويها ، وعرف أخبار العرب وقبائلها ولغتها وأقاصيصها وحقائقها وخرافاتها ، وروى أيام العرب التى يتناقلها المؤرّخون إلى اليوم فكان واسع الاطلاع فى الأدبين — العربى والفارسى — وكان يجلس إلى الناس فيحدث بأخبار هؤلاء وهؤلاء ، ويقارن بين مفاخر العرب ومفاخر الفرس ، ويؤلف الكتب فى هذا وفى ذاك ، يؤلف فى « فضائل الفرس » و « مآثر العرب » ومثالبهم فطالع على الناس بثمارين فى وعاء واحد ، فكرهه من تعصّب للعرب ، ورأوا ماءه ليس صافياً ، ولا طعمه بالذى ألفوه وأعتادوا الرّى به وأحبه من ينزع إلى الفرس كالمَوْصِلى وأبى نواس ، ومن يفسح صدره لكل علم وخبر ، ويرى الحكمة ضالة المؤمن ينشُدُها حيث وجدها كالجاحظ

ومنهم من ثقف بأكثر من ثقافتين ، وتأدب بأكثر من أدبين كما سيأتى بيانه

وفى الحق ، أن الجدول العربى كاد يكون مستقى الناس جميعاً ، إذا نحن استثنينا طائفة من السريانيين الذين يثقفون بالثقافة اليونانية ، أو المجوس الذين تأدّبوا بالآداب الفارسية ، ويدينون بالديانة الزردشتية وأمثالهم ،

أما غير هؤلاء فكانوا يأخذون بحظ من الجدول العربى قل أو كثر ، ذلك لأن الدولة السياسية عربية بخلفائها ولغتها ودينها ، ودولة الأدب عربية ، فلا يحيا فيها إلا ما كان عربياً ، فاضطر كل ذى أدب وكل ذى علم ، وكل ذى لغة أن يتعلم اللغة العربية ، يصوغ فيها أفكاره وأدبه وعلمه . فمن تبحّر فى العلوم اليونانية وجب أن يُخْرِج ما علم إلى اللغة العربية . ومن تأدب بالأدب الفارسى فلا قيمة له إلا أن يخرج أدبه باللغة العربية . وإذا كان رياضياً هندياً ، أو طبيباً هندياً فليس له حظوة إلا أن يعرّب ما علم . وهكذا . لذلك كان هذا الجدول مورداً عاماً للأدباء والعلماء ، وكان من ذلك أن قوماً وفروا جهدهم له ، يتبحرون فيه ولا يستقون إلا منه . وقوماً تبحروا فى غيره ، ولكن اضطروا إلى وروده فوردوه ، يستعينون بمائه على إساغة ماعندهم للناس .

* * *

وهنا يعترضنا سؤال لا بد منه ، وهو : أىّ أنواع الثقافات كان أكبر أثراً وأشد نفوذاً وأقوى سلطاناً ، الثقافة العربية بما لها من لغة وأدب ودين ؟ أم الثقافة الفارسية بما لها من نظام وأدب ؟ أم الثقافة اليونانية بما لها من علم وفلسفة ؟ وإن شئت وضعت السؤال بهذه الصيغة : أىّ الثقافات كان أكثر تأثيراً فى الثقافة العربية ، ألثقافة الفارسية ، أم الثقافة اليونانية ؟ نعم ، كلتا الثقافتين لونت الثقافة العربية بلون ما كان يكون لولاها ، ولكن أى اللونين كان زاهياً ناصراً ، وأيهما كان ضعيفاً شاحباً

ذلك سؤال عويص ، ولكن يظهر لى أن أسد طريق ألا نجيب إجابة مطلقة ، وأن نقول إن كل ثقافة من هذه الثقافات كانت لها « منطقة نفوذ » لا يكاد تزاحمها فيها الثقافة الأخرى ، فالعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك وطب وما إليه وفلسفة وما إليها كانت منطقة النفوذ

اليونانى ، تزاحمها فيها الثقافة الهندية ، ولكن مزاحمة غير عنيفة . وأساس هذه الأشياء كلها عند المسلمين هو الأساس اليونانى ـ وإن كان بعض أركانه هندياً ـ والمنهج الذى اتبع فى هذه العلوم منهج يونانى فى منطقه وطريقة تأليفه ، وما علق عليه من شروح وكتب هذه العلوم عليها مسحة خاصة هى غير المسحة الأدبية ، وهى غير المسحة الجغرافية والتاريخية ، هى مسحة يونانية بحتة ، لأنها تأثرت كل التأثر بما ترجم من اليونان ، وظلت حافظة لشكلها ، حتى بعد أن ألف المسلمون فيها وقد بدأت الرياضة الهندية والفلك الهندى تدخل فى ثنايا ما ألف المسلمون فى هذه العلوم ، ولكنها ما لبثت أن ذابت .

أما الأدب فلم يتأثر كثيراً بالأدب اليونانى ، وهذا ظاهر فيما ألف من الكتب فى هذا العصر ، فمنهجها غريب لا يتصل بسبب الى المنهج اليونانى ، فلا أثر للترتيب المنطقى فيه ولا ترى وحدة للكتاب ولا للباب ، كما رأينا فى كتاب الكامل للمبرد ، وكما نرى فى البيان والتبيين للجاحظ ، إنما هى جزئيات جمعت حيثما اتفق ، هى أشبه بسمر العلماء فى المجالس فأما موضوع واحد يرتب فيه كل ما يراد أن يقال وتسلسل أفكاره ، وتسلمك أوله الى آخره بالتدريج ، كما يفعل العقل اليونانى ، فذلك ما لا نجده فى كتب الأدب العربى .

هذا من ناحية الشكل ، وأما من ناحية الموضوع ، فإن ما فيها من أدب شرقى فارسى أو هندى أكثر مما فيها من أثر يونانى ، ففيها الحكم عن أردشير وبزرجمهر أكثر مما عن أفلاطون وأرسطو ، وفيها نظام الحكم الفارسى لا نظام الحكم اليونانى ، وفيها تصور للعدل وطبقات الناس ، كما يتصوره الفرس وفيها توقيعات الملوك وقصصهم مع رعيتهم على النحو الفارسى لا النحو اليونانى ، وعلى الجملة فنفوذ الفرس فى الأدب أكثر من

نفوذ اليونان، وقد حاولنا فيما سبق بيان السبب فى ذلك

ومما يجب التنبه له أن كثيراً من حاملى لواء الأدب فى ذلك العصر، من شعراء وكتاب كانوا من أصل فارسى من ناحية الأبوين معاً أو أحدهما ثم تعلموا اللغة العربية وحذقوها فكان تجديدهم للأدب مديناً للفرس والعرب معاً، فأدخلوا على الأدب العربى عناصر جديدة لم تكن فبشّار الفارسى يخترع تشبيهات جديدة لم يستعملها العرب، وأبو العتاهية زعيم الشعر الدينى والسابق اليه من الموالى، وأبو نواس المتخصص فى الخمر وما اليه، والفاتح للناس باباً من الهجاء لم ينحوه من قبل هو نصف فارسى وكذلك الشأن فى الكتّاب وما أدخلوا من أسلوب، كابن المقفع وسهل بن هارون، كل هؤلاء كانوا من أصل فارسى أو ما يقرب منه فما أنتجوه ـ من غير شك ـ نتاج للأصل الفارسى والثقافة العربية، وملوّن بالحياة الاجتماعية التى كان يعيشها العراق وقلّ أن نجد من هؤلاء الأدباء من كان من أصل رومى، يتلون بلون الروم ويتثقف ثقافتهم، وإذ كان الأدب العباسى أساساً كبيراً من أسس الأدب جرى الناس بعد على منواله وحذوا حذوه وإذ كان من ساهم فى هذا الأساس هم الفرس لا اليونان، أمكننا أن نستنتج أن نفوذ اليونان فى الأدب العربى ضعيف

ثم من الحق أن نقول إن نفوذ العرب فى أدبهم ـ وخاصة فى شعرهم ـ كان أقوى من أى نفوذ آخر، فقد ظل الشعر حافظاً لأوزانه الجاهلية وتقاليده إلى عصرنا هذا، ولم تستطع أمة بنفوذها مهما عظم أن تحوله. وكل ما قلنا من أثر فارسى، فإنما كان فى بعض العناصر ـ التى تصب فى القالب ـ لا فى القالب نفسه، وأبو نواس يحاول أن يخرج على الجاهليين، ويقول.

صِفَةُ الطُّلُولِ بَلَاغَةُ الْقِدَمِ   فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لِابْنَةِ الْكَرْمِ

ولكنه ـ مع هذا ـ لا يستطيع أن يتحرر من قيوده، ولو فعل لما قرىء

ولا سمع . ويصف الجاحظ شعور الناس ـ فى عصره ـ نحو الشعر الجاهلى والتراث الجاهلى ، فيقول « إنهم يفضلونه على الشعر الاسلامى ، وهم به أكثر ولوعا ، وأشد تقديراً » ويقول « انهم يعدون حاتماً أجود العرب ، ولو كان الأمر مفوضاً الى تقدير الرأى لكان ينبغى لغالب بن صعصعة أن يكون من المشهورين بالجود ، دون هرم وحاتم فان زعمت أن غالباً كان اسلامياً ، وكان حاتم فى الجاهلية ، والناس بمآثر العرب فى الجاهلية أشد كلفاً فقد صدقت[1] » ويقول « ان أيام الاسلام ورجالها لم تكن أكبر فى النفوس ، وأجل فى الصدور من رجال الجاهلية مع قرب العهد . ومع الاسلام الذى شملهم ، وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم[1] » كل هذا جعل تأثير الأدب الجاهلى فى الأدب الاسلامى شديداً قوياً ، وجعل الاسلاميين يحتذون حذوه ولا يخرجون ـ كثيراً ـ عن قيوده فلئن كان الثقافات الأجنبية فى العلوم واضحة الأثر فأثرها فى الأدب خفيف ، ولو كان شديداً قوياً لأدخلوا على بحور الشعر الجاهلية بحوراً فارسية او يونانية ولتحرروا أحياناً من القـــافية ، ولأدخلوا ضرب الشعر القصصى والتمثيلى ولرسموا طريقة جديدة لنهج القصيدة ، فلم يتقيدوا ببكاء أطلال ولا وقوف على ديار ، ولهجروا الغزل الطويل يدخلون به على مدح الممدوح ولفعلوا كثيراً من أمثال ذلك ولحدثت ثورة فى الشعر والأدب ، فنقلته نقلة جديدة كما حدث فى العلوم نعم ، حدث تغيير من دخول بعض الفنون الشعرية ، واصطباغها بصبغة الحياة الاجتماعية ونحو ذلك ، ولكنه تغيير خفيف ، لا يكاد يرى الا بالمجهر . كم بين طب العرب فى الجاهلية وطب حنين بن اسحق وبختيشوع من فرق ! وكم بين نظر العربى إلى الأنواء والنجوم ونظر نوبخت ! بل كم بين ما روى من فقه عن ابن مسعود وما روى عن محمد بن الحسن ، ونحو

---

١ حيوان ١ : ٣٧

أبى الأسود الدؤلى كما يروون ونحو سيبويه ! . ولكنك لا تجد هذه المسافات الواسعة بين الشعر الجاهلى والشعر الاسلامى والعباسى .

وعلى الجملة فقد كانت نواحى التأثير ومصادره ومقداره مختلفة اختلافاً كبيراً وعلى أشد ما يكون من دقة ، إن أنت حاولت أن تعبر عن ذلك بأرقام حاسبك فوتك ، ولم تجد سبيلا لذلك كل ما نستطيع أن نقوله ان طبيعة الثقافة اليونانية عقلية منطقية ، تحاول أن تجعل لكل شىء مقدمات ونتائج . وهذا الضرب تجلى عند المسلمين فى الرياضيات والفلسفة وما اليهما ، وأتت هذه الأشياء فى العهد العباسى ومواضعها خالية ـ تقريباً ـ فكان من السهل أن نصبغ بالصبغة اليونانية من غير كبير مزاحمة ، وطبيعة الثقافة الفارسية على ما وصلت الينا فلسفة عملية ، من حكم تصاغ حول العدل والظلم ونظام الحكم ، ونحو ذلك مما تراه فى الأدب الكبير والصغير لابن المقفع ، ليس فيها مجال كبير للنظريات كما هو الشأن عند اليونان ، ولكن تجارب عمليه تجرب فتصاغ فى قالب حكمة أو مثل وهذا النوع استساغه العرب فى أدبهم لأنه أشبه بأمثالهم ، وطبيعة الثقافة الهندية مزيج من حكمة ، كالتى قلنا فى الفرس تتجلى فى مثل كليلة ودمنة ، ومن نظريات فلسفة ورياضية كالتى عند اليونان ، ولكن يلاحظ البيرونى أنهم لا يجيدون تعليلها ، ولا البرهان عليها ـ كما يفعل اليونان ـ وطبيعة الثقافة العربية الأدبيه لسانيه ، أبين شىء فيها جمالها الفنى ، وأنها بنت البديهة وسجية السليقه ووليدة الفطره ، وهذا هو السبب فيما حكى الجاحظ ، اذ يقول « وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن . مع أنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم ، التى وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم »[1] ، وسبب ذلك أن أسهل شىء فى الترجمة

المعانى المحددة ، وأصعب شيء جمال الأسلوب ، وإذ كانت طبيعـــة الأدب العربى ما بينا كان نقله أصعب نقل ، وكان أداؤه بلغة غير اللغة العربية ذاهباً ببهجته ، مضيعاً لجماله .

عمل على نشر نتاج هذه الطبائع المختلفة قوم مختلفون فوزراء العباسيين ومن نحا نحوهم يؤيدون الثقافة الفارسية ، ومدرسة جنْدَيْسابور وما تفرع منها تؤيد الثقافة اليونانية ، والعرب والأدباء وعلماء اللغة والنحو يؤيدون الثقافة العربية ، وأطباء الهند يؤيدون الثقافة الهندية ، وقد نشر هؤلاء جميعاً فى الجو هذه الثقافات المختلفة ، يتنفس كل منها حسب ميوله واستعداده ونوع تعلمه ، وكان الوزراء والكتاب أكثر الناس ثقافة فارسية عربية، وكان أطباء القصور النساطرة أكثرهم ثقافة يونانية عربيــة ، وكان المتكلمون — على ما يظهر — أكثرهم ثقافة من كل نوع ، يقول الجاحظ . « والمتكلمون يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبى الله ذلك »[٢]

وفى الحق ، إن المتكلمين كانوا أكبر عامل من عوامل المزج بين الثقافات المختلفة، من نواح متعددة فقد كانوا بطبيعة موقفهم الذى شرحناه قبل من دعوة إلى الاسلام مضطرين أن يطلعوا على الأديان الأخرى . من مجوسية ويهودية ونصرانية وكانت اليهودية والنصرانية قد تسلحت بالفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى . فاضطر المتكلمون أن يتسلحوا بنفس سلاحهم ، فكانوا أولَ من أدخل الفلسفة اليونانية فى الاسلام ، وكان المتكلمون حلقة الاتصال بين مَن قبلهم من المسلمين الذين وقفوا عند نصوص القرآن والحديث وبين من أتى بعدَهم من فلاسفة المسلمين كالفارابى وابن سينا وابن رُشْد ، وكان موقفهم جديداً لأنهم سلكوا غير طريق السلف وتعرضوا لمسائل كثيرة

---

[١] الحيوان ١ : ٣٨ [٢] حيوان ٤ : ١٦

لم يتعرض لها من قبلهم. فقام فى وجوههم طبقة المحافظين، وعلى رأسهم رجال الحديث، وكانت حرب عوان نشرحها عند الكلام فى المتكلمين إن شاء الله.

كذلك كانوا صلة بين الفلسفة اليونانية والأدب. فقد تثقفوا ثقافة يونانية ـ كما رأينا ـ وتثقفوا ثقافة عربية من لغة وأدب، ومزجوا الاثنتين مزجاً تاماً. رأوا معانى يونانيـة وأسماء يونانية، فوضعوا لها كلمات عربية. كما أنهم ـ لدعوتهم إلى الاسلام ـ مضطرون أن يتخيروا خير الألفاظ وخير التعبيرات، فمرنوا على الخطابة والبلاغة، ووضعوا أسسها كما وضعوا أساس آداب البحث والمناظرة، قال الجاحظ «كان كبار المتكلمين ورؤساء النظارين فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم. فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا العَرَض والجوْهر وأيس وليس، وفرّقوا بين البُطلان والتلاشى، وذكروا الهَذِيّة والهُوِيّة والماهية، وأشباه ذلك»[1]

وقدموا معانى للأدباء والشعراء لم تكن معروفة من قبل، كما قدموا لهم تعبيرات لم تكن. يقول أبو نواس

تَكِلُّ عن إدْراكِ تحصيله ... عُيونُ أوهامِ الصَّمَاديرِ
تنتسبُ الألسنُ من وصفه ... إلى مَدَى عجزٍ وتقصير

ويقول

تَنَازَعَ الأحمدان الشِّبْه فاشتبها ... خَلْقاً وخُلْقاً كما قُدَّ الشِّرَاكان
إثنان لا فَصْلَ للمعقول بينهما ... معناهما واحد والعِدَّة اثنان

ويقول

كَمَنَ الشَّنآنُ فيه لنا ... ككُمُون النار فى حَجَرِه

---

[1] البيان والتبيين ١ : ٦١

ويقول أبو تمام :

جَهْمِيَّة الأوصاف الا أنهم قد لقبوها جَوْهَرَ الأشياء

وقال سعيد بن حُمَيد :

قد قلتُ بالعدْل ولكنني عدلت فى الحبّ عن العدلِ

فقلت بالاجبار مستغفراً لله من قولى ومنْ فعلى

ويقول ابن الرومى :

مَا عذْر مُعْتَزِلِيّ مُوسِرٍ مَنَعَتْ كَفّاهُ مُعْتزِلِيًّا مِنْهُ صفَدَا

أَيَزْعُمُ الْقَدَرُ الْمَحْتُومَ يَبْسُطهُ إنْ قال ذاكَ فَقَدْ حلّ الذى عَقَدَا

ويقول الناشىء يفتخر بالكلام والمتكلمين :

وَنَحنُ أُناسٌ يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنَا بِأَلْسُنِنا زِينَتْ صدُورُ المَحَافِلِ

نُنِيرُ وُجُوهَ الحقّ عِنْدَ جَوابِنَا إذا أظْلَمتْ يوماً وُجُوهُ المَسَائِلِ

صَمَتْنَا فَلَمْ نَتْرُكْ مَقالاً لِصَامِتٍ وَقلْنَا فَلَمْ نَتْرُكْ مَقالاً لِقَائِلِ

ويقول أبو نواس :

وَذات خَدّ مُوَرَّدْ قُوهِيَّــة المتجردْ

تأمَّلُ العَيْنُ مِنْهَا مَحاسِنًا لَيْسَ تَنفدْ

فَبَعْضُهَا قَدْ تَناهَى وَبَعْضُها يَتَوَلَّدْ

والحُسنُ فى كلّ عضوٍ مِنْها معادٌ مردَّدْ

ويقول :

تَرَكْتُ قَلْبِى قَلِيلاً مِنَ القَلِيلِ أَقَلاَّ

يَكادُ لا يَتَجَزَّا أَقَلُّ فى اللفظِ مِنْ لا

إلى كثير من أمثال ذلك .

وعلى الجملة كان المتكلمون صلة لأشياء مختلفة ، كانوا صلة بين الأديان بعضها وبعض ، وصلة بين الفلسفة والدين ، وصلة بين الفلسفة والأدب . فلو قلنا إن المتكلمين كانوا من أظهر القائمين بعملية المزج لم نبعد عن الصواب .

***

ولئن كان المتكلمون هم الصلة بين اليونان والمسلمين ، فقد كان الفرس المتعربون صلة بين الفرس والعرب ، مزجوا ما نشئوا عليه من أدب فارسى بما تعلموا من أدب عربى ، مزجوا القصة الفارسية بالقصة العربية كما فى ألف ليلة وليلة ، وغيره ، ومزجوا الحكم الفارسية والتشبيهات الفارسية بالحكم والتشبيهات العربية . « كان كسرى أنو شروان مشتهراً بالنرجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض ، على زمرذ أخضر » فيقول الشعر العربى :

وياقُوتَةٍ صَفْرَاءَ فِى رَأْسِ دُرَّةٍ مُرَكَّبَةٍ فِى قَائِمٍ مِنْ زَبَرْجَدِ
كَأَنَّ بَقَايَا الطَّلِّ فِى جَنَبَاتِهَا بَقِيَّةُ دَمْعٍ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وكان أردشير بن بابك يصف الورد ، ويقول : « هو دُرٌّ أبيض ، وياقوت أحمر ، على كرسى زبرجد أخضر ، توسطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة الخمر ونفحات العطر » فيقول محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأَنَّهُنَّ يَوَاقِيتٌ يُطِيفُ بِهَا زُمُرُّذٌ وَسْطَهُ شُذْرٌ مِنَ الذَّهَبِ
فَاشْرَبْ عَلَى مَنْظَرٍ مُسْتَظْرَفٍ حَسَنٍ مِنْ خَمْرَةٍ مُزَّةٍ كَالْجَمْرِ فى اللَّهَبِ

ويضع الفرس الأساطير فينحو العرب نحوهم ، فقول العرب فى العنقاء يشبه قول الفرس فى « سيمرغ » ومن أساطير الفرس أن مسكن السيمرغ على الشجرة التى تقى كل البذور ، وهى فى المحيط الواسع على مقربة من شجرة الخلد ؛ تجتمع عليها البذور التى أنتجتها النباتات كلها

طول السنة »[١]

ولا تزال تنتقل الأسطورة بين العرب ، حتى يدخلها الفيروزابادى فى القاموس المحيط فيقول : والجزائر الخالدات ، ويقال لها جزائر السعادة ست جزائر فى البحر المحيط من جهة المغرب ، منها يبتدىء المنجمون بأخذ أطوال البلاد تنبت فيها كل فاكهة شرقية وغربية وريحان وورد ، وكل حب من غير أن يغرس أو يزرع »[٢] ويقرأ القارىء الشاهنامه ، وما فيها من أساطير فتوحى اليه بمقارنات ومشابهات بينها وبين الأساطير العربيـــة لا تكاد تحصى . كأسطوره « اردهاك » وهو روح شريره فى الأســـاطير الآرية ، وفى الأبستاق هو شيطان يمنع ماء السحاب أن ينزل الى الأرض ، وعند الفرس ملك ظالم جبار يتمثل فيه الشر كله .

وتتحول الكلمة فى العربية الى الضحاك ، ويزعمون أنه عربى من اليمن ويفتخر به أبو نواس فى قصيدته التى يفخر فيها بقحطان على نزار فيقول

وكان منّا الضحاك يعبده الـــخابل والطير فى مساربها[٣]

ويقول صاحب القاموس والضحاك رجل ملك الأرض،وكانت أمه جنية فلحق بالجن ، الخ

وينتقل مذهب تناسخ الأرواح من الهند ، فينتشر فى العراق ، ويدعو اليه علاة الشيعة وبابك الخرّمى وأصحابه

وهكذا تمتزج فى العراق كل الثقافات ، وتتداول كل الآراء ، وتعرض كل الآداب فيروى الأغانى « أنه كان فى مسجد البصرة حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون فى المقالات والحجج فيها[٤] ، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب

---

١ انظر الشاهنامه والنعالبى عليها ص ٥٦ ٢ القاموس مادة ج زر

٣ انظر ملحقات الشاهنامه ص ٢٥ وما بعدها ، والخابل الجن .

٤ ١٢ ١٣٨

وهكذا وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من أجناس مختلفة، وديانات مختلفة وآراء مختلفة، وكانوا يتلاقون في المسجد وفي المنازل، وفي قصور الولاة والخلفاء، ويتجادلون ويتحاورون، يخرج الجاحظ صباحا الى المسجد لطلب الحديث، ويلتقى بعد بحنين بن اسحق وسلمويه، ويلقى النصرانى واليهودى فيجادلهما، ويلقى البدوى العربى فيأخذ عنه يتقابل أصحاب الديانات فيحكى كل ما ورد فى كتبه عن خلق العالم، ويتجادلون فى رؤية الله هل تكون أو لا تكون؟ وفى صفات الله هل هى زائدة على الذات أو لا؟ على حين يتجادل الآخرون فى أى الأمم خير، ويتعصب هذا للعرب وهذا للعجم، وغير هؤلاء فى لغة وفى أدب، ويقارن العلماء بين اللغات المختلفة والآداب المختلفة فكان من هذا كله حركة عنيفة، لم تدع نوعا من المذاهب والأديان واللغات والآداب يعيش وحده، بل لم تدع جزءا من الاجزاء إلا مزجته بأجزاء أخرى حتى صعب على الباحث أن يرد الأشياء الى أصولها، ولم تكن هذه العملية كعملية مزج الزيت بالماء، يعود كل عنصر ملتئما مع نوعه مفارقا لغيره، ولكنه كامتزاج السكر بالماء، أو نفحات الأزهار بالهواء، تمتزج فتتسق أبداً، وتتلاقى فلا تفترق أبداً وكذلك كانت الثقافات، التقت فى هذا العصر فكان أول تلاق، وصارت على توالى العصور أشد تلاقياً، وأكثر امتزاجاً.

وكان للاسلام أثر كبير فى هذا الامتزاج، فان من أسلم من الأمم الأخرى — وأعنى الخاصة — يرى أن لا يكمل دينه، ولا يقوى ايمانه الا اذا قرأ القرآن ودرسه. فكان ذلك يدعوه الى تعلم العربية والتفقه آدابها، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية وثقافته العربية وفى هذا مزج — على الأقل — لثقافتين، وجمع بين عقليتين. فكثير من الفرس تعربوا، وكثير من الروم والهنود تعربوا، وكثير من الأنباط تعربوا ومعنى تعربهم أنهم أفسحوا رءوسهم

وألسنتهم لثقافة عربية ، تتراوح مع ما نشئوا فيه وشبوا عليه ، وأفسحوا صدورهم للاســـلام ليحل محل دين ولدوا عليه ، وعاشوا حينا فى شعائره وتقاليده كل هذا وذاك كان سببا فى التراوح والانتاج ، ومن أجل هـذا لا تكاد ترى فى هذا العصر ثقافة مدنيـــة أو دينية عاشت وحدها فى عزلة عما حولها ، بل كان كل مؤثراً متأثرا ، وفاعلا قابلا ، وإن اختلفت ـ فيما بينها ـ فى مقدار فاعليتها وانفعالها ، ونواحى تأثيرها وتأثرها

وبعد ، فإن نحن أردنا أن نختار من يمثل هذه الثقافات ممتزجة لا نجد خيراً من الجاحظ وابن قتيبة وأبى حنيفة الدينورى كل واسع الاطلاع غزير العلم ، كثير التأليف ، نال حظا وافراً من نواحى العلوم المختلفة ، أولهم زعيم المتكلمين من المعتزلة ، وثانيهم زعيم أهل السنة ، وثالثهم زعيم علماء النبات كل أديب وعالم ولغوى ومؤرخ وعلى الجملة فـكانوا هم ثلاثتهم « دائرة معارف » زمانهم ، نستطيع إذا ألممنا بكتبهم أن نعرف أى شىء من العلم كان فى عصرهم وأى شىء لم يكن وهم مع هذا كله مختلفون تمـام الاختلاف طعما وذوقا وروحاً وعقلية ونظراً إلى الحياة ، كما سيتضح عند الـكلام فيهم ولسنا نريد أن نتوسع فى تاريخ حياتهم ، ولا تحليل كـــل كتبهم ، ولا الإحاطة بكل نواحيهم ، فذلك ما لا يسعه كتاب كهذا وإنمـــا نتكلم من الناحية التى قصدنا إليها فحسب وهى أنهم يمثلون الثقافات ممتزجة وجداول العلم مجتمعة ونختار من كتبهم أدلها على ذلك العرض ، وأوفاها لهذا المقصد.

الجاحظ ـــ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الـكنانى ، والأرجح أنه كنانى بالولاء . لا كنانى صليبة فقريب الجاحظ ـ وهو يَمُوت بن المزرّع ـ يقول « الجاحظ خال أمى ، وكان جد الجاحظ أسود يقال له فزارة ، وكان جمالا لعمرو بن قلع الـكنانى »[١] وقد اختلف فى تاريخ مولده ولـكنهم

---

١ [illegible] ادباء ٦ ٥٦

يكادون يتفقون على تاريخ وفاته وهو ٢٥٥ هـ وأنه عُمِّر نحو ٩٦ عاماً فيكون ميلاده حول سنة ١٥٩ هـ ولد بالبصرة وأخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري. وأخذ النحو عن الأخفش. وأخذ الكلام عن النظام وكان يذهب إلى مِرْبَد البصرة يأخذ عن العرب شفاهاً وأولع بالقراءة فقالوا إنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان. وكان يكترى دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر) تثقف الثقافة العربية من المِرْبَد. ومن علمائها أمثال الأصمعي وأبي زيد وأتته الثقافة اليونانية من طريق علماء الكلام ومشافهة حنين بن إسحق وسَلْمُويه وأمثالهما وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وأخذه عن أبي عبيدة، وتوسّع في الثقافات كلها بما كان يقرأ من الكتب كلها ولد في خلافة المهدي، وكان صبياً في خلافة الهادي. وأيفع خلافة الرشيد وهو شاب، وشاهد الصراع بين الأمين والمأمون، وكان ناضجاً وقت سلطة المعتزلة في عصر المأمون، واتصل بما كان في أيامه من حركة علمية وفلسفية في كل ذلك شاهد سلطان الفرس وعلمهم، وشاهد في أيام المعتصم سطوة الترك، وحلولهم محل الفرس، كما شاهد دولة الواثق وسَيْره سيرة المعتصم والمأمون في مناصرة الاعتزال، وحضر دولة المتوكل وقد هزم المعتزلة وأبطل دولتهم ومرت عليه دولة المنتصر والمستعين والمعتز وهو يعاني الفالجَ والنقرس، إلى أن مات في خلافة المهتدي بالله. فتاريخ الجاحظ تاريخ قرن كامل، وهو زهرة الدولة العباسية، وقل أن نعلمَ أحداً من أحداثنا ما نعلم الجاحظ أحسَّ بؤس الفقراء فقد نشأ فقيراً، حتى يحكي من رآه يبيع الخبز والسمك بسَيْحان، ويخالط العلماء على اختلاف مذاهبهم ومناحيهم ثم يكون كاتباً وقتاً قصيراً ويعرف ثقافة الكتّاب ودخائلهم ويعنى بما ألف، فتكون له صبغة تنسب إليه، ويقتني مالاً وبيتاً يجرب فيه زرع شجر الأراك، ويعنى بأبوابه حتى يختار لتركيبها أمهر النجارين.

ويقتني من العبيد من سبق أن خدم الملوك [١] ويتصل بالوزراء أمثال محمد بن عبد الملك الزيات ، ويتنقل في البلاد فيعيش في بغداد زمناً ، ويرحل الى دمشق وانطاكية . كل هذا أورثه نوعا من الثقافة قيما ، ليس من نوع ما يؤخذ من الكتب والدفاتر ، أورثه معرفة بطبائع الناس وأخلاقهم ، وطرق معايشهم وفضائلهم ورذائلهم . وكان الجاحظ على استعداد تام لهذا النوع من الثقافة فنال منه حظا وافراً — وكما كان حسن الاستعداد فى الأخذ منه ، كان كذلك فى العطاء ، فمن أكبر ما تمتاز به كتبه أنه يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ، ويجعلك تلمسها وتذوقها — على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية — فاذا أنت قرأت « الكامل » أو « أمالى القالى » أو « عيون الأخبار » لم تحس فيه شيئاً من ذلك . ومن أجل هذا كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارس الحياة الاجتماعية فى عصره .

كَتَبَ الجاحظ فى كل موضوع تقريباً من المعلمين الى بنى هاشم ، ومن اللصوص الى الذئاب ، ومن الكلام فى صفات الله تعالى الى القيان ، ومن القضاة والوُلاة إلى أمهات الأولاد ، ومن الامامة الى الحُور والعُور . فان نحن قلنا إن كتبه « دائرة معارف » لزمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس . كان ذلك صواباً . وللجاحظ أسلوب يمتاز به ، ولا ينسب الا اليه . هو أسلوب الجاحظ ، تظهر فيه شخصيته ظهوراً تاماً ، حتى لتستطيع من غير كثير عناء أن تعرف أى الكتب له وأيها ليست له . هو فى تأليفه أنيس محاضر ، تحررَ من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجد وثقل الغموض الذى كرهه من أستاذه الأخفش ، فهو دائما يخلط جداً بهزل ، ويسيغك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويجدّ حتى اذا أعدك للبكاء رماك بنادرة تمعن منها فى الضحك ، ويأخذ بيدك حتى اذا كنت

---

[١] هذه الحقائق مأخوذة من كتابه الحيوان فى مواضع شتى

فى أصعب موضوع وأعمق قرار قفز بك فجأة الى السماء ، وحدثك حديثاً خفيفاً أنساك جهدك وعناءك ، قال المسعودى . « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه . . . . وكتبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة » [١] كما تحرر من طريقة العلماء ، فى قصر نفسه على الموضوع الذى يتكلم فيه . فالجاحظ لا يؤمن بذلك ، وأنت عرضة لأن تجد فى كتبه أدق الموضوعات وأجلها فى أتفه العناوين وأسخفها . غلبت عليه النزعة الأدبية فى كل ما كتب حتى فى الحيوان ، فهو يتخير خير الألفاظ وأحسن التعبيرات ويفر سريعاً من التحقيق العلمى الى مناحى الأدب من شعر أو حكمة أو نادرة .

ألف فى مواضيع المتكلمين مثل . كتاب خلق القرآن ، وكتاب فى الرد على المشبّهة ، وكتاب فى الرد على النصارى ، وكتاب الاعتزال ، وكتاب الامامة ، الخ . وكتب فى موضوعات سياسية تاريخية ككتاب العرب والموالى ، وكتاب العرب والعجم ، ورسالة فى فضائل الأتراك ـ بمناسبة دخول الأتراك فى جند المعتصم ـ وكتاب السودان والبيضان ، وكتاب الصرحاء والهجناء ، الخ . وألف فى الأخلاق التى كان يشعر بها فى عصره وطبقات الناس فألف كتاب البخلاء ، والسلطان وأخلاق أهله ، وكتاب الجوارى ، والحاسد والمحسود، والنساء، والاخوان ، والحزم والعزم ، والأمل والمأمول ، والاستبداد والمشاورة فى الحروب ، والقضاة والولاة ، وغش الصناعات الخ .

وألف فى النبات كتاب الزرع والنخل ، وألف فى الحيوان كتاب الأسد والذئب وكتاب البغل وكتاب الحيوان .

---

١ مروج الذهب ٢ : ٣٤٤

وفى كل هذه الكتب ـ كما يدل على ذلك ما بين أيدينا منها ـ مزج العلم بالأدب ، ولم يقتصر على ذكر البراهين المنطقية ، بل استعان بالتاريخ وبالشعر ، وبما يعرف من أحداث ، وما جرب هو بنفسه من تجاريب . ومزج ما تعلم بما قرأ ، بما سمع ، بما شاهد ، بما جرب كما مزج الشعر الجاهلى بالشعر الاسلامى ، بعلم أرسطو ، بطب جالينوس كما مزج آىَ القرآن الكريم بأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم برأى الطبيعيين والدهريين ، باليهودية والنصرانية ، برأى الزردشتيين والمانويين . وفى الحق أن هذا كله مزيج عسر الهضم ، لولا ما حظى به من أسلوب سمح فضفاض ونفس مرحة تبذر كل التقدير النادرة الحلوة ، والفكاهة العذبة

وبعد ، فخير كتبه التى يظهر فيها هذا الامتزاج واضحاً قوياً كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان

كتاب البيان والتبيين — هو كتاب فى الأدب من آخر ما ألف الجاحظ[1] . مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة أو خطبة ، ممزوجة بما له من آراء فى مسائل عدة ويذكر ياقوت أن الكتاب نسختان « أولى وثانية والثانية أصح وأجود »[2] ، ولست أدرى أية النسختين هى التى فى أيدينا .

بدأه بالتعوذ من العى ، وساق الأشعار فى ذمه وحكاية موسى عليه السلام فى طلبه من الله تعالى أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وانتقل إلى فصاحة اللسان ونعمتها ، والعىّ ورداءته ، وعاب التشديق والتقعير والتقعيب وفضّله على العىّ المتزيد والحصَر المتكلف ، واستطرد من ذلك إلى فصاحة

---

[1] من الأدلة على ذلك أنه لم يشر إليه فى ثبت كتبه فى أول الحيوان مع أن كتاب الحيوان من آخر كتبه تأليفاً كما يستفاد من كلامه وأنه ألفه وهو مريض مسن وقد أشار فى البيان والتبيين إلى كتابه الحيوان مما يدل على أنه ألفه بعده ٣ : ١٧٣ و ١ : ١٣٨

[2] معجم الأدباء ٦ : ٧٦

واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ولثغته فى الراء ، وانه كان يقول القمح بدل البر وجره ذلك إلى الكلام فى أن البر أفصح أو القمح ، وانتقل منه إلى اختلاف لغات العرب فى استعمال الألفاظ فقبيلة تستعمل عرفة وأخرى علِّية وهكذا ، ثم رجع إلى واصل وما كان بينه وبين بشار ، وذكر قصائد فى مدح المعتزله ، وإذ كان واصل ألثغ ، فقد عقب ذلك بالكلام على اللثغة والحروف التى تدخلها اللثغة والتى لا تدخلها ، واستطرد من اللثغة إلى عيوب اللسان على العموم من فأفأه وتمتمة ، ثم ما يعرض للخطيب من نحنحة وسعله ، وربط ذلك بالخطابة والخطباء من القبائل المختلفة ، وعدد كثيراً منهم ومن الخطباء الشعراء وكان أحد الخطباء الذين ذكرهم فى كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه ، فجره ذلك إلى الكلام فى الأسنان وعلاقتها بالخطابة ، والجدال فى أن سقوط الأسنان كلها أقل عيباً للخطيب أو سقوط بعضها ، ثم انتقل من ذلك إلى الكلام فى الألفاظ المتنافرة والحروف المتنافرة ، وأسلمه ذلك إلى الكلام فى اللكنة ، وعد قوم من اللكناء ، وبذلك تم الباب الأول ويطول بنا القول لو سرنا معه فى الكتاب كله نتتبع خطاه ونرصد انتقالاته ، وحسبنا أن نذكر هذا مثلا يبين الفوضى فى تأليفه ، ولا تظن أن موضوعا من هذه الموضوعات التى ذكرنا قد فرغ من الكلام فيه ، فسترى فى ثنايا الكتاب الرجوع اليه مرة بعد مرة

بعد ذلك عقد باباً للبيان ، وباباً فى ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأنبياء والفقهاء والأمراء ، ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل . ثم فصلا عرض فيه للبلاغة ما هى وباباً فى اللسان وباباً فى الصمت ، وأبواباً أخرى فى الشعر والخطب ، ثم باباً فى الأسجاع من الكلام ، ثم عاد الى الخطباء والبلغاء وبيان قبائلهم وأنسابهم . وباباً فى أسماء الكهّان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان وقال فى أول الجزء الثانى إنه أراد أن يرد على الشعوبية فى طعنهم على خطباء العرب ، ولكنه أحب أن يصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول

رب العالمين والسلف المتقدمين ، والجلة من التابعين واسترسل فى مختار من الحديث والخطب والحكم والألغاز ، وتكلم فيه فى اللحن والحمق والمجانين وكتب وصايا ونوادر لبعض الأعراب ، حتى أتم الجزء الثانى ، فاذا جاء الجزء الثالث فأوله كتاب العصا فى الرد على الشعوبية . ثم كتاب فى الزهد تكلم فيه على النساك وكلامهم وأخلاقهم ومواعظهم ، ثم باب فى دعاء الصالحين والسلف المتقدمين ، ودعاء الأعراب ، ثم مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم .

وفى كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تضبط ، واستطراد لا يحد. والحق أن الجاحظ مسئول عن الفوضى التى تسود كتب الأدب العربى ، فقد جرت على منواله ، وحذت حذوه فالمبرد تلميذه قد تأثر به فى تأليفه، والكتب التى ألفت بعد كعيون الأخبار والعقد الفريد فيهما شىء من روح الجاحظ وإن دخلها شىء من الترتيب والتبويب . ذلك أنا نرى أن الكتب التى ألفت فى العصر العباسى الأول كانت أساس التأليف ، وهى التى حددت نوع القالب الذى يصب فيه العلم ، فكتاب سيبويه فى النحو حدد الطريقة التى يتبعها النحاة فى التأليف ، وكل ما عملوا بعده أن أوضحوا أو بسطوا أو اختصروا . وكتب محمد بن الحسن الشيبانى حددت طريقة التأليف فى الفقه ، وكتب المنطق الأولى هى التى سارت عليها كتب المنطق الأخيرة ، ولما كان كتاب البيان والتبيين أول كتاب ألف فى الأدب على هذا النحو كان أثره فى الأدب كأثر هؤلاء الذين ذكرنا فى علومهم ، وكان الجاحظ مسئولا عما فيهما من نقص وعيب ، وأوضح شىء من آثار الجاحظ فى كتب الأدب إذا قورنت بالعلوم الأخرى الفوضى وكثرة المزاح . ومجون يصل الى الفحش أحياناً ، ولسنا نريد أن نحمل الجاحظ كل مسئولية فى هذا فقد تكون طبيعة الأدب نفسها داعية الى ذلك ولكن مما لا شك فيه أن الجاحظ كبير الأثر ، ولو كان قد وضع الأساس غيره لكان قد تشكل الأدب شكلا آخر .

والذى يهمنا هنا مظهر امتزاج الثقافات فى هذا الكتاب ، والحق أن للثقافة العربية فيه المظهر الأكبر ، والسبب فى ذلك أن الكتاب كتاب أدب وقد أسلفنا قبل أن أثر تلك الثقافات فى الأدب أقل منها فى العلوم ومع هذا فحظ الثقافات الأخرى فى هذا الكتاب غير قليل ، انظر إليه وهو يقارن بين آراء الأمم فى تعريف البلاغه فيقول « قيل للفارسى ما البلاغه ؟ قال معرفة الفصل والوصل ، وقيل لليونانى ما البلاغة ؟ قال تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومى (الرومانى) ما البلاغة ؟ قال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزاره يوم الاطالة ، وقيل للهندى ما البلاغة ؟ قال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصه وحسن الاشاره »[1] وينقل صحيفة عن الهنود فى البلاغة وشروطها[2] وينقل عن فتى النصارى الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يختار جاثليقا[3] وينقل أن كسرى أنوشروان قال لبزرجمهر أى الأشياء خير للمرء العيى ؟ قال عقل يعيش به ، قال فإن لم يكن له عقل قال فإخوان يسترون عليه ، قال فإن لم يكن له إخوان قال فمال يتحبب به الى الناس ، قال فإن لم يكن له مال ، قال فعى صامت قال فإن لم يكن له ذلك قال فموت مريح ![4] وينقل عن المسيح ابن مريم أنه سئل من نجالس ؟ قال من يزيد فى علمكم منطقه ، وتذكركم الله رؤيته ، ويرغبكم فى الآخرة عمله ، ويحكى أن المسيح مر بقوم يبكون فقال ما لهؤلاء يبكون ؟ قالوا يخافون ذنوبهم ، قال اتركوها يغفر لكم[5] ويحكى أسطورة الخطباء الذين تكلموا عند الاسكندر لما مات[6] ويقارن بين مقدرة العرب على الخطابة ومقدرة الفرس والروم . ويحكى أن للفرس كتاباً فى صناعة البلاغة وأن لليونان « منطقاً » يعرف به السقم من الصحة والخطأ من الصواب وأن للهنود كتباً فى الحكم والاسرار من قرأها عرف غور تلك

---

١ البيان والتبيين ١ ٧٥ ٢ ١ : ٧٩ ٣ ١ ٩٦
٤ ١ ١٥٨ ٥ ١ ٢٥١ ٦ ١ ٢٥٥

العقول وغرائب تلك الحكم[1] ويرى أن كلام الفرس يصدر عن فكرة وطول روية واجتهاد وخلوة ومشاورة ومعاونة ، وكلام العرب صادر عن بديهة وارتجال ، حتى كأنه إلهام[2] ويذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا وعادة الجاثليق في اتخاذه القناع والمطلة والعكاز والعصا[3] ويحكى مذهب التناسخ الذى أسلفنا قبل أنه للهند[4] وينقل في باب الزهد كلاماً طويلا لعيسى عليه السلام[5] ويحكى مواعظ لداود عليه السلام[6] ويحكى عن أردشير أنه قال « احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع »[7] الخ

هذا مثل من أمثلة المزج بين الثقافات ، فقد رأيت أنه عرض أدب العرب وأدب الفرس ، وحكم الهند ونصائح اليهودية والمسيحية هذا إلى أنه ينقل عن فرس تعربوا ويذكر حكمهم ، كسهل بن هارون وابن المقفع والأسوارى وهى ـ ولا شك ـ وليدة فرس وعرب ولكن بالمقارنة نرى ـ كما أشرنا ـ أن للأدب العربي في هذا الكتاب الحظ الأكبر والنصيب الأوفر ، لأنه موضوعه وهناك نواح أخرى لدراسة كتاب البيان والتبيين ، كبحث أى مثال احتذى في تأليفه ، والفكرة التي عرضت له في ترتيبه ، ومقدار الثقة به والاعتماد عليه وشيوخه الذين أخذ عنهم ومصادر الكتاب إلى غير ذلك ولكن موضع هذا كله البحث الأدبي

كتاب الحيوان — كذلك هو كتاب ألفه الجاحظ أخيراً بدليل ثبت كتبه التي عددها في صدره ، وإن كان ألفه قبل البيان والتبيين ، وقد ذكر في مواضع عدة من الكتاب أنه ألفه لبيان ما في الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة ، وهذه الناحية من النظر أبانها القرآن الكريم في غير موضع « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

[1] البيان والتبيين ٣ ٦ ، ٧ [2] ٣ ١٥ [3] ٣ ٥١
[4] ٣ ٥٩ [5] ٣ ٨١ و٩٢ و٩٩ [6] ٣ ٩
[7] ٣ ١١

الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » « وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » « إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » إلى أمثال ذلك ، وسميت سور من القرآن بأسماء بعض الحيوانات ، كسورة البقرة والأنعام والنحل والنمل والفيل ونسب الى الامام عليّ وصفه البديع للطاووس ودلالته على قدرة الله ، وإن كنا فى شك من صحة نسبتها اليه

واتجه المعتزلة فى العصر العباسى هذا الاتجاه ، وأجاد فيه قبل الجاحظ بشر بن المُعْتَمِر ، أحد زعماء المعتزلة ومما قال فى ذلك قصيدتان طويلتان تقع احداهما فى ستين بيتاً والأخرى فى سبعين ، وقد أوردهما الجاحظ فى كتابه الحيوان[1] وشرحهما شرحاً مطولا ، من احدى القصيدتين قوله

تَبَارَكَ اللهُ وَسُبْحَانَهُ ... مَنْ بِيَدَيْهِ النفعُ والضُّرُّ

مَنْ خَلْقُهُ فى رِزْقِهِ كُلُّهُمْ ... الذيخُ والتَّيْتَلُ والغُفْرُ[2]

وساكنُ الجوِّ إذا ما عَلَا ... فيه ومنْ مسكنُهُ القَفْرُ

والصَّدَعُ الأَعْصَمُ فى شَاهِقٍ ... وَجَأْبَةٌ مَسْكَنُهَا الوَعْرُ[3]

والحَيَّةُ الصَّمَّاءُ فى جُحْرِهَا ... والتُّتْفُلُ الرَّائِغُ والذَّرُّ[4]

وهِقْلَةٌ تَرْتَاعُ مِنْ ظِلِّهَا ... لها عِرَارٌ ولهـا زَمْرُ[5]

---

[1] الحيوان ٩٢ وما بعدها [2] الذيخ ذكر الضبع والتيتل شبيه الوعل والغفر ولد الأروية وهى الأنثى من الأوعال [3] الصدع الشاب من الأوعال ، والجأبة الأتان الغليظة [4] التتفل هو الثعلب [5] الهقل الفتى من النعام أو الظليم والهقلة الأنثى منهما

تلتَهِمُ المَرْوَ على شَهْوَةٍ وحَبُّ شيء عندَها الجَمْرُ [١]
وظبيةٌ تخْضِمُ في حَنظَلٍ وعقربٌ يُعجبُها التَّمرُ

والقصيدتان على هذا النمط يذكر خصائص الحيوان ، ويستخرج منه الحكمة ، يعجب من جرادة تخرق متن الصفا ، ومن خنفس تحيا بالروث ويقتلها الورد

وحكمةٌ يُبْصِرُها عاقلٌ ليْسَ لهُ منْ دُونِها سِتْرُ

ثم يعرج فى آخر القصيدة على مهاجمة خصومه من أباضية ورافضية وغيرهم ، ويعيبهم بأن لا تنجع الحكمة فيهم ، والقصيدة الأخرى رائية مكسورة على نمطها . وقد أخذ الجاحظ هاتين القصيدتين عن بشر بن المعتمر ، وقد عاصره زمناً ، ويظهر أنهما أوحتا اليه أن يؤلف كتاباً فى الحيوان من هذه الناحية . ولكن الجاحظ لا يصبر على موضوع واحد فاذا تكلم فى شيء خرج منه الى أشياء كما لا يصبر على الجد ، فسرعان ما يخرج منه الى الهزل . ولذلك صبغ الموضوع بصبغته الخاصة فاستطرد لا الى حد ، وأخرج الموضوع من عظة واعتبار الى معلومات واسعة فى الحيوان وغير الحيوان ، علمية أحياناً وأدبية أحياناً . وكان هزله فيه من أغرب الهزل ، فالموضوع جدّ كل الجد تخشع له النفس ويذعن له القلب ، وتثور له العاطفة الدينية كما تشعر اذا قرأت الآيات السابقة أو وصف الطاووس أو قصيدتى بشر ، ولكن هذا الجلال يضيع تماماً فى كتاب الحيوان . ويتلون بلون الجاحظ العجيب فيخرج شيئاً آخر غير العظة وغير العبرة ، فيه ألوان الحرباء وفيه روايات مختلفة ، مأساة ومهزلة ، وفيه الكلام على الخصيان بجانب فوائد الكتاب ، وفى الكلام على الخصيان معلومات قيمة نادرة ربما لا تعثر عليها فى كتاب آخر من الناحية التاريخية والاجتماعية وبجانبها لذع وإحماض وفكاهة ومجون مكشوف ، وكل هذا

---

١ المرو : حجارة بيض براقة تسكون فيها النار وتقدح منها

مزج مزجاً غريباً ، وهكذا شأنه فى كل موضوع .

وقد ذكر الجاحظ نفسه فى كتاب الحيوان طريقة تأليفه فى عدة مواضع فهو يقول « متى خرج (القارىء) من آى القرآن صار الى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هـذا الباب ولعله أن يكون أثقل ، والملال اليه أسرع حتى يفضى به الى مزج وفكاهة والى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفاً »[١] ويقول « انى أوشح هذا الكتاب بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ليخرج قارئه من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل فانى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها ، واذا كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خـيرا »[٢] ويأسف لسلوكه هذه السبيل ، ويعترف بعيبها ولكنه يقول إنه اضطر الى ذلك اضطراراً فيقول « وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة ، تصلح للمذاكرة وتبعث على النشاط . . . ولولا سوء ظنى بمن يظهر التماس العلم فى هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب فى هذا الدهر لما احتجت الى مداراتهم واستمالتهم ، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم — مع فوائد هذا الكتاب — الى هذه الرياضة الطويلة والى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذى أفيده إياهم أستفيده منهم ، وحتى كأن رغبتى فى صلاحهم رغبة من رغب فى دنياهم »[٣] ويعترف بأنه عانى فى هذه الطريقة أكثر مما يعانى لو كتب كتاباً فى موضوع واحد من غير استطراد « ولو كنت تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتب العرَض والجوهر والطَّفرة والتوليد والمداخلة والغرائز والنحاز لكان أسهل

---

١ الحيوان ١ : ٤٦   ٢ ٣ : ٢   ٣ ٥ : ٥١

وأقصر أياماً وأسرع فراغاً ،لأنى كنت لا أفرغ فيه إلى تلقط الأشعار وتتبع الأمثال واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية ،مع تفرق هذه الأمور فى الكتب وتباعد ما بين الأشكال ، فان وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام . . . فلا تنكر بعد أن صورت لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى ، ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه اذ كنت لم ألتمس به إلا افهامك مواقعَ الحجج لله وتصاريف تدبيره والذى أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته لما تعرضت لهذا المكروه »[1]

ومصادر الكتاب كثيرة فآى من القرآن أو التوراة أو الانجيل ، وحديث وخبر تلقَّاه من الرواة ، وشعر عربى كثير وأمثال مضروبة وكتب عديدة قرأها فى فنون شتى ، ومحادثة لمن يثق بهم من أطباء وتجار وذوى حرف ، وتجارب يجرّبها بنفسه فى الحيوان والنبات ، وسفر وسماع لمن قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى وسلك الوديان ، وهذا ـ من غير شك ـ يدل على سعة اطلاع قل أن يكون له نظير .

والحق أن عقله كان قوياً قلّ أن يقبل خرافة، بل هو يهزأ بمن يقبلها،ثم هو فى كثير من الأحيان يقف عن الاعتقاد حتى يجرّب ، ويشك ويدعو الى الشك حتى تثبت صحة النظرية ، ويستغرب القارىء من صحة منطقه وسبقه إلى نظرات فى منهج البحث لم تعرف إلا فى العصر الحديث ، كقوله « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها موضع اليقين ، والحالات الموجبة لها . وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه »[2] كما أنه سبق الى اتجاهات قيمة فيما يسمى الآن سيكولوجية الحيوان ، فهو يراقب نداء الديك بالليل ويبحث : هل اذا كان فى قرية وحده يصيح أولا ؟ ليعلم هل تصيح الديكة

---

١ الحيوان ٤ : ٦٩ ٢ ٦ : ١٠

بالتجاوب أو بطبعها ، ويراقب الدجاج هل تكثر أفراخها إذا كثر عديدها أو تقل ؟ ويلاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ووجوه تنبهه والفروق الدقيقة بين أصنافها إلى كثير من أمثال ذلك .

وبعـــد ، فمظهر امتزاج الثقافات المختلفة فى الحيوان أبين منها فى البيان والتبيين ، وذلك يرجع الى موضوعه والى مسلكه فى تأليفه ، والى علاقاته المتشعبة بأولى العلم والصناعات والطبقات من كل نوع .

من أهم العناصر التى اعتمد عليها فى كتابه هذا كتب أرسطو ، وقد عُرف عن أرسطو أنه ألف فى موضوعات عديدة فى حياة الحيوان ، وكان مشغوفا بهذا العلم ودراسته ، حتى أحصى المتأخرون ما كان يعرفه أرسطو من أنواع الحيوان ، فوجدوه نحواً من خمسمائة نوع . ومع أنه لم يرتبها الترتيب العصرى فقد كان له فضل السبق فى وضع هذا العلم الذى لم يكن مؤسساً من قبله . وقد وصلت هذه الكتب الى العرب ، ونقلت الى العربية فيما نقل ، فيقول ابن النديم « إن كتاب الحيوان لأرسطو تسع عشرة مقالة نقله ابن البطريق . . . ولنيقولاوس اختصار لهذا الكتاب . . . وقد ابتدأ أبو على بن زرعة بنقله الى العربى وتصحيحه »[١] .

ولكن يظهر أن العرب فى هذا الكتاب ـ كما هو الشأن فى غيره ـ لم يميزوا بدقة بين ما هو لأرسطو حقاً وما ليس له ـ على كل حال وقع الكتاب فى يد الجاحظ وقرأه، وكان مصدراً كبيراً من مصادره. واذا نقل منه فكثيراً ما يسمى أرسطو « صاحب المنطق » وقد يصرح باسمه ، وقد نقل عنه فى هذا الكتاب عشرات المرات ـ وكان موقف الجاحظ تجاه أرسطو موقفاً بديعاً ، فلم يُصَب أمامه بشلل الفكر كما أصيب فى أكثر الأحيان ابن سينا وغيره من فلاسفة الشرق والغرب ، وانما وضعه فى المخبر يمتحنه ويجربه ، فقد نقل عن أرسطو أن

---

١ فهرست ابن النديم ٢٥١ .

إناث العصافير أطول أعماراً وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة [١]. وانتقده بأنه لم يأت بدليل على ذلك ، وكيف يستطيع أن يأتي بدليل جازم والعصافير قد تكون في المزارع ، والميازب مملوءة بها وببيضها وفراخها ، والناس القريبون منها لم يروا عصفوراً قط ميتاً،ولو قال أرسطو وأمثاله بذلك على جهة التقريب والظن لم يلمهم أحد من العلماء « والأمور المقرّبة غير الأمور الموجبة ، فينبغي أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب ، وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل»[٢] ويقول « وقال صاحب المنطق ويكون بالبلده التي تسمى باليونانية «طبقون» حيـة صغيرة شديدة اللدغ إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ـ قال الجاحظ ـ ولم أفهم هذا ولم كان ذلك ؟ » [٣].

وأحياناً يقارن بين قول أرسطو في الموضوع وما ورد فيـه من شعر جاهلي أو اسلامي ، ويفاضل بينهما ويحكم عقله وتارة ينصر أرسطو وتارة ينصر العرب.وتارة يكذبهما معاً ، فيقول : زعم صاحب المنطق أن قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت له فمن أي جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال فأما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فانها تتعشى بفم وتتغذى بفم ، وأما العض فانها تعض برأسيها معاً ـ فاذا به أكذب البرية ! » [٤] ومثل ذلك في الكتاب كثير ، فهو يعرض لما عرف عن اليونان وما ورد في الموضوع من شعر العرب وقصصهم وأساطيرهم ، وما عرف عن الأمم الأخرى ، ويمزج كل ذلك مزجاً تاماً ، ويعرضه بأسلوبه الجذاب ومبالغته المألوفة .

ولا يظنن ظان أن الكتاب ـ وقد سمي الحيوان ـ قد اقتصر على الكلام في الحيوان بل لا نبعد اذا نحن قلنا أن ما فيه عن الحيوان أقل مما فيه عن غيره . فقد

---

١ ٥ : ٦٧ ٢ ٥ : ٧١ ٣ ٤ : ٧٦ ٤ ٤ : ٥٢

استغرق الجزء الأول والثانى من الكتاب الكلام فى الكلب والديك والمفاضلة بينهما ، واحتجاج صاحب الكلب للكلب والديك للديك ، ويستوفى كل ما قيل فى ذلك من آية أو حديث أو شعر أو قول لصاحب المنطق أو قصة أو أسطورة ، كاتخاذ الجن الكلاب مأوى لها والكلب ، واعتقاد العرب أن دم الأشراف يشفى منه الخ ، ولكنه فى كل ذلك يخرج عن الكلب والديك الى موضوعات لا تخطر على البال ، فتراه فى أثناء ذلك يتكلم فى الامامة والشيعة والشعر وأثره فى القبيلة يرفعها ويضعها ، الخ .

اتصل الجاحظ باليونان من كتبهم ومن طريق المتكلمين ، فعرف أرسطو كما بينا ونقل عن أقليمون صاحب الفراسة فى الكلام فى الحمام [١] ونقل عن جالينوس فيما يصلح له لحم الضب [٢] وفى معارف البهائم والطير [٣] ويذكر أن كتب المنطق وكتب اقليدس لا يفهمها العربى البليغ [٤] ويظهر أن ثقافته اليونانية اتسعت بمجالسته لكثير من المثقفين بها ، فقد كان يتحدث الى سلمويه وابن ماسويه [٥] والى حنين بن اسحاق [٦] والى شمعون الطبيب [٧] واتصل بالفرس وعرف الكثير عنهم ، فينقل عن ابن المقفع ويتكلم فى أساطيرهم ويعقد كلاماً طويلا يذكر فيه نيرانهم ، ويحكى عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعاداتهم ، ويحكى عن اليهود والنصارى ، ويذكر شبها أثارها بعضهم حول آيات من القرآن الكريم مثل آيات الشهب ويرد عليهم .

وعلى الجملة فكتاب الحيوان معرض لكل الثقافات ، عربية ويونانية وفارسية وهندية ، ومعرض للثقافات الدينية من مانوية وزردشتية ودهرية ويهودية ونصرانية واسلام ، ولو ذكرنا ما قاله فى كل ثقافة ورددناه الى أصله لا ستغرق منا كتاباً كاملا ، فلنكتف بهذا القدر للدلالة على ما نقول . ونختم

---

١ ٣ : ٨٣ و ٨٧   ٢ ٦ : ١٧   ٣ ٧ : ١٠   ٤ ١ : ٤٥

٥ ١ : ١١٧   ٦ ٥ : ١٠٨   ٧ ٣ : ٢

قولنا بالشروط التى يشترطها الجاحظ لمن يكون له الرياسة فى العلم ، وقد حققها هو فى نفسه ، فقد رأى أن العالم من يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من كلام الفلسفة ، والمصيب هو الذى يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال [1]

٭٭٭

وبجانب الجاحظ عالمان آخران يمثلان معه كل معارف العصر ، كما يمثلون أنواعاً مختلفة الطعوم والألوان من الامتزاجات بين الثقافات . أحدهما ابن قتيبة الدينورى ، والآخر أبو حنيفة الدينورى

ابن قتيبة وأما ابن قتيبة فهو أبو محمد عبد الله بن مسلم ، أصله فارسى من مرو ، وتربى فى بغداد وتولى القضاء بدينور فنسب إليها ، ثم كان معلماً ببغداد وعاش من سنة ٢١٣ الى سنة ٢٧٦ ﻫ فهو قد عاصر الجاحظ جزءاً طويلا من عمره ، وكان يكرهه كما يدل على ذلك نقده للجاحظ الذى أورده فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » فقد اتهمه بأنه يذكر حجج النصارى على المسلمين بأقوى مما يذكر الرد عليهم ، وبأن كتبه مليئة بالمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ ، وأنه يستهزئ بالحديث كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الاسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ! وأنه كذاب يضع الحديث وينصر الباطل [2] والظاهر أن سبب النزاع اختلاف الطبيعتين واختلاف المذهبين ، فالجاحظ مزاح خفيف الروح مهذار واسع العقل متصرف ، وابن قتيبة جد فاض عليه وقار القضاء ، يمزح أحياناً ولكن ليس له خفة روح الجاحظ ، ثم الجاحظ معتزلى من المتكلمين وابن قتيبة من أهل السنة — كما يحكى ابن نفسه — والنزاع بين الطائفتين شديد طويل وشخصية الجاحظ فى كتبه

---

(١) ٢ : ٤٨ (٢) ص ٧٢

أقوى ، فهو لا يخرج ما علم إلا مهضوما ، قدأسبغ عليه من نفسه ومن لسانه.
وابن قتيبة واسع الاطلاع فى غير شخصية قوية ـ كما يظهر لى ـ يعرف كثيراً ويجمع كثيراً ويؤلف كثيراً ، وقد يكون فى ذلك قريباً من الجاحظ، وكل ما وصلنا من تأليفه يدلنا على أنه عالم أديب ، اتصل بنواح كثيرة من العلم من لغة ونحو وأدب وشعر وحديث وفقـــه وتاريخ ومذاهب دينية ، ولكنه يفهم من التأليف أنه يجمع ، ويجمع عن سعة اطلاع ، ويختـار ما يجمع ، من غير أن يظهر نفسه فيما يجمع . فاذا حاول أن يبدى شخصيته اضطرب كالذى كان فى كلامه فى الشعوبية ، ينقض فى موضع ما أبرمه فى آخر ، كما لاحظ ذلك صاحب العقد الفريد ، وميزة أخرى يمتاز بها الجاحظ ، وهى أنه فى جميع ما يكتب يمس الحياة الاجتماعية فى عصره ويتغلغل فى ثناياها ، ولا يستحى أن يضرب مثلا ما عبداً فما فوقه ، يحدث عن النجار والحوّاء وراعى الغنم ، ويستخرج منهم علماً أو تجربة ويحكيها ويعلق عليها ، أما ابن قتيبة فليس له شيء من هذه الناحية ، لأن هذا الباب لا ينجح إلا فى يد قوية كيد الجاحظ ولو تعرض لها ابن قتيبة لفشل .

على كل حال علم ابن قتيبة كثير وتآليفه غزيرة ومتعددة النواحى[١] ولكن ما يهمنا هنا هو مظهر الثقافات المختلفة فى كتبه . ولعل أدلها على ذلك كتاب عيون الأخبار .

عيون الأخبار : — كتاب فى المختار من الأدب ، قسمه الى عشرة كتب كل كتاب كِتَاب : كتاب السلطان ، والحرب والسؤدد والطبائع ، والأخلاق المذمومة ، والعـــلم والبيان والزهد ، والاخوان ، والحوائج ، والطعام والنساء .

وقد تبع الجاحظ فى الاتيان بما يضحك خوف الملل ، فقال « ولم أخله

١ أنظر ترجمته وكتبه فى مقدمة كتاب الميسر والقداح ومقدمة الجزء الرابع من عيون الأخبار

مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة وأخرى مضحكة ... لأروّح بذلك عن القارىء من كد الجد واتعاب الحق ، فان الأذن مجاجة وللنفس حمضة »[1] ولكنه يحس أنه سينتقد على ذلك من وسطه المتزمت فيعتذر بأنه مما يترخص فيه . كذلك يعتذر عن أن الكتاب لم يكن فى القرآن ولا فى السنة ولا شرائع الدين وعلم الحلال والحرام ، بأنه دال على معالى الأمور ومرشد لكريم الأخلاق ، زاجر عن الدناءة ناه عن القبيح » فالشعور الدينى والخلقى متملك له مسير له فى تأليفه ، فهو ان تكلم فى الدنيا وشئونها فقد أودع فيه طرفاً من محاسن كلام الزهاد فى الدنيا ، وذكر فجائعها وزوالها وانتقالها حتى يستوجب بذلك الأجر ، بل رضى من الغنيمة بالسلامة ، وسأل أن الله يمحو بعض بعضاً ، ويغفر بخير شراً ، وبجد هزلا .

والحق أنه نقل التأليف فى الأدب نقلة جديدة من حيث الترتيب وقلة الاستطراد وتعمد ذلك فى كتابه وفخر به فقال : « وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها »[2] ويذكر أنه وضع كتاب الطبائع والأخلاق بعـــد كتاب السؤدد لأنه مقارب له ، وقد التزم ذلك فقل أن يخرج عن موضوعه فى غير مشاكلة وتقارب ، فهو بذلك — من حيث منهج التأليف — أرقى من البيان والتبيين والكامل

وقد تعرض فى أول الكتاب لمصادره فقال : انه تلقط ما فيه عمن فوقه فى السن والمعرفة ، وعن جلسائه واخوانه . ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتّاب فى فصول من كتبهم ، ولم يستنكف أن يأخذ عن الحديث سناً لحداثته ، ولا عن الصغير قدراً لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلا عن غيرها ، ولم يتحرج أن يأخذ العلم عن غير مسلم ، فان يزرى بالحق أن تسمعه من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين .

---

١ عيون ١ : ل   ٢ ١ : ى

واذ كان الكتاب أكثر ترتيباً كان مزج الثقافات فيه اكثر وضوحا فكما كان يضم الشيء الى مثله كان يضم ثقافة أمة فى شيء خاص الى ثقافه الأمة الأخرى فيه . فهو إذا ذكر السؤدد عن العرب ذكر السؤدد عن العجم ، فهو يذكر السؤدد فى نظر الأحنف بن قيس وغيره من سادات العرب، وينقل عن كتاب للهند فى السؤدد . ويذكر رأى بعض العرب فى أسباب السرور فيقول : قال قتيبة بن مسلم لحصين بن المنذر ما السرور ؟ قال امرأة حسناء، ودار قوراء، وفرس مرتبط بالفناء .

وقيل لعبد الملك بن الأهتم ما السرور ؟ فقال رفع الأولياء، وحط الأعداء، وطول البقاء مع القدرة والنماء . ثم ينقل رأى الفضل بن سهل الفارسى فى السرور اذ يقول : توقيع جائز، وأمر نافذ . ورأى أبى نواس - نصف الفارسى - إذ يقول : إنَّمَا الْعَيْشُ سَمَاع ومُـدَامٌ ونِدَام

فاذا فاتَكَ هـذَا فَعَلى العَيْشِ السَّلامُ

وينقل عن المسيح عليه السلام قوله لأصحابه « اذ اتخذكم الناس رؤوساً فكونوا أذناباً » ثم ينقل عن كتب العجم علامة الأحرار أن يُلْقَوا بما يُحِبُّون ويحرموا ، أحب اليهم أن يُلْـقَوا بما يكرهون ويُعْطَوْا » ثم ينقل عن أردشير وعن ابن المقفع فى كليلة ودمنة، وعن أنوشروان وعن استشهاد جعفر البرمكى بفعل أبرويز ويقول «أعلمت أن ناووس أبرويز أمْدَحُ لأبرويز من شعر زهير لآل سنان ؟ »[1] وهكذا فهو يتعرض للعرب والعجم والهند ويعرض آراءهم وأقوالهم بانظم مما يفعل الجاحظ .

كذلك يمثل كتابه ما ذهبنا اليه قبل «من مناطق النفوذ » فنحن اذا استعرضنا - فى عيون الأخبار - كتاب السلطان وسيرته والمشاورة رأيناه يكثر النقل عن

---

[1] قال ذلك لما رأى الأصمعى يعطى الكثير ويعيش عيش سوء

الفرس والهند، مما يدل على أن الأدب العربى فى هذا الباب أكثر تأثره بهاتين الأمتين. ونراه فى باب القضاء والأحكام والشهادات والظلم قلّ أن ينقل عنهما، إنما ينقل عن العرب وأحكام الاسلام، وإذا تكلم فى الزهد فيكاد يكون الفصل الأول كله نقلا عن اليهودية والنصرانية، وفى باب الطعام عقد فصلا للمياه والأشربة نقل فيه عن الأطباء وعن « الفلاحة النّبطية » وعن ابن ماسويه، وعقد فصلا للبِّطِّيخ وما شاكلها ومضار الأطعمة ومنافعها والنباتات وخصائصها وسائر الجاحظ وكتب فصولا عن الحيوان ونقل عن أرسطو وغيره. والثقافة اليونانية فى كل هذه الفصول غالبة شائعة

ثم هو رجل دينى من رؤساء أهل السنة، وكان لذلك مثقفاً ثقافة دينية واسعة ولم تقتصر ثقافته على الاسلام، بل قرأ التوراة والانجيل وأكثر النقل منهما، فهو ينقل كثيراً عن وهب بن منبه وعن التوراة والانجيل، ويقول قرأت فى التوراة وقرأت فى الانجيل، وينقل دعاء للمسيح ودعاء لداود ودعاء ليوسف عليهم السلام، وينقل أخباراً عن الرهبان كما ينقل أحاديث عن رسول الله وعن الصحابة والتابعين والزاهدين من المسلمين

وعلى الجملة فثقافة ابن قتيبة واسعة كل السعة، ومظهر امتزاج الثقافات فيه ـ مدنية كانت أو دينية ـ مظهر جلى واضح

أبو حنيفة الدينورى : — ثالث ثلاثة ثقفوا ثقافة علمية وأدبية واسعة ولبس بأقلهم وإن كان حظه من الشهرة فى عصورنا الأخيرة دونهم، هو أحمد بن داود بن وند، ولد بدينور، ولم يعلم تاريخ ولادته وإن كان يرجح أنها فى العشرين الأولى من القرن الثالث الهجرى [١] وأخذ النحو عن ابن السكيت وأبيه فى الكوفة، وفى سنة ٢٣٥ ﻫ كان فى أصفهان يرصد الكواكب ويضع نتائج رصده، ومات على الراجح نحو سنة ٢٨٢ ﻫ كانت معارفه واسعة

---

١ انظر ترجمته فى دائرة المعارف الاسلامية ومعجم الأدباء وبغية الوعاة وخزانة الأدب

فى نواح مختلفة ، فى التاريخ — وقد وصل الينا منه كتاب « الأخبار الطوال » وفيه معلومات عن علاقة العرب بالفرس قد لا تجدها فى غيره وكان — كما يقول ياقوت — نحوياً ، لغوياً ، مهندساً ، منجماً ، حاسباً ، راوية ، ثقة فيما يرويه ويحكيه

كان يقرن بالجاحظ فى بلاغته ، ويختلف الناس أيهما أبلغ ، وينتحاكمون الى أبى سعيد السيرافى فيقول « أبو حنيفة أكثر نداره وأبو عثمان (الجاحظ) أكثر حلاوه ومعانى أبى عثمان لائطة بالنفس ، سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفه أعذب وأعرب وأدخل فى أساليب العرب »[1] ويعده أبو حيان التوحيدى أحد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم — فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم — ما بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم الجاحظ وأبو حنيفة ، وأبو زيد البلخى ، ويصفه بأنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفه وبيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم

ويظهر أن ثقافته اليونانية والهندية كانت أوسع منها فى صاحبيه الجاحظ وابن قتيبة ، وعلمه الرياضى يكمل نقصهما يدل على ذلك تأليفه فى الفلك والحساب والجبر والمقابلة ونوادر الجبر والقبلة والزوال والكسوف والبحث فى حساب الهند

اشتهر بالكتابة فى النبات ، وربما كان كتابه فيه أظهر شىء فى المرح . ومع الأسف لم يصلنا كتابه هذا ولكن نقل منه الكثير فى المخصّص لابن سيده ، وفى مفردات ابن البيطار ، ولم يقتصر فيه على نباتات العرب بل ذكر نباتات تنبت فى الأقطار الأخرى ، وجمع بين ما روى لغويو العرب فى النبات وما كتب عنه فى الأمم الأخرى واستعان ببلاغته على حسن وصفه فهو يقول — مثلا — الخُزَامَى عُشْبة طويلة العيدان، صغيرة الورق ، حمراء الزهره

---

[1] معجم الأدباء ١ ١٢٤

طيبة الريح لها نَوْر كنور البَنَفْسَج »وهو كما ترى وصف دقيق ويقول «ويقال للموضع الذى يجعل فيه الزرع إذا حصد الأندر والبيدر والمرْبَد والجَوْخان والمِسْطَح وهو سوادى عُرِّب والجَرِينُ وجمعه الجُرُن والأجْرِنة »

فتراه يدخل كلمات عربت ويقول : «واذا تناوب أهل الجوخان ، فاجتمعوا مرة عند هذا ومرة عند هذا وتعاونوا على الدِّياس فان أهل اليمن يسمُّون ذلك القَاه ، ونوبة كل واحد قاهَهُ ، وذلك كالطاعة له عليهم ، لأنه تناوبٌ قد ألزموه أنفسهم ، فهو واجب لبعضهم على بعض» فتراه يعرف العادات المختلفة فى البقاع ويصف الشعير فى أماكنه المختلفة ، فالشعير العربى والشعير العراقى والشعير الحبشى . ويصف نباتات لها أسماء غير عربية كالكُسْبُرة والكَراوْيا ويقول الكَمُّون ليس من نبات بلاد العرب ، وهكذا كان ذا نظر واسع وخبرة دقيقة فى النباتات عربية وغير عربية ، وكان أساساً من أسس اللغة أمدها فى النبات وما اليه بألفاظ جديدة ، وحدد ألفاظها القديمة .

كذلك له كتاب فى الأنواء إلا أنه قصَرَه على ما كان للعرب من العلم بها كما يدل على ذلك الجزء الذى نقله عنه ابن سيدة فى المخصص [١]

ولعلك ترى معى بعد أن هذا العصر كان بوتقة صهرت فيها عناصر الثقافات المختلفة . أو مصباً لجداول متعددة المجرى مختلفة المنابع ، وأن العلماء كانوا مظاهر تختلف باختلاف مصادرها «فما أشبه حجل الجبال بألوان صخورها ، وعلى أعراقها تجرى الجياد» وأنهم كلهم كانوا يجرون فى عنان [٢] فأورثونا ثروة علمية وأدبية متعددة النواحى ، نصفها فى الباب التالى إن شاء الله

---

١ جزء ٩ ص ١٠ وما بعدها ٢ العنان : الشوط

...

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى من ضحى الاسلام

وفيه بابان باب فى وصف الحركة العلمية وآخر فى المذاهب الدينية

اهم الاحداث فى ذلك العصر

أهم الاحـــداث	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى	بدء السنة الهجرية
قيام الدولة العباسية وخلافة السفاح	١٣٢	٧٤٩	٢٠ أغسطس
خلافة أبى جعفر المنصور	١٣٦	٧٥٣	٧ يولية
قتل ابن المقفع	١٤٥؟	٧٦٢	١ ابريل
موت عمرو بن عبيد المعتزلى	١٤٤؟	٧٦١	١١ أبريل
تأسيس بغداد	١٤٥	٧٦٢	١ ابريل
موت جعفر الصادق	١٤٨	٧٦٥	٢٧ فبراير
موت ابى حنيفة	١٥٠	٧٧٣	٦ فبراير
موت الأوزاعى	١٥٧	٧٦٧	٢١ نوفمبر
خلافة المهدى	١٥٨	٧٧٤	١١ نوفمبر
موت سفيان الثورى وابراهيم بن ادهم	١٦١	٧٧٧	٩ اكتوبر
موت داود الظاهرى	١٦٥	٧٨١	٢٦ اغسطس
قتل بشار بن برد على الزندقة	١٦٧	٦٨٣	٥ اغسطس
خلافة الهادى	١٦٩	٧٨٥	١٤ يولية
خلافة هرونٌ الرشيد	١٧٠	٧٨٦	٣ يولية
تأسيس الدولة الادريسية فى مراكش	١٧٢	٧٨٨	١١ يونية
موت مالك بن أنس	١٧٩	٧٩٥	٢٧ مارس
موت أبى يوسف القاضى	١٨٢	٧٩٨	٢٢ فبراير
نكبة البرامكة	١٨٧	٨٠٢	٣٠ ديسمبر
موت محمد بن الحسن	١٨٩	٨٠٤	٨ ديسمبر
خلافة الأمين	١٩٣	٨٠٨	٢٥ اكتوبر
خلافة المأمون	١٩٨	٨١٣	١ سبتمبر

أهم الاحـــداث	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى	بدء السنة الهجرية
موت معروف الكرخى	٢٠٠	٨١٥	١١ اغسطس
موت الشافعى	٢٠٤	٨١٩	٢٨ يونية
موت أبى عبيدة	٢٠٨	٨٢٣	١٦ مايو
قول المأمون بخلق القرآن	٢١٢	٨٢٧	٢ ابريل
خلافة المعتصم	٢١٨	٨٣٣	٢٧ يناير
انتقال عاصمة الخلافة من بغداد الى سامرا	٢١٩	٨٣٤	١٦ يناير
موت أبى الهذيل العلاف المعتزلى	٢٢٦	٨٤٠	٣١ اكتوبر
استمرار محنة خلق القرآن	٢١٨-٢٣٤	٨٣٣-٨٤٨	
خلافة الواثق	٢٢٧	٨٤١	٢١ اكتو
موت بشر الحافى الصوفى	»	»	»
موت النظام المعتزلى	٢٣١	٨٤٥	٧ سبتمبر
خلافة المتوكل	٣٣٢	٨٤٦	٢٨ اغسطس
الأمر بعدم القول بخلق القرآن	٢٣٤	٨٤٨	٥ اغسطس
موت احمد بن ابى دواد	٢٤٠	٨٥٤	٢ يونية
موت احمد بن حنبل	٢٤١	٨٥٥	٢٢ مايو
موت الحارث المحاسبى	٢٤٣	٨٥٧	٣٠ ابريل
موت ذى النون المصرى	٢٤٥	٨٥٩	٨ ابريل
خلافة المنتصر	٢٤٧	٨٦١	١٧ مارس
خلافة المستعين	٢٤٨	٨٦٢	٧ مارس
خلافة المعتز	٢٥٢	٨٦٦	٢٢ يناير
خلافة المهتدى	٢٥٥	٨٦٨	١ يناير
موت الجاحظ	»	»	»